أزاهيرُ الرِّيَاض

في مناقب قطب الزمان، وشمس العرفان، وتاج العارفين
وعمدة المقربين الأستاذ الشيخ أحمد الطيب بن البشير

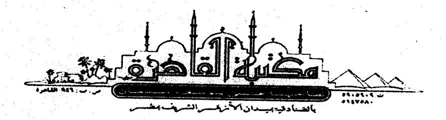


الطبعة الرابعة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

تأليف
خاتمة المحققين، وخلاصة العارفين، وعمدة المقربين
الأستاذ الشيخ عبد المحمود ابن الشيخ نور الدائم
الطيبى السمانى
نفعنا الله به

الناشـــــــر





رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٩٧/١٠٥٩٣
الترقيم الدولى I.S.B.N
٩٧٧-٥٤٣٧-٣٤-٢

لصاحبها: على يوسف سليمان وأولاده
١٢ ش الصنادقية ميدان الأزهر ت: ٥٩٠٥٩٠٩
١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٥٨٠
ص . ب ٩٤٦ العتبة - الأزهر - القاهرة
جمهورية مصر العربية

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد قطب العوالم وإنسان عينها، وأساس الكائنات ومنبع سرها، من منه انشقت أسرار العارفين، ومن بركته إنغلقت أنوار الواصلين، صلاة وسلامًا نستمد بها من بحره الفياض، ونستوجب بهما رضًا لا يعقبه بفضل الله إعراض، وعلى آله المقتبسين من مشكاة أنواره، وصحابته المغترفين من بحور علومه وأسراره.

وبعـــد:

فلطالما تشوق الباحثون وأبناء الطريق إلى صدور طبعة جديدة تيسر لهم الإطلاع على هذا السفر النفيس والذي نفد منذ فترة وخلت أيديهم منه أمدًا طويلاً- حتى أصبح العثور على نسخة منه كالمستحيل أو كاد.

والآن وقد يسر الله له الظهور مرة أخرى، نجد أنه من المناسب أن نلمح ألماحة يسيرة إلى من كان له عظيم الفضل في ظهور هذا الكتاب وغيره من تراث السمانية الغزير. إلا وهو الكامل الأجل الواصل، المربى بالحال والمقال، سيد المحققين ورافع لواء الموصلين سيدى الشيخ محمد الفاتح. فقد كان ﷺ لا يدخر جهدًا في بعث ونشر هذا التراث. فكل ما بأيدينا اليوم من مطبوعات السمانية- على كثرتها- كان وراءها سيدى الشيخ بجهده ودعمه المادى والعلمى. ولكنه كان يؤثر عدم الإشارة إليه في أي شأن يقوم به، لا يبتغى في ذلك إلا وجه الله تعالى. وهو دأبه وديدنه كأسلافه العظام ﷺ.

كما نشير بكل تقدير إلى الدور الذي قام به سيدى الوالد الشيخ أحمد البدوى ﷺ وما كان يتكبده من جهد ومشقة في سبيل ذلك. أجزل الله لهما المثوبة وجزاهم عنا خير الجزاء.

والآن تجئ هذه الطبعة وهى الطبعة الأولى بعد وفاتهما ﷺ، فجزا الله الأستاذ محمد على يوسف على ما بذله من جهد في سبيل إخراجها في هذه الصورة، وأعانه على ما يقوم به من عمل جليل أنه أكرم مسئول.

الفقير إليه تعالى
عبد المحمود الشيخ محمد الفاتح
الدراسات العليا- بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة [1]

الحمد لله العليم الحكيم، خَصَّ أصفياءه بالعلم النافع؛ وجعلهم مشارق أنواره، وميازيب رحمته، وأبواب الدخول إلى سرادقات عزه المنيعة، وحضرات أنسه الرفيعة؛ أوصل إليهم من أراد أن يوصله إليه، وجمع عليهم من شاء أن يجمعه عليه؛ لم تخل الأرض من قائم منهم له بحجة، أما ظاهرًا مشهورًا، وأما باطنًا مغمورًا، والصلاة والسلام على كنز الأسرار اللدنية، ومطلع الأنوار الرحمانية، وبحر المعارف الربانية؛ المجلْى الاتم الأكبر الذي انعكستْ من مرءاةِ ذاته جميع الكمالات، فلا كمال إلا عنه صادر؛ والروض الأشم الأزهر الذي عبقتْ من غطيراتُ نسيماته سائر النفحات، فلا رَوْحَ إلا من نفحها عاطر، والبحر الخضم الأزخر الذي تفجرت من رحيق فيوضاتها ينابيع المحاسن، فلا حُسنَ إلا من سُحبها ماطر؛ سيدنا محمد الذي (شيَّد أركانِ الشريعة للعالمين، وأوضح أفعال الطريقة للسائرين، ورمز في علوم الحقيقة للعارفين) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، سفن النجاة ونجوم الأهتداء، رهبان الليل وفرسان النهار، ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ والتابعين وتابع التابعين ممن «أقاموا الجدار» وورثوا كنز الأسرار، وحملوا مشعل النور الإلهى، واضطلعوا بالأمانة، وجاهدوا في الله حق جهاده، قاموا فقالوا ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤-١٥]، ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

أولئـــك آبـــائى فجئنـــى بمثلـــهم إذا جمعتنـــا في الزمـــان المجـــامع

أولئك أسيادي!

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

---

[1]- كان المفروض أن تتضمن هذه المقدمة تصحيحا لخطأ وقع فيه السيد كامل الأحمدي ضمن تعليقاته على مناقب سيدى السيد أحمد بن ادريس ﷺ، إذ ذكر فيها أن المدعو أحمد الطيب السنارى الوارد ذكره في المناقب بصفحة(٤٩) هو سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير ﷺ، ولأهمية هذه المسألة والحاجة إلى توضيحها توضيحا وافيا أفرادناها في مبحث آخر الكتاب تحت عنوان ((تذييل)) فأرجع إليه.

مَـنْ لـي نهـم وبـأن أكُـون جليـسهم ... وبـــأن بُـــدَارَ عَلَـــيَّ مِـــنْهُمْ رَاحُ

وَالَهْــفَ نفــسى والقواطــع جمــة ... أأُبَـــاحُ لـــثْم نعـــالهم وأُتَـــاحُ

وبعد، فما أعجب أمر هذه الأسرة المباركة الطيِّبة الطيبيِّة، وماَ أطول باعها في العلم– النافع– وما أرسخ قدمها في الطريق إلى الله ﷻ، وما أعظم ما أختُصتْ به من المزايا والميزات؛– أفترَعَ عميدُها الغوث الأشهر، والشيخ الأكبر، والروض الأزهر، والبدر الأنور سيدى الشيخ أحمد الطيب أدام الله النفع به، افترع قطوف المعارف، فأخرج كتابه الفريد (شرح الحكم) الذي اختصر فيه معالم الطريق إلى الله ﷻ، حتى أصبح بمثابة «الشيخ» لمن لا شيخ له، حتى يدله الله على شيخ في زمن احتجب فيه عرائس الحضرات الإلهين، وأوَوْا إلى اسمه تعالى الباطن، وآثروا البطون على الظهور، إلا لأهل العناية والاختصاص والتقريب؛ ثم جاء سيدى درة الكنز، وواسطة العقد، الشيخ قريب الله ﷺ ونفعنا به، فجمّع في ديوانه الفذ «رشفات المدام» كل ما تفرق في الأسفار من ضروب الإرشاد، وكل ما وقر في صدور المقربين والأبرار، من ألوان المعارف والإمداد، وبين هذين السِّفْرين الجليلين جاء «أزاهير الرياض» الذي أتشرف الآن بتقديمه. ثم جاء ريحانة المقربين، وخلاصة أهل التمكين، وإمام الأئمة والعاملينْ، سيدى وشيخى وذخرى الشيخ محمد الفاتح، أدام الله رضوانه الأتم الأعظم عليه، فكان الرَّجْعَ العُلوىَّ المبارك لهذه الكتب الثلاثة، والترجمة الحسية المجسّمه المقدسة لكل ما تضمنته هذه الكتب الثلاثة من أسرار، وما جمعته من معارف، وما اشتملت عليه من درر وكنوز؛ كما كان ﷺ النسخة «الإنسانية» الفريدة للقرآن الكريم، حتى كان خلقه ﷺ القرآن، كما قالت بذلك سيدتنا عائشة أم المؤمنين.

وتقديم (أزاهير الرياض)، أو التعريف بمؤلفه العظيم، ﷺ وعنا به، أمران لا يعدوان أن يكونا من تحصيل الحاصل؛ وتعريف المعروف. فهذا السِّفر الجليل ينم عن كل ما يريد أن يعرفه القارئ عن سيادة مؤلفه رضوان الله عليه، وهو أزاهير الرياض بحق وحقيق، وهو اسم على مسمى كما يقولون. جمعَ أزاهير المعارف الإلهية من سائر رياضها؛ ولمَّ اشتات قطوف بواكير الثمار العلوية من جميع حياضها؛ فلم يدع شاردة ولا واردة، مما يحتاج إليه المريد في سيره إلى الله ﷻ، إلا وأقام وأصولها، وأظهر فروعها، وفصّل مجملها، وأوضح غامضها؛ فهو وإن كان في الأصل في مناقب جد المؤلف رضى الله عنهما، إلا أنه– في نفس الوقت– خلاصة ما يحتاج إليه المريد، سالكًا ما سلك من الطرق المختلفة الموصلة إلى الله ﷻ، فضلا عما احتوى من تاريخ يشحذُ همة القارئ، ويُعطر روح السامع، ويفك الأغلال عن قدم السائر المريد.

ورغم أن الكتاب أُلفَ في زمن غلب فيه السجع، وطغت ألوان المحسِّنات، فإن أسلوب هذا الكتاب– كأسلوب مؤلفه في سائر ما كتب– أسلوب «عصرى حديث» إذا أردنا أن نعبر عنه بمصطلح اليوم، فضلا عن سلاسة عباراته، وجزالة كلماته، ويُسر تناول مقاصده على بعدها، وسهولة تفهمّ مراميه على عظيم عمقها وسعتها؛ وليس هذا الكتاب على رفعة قدره إلا واحدًا من مؤلفات الأستاذ ودُرره، وغرة من عيون تصانيفه وغرره، فلقد ألف– رضوان الله عليه– ما نَيّفَ على الثمانين من الأسفار؛ شرَّقَ ﷺ فيها وغرَّب، وأتهم وأنجد، فمن شرح لمختصر خليل في الفقه، إلى شرح لحِكَمَ جده الأكبر في التصوف، إلى آيات من عيون الشعر في أدب الطريق، إلى مدائح نبوية شريفة، إلى مختلف التراجم، إلى... إلى... إلى...

فقد كان ﷺ آية عصره، ويتيمة دهره، ونسيج وحده؛ فلم يُعرف في زمانه من هو أوسع منه علمًا، أو أرفع منه قدرًا، أو أمضى منه ذكرًا، أو أطول منه قيامًا، أو أكثر منه صيامًا، أو أتم منه خشية، أو أحكم منه ورعًا، أو أطهر منه نفسًا، أو أكمل منه منهجًا، أو أسمى منه مشهدًا، أو أصفى منه موردًا، أو أفضل منه تجردًا، أو أعلى منه هامة، أو أسخى منه بطن راح... كيف لا وهو سلالة الصفوة من المقربين، ونسل سراة السَّراة من أهل التمكين، الذين ورثوا المجد الأكمل الأتم كابرًا عن كابر، والحسب الأرفع الأشمّ ولدًا عن والد، وتناوبوا مشعل النور والهدى والإرشاد واحدًا بعد واحد.

أولئك أشياخى!

أولئك أسيادى!

أولئـــك آبــــائى فجئنـــــى بمثلــــهم	إذا جمعتنــــا في الزمــــان المجـــامع

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

يأيهـــا الجاهـــل الـــشانى مـــراتبهم	متـــى تـــساوى لـــديك الـــدر والـــبرَدُ
عـــالج عيونـــك كـــى تحظـــى بـــرؤيتهم	لـــيئن تبـــصرهم عـــين بهـــا رمـــد
ونـــق قلبـــك مـــن داءٍ أضـــرَّ بـــه	فلـــيس يـــدركهم قلـــب بـــه حـــسد
لـــو ذقـــت طعـــم شـــراب في كئوســـهمو	أو شمـــت برقًـــا علـــى ســـاحاتهم يقـــد
لا خـــير في أي قلـــب لا يهـــيم بهـــم	ولا حـــشًا ينثنـــى عـــنهم ولا يجـــد

ذُمّ المنـــازل إلاّ حيثمـــا نزلـــوا وحـــاذر العـــيش إلا حيثمـــا وُجـــدوا
فكـــل بـــرق بـــدا مـــن غيرهـــم خـــدع وكـــل مـــاء همـــا مـــن دونهـــم زبـــد[1]

هذا ولقد كفاني مئونة الاسترسال في التعريف بالمؤلف ﷺ، بجله وخليفته، ووارث مقامه، طيب الذكر المرحوم الأستاذ الأديب الأريب، والألمعي اللبيب، العارف بالله تعالى سيدى الشيخ الجيلى أنزل الله على جدثه الطاهر شآبيب الرحمة والرضوان، فله كتيب صغير الحجم، عظيم الفائدة، في بعض أخبار والده المؤلف ﷺ، أملاه في أخريات أيامه.

ومهما يكن من أمر، فيكفى المؤلف شرفًا أن يكون شيخًا لخلاصة أهل العرفان والإيقان، ونادرة العصر والأوان، ابن عمه العظيم، سيدي الشيخ قريب الله، الذي أحيا ما اندرس من الطريق، وَجدّد ما بلى من معالم أهل التحقيق، وأعاد سيرة جده الأمجد، في نجله المفرد سيدي الشيخ محمد الفاتح ﷺ، وعنّا بهم أجمعين.

والله المسئول أن ينظمنا في سلكهم، ويمدنا بمددهم، ويحشرنا في زمرتهم، ويجعلنا ممن أحبهم لله، وأحبوه، وآثرهم على غيرهم وآثروه، وصلى الله على سيدنا محمد، الحجاب الأعظم الذي لا وصول إلا به، ولا دخول إلا منه، ولا نجاة إلا بإتباعه، وعلى آله وصحبه أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المتطفل على موائد الكرام
خويدم أعتاب السادة السمانية
محمد على يوسف

١- هذه الأبيات من قصيدة طويلة قيلت في مدح سيدي الشيخ محمد الفاتح ﷺ. وعنا به آمين. وقد اقتبسنا هذه الأبيات لمناسبتها للمقام.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة الطبعــة الأولى

بقلم فصيلة الأستاذ الجليل الشيخ مجذوب جلال الدين
المدرس بمعهد أم درمان العلمى

سبحانك اللهم وبحمدك، جعلت قلوب العارفين مشكاة لأنوارك، ومستودعا لعلومك وأسرارك، وفجرّت ينابع الحكمة من أفئدتهم فجرت على ألسنتهم، فكانوا خلفاء عنك؛ في دلالة عبيدك إلى توحيدك؛ وخرقت لهم العادات، وأيدتهم بالكرامات كما أيدت أنبياءك بالمعجزات، فظهر للناس صدقهم، ووجب عليهم حقهم. والصلاة والسلام على الواسطة العظمى، الذي هو من كل مخلوق أعظم وأسمى، سرّك الذي شققت منه الأسرار، ونورك الذي فلقت منه الأنوار، سيدنا ومولانا محمد المجتنبى المختار، وعلى آله وصحبه الأخيار؛ ووارثيه الهداة الأبرار.

وبعد، فأقول وأنا العبد الفقير إلى مولاه المعين، محمد المجذوب بن جلال الدين، قد كان مما منَّ الله به عليَّ أن هيأ لى أسباب قراءة كتاب «الأزاهير المختلفة الألوان» في مناقب شمس العرفان، القطب الغوث الشهير، والسند السيّد الكبير، سيدي الشيخ أحمد الطيب بن البشير، لمؤلفه وارث القطب وحفيده الجامع لأشتات العلوم؛ والمبرز في المنطوق والمفهوم، الولي المكاشف، المطع الناثر، الشاعر، المبدع، سيدي الأستاذ الشيخ عبد المحمود نور الدائم، سقى الله ضريحه صوب الغمائم، من الرضوان والرحمات العمائم.

أقول إني قرأت ذلك الكتاب من الأول إلى الآخر؛ فوجدته كالبحر الزاخر، فغضت في معانيه، وظفرت ببعض لآلية، وإنه لجدير أن يقال فيه:

كتــاب كأزهــار الريــاض تفتّقــت	كمائمــه عــن سـيرة الطيّـبِ النـشْر
هـو القطـب مـن قـد طَيّـب الله ذكـره	وسـارت بـه الركبـان في الـبر والبحـر
مُمـــد جميـــع العـــارفين بوقتـــه	ومر شدهم بالشرع في طرق السير ووافق
لـه الخلـق الأرْضَـي الـذي فـاق غـيره	أخــــلاق الــــنبي بــــلا نكـــر
فياطيبــا قــد حــاز مجــدًا وسـؤدَدًا	ومعرفــة بالواحــد الــصمد البَــرِّ

وحكما وتصريفا وسرًا مطهرًا — وعلما بأسماء مصونا عن الغير
ظهرت بسودان وقد كنت آية — كما شهد الأقطاب فضلك في مصر
تلاميذك الغرُّ الميامين كلهم — فحول كأبناء غدوا حلية العصر
بنيت لهم حصنا منيعا فحافظوا — عليه وصدوا عنه عادية الدهر
ومنهم إمام الوقت وارث علمكم — فذاعابد المحمود ذو الجدّ في السير
فيا عابد المحمود ياسر جده — وقافيه في الأحوال في السر والجهر
جمعت كتابا فيه علم وحكمة — وإيضاح سير العارفين أولى السر
بنثر وشعر دونه الدرُّ قيمة — ويعشقه من لا يميل إلى الشعر
وعشّقتنا في جدك العارف الذي — أضاء الدنا من نوره طلعةُ البدر
عليك رضاء الله ثم رضاؤه — على جدك الراضي عن الله ذي الأمر
وأسأله سبحانه أن يعيذني — بجاهكم من شر نفسي ومن غيري

قصيدة الأستاذ الشاعر

الشيخ محمد سعيد العباسى

مقرظًا لمناقب القطب الأستاذ الشيخ أحمد الطيب

حادى العيس يا سمير البيد — يا أنيس السارين وقتَ الْهُجُودِ
جُدْ بألحانِكَ الْعِذابِ وَحِيِّهمْ — بشجيٍّ الترسيل والتَّمْدِيدِ
مِثْلَ مَا جِئْتَ بالهُدَى وَكِتابٍ — جَاءَ يَقفُو آيَ الكتابِ المجيدِ
وَهْوَ سِفْرٌ حَوَى مناقبَ شيخ الـ — ـعَصْرِ غيثِ الجادى غِياثِ الطَّرِيدِ
آيةُ اللهِ احْمَدُ الطيبُ القطـ — ـبُ الذي فاضَ سرُّه في الوُجودِ
فقل الفصل سيدى ثم لا — تحفل بلوم من ناقد أو حسود

أنــا مــن قبلــها مناقــبُ كــبرَى   جَمَعَــتْ كــلُّ مَطْلَــبٍ مَنــشُودِ

رضــيَ الله عَــن مــساعيك يــا مَحْــ   ــمودُ فابــشرْ بــسعيكِ المَحْمــودِ

وسـقى الغيـثُ تربـةً أنبتـت مِنـ   ـك فريـدًا أَنْعِـمْ بـه مـن فريـدِ

نــاثرٌ قــد أعــادَ للنــاسِ منــهُ   عهـدَ عبـدِ الحميـدِ وابـنِ العَمِيـدِ

وقَرَأْنَــا أَشْــعَارَهُ فأَرَتْنَــا   صــورةً مــن مهلْهَــلاتِ الوَلِيــدِ

فَهِــيَ في نــسجهَا البــديع بُــرُودٌ   أحكَمــوا وشْــبَهَا بــأَرْضِ تَزِيــدِ

وَاعتَرَانَــا مــن شــعره في شــرابِ الــ   ــكاسِ سُكْرٌ يُنْسِي ابْنَـةَ العُنْقُـودِ

ولــه في علــم الــسلوك عبــارا   تٌ وَلَفْــظٌ كــاللُّؤْلُؤِ المنــضُودِ

فتربْــى منهــا رجــالٌ بــآدا   بِ حِــسَانِ التوجيــه والتجْويــدِ

وَاسْــتنارتْ بــهِ الطريقــةُ حتــى   لَتَبَــدَّتْ تمــيسُ مَــيْسَ الخَــرُودِ

فهــو للطــالبينَ كنــزُ العَطايــا   وَهــو للــسالكين عــذْبُ الــوُرُودِ

وإذا مــا يَمَّمْتــهُ تجــدِ النــا   سَ وُفــودًا تجــئُ إِثْــرَ وُفُــودِ

باشْــتياقِ ولوعــةٍ كالْعِــ   ـطاشِ الهـيمِ للـهَاطِلاَتِ ذاتِ الرُّعُـودِ

قرعــوا بابَــه فكــم مــن مفِيــدٍ   جــاء يبغــى الكمــالَ أو مــستَفيدِ

راقبــوا الله مُخْبِــتِينَ وجَــدُّوا   في ركــوعٍ جَــوْفَ الــدُّجَا وسُــجُودِ

لــوْ تــرَاهُم وقــد أَمَــضَّهُم الجــو   عُ اختيــارًا لقُلْــتَ أنــضاءُ بيــدِ

صَاح كـم في الطريـقِ مـن عقبـاتٍ   قَطْعُهَــا بــالتَّرْبيضِ وَالتَّجْرِيــدِ

فــإذا مــا ســلكتَهُ فلْــيكن زا   دُكَ في الــسَّيْرِ كِلْمَــةَ التَّوْحِيــدِ

لَــسْتُ أَنْــسَى لــهُ الفِعَــالَ حَمِيــدًا   وَفِعَــالاً لِلــدَّهْرِ غَيْــرَ حَمِيــدِ

حــينَ عــمَّ الــسودانَ شــرٌّ فعــانَى   حُكْــمَ وَالٍ مــن الطُّغَــاةِ عَنِيــدِ

وَرِجَــالٍ مِــن رهطــهِ قــد تــردَّوْا   جِلْــدَةَ الْحُــرِّ في خِــصَالِ العَبِيــدِ

ماسمعْنا بمثلِهم منذُ كُنَّا ... غيْرَ عَادَ الأولى وغيرَ ثمودِ

قال قاضيهُمُ اضربوا الشيخَ أُلفًا ... ضربَ ذِى قوةٍ وبأسٍ شَدِيدِ

لا بحَكم منِ الكتاب ولكن ... كانَ رَأْيًا وَكانَ غيرَ سَدِيدِ

فجثَا ثم قالَ يا قومُ زِيدُوا ... فوقَ هذا ويا شدائدُ زِيدِى

إِنَّ ربى هو اللطيف تَعَالَوْا ... فاشهَدُوا لُطْفه العزيزِ الْحميدِ

ضَرَبوه فقامَ يرسُفُ الُمصْـ ... ـعَبِ ذِى الرَّوْقِ في ثَقِيلِ الْقُيُودِ

لمْ يبن من سياطهم وَهْىَ أَلْفُ ... يا خلِيلىٌّ غيرُ سَوْطٍ وَحِيدِ

يَا لهَا من كَرامةٍ لِوَلىٍّ ... لمْ تَفُتْهُ كَرَامَةُ الصِّنْدِيدِ

ورَعِى اللهُ ليلةً هي عِندى ... ليلةُ القَدْرِ أو لَيَالِي الْعِيدِ

غَمرتَنى منك البِشَارَةُ بالفتـ ... ـحِ وَنُورِ الْعِرْفَانِ وَالتَّأْييدِ

كُنتُ واسْمِي السعيد لفظًا فلمَّا ... قَرَّبُونى أصْبَحْتُ جِدَّ سَعِيدِ

أَلْبَسُونى مِ الْعَطْفِ تاجًا لفَوْدَىَّ ... أُبَاهى بهِ وطوقًا لجِيدى

إنَّ لى ذمةً وَوَعدًا وقد جئـ ... ـتُكَ يا خيرَ منجِزٍ لِلْوُعُودِ

أَنَا مَنْ قد علمتَ وُدًّا وَقُرْبى ... لا أُنَادِيكَ مِنْ مَكانٍ بَعيدِ

فاسْقِنِى مِنْ صافى دِنَانِكَ كأسًا ... هِي كاسُ الحياةِ كاسُ الْخُلُودِ

مِنْ شَرَابٍ مَنْ لم يصب منه حظًا ... كَيفَ يُدْعى بِسَالِكٍ أو مُرِيدِ

فمَتى ينجلى نُؤَادِى الْمُعنَّى[1] ... وَيَطِيبُ الْجَنى[1] وَيُورِقُ عُودِى

وأرَى سالكًا طريقةَ قَوْمى ... من كرام الآباء كِرَامِ الْجُدُودِ

مَنْهَجَ ابنِ البشيرِ والعارفِ السـ ... ـمانِ ذى القبضِ والإمامِ الجنيدِ

وهُمُ المصطفُونَ للآيَةِ الْكُبـ ... ـرَى بتِلْكَ الزُّلْفَى[1] وَذَاكَ الْمَزِيدِ

سَادَةٌ عَبَّدُوا الطريقَ فسارَ النـ ... ـاسُ فيه سير المَهَارِى الْقُودِ

وإذا ما صفَا لهم قلبُ صَبٍّ ... فَاصْطَفَوْهُ نَادَوْهُ فِيمَنْ نُودِى

وَتَرَقَّى حَتَّى إلى حضرة الاطْـ ... ـلاقِ ذاتِ الأسرارِ والتمجيد

فتجلّى لَهُ الإلهُ فأَخْفَى ... كل شيءٍ جَمَالُ ذاكَ الشُّهُودِ

فهم ربّ نَجِّنِى مثل ما نجيـ ... ـتَ نُوحًا وَفُلْكَهُ بِالْجُودِى

وَأَذِقْنِى بَرْدَ الرّضا فَذُنُوبى ... عَظُمَتْ عن حصْرٍ وعن تحديدِ

وَأُتَتْنِى الأحداثُ من كلِّ فجٍ ... مُسرعات بكل نوع جديدِ

ولقد زادَ في سرور الأعادى ... أن نآى نَاصرى وقلَّ عَدِيدى

وَهِمُوا أن في يدى ولسانى ... طِبّ دَاءَىْ سخَائمِ وَحُدُودِ

وتناسَوْا جَهْلا يدَ اللهِ عندى ... وَجَمِيلا من الكرام الصيدِ

وَمَكانى ما بينَ عَيْنَيْهِمَا التَّضْـ ... ـاحَتَيْنِ الشريفِ والمحمودِ

فهُمَا في الحياةِ حَسْبِى وَذُخْرِى ... وَرَفِيقَاىَ عند هَوْلِ الوَعيدِ

سَيِّدِى يَا بْنَ سَيِّدِى يا حفيد الْـ ... ـقطْبِ قُم فاستَمع من ابن الحفيدِ

عبقوىَّ الطِّرَازِ ما ملتُ فيه ... للقديم البالى ولا للجديدِ

فإذا ما رضيتموهُ رفعتمْ ... سَيِّدِى مِنْ فَدْرِى ومن مَجْهُودِى

وَدَرارِى الْخَفيفِ دُونَ دَرَارِى ... بَحْرِكَ الْوَافِرِ الطَّوِيلِ المَدِيدِ

والذي لم يَجِدْ طَهوراً من المـ ... ـاءِ يُصَلِّى تَيَمُّمًا بالصَّعِيدِ

انتهت هذه القصيدة العصماء، ذات المعانى الزاهية السمحاء، لأمير الشعراء ونادرة الأذكياء، الأستاذ الشيخ محمد سعيد العباسى مقرظًا لمناقب سيدى القطب الجامع الأستاذ أحمد الطيب، لجامعها أبى المفاخر، ووارث السادة الأكابر، سيدى الأستاذ الشيخ عبد المحمود وذلك في ٩ من ذو الحجة من سنة ١٣٧٢هـ.

«أزاهير الرياض»

في مناقب شمس العرفان، وقطب الزمان، وارث القدم المحمدى،
والسرّ الأحمـــدى، تاج العـــارفين، وعمدة المقـــربين،
شيخ الطريقة والحقيقة، سيدى الشيخ أحمد الطيب
بن البشير، أمدّنا الله بوابل فيضه الغزير.

تأليــف

وارثه وحفيده، خاتمة المحققين، وخلاصة الأكابر العارفين، الجامع بين الشريعة والحقيقة، المجدّد لآثار الطريقة، سيدي الأستاذ عبد المحمود ابن الأستاذ نور الدائم، الطيبى السمانى، نفعنا به وبعلومه آمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شرح صدور السعداء لسماع مناقب أوليائه أولى العرفان، ورزقهم من محبته ما أوجب لهم الفوز وكامل الرضوان. أحمده تعالى حمدًا نرقى به على شوامخ المعالى في كل آن، وُتزف به علينا عرائس العلم اللْدنى من جانب الغيب المصان، وأشكره شكرًا نفنى بأسرار موارده عن الأكوان، وترعى به أرواحنا أزاهير رياض الملكوت في جميع الأزمان. وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة نشهد بها في كل شيء شهادة وَحْدة سارية في كثرة عين الإيقان، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله خير من خطر به الفكر من العالم وأثنى عليه اللسان، ﷺ صلاة تليق بما له من عظيم المكانة ورفيع الشان، وعلى آله واسطة عقد رؤساء الدين وعظماء الأعيان، وأصحابه المستصحبين للنظر في مرآة حسنه السارى سره في الأرواح والأبدان، وسلم تسليما تسلم به البصيرة من ظلمات الطبع والرّان. والهمة عن الانحطاط من الترقى إلى أوج القرب والإمتنان.

أما بعـد:

فيقول ذو الفكر الفاتر، والباع القاصر، الفقير إلى مولاه العلى القادر، عبد المحمود ابن المرحوم الشيخ نور الدائم، أدام الله عليه رضاه في هذه الدنيا وفى اليوم الآخر: هذا كتاب سميته (بأزاهير الرياض) المختلفة الألوان، في مناقب شمس العرفان، وقطب الزمان، وارث القدم المحمدى، والسرّ الأحمدى، الغوث الشهير، تاج العارفين، وعمدة المقربين، كعبة الأفضال، وبحر العوارف والنوال، مطلع شموس الأنوار، ومالك أزمة المفاخر والأسرار، الفرد الجامع، ونور الحقيقة المحمدية الساطع، من تجلّت به عرائس العلوم، وافتخرت به طريقة القوم، واحد الأيام، ومسك الختام الذي توجهت إليه الآمال، وتصرفت قطبانيته في العالم من دون وعال، فلله دره من كامل ابتهج به العصر أحسن ابتهاج، ونارَ به سراج الطريقة في كل أرض وفجاج، رَوْح نفسى وحياتها، وإنسان عينى وثباتها، أستاذ الأساتذة الشهير، وجهبذ الجهابذة النحرير، وقطب الأتطاب الكبير، وسلطان الصفوة الولى الأكسير، ولىّ نعمتى، وفارج كربى وغمت، سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير رضى الله تعالى عنه وأرضاه، وأمدّنا بمدده ومن صحبنا في الله، والتابعين له في البلاد، ومن تشوّق إلى امداداته بحسن الاعتقاد، راجيًا بالتأليف المذكور، والكتاب المزبور، سقيًا منه بأكواب همته ونظراته الحسان، وريّاً من قرقف كأس تحقيقه الساطع اللمعان، وهو الجدير بتعجيل آمالى، ونشلنى

من أوحالي، فلم تُنسني صروف الليالي أنس عهده، ولم يجذب قلبي مَغناطيس همة من بعده، كيف لا وهو الذي ألبسني خلع المهابة، وأذاقني في جانه شرابه.

فوّحقــه لم أنســه هــذي الــدّنا   كــلا، ولا يــوم النفــوس تقــوم
الطيــب القطــب الــذي لــولاه مــا   دارت علــى أهــل الهوى خرطــوم
فــرد تفــرّد بالإغاثــة وانجلــت   كــرَب بــه بــين الــورى وهمــوم

فشوقي إليه شوق البلبل إلى الورد، وامرىء القيس إلى الأبلق الفرد، ومدحي له لا ينقطع إلى أن تنقطع المدائح، وأثنيتي عليه لا تمل ولو ملت التغريد الحمائم الصوادح، كيف لا وإلى مثله يتقرّب بإخلاص الوداد، وإلى سوحه تتسارع همم الوراد:

أهــيم بــه حتــى ولــو أن عــامرًا   رآنــي لــشام الــنقص في هَيمانــه
وأوصــي الــذي بعــدي يهــيم بحبّــه   إذا رام كاسًــا قــد أديــرت بحانــه
فهــذا- وحــق المــصطفى وضــيائه-   لوَارثــــهُ في وقتــــه وأوانــــه
عجبــت لمــن في النــاس لاذ بغــيره   ليلقــى رشــادًا نافعًــا في زمانــه
فمــا مــن ولّي قــط في الأرض ســيّد   أزال لــه الله الغــشا عــن جنانــه
وحــاز العــلا إلا ويــشهد أنــه المــ   ــدير لكــل القــوم كــأس دنانــه
وسـلطانهم نحــو الــذي قبلــه مــضوا   كجيْلــيّهم سمــانهم قطــب آنــه

* * *

وقد رتبتُ هذا الكتاب على ثمانية أبواب، كل باب مشتمل على فصول، مستعينا بالله تعالى في بيان ذلك، وعليه التكلان وبلوغ المأمول.

الباب الأول

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

(فيما وقع من أخبار بعض العارفين به كشفاً قبل بروزه في عالم الدنيا)

حدثنى الفاضل الحاج العباس بن الفقيه أحمد ولد القاضى نصير السرورابى رحمه الله تعالى- وكان ممن أدرك أهل الفضل والصلاح- قال:

حدثنى من أثق به من الفضلاء، قال: سئل الولى الكامل الشيخ حمد بن محمد الشهير بالمكاشفى البَتلاّبى الجموعى؛ تلميذ سيدى الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الله الطريفى دفين الكدنفيرة بقرب بندر المسلمية، عمن ورث سرّ ولاية الولى الكامل المشهور سيدى الشيخ محمد ولد سرور، من هو من أولاده؟

فأجاب بأن سرّ ولاية المذكور وأمانته غير موروث لأحد من أولاده، ولكن ينشأ من أولادها ولد مبارك صالح كامل، فيذهب إلى الحج وزيارة النبي ﷺ، ويجتمع هنَاك بمن عنده سرّ جده سيدى الشيخ محمد ولد سرور وأمانته، فيأخذها منه ويعود إلى وطنه، فيشرق بطلعته الوجود، ويكون آية من آيات الله تعالى التي تسير إلى بركاتها وخيراتها الوفود. فمازال الناس ينتظرون وقوع كلامه هذا، إلى أن انصدع فجره المبين، بظهور قطب الواصلين، وواسطة عقد الكاملين، الأستاذ الشهير الشيخ أحمد الطيب بن البشير ﷺ، فذهب سنة ١١٧٣هـ إلى الحج وزيارة النبي ﷺ، في الثامن عشر من عمره، مصحبًا له صاحب السر الفخيم، والقدر العظيم، منشأ هذه الأمانة النورية السرّية، والفائدة العظيمه اللّدنية، والولى الكامل، والعارف الواصل، سيدى الشيخ حسن ولد حسونة بن موسى الأندلسى ﷺ، فما زال معه إلى أن أوصله إلى القطب الجامع، إمام وقته بلا منازع، سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، ﷺ وعنا به في كل آن، فأخذ عليه الطريق، وأدى إليه تلك الأمانة السرية، الجامعة للمراتب العلية، والكمالات القدسية، كما ستقف عليه في غير ما موضع من هذه المناقب اهـ

حدثنى أيضًا الحاج العباس المذكور- وكان له القرابة والاتصال مع أولاد الشيخ حمد ابن محمد المكاشفى- قال:

كان سيدنا البشير بن مالك رحمه الله تعالى، كثيرًا ما يسافر إلى مدينة سنار، لشئون تتعلق به وبملكها من جهة؛ وكان فاضلا كريمًا، مبجّلا عنده، حتى وأنه قد أهدى إليه كثيرًا من أطيان الجزائر البحرية، وقد شاهدنا ختمه وأختام وزرائه على الوثيقة المتضمنة للأطيان الموهوبة منه لسيدى البشير رحمه الله تعالى، وكان في أسفاره ينزل عند ابن عمه الشيخ حمد المذكور، فرآى سيدى البشير في بعض سنى أسفاره ونزوله عند المذكور، أنه خرج منه منيّ كثير حتى سال على وجه الأرض، وأن جميع أهل الجهات يهرعون إليه، وفي يد كل واحد منهم مِرْود، وهو يضعه في ذلك المنيّ ويكحل به عينيه، فأصبح متعجبًا من تلك الرؤيا، ثم قصها على ابن عمه الشيخ حمد المكاشفى المذكور؛ وكان بالكشف الذي لا يخطئ، لأنه من الكاملين الواصلين، فقال له: سيخرج منك ولد تكتحل به بصائر أهل جميع الجهات، فلما عاد إلى وطنه وُلد له ولده مالك فظن أن تعبير الرؤيا يكون فيه، فذهب إلى سنار لشئون تخصه، فاجتمع بالشيخ حمد المكاشفى ثانيًا فأخبره بذلك، وفقال له ليس هذا المبّشر به في التعبير، ثم عاد إلى وطنه فوُلد له ولده الماحى، فاجتمع بالشيخ حمد المكاشفى ثالثًا وأخبره، فقال له مثل ما قاله في الأول. ثم عاد إلى بلاده فولد له القطب الجليل، والإمام المحقق النبيل، الذي تقص عن وصفه العبارة، وتحدو بذكره السّيارة، الحبر التحرير، سيدى الشيخ أحمد الطيب نفعنا الله به وأمدّنا بفيضه الغزير.

ثم بعد أن اكتحل والده بطلعته السعيدة ومحاسنه الحميدة، سافر إلى سنار كعادته من قبل، فتلقاه الشيخ حمد المكاشفى على أميال كثيرة، وعانقه وهنأه ببزوغ الشمس المنيرة، والطلعة الباهرة الخطيرة، وقال له: هذا هو القطب المشار إليه، والفرد الجامع الذي تجتمع الخلائق عليه، فحمد الله والده عند ذلك حمدا كثيرًا، وشكره شكرًا كبيرًا، على أن جعله الله مظهرًا لهذا القطب العظيم، والغوث الفخيم. وأولاد سيدى البشير الثلاثة المذكورون أشقاء، والدتهم ابنة عمه الصالحة، الفاضلة الراجحة، زوجته رقية بنت رحمه بن الشيخ محمد ولد سرور، رحمهما الله تعالى. وسيأتى الكلام على ما لها من الفضل في هذه المناقب. وإنها لجديرة بقول القائل:

حَصان رَزان ما تُزنُّ بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

ويحكى أن سيدى الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ، حكى لجده الشيخ محمد ولد سرور فيه بشائر عظيمة عميمة، وأخبارًا حميدة فخيمة.

الفصل الثاني

(في بيان مولده ونسبه الشريف. واتصاله بالسيد العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، ونبذة في فضائل العباس ﷺ. وكذلك اتصال نسبه من جهة الجدات والأمهات، بالسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. حسيما سمع منه ﷺ)

إعلم أمدنا الله وإياك بمدده، وسقانا من كؤوس معارفه ورشده، أن مولد الأستاذ المترجم، والكنز المطلسم، والبحر المطمطم، والقطب الأعظم، رضى الله تعالى عنه وأرضاه، وسقانا شربة من كأس حمياه، كان بشاطئ بحر النيل من الجانب الغربى «بأم مرح» عام خمس وخمسين من بعد المائة والألف، من هجرة من خلقة الله على أكمل وصف. والحق تعالى متجل في ذلاك العام باسمه قادر، هكذا رأيته بخطة الشريف ﷺ. قلت: وفي ذلك إشارة لا يطّلع عليها إلا الأكابر من أهل الكشف. وقد ظهر عند ولادته ما دلّ على ولايته من الروائح العطرية، والانشراحات الصدرية، وقد ألهم والده أن يسمى هذا المولود، المبارك المحمود (أحمد الطيب). وتربى في حجر المجد ونشا، وارتشف من كأس حلاوته حتى أنتشا، وقد حمى الله ذاته الشريفة من الأخلاق الذميمة، وصفّاه بنظره عليه صفاء الدرة اليتيمة، وقد حلا في كل العيون، فنظرته كأنه الدر المكنون، والجوهر المصون. وكان ﷺ محبوبا في صغره كما في كبره، وكان البعض من الناس يمدحونه بالأشعار، ويذكرونه بالفضل بين الأخيار، لما يرون عليه من سواطع الأنوار ومحاسن الآثار.

من كان مبدؤه جميلاً كيف لا	**لجمال ذاته تشخص الأبصار**
ويصير في الأحشاء باق وده	**ولمدحه تتسابق الأخيار**

فما من يوم يزداد فيه عمره، إلا وينمو خيره ويعظم قدره، مع رقة تستجلب الخواطر، وتروّح القلوب بنفخاتها العواطر.

باهت محاسنه شمس الضحى وبها	**قد صار مفرد قدر في الدُّنا وبها**
أنىّ يحاول مدحا فيه مادحه	**وهل تمس يدٌ في الدهر هام سُها**

لوم تزل تنمو كمالاته إلى أن دخل المكتب- كما سيأتي الكلام على ذلك في الفصل الذي يلى هذا إن شاء الله تعالى.

وأما نسبه الشريف: فهو القطب الفرد الجامع، ونور الحقيقة المحمدية للساطع، من له في المعالى أرومة، وفي مغارس الفضل جرثومة، روض المعارف الزاهر، وجوهر أسرار البحار الزواخر، الإمام المقتدى بأقواله وأفعاله، والهمام المرتجى لصروف الدهر وأوجاله، مظهر الاسم الظاهر والباطن، المتصل بأشرف الأوائل والأواخر، ولى نعمتنا وأستاذنا، منبع المكارم، وتاج الأكارم، طراز حلة العرفان، أبو نور الدائم القطب، سيدى الشيخ أحمد الطيب بدأ وختما، ذاتًا ووصفا واسما، حسبًا ونسبًا، خلقا وأدبًا، وصلاً ومشربًا، ابن مولانا البشير، وكان من الأولياء الصديقين، وهو ابن مالك وكان من عباد الله الصالحين، وهو ابن الولى المشهور العارف بالله تعالى سيدى الشيخ محمد، وكان ﷺ من خواص العارف بالله تعالى سيدى الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ وممن ورث خاله، وهو صاحب الجامع الباقى إلى يومنا هذا (بأم مرح)، وهو ابن سرور، وكان من تلامذة سيدى الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ أيضًا، وهو ابن الحاج غناوه فابنت سرور بن حمد ابن إدريس بن رباط بن ضياب بن منصور بن جموع بن غانم بن حميدان بن صبح بن مسمار بن سرار بن كروم بن أبى الديس بن قضاعة بن حرقان- واسمه عبد الله بن مسروق- ابن أحمد اليمانى بن إبراهيم الجعلى، ابن إدريس بن قيس بن يمن الخزرجى- نسبة إلى أمة من الخزرج ابن عدنان بن قصاص بن كرب بن هاطل بن ياطل ابن ذى الكلاع الحميرىّ، نسبة إلى أمة من حمير ابن سعد الأنصارى بن الفضل بن عبد الله بن العباس عم سيدى الناس محمد ﷺ.

وأما ما سمع من الجد ﷺ من نسبته إلى رسول الله ﷺ، فإنه بلغنا عن الثقات أنه كثيرًا ما كان يقول: أنا ابن رسول الله ﷺ، وقد اختلف الناس في فهم معنى كلامه هذا، فمنهم من قال: إن له جدات وأمهات يتصل نسبهن برسول الله ﷺ، ومنهم من قال: يشير بهذا إلى ماروى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول له: (أنت وإبراهيم ابنى كهاتين- مشيرًا بالسبابة والوسطى من أصابع يده اليمنى).

وكقوله ﷺ: كان رسول الله ﷺ لاينادينى بين الأولياء إلا بالطيب ابنى، ونحن لعدم وقوفنا على الحقيقة لم نرجح أحد القولين على الآخر، وغاية ما ينتهى إليه نظرنا تفويض علم ذلك إلى الله تعالى، وعلى أي حال فنسبته إلى رسول الله ﷺ صادقة، إمّا من طريق البُنُوّة الحسية أو المعنوية، وكفاه شرفًا نسبته إلى عم رسول الله ﷺ، وقد قلت ناظمًا لهذا النسب المذكور:

مــن سُـنّة المختــار تعلـم النــسب   لا ســيما لمــن لــه أضــحى حــسب

فهـــاك نظمًـــا حاليًـــا في الـــنفس في نـــسب القطـــب الهمـــام الأنفـــس
شـــيخ الطريـــق الطيـــب الفيـــاض مـــولى المعـــانى نـــسمة الريـــاض
وهـــو ابـــن مولانـــا البـــشير المرتجـــى وهـــو ابـــن مالـــك مكمـــل الحجـــا
وهـــو ابـــن ذى الولايـــة الـــشهيرة محمـــد المبـــارك الـــسريرة
وهـــو بـــلا مَـــين ولا امـــتراء يعـــزى إلى ســـرور المعطـــاء
وهـــو ابـــن مـــن يدعونـــه غنـــاوة رب التقـــى والمجـــد والـــسخاوة
وهـــو إلى ســـرورهم وهـــذا لحمـــد يعـــزى فقـــل يـــا حبـــذا
وهـــو ابـــن إدريـــس وهـــذا نجـــل ربـــاط مـــن بـــه الفخـــار يجلـــو
وهـــو ابـــن ذى الملـــك ضـــياب العلـــمْ وهـــو ابـــن منـــصور المطـــاع المحـــترم
وهـــو ابـــن جمـــوع الـــذي قـــد جمعـــا فخـــر الألَى وعـــن حمـــاه منعـــا
وهـــو ابـــن غـــانم الـــذي قـــد غنمـــا للـــشرف الأعلـــى الـــذي بـــه سمـــا
وهـــو ابـــن مـــن يـــدعى حميـــدان الـــذي قـــد كـــان في النفـــوس كالمـــسك الـــشذى
وهـــو ابـــن صـــبح مـــن بـــدا كالـــصبح بـــين الـــورى بكـــل وصـــف مـــصلح
وهـــو ابـــن ســـمار هـــو ابـــن الفاضـــل ســـرور ذى الكـــف النـــدى البـــاذل
وهـــو ابـــن كـــروم مـــن اســـم حـــسن ســـلطان قومـــه وعـــامر الـــوطن
وهـــو ابـــن أبـــى الـــديس وذا قـــضاعة أبـــوه، وهـــو مـــن ذوى الـــشجاعة
وهـــو ابـــن عبـــد الله مـــن يلقـــب فـــيهم بحرْقـــان كمـــا قـــال الأب
وهـــو ابـــن مـــسروق علـــيّ الـــشان وذا أبـــوه أحمـــد اليمـــانى
وهـــو ابـــن إبـــراهيم أعنـــى الجعلـــى بحبوحـــة الفخـــار والمجـــد العَلـــى
وهـــو ابـــن إدريـــس وذا ابـــن قـــيس وذا أبـــوه يمـــن ذو الكـــيس
وهـــو ابـــن عـــدنان الـــذي قـــد ســـادا زمانـــه وللعـــدا أبـــادا

وهـو ابـن مـن يـدعى قـصاصًا في المـلا وهو ابن كـرب مـن بـه الكـرب انجـلا
وهـــو ابـــن هاطـــل وذا ابـــن ياطـــل مـــن فـــاق جـــودًا للـــسحاب الهاطـــل
وهـــو ابـــن ذى الكـــلاع الحمـــيرى وهـــو ابـــن ســـعد ذى الـــذكا والفجـــر
وهـــو ابـــن مـــن قـــد جمـــع الفـــضائلا الفـــضل مـــن في الفـــضل كـــان طـــائلا
وهـــو ابـــن عبـــد الله حَبْـــر الأمـــة مـــن وطـــيء العليـــا بعـــالى الهمـــة
وهـــو ابـــن عبـــاس عظـــيم الـــذكر عـــم الرســـول الهـــاشمى الفهـــرى
واعلـــم بـــأنى آنِفًـــا قـــد قلـــت للطيـــــب الـــــذي بـــــه ولعـــــت
عـــزو إلى البتـــول بنـــت المـــصطفى وقـــد ذكـــرت فيـــه مـــا بـــه اكتفـــى
فيالـــــه مـــــن خـــــائز للـــــشرف مـــن جانبيـــه والمقـــام الأظـــرف
ســـما بخـــير الأنبيـــاء أحمـــدا قـــدرًا سمـــا الـــشعرى وفـــاق الفرقـــدا
وكيـــف لا وهـــو لـــه قـــد قـــالا خـــير الـــورى قـــولا عـــلا إجـــلالا
أنـــت كـــإبراهيم نجلـــى يـــا ولى وأنـــت منـــى أنـــت حبـــى أنـــت لى
صـــلى علـــى الـــنبي مـــولاه العلـــى وآلـــــه أولى المقـــــام المعتلـــــى
وصـــحبه مـــن كابـــدوا الأهـــوالا في حبـــه وجنـــدلوا الأبطـــالا
مـــا ذكـــروا بـــالخير في الأوقـــات والمـــاض ثـــم الحـــال ثـــم الآتـــى

وأما ما ورد من الأحاديث في فضل العباس بن عبد المطلب، فمن ذلك قوله ﷺ كما في السنن الترمذية «الشرف لى ولعمى العباس».

وقوله ﷺ: «ألا أبشرك يا عم؟ قال: بلى. قال: إن الله بنى لإبراهيم عليه السلام قصرًا في الجنة من يا قوتة خضراء، وبنى لى قصرًا من يا قوتة بيضاء، وبنى لك قصرًا من يا قوتة حمراء. فأنت حبيب وخليل».

وقوله ﷺ: يا عم أتبعنى ببنيك، فتبعه بهم فغطاهم بشملة وقال: اللهم إن هذا عمى،

وهؤلاء عترتي وأهل بيتي، فاسترهم من النار كما سترتهم بهذه الشملة، فما بقي باب ولا مدر إلا وقال آمين آمين. اهـ من نزهة المجالس.

وفيه قال النبي ﷺ «من آذى عمي فقد آذاني».

وقال عمر ﷺ وهو على المنبر: «أيها الناس إن النبي ﷺ كان يرى للعباس كما كان يرى الوالد لولده، ويعظمه ويفخمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه، واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى فيما نزل بكم». قال الطبراني هذا حديث صحيح اهـ.

وفي السيرة الحلبية بعد أن ذكر شيئًا من فضائل العباس ﷺ.

وذكر العلامة ابن حجر في الصواعق عن تاريخ دمشق: أن الناس كرروا الاستسقاء عام الرمادة سنة سبع عشرة من الهجرة فلم يسقوا، فقال عمر ﷺ: لأستسقين غدًا بمن يسقيني الله به، فلما أصبح غدا للعباس ﷺ فدقّ عليه الباب، قال: من؟ قال عمر. قال: ما حاجتك؟ قال: أخرج حتى نستسقي الله بك، قال: أقعد، فأرسل إلى بني هاشم أن تطهروا والبَسوا من صالح ثيابكم، فأتوه وأخرج طيبًا وطيبُهم، ثم خرج وعلى أمامه بين يديه، والحسن عن يمينه والحسين عن يساره، وبنو هاشم خلف ظهره، وقال يا عمر. لا تخلط بنا غيرنا، ثم أتى المصلى فوقف وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: اللهم إنك خلقتنا ولم تؤامرنا، وعلمت ما نحن عاملون قبل أن تخلقنا، فلم يمنعك علمك فينا عن رزقنا. اللهم فكما تفضّلت علينا في أوله فتفضل علينا في آخره. قال جابر: فما برحنا حتى سحّت السماء علينا سحًا. فما وصلنا إلى منازلنا إلا خوضًا، فقال العباس: أنا ابن المسقىَ ابن المسقىَ ابن المسقىَ خمس مرات، أشار إلى أبيه عبد المطلب، استسقى خمس مرات فسقى.

قال ابن شهاب: كان أصحاب النبي ﷺ يعرفون للعباس فضله، ويقدِّمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه، وكان لا يمر بعمر وعثمان، وهما راكبان إلا ترجلا حتى يمرّ العباس وربما مشيا معه إلى بيته إجلالا له؛ أي لأنه ﷺ قال: «احفظوني في العباس فإنه عمي وصنو أبي» وفي رواية «فإنه بقية آبائي» اهـ.

وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام: «العباس بن عبد المطلب مني وأنا منه، لا تؤذوا العباس فتؤذوني، من سبّ العباس فقد سبني» أخرجه البغوي في معجمه الكبير.

ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ رجل الإيمانُ حتى يحبكم معاشر أهل البيت» والخطاب للعباس.

ثم قال: «أيها الناس من آذى عمى فقد آذاني، فإنما عم الرجل صنو أبيه» رواه الترمذى.

وفي الفردوس للامام الديلمى «اللهم استر العباس وولده من النار».

وفي (كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق) من رواية ابن عساكر «اللهم انصر العباس وولد العباس ثلاثة». وفيه عن ابن عساكر أيضًا «العباس عمى وصنو أبى فمن شاء فليباه بعمه».

وفي الفردوس «العباس وصيى ووارثى».

الفصل الثالث

(في ذكر المواضع التي قرأ فيها القرآن العظيم، وما له من المجاهدة والمكابدة والأعمال الصالحات في عهد قراءته، والورد الذي كان مشغولا به. وما ظهر له في ذاك الوقت من الكرامات)

إعلم أن الشيخ المترجم ﷺ وعنا به. قد ابتدأ قراءة القرآن المجيد بمسجد جده الشيخ محمد ولد سرور، وبعده قد انتقل إلى مسجد الكامل الصالح الفقيه ولد أنس العوَضابى: تلميذ الولى الكامل العارف بالله تعالى سيدى الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن، رحمه الله تعالى بالجزيرة اسلانج، فأقام فيه أيامًا قلائل، ثم ارتحل منه إلى مسجد الولى الصالح العابد الراجح الفقيه أحمد الفزارى الفرضى (بأم طلحة) فانتهى عليه بحفظ القرآن العظيم في أيسر مدة. وكان ﷺ في مدة قراءة يحيى الليالى ذكرًا وخشوعًا وبكاء وخضوعًا؛ تارة بتلاوة القرآن وتدبر معانيه، وملاحظة أوامره ونواهيه، وتارة بالصلاة الأمية على رسول الله ﷺ؛ وكان ورده فيها اثنى عشر ألفًا في كل ليلة، وصيغتها: (اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى). وقد رأينا بعض المشايخ في كتبهم يزيدون على ذلك (وعلى آله وصحبه وسلم) والكل حسن، ولم يزل هذا دأبه إلى أن فتح الله عليه.

وقد ظهرت له أيام قراءته ثمة كرامات وخوارق عادت. منها ما أخبر به العالم العلامة الفقيه أحمد ولد كنان رحمه الله تعالى.

قال: لما كان الشيخ ﷺ وعنا به (بأم طلحة) عند شيخه الفقيه أحمد الفزارى رحمه الله تعالى، في عهد قراءته القرآن العظيم عليه، أرسله هو وبعضًا من أصحابه إلى الشرق لأمر له هناك، فلما وصل البحر وأراد أن يركب السفينة إلى البر قال ربُّها: لا تركب إلا بأجر كعادتى مع غيرك، فقال له: لا أملك شيئًا، ولكن أعطيك دعوة صالحة، فقال له: اركب عليها- مستهزئًا به- فغضب عند ذلك الشيخ وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ومشى على البحر وأمر من معه أن يمشوا خلفه، فمشوا إلى أن خرجوا بالساحل الشرقى، وكان ذلك يومًا مشهودًا.

ومنها ما أخبرنى به رجل من فضلاء الفرَضيين قال: حدثنى الفقيه محمد ولد أزرق خليفة الفقيه الصالح أحمد الفزارى عن آبائه، قالوا: لما كان الشيخ ﷺ يقرأ القرآن عند جدنا الفقيه أحمد الفزارى رحمه الله تعالى، كان يذهب مع إخوانه الطلبة للاحتطاب لأجل

القراءة، ثم يرجع من غير حطب، هكذا دأبه إلى أن نازعه بعض الطلبة في ذلك، وأغلظوا عليه، فسمعهم شيخهم المذكور، وكان صاحب كشف وولاية فنهاهم وزجرهم عنه، وقال لهم: الطيب هذا لو علمتم حقيقته عند الله تعالى لأحسنتم أدبكم معه، ولما أغلظتم عليه في رجوعه معكم بلا حطب يحمله، فقالوا له: أخبرنا يا سيدى بشأنه، قال: إنه من الأولياء الكبار. والذي منعه عن حمل الحطب معكم، استعاذة الحطب منه بالله وبرسوله ﷺ، عند إرادة أخذه له لئلا يحمله إلى النار، فمن ذلك اليوم ما نازعه أحد من الطلبة، وعلموا مكانته وكرامته عند الله تعالى؛ وفي استعاذة الحطب سر لا ينكشف إلا لأهله وغير ذلك، وقد ذكرنا البعض منها في (الكؤوس المترعة في مناقب السادة الأربعة). فراجعها إن شئت.

الفصل الرابع

(في طلبـــه للشيــخ المرشـــد)

إعلم رحمك الله تعالى. أن من كانت له همة علية، لا تراه يرضى إلا بالرتب السنية، ويفر مما سوى ذلك كائنًا ما كان؛ لأن قوة النور التي أودعها الله في قلبه، تحمله على أن يأنف من شيء يراه بالنسبة إلى غيره أدون، فهو أبدًا في محل الترقى: لذا لما فرغ الأستاذ المترجم ﷺ من قراءة القرآن لم يكتف بما حصل له من الأسرار الباهرة، والكرامات الظاهرة، فاشتاق إلى الشيخ المرشد اشتياق الظمآن إلى الماء البارد والمريد إلى الوارد، فاختار من بين أهل الإرشاد الذين بعصره، الطالعة شمس كمالهم بقطره، العارف الكامل سيدى الشيخ عبد الباقي بن على الكاهلى الولى الشهير بالنُّيِّل: تلميذ العارف بالله تعالى الشيخ عبد الله ولد العجوز رضى الله عنهما، فذهب إليه، فلما وقع بصر الشيخ عبد الباقي عليه قال: أهلا وسهلا ومرحبًا بالابن الصغير، والشيخ الكامل الكبير أحمد الطيب بن البشير، فمال قلب الشيخ ﷺ ساعتئذ إلى الأخذ عليه، والتربية على يديه، فوقف عن تلقينه، وقال له مثلك نحتاج في تلقينه إلى الإذن. ثم إن الشيخ عبد الباقي ﷺ بعد سويعة، جمع الله بينه وبين الفرد. سيدى الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ، فطلب الشيخ المترجم عنده، وقال له: هل بينك وبين الشيخ حسن ولد حسونة علاقة؟ قال: نعم، هو جدى، قال: فإنه نهانى أن ألقنك الطريق. وقول الشيخ ﷺ له: هو جدى، إشارة إلى النسب المعنوى، الذي به تنال البركات والسعادات، إذ هو السبب في إخراج المريد من عدم الجهالة إلى وجود المعرفة، ومن مكان الغفلة والصدود إلى مكانة التوجه والورود، ومن موطن الغواية إلى منزل الهداية، ومن ظلمات المخالفة والعصيان إلى أنوار المتابعة والرضوان، ومن موقف الجفا والبعاد إلى كنف القرب والوداد، ومن درك القطيعة إلى درجة الوصل الفيعة، ومن محل الأشراك والأنداد إلى مقام التوحيد والإفراد. فينقل به العبد من وجود حسى إلى وجود قدسى، ومن وجود نفسانى إلى وجود رحمانى، ومن وجود كالعدم إلى وجود راسخ القدم، فينزله في هذه المنازل المنيفة الأنيقة، وتشرق منه عليه أنوار الحقيقة، فيصير موحدًا حقيقيًا، ويفوزفوزًا أبديًا، فكانت تلك الولادة المعنوية، أنفع من الأبوة الحسية، وأحق منها رعاية وآكد منها دراية، وأقرب منها حسبا، وأوصل سببًا، كما قال ابن الفارض ﷺ:

نـــسب أقـــرب في شـــرع الهـــوى بيننـــا مـــن نـــسب مـــن أبَـــوَىْ

ثم اعلم أن الشيخ ﷺ لما عرّفه الشيخ عبد الباقي بإشارة الفرد، سيدى الشيخ حسن ولد حسونة قدس الله سره، بمنعه من تلقينه فهم مضمون تلك الإشارة، وما تحتها من الرعاية والكلاءة والبشارة، وسأل الشيخ عبد الباقي عن مسائل، منها هل العبادة أفضل بالسر أم بسر السر؟ وعن كيفية الوصول إلى الله تعالى؟ وغير ذلك، فعند سماعه لذلك الكلام حصل له حال عظيم الشأن، وحتى غاب بسببه عن الأكوان، فخرج عند ذلك الشيخ المترجم ﷺ من عنده وتوجه إلى أم طلحة، فلما أفاق الشيخ عبد الباقي ﷺ من سكرته الجمالية، وغيبته الجلالية، أحضر تلميذه ووارثه سيدى الشيخ أحمد المكاشفى، وأخبره بسؤال الشيخ المترجم له وعرفه بمكانته. وشريف منزلته، وأنه سيذهب إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، فيأتى بأسرار عجيبة وأحوال غريبة، وإنى لا أحضره، فإذا اجتمعت به بعد قُفوله من الأقطار الحجازية، فأجبه عن تلك المسائل، وبين له ما احتوته من الأسرار مفصلا.

فاجتمع الشيخ أحمد المكاشفى، بسيدى الشيخ ﷺ بمدينة سنار، بعد رجوعه من المدينة المنورة، واستعاده تلك المسائل فأعادها عليه، فتكلم في المسألة الأولى- وهي: هل العبادة أفضل بالسر أم بسر السر؟- كلامًا ذوقيًا نورانيًا كشفيًا، وقال له: إن هذه المسألة من أسرار درجات الطى، فقال له الشيخ ﷺ: إن في كل درجة من درجات الطى سبعًا وعشرين درجة، فقولك هذا من أي درجة منها، فسكت عند ذلك ولم يجبه بشيء. ثم سئل عن تلك المسألة العالم العلامة الكامل الصالح الشيخ أحمد ولد عيسى الأنصارى السنارى رحمه الله تعالى، فأجاب بقوله: قيل إن العبادة هي أفضل بالسر وقيل بسر السر. وقد سئل عنها أيضًا صاحب الكرامات الظاهرة، والأنوار الباهرة سيدى الشيخ يوسف ابن الشيخ محمد ابن الشيخ عبد الله الطريفى العركى نفعنا الله به، فأجاب بمثل ما أجاب به العلامة المذكور، ولما بلغ مسامع الشيخ ﷺ إجابة هذين الشيخين في تلك المسألة، قال: الكل على علم ولكن الأمى له باع في علم الحقيقة.

فأقول مستمدًا من حضرة السائل والمسئول في إيضاح تلك المسائل وما ذكر- أعنى من أفضلية العبادة بالسر أم بسر السر-: فالأفضل العبادة بسر السر. أما العبادة بالسر عندهم فهي عبارة عن المشاهدة، وهي رؤية الحق تعالى في كل ذرة من ذرات الوجود، مع التنزيه

عما لا يليق بعظمته. وأما العبادة بسر السر، فهي عبارة عن الحضور مع الله تعالى في كل وقت من الأوقات، وهي أعلى وأشرف من غيرها.

قال في جامع الأصول: وأما الحضور فهو حضور العبد بالحق بعد غيبته عن الخلق، وذلك بسبب استيلاء ذكر الحق على قلبه ودوامه فيه، وقدر حضوره بالحق بقدر غيبته عن الخلق، فإن كان بالكلية كان حضوره كذلك، ثم يكون مكاشفًا في حضوره على حسب ترتيبه بمعان يخصه الحق بها، وقد يقال حضر العبد بمعنى عاد عن غيبته وعدم إحساسه بأحوال نفسه وأحوال الخلق. ولنذكر لك زيادة على هذا المزيد الفائدة في بيان مراتب الذكر فنقول:

أما (ذكر اللسان) فهو معروف، وأما (ذكر القلب) فهو عبارة عن شغله بالله تعالى عن كل ما سواه. وأما (ذكر السر وسر السر) فقد تقدم لك بيانهما، ثم من بعد (ذكر سر السر ذكر الخفى) وهو المخاطبة والمكالمة، ثم (ذكر الأخفى)؛ فهو النظر إلى حقيقة حق اليقين، ولا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، وهو انتهاء كل المقاصد اهـ.

وأما كيفية الوصول فهي: محو أفعال العبد بشهود تجليات أفعال الحق تعالى، ومحو صفاته بشهود تجليات صفات الحق تعالى، ومحو ذاته بشهود تجليات ذات الحق تعالى؛ فالأول وهو فناء في الأفعال، وهو أول رتبة في الوصول. والثاني فناء في الصفات، وهو ثاني مرتبة فيه. والثالث وهو فناء في الذات، وهو الغاية من مراتب الوصول في العمر الدنيوى وأنشدوا:

فيفنـــى ثــم يفنـــى ثــم يفنـــى	فكـــان فنـــاؤه عـــين البقـــاء

وإلى الفناء الثالث قد أشار شيخ مشايخنا السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى قدس سره في ألفية التصوف:

كــم لــذة فاقــت علـــى اللـــذات	تُجْلـــى علينـــا في تجلِّـــيْ الـــذات

وقال ابن القارض ﷺ:

فيـــارب بالخـــل الحبيـــب محمـــد	نبيـــك وهـــو الـــسيد المتواضـــع
أنلنـــا مـــع الأحبـــاب رؤيتـــك الـــتي	إليهـــا قلـــوب العـــارفين تـــسارع

وقـال أيضـًا ﷺ:

وإذا ســــألتك أن أراك حقيقـــة فـاسمح، ولا تجعـل جـوابى لـن تـرى

وقال القطب الهمام الربانى سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان ﷺ:

وهـا هـي ليلـى قـد أماطـت لثامهـا ومـن دونهـا انزاحـت لعينـى البراقـع

وكان عمر الشيخ ﷺ عند اجتماعه بالشيخ عبد الباقي النَّيل نفعنا الله به سبع عشرة سنة، وللشيخ عبد الباقي أكثر من مائة عام، وما أحسن ما قيل فيه:

صـغير تربـى بالعنايـة واجتنـى ثمـار ريـاض الغيـب قبـل بلـوغ
ونـال مـن العليـاء أعلـى مكانـةٍ تقهقـر عنهـا قاصـدٌ لبلـوغ

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(الحديد: ٢١)

الفصل الخامس

(في رجوعه من أم طلحة ﷺ إلى وطنه وما حصل له فيه)

إعلم أن الشيخ ﷺ لما رجع من عند الشيخ عبد الباقي رحمه الله تعالى لم يلبث بأم طلحة إلا قليلا، وقد كتم سره عن شيخه الشيخ أحمد الفزارى، ثم إن شيخه قد كاشفه بما في نفسه وقال: لا شيخ لك هنا، فاستأذنه حينئذ وتوجه إلى بلاده، وعند وصوله تعلق خاطره بقراءة مختصر أبى الضياء الشيخ خليل بن إسحاق المالكى رحمه الله تعالى، فرآه مكتوبًا على قلبه بمداد من نور أبيض وعليه بهرام الكبير، فاستغنى بذلك عن قراءته على الأشياخ.

قلت: وهذا يدل على قبول ذلك الشرح ومزيته على غيره، ثم إنه ﷺ قد شمّر عن ساعد الجد في الصلاة على النبي ﷺ زيادة على ما كان عليه أولا، صائمًا، قائمًا، خاشعًا، خاضعًا، ولا زالت فتوحاته تزداد سرًا وجهرًا، في كل علم خطر باله من علوم الشريعة والحقيقة.

الباب الثاني

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

(في بيان تفله النبي ﷺ في فيه)

إعلم أن الأستاذ المترجم ﷺ لما أكثر من الصلاة على النبي ﷺ فكّ ختامها وشرب مدامها، وأوقد سراجها في زوايا قلبه، وأوصلته إلى مرتبة الغيب وغيْبه، ونقلته من عالم الكثافة إلى عالم اللطافة، واجه رسول الله ﷺ، وتفل له في فيه، فسرت أسرار تلك التفلة إلى أن عمّت بركتها لظاهره وخافيه.

عنايـة الله في العبـد السـعيد لهـا علامـة قبـل أخـذ العهـد يُبـديها

فأظلته من بعد هذا قبة السر المنيفة، وصار لسلفة الصفوة خليفة وأي خليفة. ثم ظهرت له خوارق وكرامات، وبركات ومكاشفات. فلما رآى الناس منه ذلك كثر ميلهم إليه، واعتقادهم فيه، وإقبالهم عليه، ثم كتم سره عن الظهور، واختار الخلوة في الآصال والبكور، ثم انتقل من الحال هذا إلى ملازمة دروس علماء زمانه، فقرأ عليهم إلى أن حصّل وتنبّل واشتهر بمعرفة العلم من بين أقرانه، وممن حضر عليه مع الملازمة العالم العلامة الفقيه سعيد ولد بدرى، وغيره ممن فيض عباراته على القلوب يجرى. ومع قراءته فلم يدع ما كان عليه من الأوراد في الصلاة على النبي ﷺ وغيرها في الإصدار والإيراد.

الفصل الثاني

(فيما حصل بينه وبين بعض العلماء بالجميعاب من المنازعة فيمن سمى بأحمد أو بمحمد هل تأكله النار أم لا؟ وما ظهر له في ذلك من الكرامات)

إعلم أن الشيخ المترجم ﷺ قد دعاه إلى محله للتبرك به رجل يقال له محمد ولد موسى ولد أبى سكاكين من الشهيناب الجميعان، وكان له اعتقاد ومحبة في الشيخ ﷺ، وكان مسرفًا على نفسه، فسأل الشيخ قُدس سره وقال له: يا سيدى مع ما أعلم في نفس من المعاصى هل يغفر الله ﷻ لى غدًا بسبب تسميتى بمحمد أم لا؟

فقال له الشيخ ﷺ نعم، قد وردت في ذلك أحاديث كثيرة شهيرة نقلا، وأيدت لدينا كشفًا أن من سمى بمحمد أو أحمد محبة له ﷺ وتبركًا باسمه فإنه لا يدخل النار، وكان في المجلس رجل منسوب إلى العلم فعارض الشيخ ﷺ بما لا طائل تحته، وزعم أن التسمية بأحمد أو محمد ليس لها مزية تحمى من دخول النار وأنهما كغيرهما من الأسماء، فلما رأى الشيخ قدس سره أو معارضه المذكور من باب المكابرة والتفوق لا طلبًا للمعرفة والتحقق سكت عنه.

قلت وما أحسن قول القائل:

وإذا بليـــت بجاهـــل مـــتهكم	يجـد المحـال مـن الأمـور صـوابا
أوليتـــه منـــى الـــسكوت وربمـــا	كـان الـسكوت عـن الجـواب جوابـا

أقول: وأما الأحاديث الواردة في فضل التسمية بمحمد أو أحمد فهي كثيرة شهيرة مثل ما قال الشيخ المترجم ﷺ، طافحة بها الأسفار، ظاهرة كظهور الشمس في رابعة النهار:

قال في «كنز البراهين الكسبية، والأسرار الوهبية الغيبية» للعلامة العلوى الشيخ بن محمد الجفرى رحمه الله تعالى:

ومن خصائصه ﷺ أن التسمى باسمه ميمون ونافع في الدنيا والآخرة.

وقال ﷺ: «قال الله: وعزتى وجلالى لا أعذب أحدًا تسمى باسمك في النار». رواه معد.

وقال ﷺ: «لا يدخل الفقر بيتًا فيه اسمى».

وقال ﷺ: «ما ضرّ أحدكم أن يكون في بيته محمد أو محمدان أو ثلاثة».

وقال ﷺ «إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فليدخل الجنة»- كرامة لنبيه محمد ﷺ.

وقال ﷺ «من كان له ثلاثة من الولد ولم يسم أحدهم بمحمد فقد جهل».

وقال ﷺ: «من وُلد له مولود فسماه محمدًا حبًا لى وتبركًا باسمى كان هو ومولوده في الجنة».

وقال ﷺ: «ما من أحد في بيته أحد اسمه محمد إلا ورزقوا من بركات اسم محمد» ﷺ.

وعن على كرم الله وجهه: (ما اجتمع قوم في مشورة مع رجل اسمه محمد فلم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك لهم).

وقال مالك ﷺ. سمعت أهل مكة يقولون: ما من بيت فيه اسم محمد إلا رزقوا رزق خير.

قال ابن رشد: يحتمل أن يكون عرفوا ذلك بالتجربة أو عندهم في ذلك أثر، فعلم أحبّية التسمية بمحمد، ومن ثم قال الإمام الشافعي- لما قيل له لم سميت ولدك محمدًا قال: سميته بأحب الأسماء إلى.

ولقد أحسن من قال:

وحسبك من إفراط حبى أننى ... لأجلك قد أحببت كل محمد

وقال عليه الصلاة والسلام: «يوقف عبدان بين يدى الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنة فيقولان ربنا بم أستأهلنا الجنة. ولم نعمل عملا يجازينا الجنة، فيقول الله تعالى: أدخلا الجنة فإنى آليت على نفسى ألا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد».

وعن على ﷺ: «ما من مائدة وضعت وحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل[1] كل يوم مرتين».

وعن الحسن البصرى قال: إن الله تعالى يوقف بين يديه يوم القيامة من اسمه أحمد

١- أي أهله ومعنى قدسهم غفر لهم فطهرهم من الذنوب.

ومحمد فيقول: يا جبريل خذ بيدى عبدَىَّ فأدخلهما الجنة، فإنى استحيت أن أعذب بالنار من اسمه اسم حبيبى محمد ﷺ.

وفي الشفاء عن شريح بن يونس أنه قال: إن لله ملائكة سياحين عبادتها دخول دار فيها أحمد ومحمد إكرامًا منهم لمحمد ﷺ، ومعناه طاعتهم دخول كل دار.

وفي رواية عيادتها بالتحتانية، والأول اقعد بالمعنى. وقدم أحمد في الرواية على جهة الترقى لأن محمدًا أبلغ من جهة المعنى، ولا ينافى ما تقرر قوله ﷺ «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»، لأن هذا أحبِّيةً مخصوصة لا مطلقًا، لأنهم كانوا يسمون عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار، فكأنه قيل لهم أحب الأسماء المضافة للعبودية هذان لا مطلقًا، لأن أحبها إليه طلقًا محمد وأحمد، إذ لا يختار لنبيه ﷺ إلا الأفضل، وما أحسن قول البوصيرى رحمه الله تعالى:

فـــإنَّ لى ذمـــة منـــه بتـــسميتى   محمــدًا، وهــو أو في الخلــق بالــذمم

وقال العلامة الشيخ إبراهيم البيجورى رحمه الله تعالى في حاشيته عند قول البوصيرى (فإن لى ذمة منه الخ): وفي كلام المصنف ترغيب في التسمية باسمه ﷺ، وقد جاء في ذلك أحاديث، ثم سرد بعض الأحاديث التي تقدمت، ثم قال: وبالجملة فالتسمية باسمه ﷺ أمر مندوب إليه، نسأل الله أن ينظمنا في سلك محبته بمنه وفضله ورحمته. اهـ.

إذا علمت هذا تبين لك أن منازعة الرجل للشيخ المترجم قدس سره ومعارضته في ذلك محض جهل وقصور فليته تلقى كلام الشيخ بالتسليم، وطلب منه الإرشاد والتعليم، ويرحم الله القائل:

فـــإذا كنـــت بالمـــدارك غـــرًا   ثـــم أبـــصرت حاذقًـــا لا تمـــار

وإذا لم تـــر الهـــلال فـــسلِّم   لأنـــاس رأوه بالأبـــصار

وأما ما ظهر له ﷺ من الكرامة فهو أن الرجل السائل المذكور محمدًا ولد أبى سكاكين لصدق محبته في الشيخ وتعلقه بأذياله. لما أدركته الوفاة كان سيدى الشيخ ﷺ بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، قال ﷺ:

فعرضت عليّ روحه ثمة، فرأيت عليه علامة الوجل من الذنب الذي كان مرتكبه في دار الدنيا، وقال: يا سيدى ألا ترى ما أنا فيه، قال الشيخ ﷺ: فأخذته ودخلت به في ديوان حضرة النبي ﷺ، وقلت له: يا سيدى شفّعنى فيه، فقال لى عليه الصلاة والسلام: قد شفعتك فيه وفي سبعين من ذريته اهـ.

نقلا من الكتاب الذي ألفه الفقيه خوجلى ولد حتيك المحسى في مناقب شيخة الأستاذ المترجم، والبحر المطمطم، القطب الكبير، والغوث الشهير، سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير، نفعنا الله به آمين.

قلت وهذه الكرامة لم تزل ظاهرة بين الجميعات يفتخر بها أبناء هذا الرجل إلى يومنا هذا.

تتمة: فإن قلت هل الروح مذكر أو مؤنث، وما حقيقته؟ فالجواب أنه مذكر لذا ذكره الشيخ ﷺ في كلامه بقوله: فأخذته ودخلت به ألخ.

قال في المصباح: والروح للحيوان مذكر. وجمعه أرواح.

قال صاحب الحكم والجوهرى: الروح يذكر ويؤنث.

قلت لذا أنث سيدى ﷺ الفعل في قوله عرضتْ على روحه بتاء التأنيث فافهم.

وأما حقيقة الروح فالكلام فيه طويل الذويل، ليس يخلو من فضول؛ لأنها مما استأثر بعلمها ﷻ حيث قال لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية: فهي صريحة أو كالصريحة في أن الروح في علم الله تعالى لا تعلمه، فالإمساك عن تعرفها أولى، لذا قال العلامة الشيخ إبراهيم اللقانى رحمه الله تعالى في جوهرة التوحيد مصدرًا لهذا القول- وذو الإمساك عن تعريفها- وقال ﷺ:

ولا تخـــض في الـــروح إذ مـــا وردا	نـــص عـــن الـــشارع لكـــن وجـــدا
لمالـــك هـــي صـــورة كالجـــسد	فحـــسبك الـــنص بهـــذا الـــسند

نسأله تعالى أن لا يحرمنا من بركات سيد مخلوقاته، وأن يجعلنا من المصدقين بخصائصه ومعجزاته، وأن حمينا بمنه وفضله عن معارضة أهل الكمال، وأن يرزقنا حبه وحبهم في الحال والمآل، إنه جواد كريم.

فلنرجع إلى ما نحن فيه من بيان فصول الأبواب فنقول.

الفصل الثالث

(في بيان عُمره في عام حجه وزيارته للنبي ﷺ وأخذه العلم على بعض العلماء الذين اجتمع بهم في طريقه)

إعلم أنه قد اختلف أصحاب الشيخ ﷺ الذين أدركناهم في عمره وقت حجه وزيارته للنبي ﷺ، فسمعنا شيخنا رحمه الله تعالى يقول: كان عمره في وقت حجه ستة عشر عاما، وزيارته للنبي ﷺ كانت في السابع عشر، وذكر تلميذه الحاج حمد بن محمد الغبشاوى رحمه الله أن له وقت حجه ثمانية عشر عامًا، وزيارته للنبي ﷺ كانت في التاسع عشر. وأما أخذه على العلماء الذين اجتمع بهم بطريق الحج فكثير، وكان البعض منهم من علماء الظاهر والبعض من علماء الباطن، ومع هذا فمرماه أبعد ممن أخذ عنهم، ولكن أخذه على سبيل التبرك وتشريف العلم.

الفصل الرابع

(فيما حصل له في طريقة من قبل وصوله إلى مكة المشرفة وما حصل له فيها من صحبة بعض المشايخ والبشائر، وسعة البركات والنعم، وفضل صلاته (سر الأسرار) على لسان الملك الجليل سيدى السيد محمد المبارك ﷺ)

قال في (الروض النضير): ولما تنسمت عليه نسمات العناية الأزلية، بالحج وزيارة خير البرية ﷺ، أستأذن والديه وسافر إلى الحج وزيارة النبي ﷺ، وذلك في عام إحدى وسبعين بعد الألف والمائة، وله من العمر ما ذكرناه آنفًا، ثم إنه ﷺ لم يزل مصحبًا له في جميع أسفاره السابقة واللاحقة الولى العظيم- والأستاذ الفخيم، سيدى الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ، حافظًا لذاته، مراقبًا له في جميع حالاته، وذلك إلى أن أوصله لمستودع سره، وقطب زمانه المتصرف في سره وجهره، غوث الأوان، سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم المدنى الشهير بالسمان، نفعنا الله به في كل آن، ثم إن الشيخ ﷺ قد حصلت له أحوال كثيرة، وبركات غزيرة، فوردت عليه وقتئذ وهو على الطريق صلاته المشهورة المسماة بسر الأسرار، فكتم أمرها عمن كان معه من الإخوان، وأضمر بأنه لا يظهرها إلا أن يحصل له فيها إذن من النبي ﷺ أو من حضرة العزيز الرحمن، فنسخها بحُدة مراقبًا للإذن فيها، فلما وصل مكة وأدى حجه المبرور، ورزق من كبير الفتح والفيض الإلهى ما استنارت به أحشاؤه من أنوار المعارف الربانية وابتهج به من السرور، لازم الصلوات بالمسجد الحرام، وقراءة القرآن والأذكار والقيام، ثم خطر بخاطره الطاهر، أن يدور على أهل الطريقة الهزابز، المشهورين في مكة بمعرفة الحقيقه والشريعة، ولم يزل دائرًا بينهم سامعًا لأقوالهم، ملاحظًا لأحوالهم، إلى أن ظفر بروض المكارم الوريف الوارف، وحوض المعارف المتدفق باللطائف، الجامع بين علمى الباطن والظاهر، المنفرد بالكمالات والحظ الوافر، سيدى الشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد السلام الريس الزمزمى المكى الشافعى ﷺ وعنا به على الدوام، وكان من أكبر الأشياخ يومئذ بمكة وأعرفهم، سمع الحديث من الشيخ محمد بن عقيلة المكى. والسيد عبد الله الميرغنى، والشيخ عبد الله بن سلام البصرى، والشيخ عطاء الله المصرى، وابن الطيب وحضر على الشيخ أحمد الأشبولى الجامع الصغير وغيره، والشيخ عبد الله الشبراوى وغيرهم من المشايخ.

وقد أخذ الطريقة النقشبندية عن سيدى العارف بالله الشيخ عبد الرحمن العيدروسى

والخلوتية عن سيدى الشيخ مصطفى بن كمال الدين البكرى، وأذن له على الورد والطريقة، وكان له معرفة بعلم الفلك والأوقاف والاستخراجات والرسم، فلما رأى الشيخ المترجم ﷺ ما حواه هذا الشيخ من الكمالات المذكورة وغيرها، أخذ عنه الطريقة النقشبندية وطرفًا من العلم، إلا أنه لم يلبث في صحبته إلا أيامًا قلائل، وذلك من أمر حصل له من طريق كشف البصيرة، على أنه لا شيخ له إلا قطب المدينة المنورة، والأحوال والأخلاق المعطرة، سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان قدس سره، وكان يومئذ هو قطب الأقطاب وغوث الأغواث، فكتم سره عن الكلام مراقبًا لما يقوى به نظره من حضرة ذى الجلال والإكرام، ثم من بعد تلك المراقبة قدْ رقد ليلة من بعد طوافه بالمسجد الحرام، فرأى ملكا أتاه وهو بين اليقظة والمنام، وقال له: إن الله تعالى راض عنك في الدنيا وفي يوم القيام، فقال له: ما اسمك أيها الملك الكريم العالى؟ قال: السيد محمد المبارك ومن سكان حجب الجلال. ثم إن الملك هذا قد سرد عليه فضل الصلاة التي وردت عليه المذكورة آنفا بقوله: من قرأ هذه الصلاة مرة واحدة فكأنما طاف بالكعبة سبع مرات، وأن الله تعالى ينزل على الطائفين ستين رحمة، وقارئ هذه الصلاة مرة واحدة له نصيب من تلك الرحمات، ومن قرأها مرتين فكأنما صلى مع النبي ﷺ ليلة القدر، وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر:٣]، وقارئ هذه الصلاة مرتين له ثوابان ثواب ليلة القدر وثواب الصلاة مع النبي ﷺ، ومن قرأها ثلاث مرات فوالله ليس له جزاء إلا أن يدخله الله الجنة، ومن قرأها عشر مرات ولو كان قاتل رقاب فإن الله ﷻ يغفر له. قال الشيخ رضى الله تعالى عنه: فعند مقالته هذه قد اضطرب خاطرى وأنكرت ذلك الكلام، وغلب على فكرى التفكر في قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] وتذكرت خلاف العلماء في معنى هذه الآية، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنها علّى ظاهرها وإنها ناسخة لغيرها من آيات المغفرة، وقلت في سرى: لعله أن يكون شيطانًا، فقال لى: لست بشيطان وإنما أنا ملك من ملائكة حجب الجلال المعصومين.. تمنّ على، فتمنيت عند ذلك الاجتماع بالنبي ﷺ، فرأيته ﷺ يقظة، ووضع يده الشريفة على رأسى حتى أثرت أصابعه الكريمة فيه، وقال لى مشافهة: قبلنا ما قاله السيد محمد المبارك من فضل هذه الصلاة، ثم إنى قد رأيت عن يمين رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وهما خلفاء الرسالة، وعن شماله عثمان وعليا وهما خلفاء النبوة، والصحابة والأولياء طبقة بعد طبقة، والأغواث والأفراد والملائكة. وأمر النبي ﷺ الكلّ أن يفيضوا على ويمدونى، فأفاض على كل واحد بما لا يصل إليه التعبير.

وقد أمدني سيدى أبو بكر الصديق ﷺ بسر الفاتحة، وسيدنا عمر ﷺ بسر سورة يس، وسيدنا عثمان ﷺ براتب السعادة- وهو المتلو بين أهل طريقة السمان- وسيدنا على كرم الله وجهه بالجلجلوتية وقميص من نور أبيض، وسيدنا عبد القادر الجيلانى بعمامة من نور أخضر، وتقايأ لى سيدى الشيخ أحمد البدوى ﷺ سرًا فشربت نصفه وشارمنى هو في شراب النصف الثاني. قلت: ومشاركة سيدى الشيخ أحمد البدوى ﷺ له في شراب النصف الثاني من باب الشفقة والاعتناء به، لئلا يتحمل من الأسرار مالا تطيقه قواه من مبدأ فتزهق بذلك روحه، وهذا هو عين الحكمة، وهكذا إلى أن تم عدد الأولياء رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد رأيت في تلك الحضرة إبليس مغلغلا، ورأيت قطب الأقطاب سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان قدس سره، وسيدى الشيخ إبراهيم الزمزمى ﷺ يتنازعان في شأنى، كل منهما يطلب أن تكون تربيتى على يده، فلمت لسيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، ثم تفرق الديوان، وقد أصبح الأستاذ المترجم في مكة جارًا ذيل فخره، مصحبًا لحمد الله تعالى وشكره، تتقرب إليه النفوس بحسن الوداد، وتجنى من فضله ثمار الاعتقاد، وقد أشار الشيخ ﷺ في طالعة صلاته المذكورة إلى بعض ذلك بقوله: فيالها من حضرة في مكة بحضور سيد الأنبياء، ويالها من رفعة على غيرها بنزول أملاك العلا، ومن هنا يفهم الحاذق النبيه، والمريد الفقيه، ما حصل له في تلك الحضرة من الأسرار، وعظيم العلوم والأنوار.

الفصل الخامس

(في رحلته من مكة إلى المدينة المنورة لزيارة النبي ﷺ، واجتماعه بشيخة قطب دائرة الأكوان، العارف بالله تعالى سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، ﷺ وعنابه في كل آن)

اعلم أن الشيخ ﷺ لما فرع من أداء الحج والعمرة، وفاز بغايات الحبور والمسرة طاف بالبيت الحرام طواف الوداع، وسافر مع الحجاج إلى زيارة السيد المطاع، راكبًا على ركائب الهنا، قاطفا ثمار المسرة دانية الجنا، وكلما مر عليه نسيم الروضة الشريفه يهزه، ويبشره بما يزداد به وجده وعزه، فلما قرب من المدينة المنورة، واستنشق روائحها المعطرة، أشرقت أنوارها على وجوده، ولاحت شموسها على عين شهوده، كثر تواجده وشوقه، وبكاؤه وحرقه.

وأكثـــر مـــا يكـــون الـــشوق يومـــا إذا دنـــت الخيـــام مـــن الخيـــام

ثم اغتسل وتوضأ ودخل المسجد مبادرًا لتحيته، مستحضرا للنبي ﷺ وحسن صورته، فلما فرغ منها وسلم على النبي ﷺ بأدب واحترام، وتواتضع وهيام، ومدامع تحكى لسحب الغمام، فرد عليه الصلاة والسلام ﷺ، وأفاض عليه فيض البحر الزاخر الطمطام، وأنعم عليه بنعم لم تحصها الأقلام، ثم تأخر قليلا وسلم على خليفتيه أبى بكر وعمر، ثم جلس في المسجد كأنه بما حصل له من الإفاضة القمر، ولسان حال الوقت وهو له يقول:

قـــال الـــذي يهـــواه مـــن كـــل المنـــى والحـــال يـــشهد والمعـــارف والـــسنا

ثم من بعد تمتعه بزيارة الحجرة المرة بعد المرة، ونيله منه لكل المرادات والمسرة، التفت بباطنه وظاهره إلى زيارة من لا زالت آيات شكره تتلى على ألسنة الأقلام، في محاريب الطروس على ممر الليالي والأيام، بواب حضرة شافع السماحة بالبسالة، وارث حضرة رافع علم الرسالة، غرة جبين الإمامة، درة ثمين الكرامة. أرج الشمائل والسجايا، بَهج المحاسن والمزايا، من لا ترتاح النفوس إلا بذكر فضائل، ولا تتأنس إلا بكرم شمائله، بحر العرفان وقطب الأكوان، سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم المدنى الشهير بالسمان، ﷺ وأمدنا بمدده في كل آن: قال في الروض النضير: كان سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ. كلما ورد

عليه أحد من السناريين في ذلك الوقت يسأله عنه إظهارًا لمزيته، واعتناء بسيرته، وذلك إلى أن اجتمع به.

أخبرني بعضٌ من أولاد حبيب بن محمد بن حبيب نسّى الركابى عن والدهم- وكان ممن صحب الشيخ ﷺ من مكة إلى المدينة- قال: فلما تمتعنا بزيارة صاحب الروضة المعطرة، والبقعة المقدسة المطهرة، عزمْ سيدى الشيخ ﷺ بالذهاب لمقابلة القطب سيدى الشيخ محمد السمان، فما نشعر إلا وقد وقع بصرنا على القطب المذكور ﷺ ملاقيًا للشيخ ومعه تلامذته وجماعة من عظماء المدينة المنورة، فبادر الشيخ ﷺ إلى تقبيل يده فقبَّلها ثم ضم سيدى السمان الشيخ المترجم إلى صدره، وذهب به إلى زاويته وبيته الأعظم، وسوحه الأفخم، فرحًا مسرورًا. فعجبنا من ذلك وعلمنا بهذا أن للشيخ المترجم ﷺ عند الله مقامًا عظيمًا، وفضلاً جسيمًا.

وفي الكوكب المنير: (فمن بعد دخوله معه في زاويته العظمى، وبينه الأحمى، وهو دار الخليفة الأكبر سيدنا أبى بكر الصديق ﷺ..) قال في (سلك الدرر) في أعيان القرن الثاني عشر في ترجمة سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره من بعد كلام:

وقام على وظائف الأوراد والأذكار والإرشاد والتسليك في داره التي كان يسكنها، وهي دار سيدنا أبى بكر الصديق ﷺ وتعرف بالمدرسة السنجارية، وهي مشتملة على حجر كثيرة كان في وقته ينزل فيها الغرباء والواردون على المدينة من الآفاق. اهـ. باختصار.

وكانت قبل الأستاذ سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ تعرف بزاوية القطب الربانى سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى، لأنها كانت سكناه سابقًا، وهي تجاه باب النساء، وقد رأيت ما بين جدارها وجدار المسجد النبوى مادون تسعة أذرع، وهذا أخذٌ بالأحوط، والغالب على نظرى أن ما بين الجدارين سبعة أذرع فقط.

ولنرجع إلى ما نحن فيه. فمن بعدما تقدم لك من دخوله معه في زاويته العظمى وبيته الأحمى، رآه كأنه الشمس ضياء وأنوارًا، والبحار المتلاطمة علومًا وأسرارًا، ويكادسنا ذاته يذهبُ بالأبصار، وعرفانه يزرى بنشر المسك السحيق ونسيم الأسحار. ولسان الحال ينشد بين يديه:

لـــك الـــدهر طــوع والأنـــام عبيـــد فعـــش، كـــل يـــوم مـــن زمانـــك عيـــد

* * *

فالوصـــف فيــــه وإن تعـــالى قـــدره —فهـــو الـــسماك— لـــدَىًّ دون مقامـــه

قطـــب تفـــرد بالكمـــال فمـــا فَتَـــى إلا مُسَبقى مـــن دَنّ نـــور مدامـــه

ثم من بعد ما رأى ما أقر عينه من أحواله وجلاله وجماله، سلمّ وقبّل يده الكريمة، بآداب ومحبة سليمة. ثم جلس في حضرته مراقبًا له بعين البصيرة، غاضًا بصره الظاهر عن ملاحظة حضرته المنيرة، فما يشعر إلا وقد جذبه مغناطيس الإلف القديم، الذي أشار إليه الحديث الأشراف: «الأرواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

فألقى إليه حينئذ قياد نفسه مع كامل التسليم، وأخذ عنه طريقه المستقيم. ثم سأله الأستاذ عما حصل له من قبل وصوله إليه مكاشفًا من الفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية، والمراتب القدسية، والكشوفات اللدنية، فأجابه عن ذلك بأجوبة تكاد تميلُ منها الجبال، فصاح عند ذلك سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ صيحة اهتزت لها الجدران، وهام بها الحاضرون من ذوى العرفان، فهنأه عند ذلك وبشره ببشائر شتى. ولما علم منه ما ذكر جذبه جذبًا باطنيًا نحوَه، ومنحه صفْوَهْ، فاشتعلت في قلبه نيران الأحوال، وفتحت له من بعدها بدائع سر الغيب وغيب الغيب العال، زيادة على ما سبق لك فيه من الكمال الربانى، والفيض العرفانى، ثم إن شيخه أمره بملازمة حضرته العلية، وسماعه لأنفاسه القدسية، فلازمه مع الصدق والصيانة، والزهد والعفة والديانة، وسلامة السر من الأكدار، والإقبال على الله تعالى في السر والإجهار، وترك الخواطر النفسية، والوساوس الشيطانية. نحو سبع سنين، كأنها من طيبها طرفة عين. وفيها قد قرأ عليه كتب الحديث والتصوف مع الترقى في معارج الفتوح والكمال، والتروى من أبحر أسرار الفناء في الصفات والأفعال، والظفر بسلوك طرائقه الخمسة المضبوطة بقوله «نقط جم» طريقة بعد طريقة، وفي غيرها من طرقه، كما سنبينها لك في هذه المناقب إن شاء الله تعالى. فأينع بذلك روضه، وتدفق حوضه، وسطع هلاله، وظهر فضله وكماله، وحاز من الكمالات ما حاز، وجاز من المراتب العلية ما جاز. ثم إن شيخه لما بلغه هذه الغاية التي تقف دونها الأفكار، والنهاية التي عنها النظر قد جار، نوّه بكمال قدره، وجمال فخره بين أهل المدينة المنورة، فاعتقده الكل اعتقادًا زائدًا، واشتهرت أحاديث فضله بين البرية قائمًا وقاعدًا، وترنمت ببديع مدحه ورفيع ذكره الأفواه، وضاءت زوايا أفكار المحبين بضياه، ﷺ وأرضاه، وأطار إلى النسر الطائر مجده وعلاه.

الفصل السادس

(فيما حصل له من الكرامات بالمدينة المنورة
على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام)

منها ما حدثني به عبد الرحمن البابلي عن مشايخه قالوا: إن رجلا يقال له محمد أغا القائمقام قد آذى رجلا من تلامذة سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، فذهب إليه سيدى الشيخ المترجم بأمر من شيخه سيدى الشيخ محمد السمان، فرعظه فما قبل، ثم أنه رفع يده وأراد أن يضرب الشيخ بسوط عنده، فيبست يده ولم تعد إلى محلها.

ومنها أنه ذهب مرة لزيارة سيد الشهداء، حمزة عم رسول الله ﷺ في صحبة شيخه الشيخ محمد السمان قدس سره ومعهم التلامذة فعملوا هناك ذكرًا عظيما كعادة الصوفية أمدنا الله بمددهم، وكان بقربهم رجل من الأولياء يقال له الشيخ محجوب، فعمل هو وتلامذته ذكرًا، وكان قد وضع بكرجًا[1] على النار من غير ماء ولابن، فمازال جماعته يشربون منه قهوة حلوة إلى أن قرب طلوع الفجر، فجاءهم الشيخ وقال لهم: دعوا هذا الحجاب الذي شغلتم به قلوب الحاضرين، فقالوا له: إن استطعت هكذا فافعل وإلا فدعنا، فرفع الشيخ طرفه إلى السماء– وكان الوقت صيفًا– فنزل مطر وكاد أن يغرق الحاضرين لاسيما هذا الشيخ وجماعته، فانتهوا أن يتغيثوا بسيدى القطب محمد السمان قدس سره فأغاثهم فأمسكت السماء ماءها، وخرج الشيخ وجماعته كأنهم شاردون من عدوهم، وما رؤى أن أحدًا منهم رجع بعد ذلك في حياة الشيخ ﷺ.

ومنها ما أخبر به سليم أزمر لى الحجازى بالحاء المهملة المدنى قال: كانت لى زوجة قد صرعها جنون، فذهبت إلى سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ فأخبرته بذلك، فبعث معي سيدى الشيخ أحمد الطيب، فلما دخل عليها رقى عليها بهذه الآية ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ففاقت لوقتها، وزال ما بها من ألم الجنون، ثم إن بعض الحاضرين حف هذه الآية ليرقى بها، فوجد مصروعًا فرقى عليه بها، فخاطبه الجن وقال له: أما الآية فهي الآية ولكن النفس ليس كنفس سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ حتى أخرج، فلما سمع أهل المصروع ذلك بادروا إلى الشيخ وجاءوا به، فرقى عليه بها فزال ما به في الحال.

١– هو أنية القهوة.

ومنها ما أخبرنى به الشيخ عبد الرحمن البابى المدنى قال: اخبرنى من أثق به من رجال الطريقة السمانية بالحجاز قال: لما وفد الولى الكامل والعارف والواصل، الشريف محمد بن الشريف يوسف الحسينى من مكة إلى المدينة المنورة لزيارة النبي ﷺ، اشتهر خبره بين الناس بالخوارق والكرامات، فاعتقده بسبب ذلك كثير من الأعراب وغيرهم، وكان ذلك في عصر سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، فلما قرب من المدينة المنورة أمر سيدى الشيخ محمد السمان الأستاذ المترجم قدس سره بأن يذهب إليه ويتصرف فيه وفي جماعته، فلما قرب الشيخ وقف الجمل الذي عليه الشريف المذكور وغيره من الجمال، فانتبه الشريف لذلك، وقال لتلامذته: من هنا؟ فقالوا له: شاب من أهل سنار يقال له أحمد الطيب، فقال يا الله العجب، هل لأهل سنار تصريف هنا؟! ثم إن الشريف المذكور أخذته سنة من النوم، فرأى النبي ﷺ وهو يقول له: تأدب أما تعلم أن محمد السمان يدٌ من أيدى وأن أحمد الطيب عضو من أعضائى، فنزل عند ذلك الشريف المذكور من ظهر جمله، ونزع الطيسان من رأسه، ثم قبل يد الشيخ المترجم، فأخذه وذهب به إلى سيدى الشيخ محمد السمان وطلب منه السماح، فسامحه وأخذ عنه الطريقة وصار من التلامذة، وغير ذلك من الكرامات.

الفصل السابع

(في إذن شيخه له بالرجوع إلى وطنه لإظهار شعائر الدين وإرشاد المريدين وصفة خروجه من المدينة المنورة جعلنا الله من محبيها وزائريها)

إعلم أن الشيخ المترجم ﷺ لما أقام مع شيخه سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ سبع سنين كما تقدم لك ذكره، وفيها قد جنى جميع ثمرات طرائقه الخمسة: القادرية، والخلوتية، والنقشبندية، والأنفاسية، والموافقة، سلوكا وتحقيقًا، وذوقًا وتدقيقًا،حتى صار في جميعها قطبًا فريدًا، وأستاذًا مفيدًا، فبعد ذلك أجازه الشيخ ﷺ في جميع طرائقه، وأمره بالتوجه إلى بلده لتربية المريدين، وإظهار معالم الدين، وبإرشاد جماعة بأرض الريف، كالعارف بالله تعالى الشيخ شيخون الوزى بمدينة سوهاج وغيرهم، فذهب ﷺ من الزاوية المكرمة، إلى الروضة المعطرة المعظمة، فوقف عند قبر النبي ﷺ، وودعه وكذا صاحبيه، وخرج من عند رسول الله ﷺ كأنه القمر عند تمامه، وخرج لوداعه مشايخ الطريقة، وعلماء الحقيقة، وجابذة القضاة، والأشراف والسادات، فقدمت الأعلام بين يديه، والقطب والغوث سيدى الشيخ محمد السمان وهو بينهم ناظر إليه، ومفيض عليه، فما رأى الراءون مثل يوم خروجه من المدينة المنورة، لما اشتمل عليه من الأخيار والأولياء الكبار، والفيوض العابقة، والأسرار الخارقة، والثمرات الواضحة، والآيات التي لأولى الاعتراض فاضحة، كيف لا وقد سقته الحضرة المحمدية زلالها، ومدّت عليه ظلالها، وأتحفته علومًا كاللجة إذا اضطربت أمواجها، والكتيبة إذا تحركت أفواجها، ونشْرًا كالروض غِبّ المطر، ومذهبًا أصفى من التبر، فلا عجب أن صار في سماء العليا بدرًا منيرًا، وفي الأفئدة عنبرًا وعبيرًا.

بلــغ الـسيادة في ابتــداء شــبابه   إن الـــشباب مطيــــة للــــسؤدد

ثم إن سيدى الشيخ السمان ﷺ قد ودعه وأودع فيه سرًا وأنوارًا، ثم تلته المشايخ والعلماء وغيرهم في الوداع، فتوجه ﷺ إلى مكة والمهابة تخدم لحظته، والإصابة تقدم لفظته، جاريًا في ميدان الفضل إلى منتهاه، متصرفًا فيما بين سماكه وسهاه، وما زال لسان حال وقته ينشد بين يديه جهارًا:

أمـــام شـــرف الـــدنيا وقـــارًا ... وقـــد خفقـــت لـــه خفـــق الجنـــاح
فتـــى تجـــد الأمـــاني في يديـــه ... وجـــود الـــرى في المـــاء القـــراح
ويجلـــو حـــادث الـــدنيا بوجـــه ... كـــأن جبينـــه فلـــق الـــصباح
أضـــاء بوجهـــه أفـــق الـــدياجى ... وقـــام بكفـــه علـــم النجـــاح
فمـــا للفـــضل فيـــه مـــن زوال ... ومـــا للمجـــد عنـــه مـــن بـــراح
لقـــد أنـــسى زمانـــه كـــل عيـــد ... ونـــادى الرشـــد حـــى علـــى الفـــلاح
وذى أيـــام أعيـــاد الفيـــوض ... فكيـــف تـــضيفهن إلى الأضـــاحى

ولبعض تلامذته ﷺ مشيرًا إلى يوم خروجه من المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، عندما رأى الأعلام تخفق بين يديه، والعيون شاخصة إليه:

يـــوم عظـــيم فيـــه كـــم مـــن آيـــة ... وعجائـــب ظهـــرت لكـــل النـــاس
يبُـدُوٌّ بـدر ابـن البـشير الطيـب الـ ... ـقطب الفريـد معطـر الأنفـاس
لله دره مـــن إمـــام قـــد رقـــى ... رتـــب العـــلا ومنـــازل الأقـــداس
يزهـــو بـــه نهـــج الجنيـــد ملاحـــة ... والجيلـــى ثـــم الخلـــوتى الكاســـى
مـــدّت عليـــه الحـــضرتان ظلالهـــا ... وسـقته نـورًا وهـو أفـضل كـاس
مـــلأت محبتـــه القلـــوب ألا تـــرى ... أنـــواره في الليـــل كـــالنبراس
آياتـــه شـــهدت برفعـــة شـــأنه ... بمحبـــة الأخيـــار والأكيـــاس
وهـــو الـــذي محيـــت بنـــور وصـــاله ... ظلـــم الهـــوى والغـــى والوســـواس
لله مـــن مـــولى بـــه افتخـــر العـــلا ... أحيـــا طريـــق القـــوم بعـــد إيـــاس
بـــشرى لمـــن في العـــالمين يـــوده ... ويفـــوز منـــه بنفحـــة وأســـاس

أخبرني الشيخ عبد الرحمن البابلي أن الشيخ ﷺ لما دخل مكة المشرفة، أتاه رجل من أهلها وطلب منه أن يعلمه الكيماء أو مثلث أبى حامد الغزالى رحمه الله، فأمره الشيخ ﷺ

أن يكتب بين يديه لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلما كتبها أمره أن يأخذ من تحت كل حرف منها مقدار عدده دراهم إن شاء أو دنانير، فلما فعل وتبين صدق الشيخ وكرامته ندم على ما كان منه، وتاب على يديه من طلبه الدنيا، وأخذ عنه الطريق وصحبه إلى أن مات.

ثم توجه ﷺ من مكة إلى جدة، وكان يومئذ معه جماعة من تلامذة سيدى الشيخ محمد السمان كالشيخ جودات السليمي وغيره، فلما وصلوا البحر وأرادوا ركوب السفينة ورد عليهم كتاب من سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ يأمرهم فيه برجوعهم إليه بالمدينة المنورة، فعظم ذلك على المريدين إلا سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فقال لهم: لو أن رجلة هذه على عتبة دارى والثانية قد أدخلتها وجاءنى كتاب سيدى الشيخ محمد السمان لما أدخلتها على الأخرى، فرجع من وقته إلى المدينة المنورة وحده فطويت له الأرض فوصل في يومه، فلما رآه سيدى الشيخ محمد السمان وحده قال له: قد جعلتك فريدًا وأستاذًا رشيدًا، فتغير عليه الحال في الحال، وبلغ من المراتب ما دونه الآمال، ثم كتب له كتابًا مشتملا على أسرار جسيمة، وأخبار عظيمة وبشائر وذخائر، وبتقدمه على إخوانه، ثم أمره أن يلحق بهم فوصلهم في ثانى يومه، وأطلعهم على ذلك الكتاب فندموا على ما كان منهم، ومن بعد ركوبهم البحر وخروجهم إلى البر السودانى قد تلقاهم جميع أولياء السودان مع أقطابهم الثلاثة، وهم الشيخ ادريس بن الأرباب. والعارف الكامل سيدى الشيخ حسن ولد حسونة، والشيخ دفع الله ولد أبى إدريس العركى ﷺ، فلما رأى الأولياء عليه الخلعة النبوية النورية الشعشعانية، التي كاد نورها أن يذهب بنور الشمس والبدر إن قوبلت بهما، تواروا في أنوار أقطابهم الثلاثة، ولم يستطيعوا النظر إلى تلك الخلعة والاتصال به وقتئذ.

وقد سار إلى بلده مستضيئًا بأنوار الحقيقة، لابسًا لجلباب الطريقة، فما أقبلت عليه نفس إلا وصبغها بأنواره وأسراره، ولا عرضت عليه مسألة عويصة في العلم إلا وحلّها بصفْو كشفه وأنظاره، وهكذا حاله إلى أن حل بموضعه فتعلقت بأذياله العباد عند وصوله، والعبّاد لوصوله، فأقام متخليًا من العلائق، متخلقًا بأحسن ما يتخلق به الخلائق، يبين المخلف من المصيب، ويميز بين الخبيث والمطيب، واشتغل بتدريس الحديث والتصوف في جامع جده الشيخ محمد ولد سرور، فأتاه المريدون من الأقطار والآفاق، للانتظام في سلك طريقه والشرب من كاسه الدهاق، فأفاض على الكلّ فيض السحاب، بعد أن أزال عن قلوبهم بنظره الأكسيرى الرّين والحجاب، وقد استأنست به نفوس المريدين، ووردت به أبحر العارفين، وانقادت إليه أكابر العلماء والصالحين، والملوك وغيرهم من عوام المسلمين، وقد صار في البلاد

المعوّل عليه، في المضاف والمضاف إليه، مشغول الأوقات بإرشاد المريدين، ومشاهدة رب العالمين، وبالصلاة على سيد المرسلين، واصطناع يد وإسداء معروف إلى كل أحد من المسلمين، ميمون الحركات والسكنات، مسعودًا في سائر الأطوار والحالات، ما عارضه أحد حسدًا إلا مزقه، وما رام شخص أن يضاهيه إلا شتت شمله وفرقه، وقد اشتهر ذكره في الأراضي؛ حتى كاد من في دهره أن يتمنى بين يديه حضور الماضي، وقد ظهرت على يديه خوارق كثيرة وكرامات شهيرة.

هـذا الـذي فيـه كـل الفضل قـد وجـدا لا تـسألن عـن سـواه إن تـرم رشـدا

فالكـاس منـه مـدى الأيـام دائـرة لكـل شـخص لـه بالحـب قـد قـصدا

شمـس علـى سـائر الآفـاق طالعـة بحـر- وحقـك- فيـه الكـل قـد وردا

كيف لا وهو الذي أخجل سحب الغمام بالأيادى، وأروى بمورده العذب كل صادى، ولم يزل مستمرًا على الحالة المذكورة، والخوارق المشهورة؛ والناس يهرعون إليه من كل جانب ومكان، وكئوسه ساقية لكل الشيوخ والكهول والشبان، ومغناطيس حقيقته جاذب للخاصة والعوام؛ إلى أن حصل له الإذن بالرجوع إلى الحج وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام.

الباب الثالث

وفيـه أربعـة فصـول

الفصل الأول

(في بيان رجوعه إلى الحج وزيارة النبي ﷺ)

إعلم أن الشيخ ﷺ لما حصل له الإذن بالتوجه إلى الحج وزيارة النبي ﷺ بطريق الريف، سافر من بلده والأعلام خافقة بين يديه؛ والنفوس محدقة وناظرة إليه؛ إلى أن نزل عند الولى الربانى والكامل المحبوب، سيدى الفقيه حمد ولد المجذوب ﷺ بالدامر. وكان هذا الولى من رجال الاسم الأعظم. والقدر الأفخم. كما ذكره سيدى الشيخ المترجم ﷺ في شرحه لحكمه؛ فأكرم الشيخ ﷺ إكرامًا واسعًا. ونظر إليه بعين الإجلال والتعظيم ذاهبًا وراجعًا. وأكثر من مجالسته والسؤال عن مشكلاته. وكان ذلك في آخر عمر الفقيه المذكور، وأول عمر الأستاذ المترجم. فأفاده الشيخ رحمه الله في كل ما طلب منه بيانه.

فمن ذلك ما حكاه الشيخ المترجم ﷺ في شرح حكمه المسمى (بالجوهرة الفريد في علم الوحدة والتوحيد) أنه سأله عن حال عرضت عليه؛ وهو أنه إذا اشتغل بتلاوة القرآن والأذكار أو بدلائل الخيرات يغيب في نفسه عن إحساسه؛ ويصير لا يسمع ولا يحس بشيء. وطلب منه أن يُعلم سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره إذا وصل إليه بحالته هذه؛ ليفيده فيها، ويكتب له بما يقوله له فيها كتابًا؛ فسكت الشيخ المترجم ﷺ قليلا، ثم قال له: إن هذا الحال حال أهل وحدة الأفعال، ولا خروج لك منه إلا بالإكثار من أورادك زيادة على ما كنت عليه، فقال له جزاك الله عنى خيرًا. فاعتقد صدق كلام الشيخ ﷺ وعمل بما أمره به، وما أحسن ما قيل:

وما عَبر الإنسانُ عن فضل نفسه ... بمثل اعتبار الفضل كل فاضل

ثم ودعه وسافر سالكا لطريق الريف، فما مر ببلدة إلا وأذعن أهلها لقدره، وتلوا لآيات حمده وشكره، وتأدبوا وأخذوا عنه الطريق، وسمعوا منه إشارات التحقيق، ولطائف أسرار التدقيق، مع شربهم لمحبته الجاذبة للعقول كجذب المغناطيس، ومليهم بالنظر إلى خلائقه

وسماعهم لكلامه النفيس، وقد سارت بأجاديثه الركبان أمامه، بحيث إن السامع لها يكاد أن يتخذها طعامه، وهكذا حاله إلى أن وصل إلى (دراو)[1] فاجتمع عليه العلماء هناك وأخذوا عنه الطريق،ومن جملتهم الشيخ إسماعيل بن تقاديم النقشبندى ﷺ، وانقادوا له انقيادًا كاملا، ونالوا به فيضًا عميما شاملا، ومن جملة ما رأيته أن الشيخ إسماعيل المذكور قد ألف رسالة في جميع ما أخذه من فيه، مع كامل محبته واستغراقه فيه، مشتملة تلك الرسالة على بيان سنده في الطريق القادرى، وبيان أحواله ونفوسه الثلاث– اللوامة، والملهمة، والمطمئنة– وغير ذلك.

ثم توجه إلى مدينة أسوان ومعه تلامذته، فمن قبل دخوله فيها فما يشعر إلا وقد أحاط بهم قطاع الطريق من كل مكان، ولم يعلموا أن معهم القطب الذي عليه المدار. والمتصرف في العالم في السر والإجهار، فلما أرادوا أن يبطشوا به وبأصحابه، تقدم إليه رجل منهم قلبه أقسى من الجلمد، فلما رفع يده بالرمح ليبطش بالأستاذ المترجم، خرج من دبره صوت مهول كأنه الرعد، فخجل ورجع القهقرى وتبعه جماعته المفسدون، كأنهم من عدوهم شاردون، ثم دخل المدينة المذكورة فأقبل أهلها عليه بمحبة وإذعان وشوق وهيمان، وأخذوا عنه الطريق مع حسن الاعتقاد، وصدق الجنان، فمنح الصادقين منهم أسرارًا وعلومًا وأنوارًا، وخلف فيها خلفاء صالحين، كانوا على علم وإخلاص ودين. ومنها سار إلى (قنا) وزار قبر من ليس له في عصره مساو، الشريف المغربى الحسنى الشيخ عبد الرحيم القناوى، نفعنا الله بأسرار قطبانيته وأنوار فردانيته. وقد أعطى الطريقة لأناس كثيرين، منهم الأجل الأكمل السيد عبد الله خليفة الولى المذكور، وأمثاله من أهل الفضل المشهور، ثم صار ينتقل من قرية إلى قرية، ويرشد إلى الله تعالى كل من كان وهو على حيرة، مؤيدًا بما تنشرح به الصدور، ويسارع إليه الإقبال من الكرامات الظاهرة، والآيات الباهرة.

منها ما حكاه لى رجل من أهل بلاد الريف يقال له على الصعيدى قال: لما دخل سيدى الشيخ ﷺ بلادنا وافق دخوله شهر رمضان، فطلبه في يوم واحد نحو من أربعين رجلا من تلامذته للإفطار عندهم، وذلك من غير علم أحد منهم بطلب الآخر، فلما غربت شمس ذلك اليوم وآن وقت الإفطار، تطور على عدد تلامذته المذكورين، وحضر عند كل واحد منهم. ومنها ما أخبرنى من أثق به من الفضلاء قال: بلغنا أن سيدى الشيخ ﷺ لما دخل بلاد الريف، صار كلما مر على قرية من قراها يمسك تأثير نار تلك القرية تصرفًا، فلا

---

[1]– بلدة شمال مدينة أسوان يمر عليها القادم بطريق البر قبل غيرها.

تؤثر في شيء من الأطعمة حتى يذعن أهل تلك القرية له، ويأخذوا عنه الطريق، فتعود النار إلى ما كانت عليه من التأثير.

ومنها ما ذكره سيدى الشيخ صديق بن عمر خان العمرى السمانى في كتابه المسمى «بالنفخات السمانية» ونصه:

(قد دخل الشيخ أحمد الطيب ﷺ مرة الخلوة وهو ببلاد الريف فدخل عليه رسول الله ﷺ، فوقف الشيخ على قدميه قابضًا يديه على صدره، متأدبًا له ﷺ، ثم قال: اللهم صلّ على سيدنا محمد لا هوت الوصال وعين الكمال، فالتكئى عند ذلك لسانهُ من هيبة النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: قل: ومشهد الأسرار، ومنبع الأنوار، فعند ذلك فتح عليه ببقيتها، وجاءت صيغة من أحسن الصيغ) اهـ كلامه.

قلت: وقد ألف هناك ثلاثة أحزاب: حزب الجلال، وحزب الجمال، وحزب الكمال، وأما حزب الأمان فقد ألفه ببلده. قال الشيخ صديق المذكور: وكانت خلوته المذكورة منقسمة على إحدى عشرة خلوة، كل خلوة أحد عشر يومًا، ويفصل بين الخلوة والخلوة بيوم واحد، لكنه مصحوب بالرياضة والصوم، فجملتها مائة وواحد وعشرون يومًا، ولم يزل هكذا في إظهار الكرامات والآيات البينات إلى أن دخل بلدة (هوا) فأرشد فيها جماعة كالمجذوب الشيخ سليم العريان المقيم بشاطئ البحر دفين (هو)[1] بضم الهاء وإشباعها واوًا، وغيره من فضلاء الأخيار، وهكذا الحال إلى أن دخل (سوهاج) فأرشد فيها كثيرًا من أجلهم وأفخرهم البحر العجاج، العارف بالله تعالى سيدى الشيخ شيخون الوزى ﷺ، وهو أحد الجماعة المأمور بإرشادهم من شيخه، وقد أقام بسوهاج أيامًا عديدة إلى أن رقى به المريدون رتب الكمال، ونالوا به في الطريقة أعظم منال، وقد دخل الجامع يوم الجمعة للصلاة فيه، فلما فرغ منها شرع هو وجماعته في الذكر كعادة الفقراء، ثم أشار الشيخ في حالة ذكره، إلى ما في الجامع من جماد وغيره، فصار الكل يذكر الله معه جهرًا إلى أن ختم الذكر، وروى أنه قد أخذ الطريقة عنه في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف من الرجال والنساء، وما حكى أن أحدًا منهم رجع إلى موضعه إلا وهو على وله وسكر، وذلك من كثرة إفاضته عليهم، فيالها من لحظة ما أشرفها، ويالها من نظرة ما أعلاها وأغلاها.

على نفسه فليبك من ضاع عمره ولم يره في وقته وأوانه

١- قرية بمركز قنا.

ثم من مدينة سوهاج قد سافر إلى أسيوط، فأرشد فيها جماعة منهم نادرة وقته سيدى الشيخ أحمد الأسيوطى رحمه الله تعالى وغيره من أهل السعادة، الذين سبقت لهم من الله العناية، وصحبتهم منه المعونة والرعاية.

الفصل الثاني

(في سفره إلى مصر المحروسة)

اعلم أن الشيخ المترجم ﷺ لما سافر من أسيوط إلى مصر ودخلها نزل بجامع الأشرف، فتسامعت به الناس وأتوه من كل جهة ومكان، وقدمت للتبرك به الفضلاء والأعيان، وكان ذلك في عهد ملك الغز- وهم جنس من الأتراك، فأهدى له ملكهم الهدايا الفاخرة وأحله محل السماك، واعتقده أهل مصر اعتقادًا كاملا، وأفاض عليها فيضًا شاملا. فأقبلوا عليه بكل لا ببعض، وحقق ما بيده من الإبرام والنقض، وألقيت إليه المقاليد، في طارف الكمال والتليد، فقلد المريدين بالقلائد المشتهرة، والفوائد المنتشرة، وقد أفرغ قوالب الأسرار في قلوبهم، وأفناهم عن الغير بمحبوبهم، وقد جاءه وهو في تلك الحالة أبو البراهين سيدي الشيخ أحمد العريان ليسلب حاله، وكان من رجال التصريف بمصر وممن شهد الناس كماله، فلما اجتمع به رجع عما أضمره في نفسه القهقرى، وعلم أن ما بين مقامه ومقام الشيخ ﷺ كما بين الثريا والثرى، ثم إن الشيخ قدس سره دخل الجامع الأزهر، لزيارة من فيه من أهل العلم والفخر، فوقف على كثير من دروس العلماء الأعلام. ولم يجلس إلا في درس الأوحد الهمام، الشيخ محمد الأمير عليه الرحمة وعلى سائر علماء الإسلام. فاستحسن عبارته، ولذت في نفسه إشارته، فلما فرغ من الدرس وقف العلامة الأمير على قدميه معانقًا للشيخ ﷺ، وأكرمه إكرامًا ما رؤى منه لغيره فيمن ورد عليه من العلماء والصالحين، وقال لمن سأله عن حقيقة الشيخ من العلماء حينما رأى منه ذلك الإكرام وعزيز الاحترام ما بين مقامكم ومقامه كما بين السماء والأرض.

قال الشيخ محفوظ المغربي- وكان من أجل تلامذة الشيخ الأمير- فما رأينا مع صحبتنا له أنه سلك مع أحد أدبا، كما سلكه مع الأستاذ سيدي الشيخ أحمد الطيب بن البشير ﷺ.

ثم إن الشيخ بعد أن ودع العلامة الأمير رحمة الله تعالى رجع إلى موضع إقامته بمصر.

واجتهد في مدة تلك الإقامة في إرشاد المريدين، وإقبالهم إلى حضرة رب العالمين. وبدء لهم ما عنده من جواهر المعارف والعلوم، وأظهر لهم ما كان مستترًا عنهم من السر المكتوم، لا بسًا لطيف الشمائل حسًا ومعنى، غارفًا من بحر الألوهية المتلاطم الأسنى. كأنه الغيث المحدق، والبحر المغرق، ولم تزل العلماء تتردد إليه؛ وتصغى إلى ما يبرز من شفتيه،

وربما أبرز من غرائب العلم ما أفخم وأعجز، وأفعم وأنجز، ورتج للمُغْفَل[1] وفتح للمقفل، فلا شك أنه قد اطلع على اللوح المحفوظ، وعلم كل ما فيه من معنى ملفوظ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، فلذا قد التجأت أهل البلاد إليه، والتفت آمالهم عليه، وقد خلف من أهل العلم والعمل كثيرًا، وصار فضله وكماله إلى يومنا هذا بين أهل مصر شهيرًا، ويكفيك ما تقدم لك ذكره من توقير العلامة الأمير، وتعظيمه والتنويه بشريف، ذلك حتى إنه بسبب ذلك التعظيم والتوقير الذي وقع منه للأستاذ المترجم تمكن حب الشيخ من قلب تلميذه قاضي القضاة أحمد افندى السلاوى، إلى أن جره إلى مصاهرة الأستاذ المترجم، والاعتقاد فيه والمبالغة في الثناء عليه، وتسمية بعض أولاده بإسمه لأجل التبرك به، وكان لم ير مثله ولا قريبًا منه من رجال جميع السودان، من وقت دخلوه فيها ومجيئه مع إسماعيل باشا ابن محمد على باشا.

حدثنى صديقنا الفقيه محمد على ولد رحمه الكتيابى قال: سافرت إلى مصر في بعض السنين، فحضرت يوما صلاة الجمعة بجامع السلطان أبى العلا، وكان عن يمينى رجل عليه سيما الأولياء، فقال لي بعد فراغه من صلاة الجمعة: من أي البلاد جئت؟ قلت له من السودان. قال: بلاد القطب سيدي أحمد الطيب بن البشير ﷺ؟ فقلت له نعم. فقال لى: هل ظهر بهاتيك البلاد أحد مثله في الكمال؟، فقلت له الأولياء كثيرون. فقال. وإن كانوا كذلك فلم يكونوا مثله. فقلت له: هل رأيته؟ فقال: لا ولكن رآه أبى وأخذ عنه الطريق، ورأى من عجائبه وكراماته وكمالاته مالا أحصيه ولا أستقصيه، نفعنا الله به.

ثم إن الشيخ المترجم قدس سره لما أخذ بمصر ما نواه من الأيام، سافر إلى المدينة المنورة لزيارة النبي ﷺ، فلما وصل وأدى تحية المسجد وقف بباب المواجهة قبالة الوجه الكريم، بمحبة وأدب وانكسار وتعظيم، وسلّم على الذات المكملة، والحضرة المجللة، فأمدته عقب ذلك بإمداداتها الواسعة، وخلعت عليه خلع الأنوار الساطعة، وضمخته بعبير الأسرار والمعارف، وشميم البركات واللطائف، فاشتهر حينئذ زيادة على ما كان عليه، وعلت ولايته على رؤوس الربا وهامات الآكام، إلى أن صار فريدًا بين الأولياء في كل مقام.

فوحقـــه قـــصر اللـــسان وإن عـــلا ... عـــن شـــكره في المـــاض والمـــستقبل
وسُـــع الزمـــانَ ولم يـــسَمه بـــدهره ... أحـــد ولـــو رُقـــى لأعْلـــى منـــزل

١- المغفل المهمل كالباب المفتوح. ورتجه أقفله.

ذلـك الخلاصـة والـذي خلـصت بـه كـل النفـوس مـن الحجـاب المزجـل

تـروى الـرواة حـديث جـود يمينـه وكمـال ذاتـه عـن ولى عـن ولى

فيـه تجمعـت المفـاخر كلـها بـشواهد منهـا انقيـاد الكمـل

ومعـارف وحقـائق كـشفية وخـوارق كالـشمس مفخرهـا جلـى

وقد أخبرنى الشيخ ﷺ أنه بعد ما حصل له من الإكرام النبوى جلس عند الشباك مصليًا على الرسول ﷺ ببعض صلواته، فمدله ﷺ طستًا مملوءة سرًا فشربها، فعمت بركتها وأنوارها كليته سرًا وجهرًا.

ثم من بعد هذا قدم لزيارة القطب الأعظم، والبحر المطمطم، والكنز المطلسم، قطب دائرة الأكوان، شيخه سيدي الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، ﷺ. على أكمل أدب واحترام، وإجلال وإعظام؛ فاستبشر بقدومه عليه، وورود إليه، فأشرقت أنواره، ولاحت عليه مكارمه وأسراره، كيف لا، وهو الوارث لمقامه، والرافع لأعلامه، كيف لا، وهو الذي فيه أسراره منحصرة، وعليه كمالاته مقتصرة، كيف لا، وهو المحب والمحبوب، وباب الوصول إلى رضاء علام الغيوب. وعند دخوله على شيخه تاج رؤوس العارفين المذكور بدءًا وختمًا، المشهور فيضًا وكرمًا، قد رأى علماء الأقاليم حوله جالسين للشرب من أنوار حقائقه، وسماع دقائقه، ولسان حالهم على أفنان استغراقهم فيه صادح بحيّ على الفلاح، وقمرى إشراق أنوار إمداده لهم مسربل بجلباب الصلاح، وهو رضى الله تعالى عنه ينشد بين أيديهم على رؤوس الأشهاد، بقوله هذا الذي هام بسماعه السامعون في جميع البلاد، تحدثًا بما أنعم الله تعالى به عليه:

ظهـرت وشمـسى في البريـة سـاطع وكلـى لأسـرار الوجـود مطـالع

ومـذ لاح بـدرى في سمـائى لنـاظرى أفلـن نجـومُ الغـير، وهـى طوالـع

وليلـى لمـا جـنّ عـاد بطلعتـى صـبحًا فـأنوارى شمـوس سـواطع

أنـا كنـت مكنونًـا لـسر علمتـه وعـن فهمـه إدراك غـيرى قـاطع

أنـا سـاقى الأقـداح في حـان حـضرتى وكـل ولىّ مـن شـرابى كـارع

أنـا الفـرد قطـب الوقـت والوقـت كلـه لأمـرى مجيـب يـا مريـدى، وطـائع

أنـا العـارف الـسمان واسمـي محمـد … وفخـري في الأكـوان للنـاس شـائع

أنـا النـور محـضًا والـولى الـذي بـه … أضـاءت بـدور الهـدٰى فهـي طوالـع

أنـا القرشـي الحـبر والعلـم الـذي … لرفعــه جــيش الولايــة خاضــع

أنـا في الـدنا أحمـٰى مريـدى إذا أتـى … بـصدق، وفـى العقبـٰى لـه أنـا شـافع

أنـا غـوث مـن قـد أم نحـوى وحـرزه … إذا مــسه مــن نكبــة الــدهر فـاجع

ومـا أنـا ممـن يـدّعى الحـب بـاطلا … ومـا أنـا مـن قـول الحواسـد جـازع

شـربت كـؤوس العـشق صـرفًا وفـضلتى … بهـا هـام مـن أسـقيته فهـو خـالع

وكـل مقـام في الهـوى قـد سـلكته … وتحـت لـوائى العاشـقون خواضـع

سـلوا نجـد عنـى والعـراق وشـامها … فلــى ثــم أســرار هنــاك ودائــع

وفــى يمــن والهنـد لـى ثـم فتيـة … بهـديى يهـداوا مـن عـن الحـق ضـائع

وقوله أيضًا:

قـم نحـو حـانى سـحيرًا إن تـرد مـددى … واشـرب مريـدى بكاسـى خمـرة الـصمد

واسـكرْ وهِـمْ في الـورى تيهًـا فمـا أحـد … إلا ولى شـــاهد بالفـــضل والرشـــد

أنـا الإمـام أنـا القطـب الـشهير أنـا … غــوث الأنــام أنـا الـسمان نـو المـدد

أنـــا محمـــد المحمـــود فاســـع إذا … ما شئت بـى وصـلة مـن حـضرة الأحـد

الوقت وقتـى، ومـا في الكـون أجمعـه … في قبضتى فهـو مـن جنـدى ومـن حـشدى

آيــات فــضلى في الأكــوان ظــاهرة … وكـل قطـب مـن الأقطـاب طـوع يـدى

فـانهض إلىّ، ونـادى إن تـرم فرجًـا … مـن نكبـة أو رمـاك الـدهر بالـشدد

يـا كهـف كـل الـورى في كـل نائبـة … يا من هو الغوث، يـا سمان يـا سندى

غثنـى تجـدنى مغيثًـا في الأنـام لمـن … بـى في الـورى لاذ مـن هـم ومـن نكـد

أنـــا الـــولىّ الـــذي دقـت بـشائره … ومــن أتــاه يعــيش الــدهر في رغــد

قد نلت قدرًا جليلا لم ينله فتى غيره، وقدرى سما عن مركز الأسد

فادنُ إليّ مريدى لا تخف أبدًا في هذه الدار من ضيم ويوم غد

واترك أراجيف أقوام أضلهم مولاهم أهل إنكار مدى الأبد

واعلم بأن إلهى من تفضله أنالنى نعمًا جلت عن العدد

وخصنى بمقام ليس يدركه غيرى، ولم يحوه في الناس من أحد

وقد حبانى جوارًا من محمده معنى وتسمية والقرب بالجسد

صلى عليه إلهى ماحدا سحرًا حادى المطايا بسفح البان من أُحد

والآل والصحب والأتباع ما نشدت قم نحو حانى سحيرًا إن ترم مددى

وتارة ينشده مريدوه برقائق الأشعار، التى تزرى بنسمات الأسحار. وتطرب بها العقول وتهيج منها الأفكار. كقصائد تلامذته في مدحه، وذلك كقوله عالم المدينة، سيدى السيد محمد الجفرى العلوى رحمه الله تعالى وغيره من صدور التلامذة:

ظهرت بدور الذات بالإشراق في حان مجلى البسط والإطلاق

وأدير كأس الوصل من خمر اللمى وفنى الرقيب، وطاب وقت الساقى

وأنى غريب الحى أرباب الوفا في حضرة التوحيد بالإطلاق

فغدوا سكارى من رحيق رُضابه وتهتكوا في مجلس العشاق

ثم انفنوا مذلاح بارق نوره فهو الذي ما زال يظهر باق

بمظاهر الرحموت في مجلى الرضا بمحمد السمان مرقى الراقى

باب الإله فمن أتاه فقد حظى بوصول سلمى بعد طول فراق

سر الوجود وطور سينا نوره فيه اهتدى من رام حسن تلاقى

ما كامل إلا وحل بسوحه كى يمتضىء بنوره السبراق

بحر المعارف فيه خض يا صاح إن رمت الترقى بل وحل وتلق

وأنــخ ركابــك في رحــاب جنابــه ... وســل المطالــب تــرق أي مــراق
يــا ســيدى إنــي التجــأت إليــك في ... كــل الأمــور فبيــضن أوراقــى
إنــي عليــل في رحابــك ميــت ... وأســير نفــسى راجيًــا إعتــاقى
فـأمط حجـابى واجـل لـي مـرآة قلـ ... ـبى كــى أشـاهد وحـدة الإطـلاق
وأفــوز مــن ليلــى بطيــب وصــالها ... في ليلــة طابــت بحــسن عنــاق
وأبيــت ألم ثغرهــا وأشــم مــن ... كـل الجهـات سـنى الـشذى العبـاق
وأخــوض في بحــر التجلــى نــشوة ... وأعــود صـحوًا بعـد محـو نفـاقى
فكــوا قيــادى ســادتى وتفــضلوا ... بوضـوح رمـزى مـن عمـى الإطـلاق
بحبيبنـا بحلـى البريـة أحمد المخصـ ... ـوص بالإســراء فــوق بــراق
صــلى عليــه الله ربــى دائمًــا ... والآل والأصــحاب خــير رفــاق
مــا أنــشدت في حــانكم قمريــة ... ظهــرت بــدور الـذات بالإشـراق

وكقول العالم العلامة سيدي الشيخ صديق بن عمر خان الصالح الصوفى الجداوى المدنى في مدح أستاذه المذكور:

ومــن عجــب أنــى أزيــد تعطــشًا ... لرؤيــة مــن أهــوى إذا مــا تقربــا
إذا كـان حـالى هكـذا وهـو لم يـزل ... معـى كيـف لـو يومًـا يكـون تحجبـا

وكقوله ﷺ على لسان حضرة القطب شيخه هذا:

إن شــئت تــدنُو مــن الــدنان ... وتجتلــى صــفوة المعــانى
وتحــظ بــالملتقى ســحيرا ... وزينــب الحُــسن والتــدانى
وتعتنــق كــل ذى قــوام ... مــسربل بالجمــال غــانى
فــدع ســليمى وأم دعــد ... وجــدّ في الــسير نحــو حــانى
وقــف علــى بابنــا بــذل ... ومــرغ الخــد في الهــوان .

وقل لساقى المدام لما   يدور بالراح في الأوان

أيا مدير الكؤوس صرفًا   على الندامى بلا توان

أدر لي الكأس واسقنيه   ومُنَّ فضلا بكاس ثان

فإن أبى عنك أو أجابوا   لك القساويس بالرطان

فقل لهم إنني مريد   لصاحب الوقت والزمان

سماننا القطب من يسمى   محمدًا غوث كل آن

فهاكها خمرة تعالت   عن ابنة الكرْم والدنان

نذيرها بالدجى سقانى   لكل من بالفنا دعانى

وفى مقام الخطاب ناجى   مبشرًا بالمنى جَنانى

وزادنى بالجوار عزًّا   من خاتم الرسل ذى الأمان

عليه أزكى صلاة ربى   بعدِّ تسبيح كل فان

والآل والصحب ما تلونا   إن شئت تدنو من الدنان

الفصل الثالث

(في بيان رجوعه الثاني من المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام إلى بلاده)

إعلم أن الشيخ ﷺ لما قضى وطره بالتمتع بزيارة القبر الشريف ورقى أوج المعالى، وفتحت له خزائن الشهود الحالى، وأردفت له من شيخه الإمدادات، وأنزلت من السماء فيوضه عليه أمطار الفيوضات، وقد بشره على رؤوس الأشهاد بقوله الصادق العالى، على رأس السبعين من عمرك ستصير قدمك على رقبة كل ولى لله المتعالى، موميًا له بذلك إلى القطبانية الكبرى. وقد حقق الله قوله باعطائها له باتفاق الأكابر من أولياء الورى، وقال أيضًا في حقه رضى الله تعالى عنه: قد وضعت فيها سر أربعة وأربعين قطبًا من الأقطاب المحمديين. ثم أذن بالسفر إلى بلاده الشهيرة، لإحياء أهلها بامداداته وفيوضاته الغزيرة، فقصد مكة المشرفة هو ومن معه من أصحابه للحج وأدى حجه ونسكه. وروى أنه رضى الله عنه قد ختم القرآن في شوط واحد من الصفا إلى المروة سبعين ختمة، ولم نقف على قراءته فيما بعده من الأشواط.

ثم توجه إلى البحر وركبه إلى أن خرج إلى سواكن، وقد زار القطب الجليل سيدي ابا الفتح الشاذلى قدس سره، وكان كثيرًا ما يحث على زيارة هذا الولى بلدة سواكن، ومنها توجه إلى بلاده، وعند قرية الدامر أرسل إلى الولى العظيم، الفقيه حمد ولد المجذوب ﷺ يخبره بقدومه عليه لمزيد الإلف القديم والواد العظيم، وكان ذلك في آخر عمر الفقيه حمد المذكور وانتهائه بالسير في طريقة. حدثنى من أثق به من الفضلاء النبلاء عن أكابر الصالحين والعلماء من السادة المجاذيب، قال: لما وصل الرسول المذكور إلى الفقيه حمد رحمه الله وأخبره، تواجد عند ذلك سرورًا واشتاق لينظره، وقال وهو في تلك الحالة: لو جاءنى على تقدير رسول من سيدي الشيخ أحمد زروق ﷺ يخبرنى بقدومه على، ورسوله من سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ، لبادرت لمقابلة سيدي الشيخ أحمد الطيب قدس سره قبل مقابلة سيدي الشيخ زروق ﷺ، مع أن المذكور من أكمل رجال سلسلته الشاذلية وأجلهم، وهذا لسر علمه وأمر فهمه من طريق كشفه ونظره.

ثم إنه قد تلقاه وعانقه واستبشر به، وأنزله عنده وأكرمه غاية الإكرام، ونوه بكماله

وعظمته بين الخاص والعام، وبهذا قد مال قلب أولاده إلى الشيخ ﷺ وأحبوه محبة زائدة، ونالوا من عظيم الفائدة، وأشربوا محبته؛ وأخذوا عليه طريقته، ومنهم العالم العلامة والدراكة الفهامة الفقيه محمد الأزرق بن أحمد بن الفقيه حمد المذكور، فإنه قد تلقن العهد على الشيخ المترجم، وقد أجازه بخطه الشريف إجازة تامة عامة في جميع أوراده وأذكاره، وأيضًا الفاضل الكامل الفقيه الصديق بن الفقيه الأمين بن الفقيه حمد المذكور رحمه الله، فإنه قد أخذ الطريقة على الولى الأفخم سيدي الشيخ حسيب بن إمام الكوباوى، تلميذ سيدي الشيخ المترجم ﷺ، وقد سمى عليه ولده العالم العلامة الشيخ حسيب، وقد اجتمعت به رحمه الله تعالى فرأيت منه ودًا عظيما، وعزًا فخيما؛ وأخبرنى أنه قد حج وأدرك المسمى عليه وأخذ عليه الطريقة السمانية، وما زال مشغولا باوراده ليلا ونهارًا سرًا وجهارًا.

وقد سرت محبة الشيخ رضى الله تعالى عنه في سائر الاخيار من المجاذيب، مع إذعانهم على أنه معدن الكمال والسر العجيب، ومما يدلك على ذلك أن سيدي القطب محمد المجذوب بن قمر الدين بن حمد المجذوب ﷺ لما طلب المبايعة في الطريقة الشاذلية من أبيه الفقيه قمر الدين رحمه الله تعالى، طلب منه أن يأذن له في رؤية النبي ﷺ يقظة، فتوقف والده عند ذلك وأخبر بكلامه هذا الفقيه محمد ابن أخيه أحمد بن حمد المجذوب، وكان هو الخليفة في ذلك الوقت، وتراجعا في ذلك كثيرًا، ثم اتفقا على أن يكتبا لصاحب الزمان القطب الشهير والغوث الكبير في ذلك الأمر، لعلمهما أنه لا يتقدم عليه في ذلك أحد، بل هو المقدم في حل مشكلات الطريق والأسرار، وأنه الفاتح لما أغلق منها ببنان الكشف والاستبصار، فكتبا إليه في ذلك فرد عليهما الجواب، وفيه: اسألاه عن قوله، هل هو وجد ذلك في نفسه فاشتاق إلى رؤية النبي ﷺ أم سمع هذا القول من غيره فأتى به محاكاة للقائل؟ فإن قال لم أقله محاكاة فأذنا له وإلا فلا، فسألاه فأجاب أنه ليس ذلك بمحاكاة، فأذنا له في رؤية النبي ﷺ يقظة، فخصلت له ببركة المترجم رضى الله تعالى عنه، فمن نظر بعين بصيرته في هذا المعنى علم يقينا قطبانية الأستاذ ﷺ واحتياج أهل الزمان إليه، وله المنة لا سيما وعلى المأذون له في الرؤية النبوية وقال المأذون:

فما من ولى نال قربًا وشربه	وسرًا من الأسرار في حضرة الرضا
وحقك إلا أحمد الطيب الذي	له الأمر والنور الذي ملأ الفضا
إمام ومنه الفيض جار لقلبه	وإن كان مثل الشمس في الكون قد أضا

أيضـــًا

ولـه اليـد البيـضا علـى كـل أمـرىء   في عـصره لـو كـان قـد بلـغ الـسها
لا تـــصغين لـــن يـــرد كلامنـــا   بتعـــصب أو جهـــل نفـــس باللـــها

ولنرجع إلى ما نحن فيه. ثم إن الشيخ ﷺ قد ودع الفقيه حمد المجذوب وسافر إلى بلده والسعادة تخدمه، والمهابة تقدمة، وعند حلوله بالبلاد قد ظهر منه العجب العجاب، والكرامات التي شاهدتها النواظر بدون حجاب؛ ولعمرى لقد عمر به وادى الإرشاد بعد أن أجدب، واعتدل به ركن الطريقة بعد أن أحدودب، وعفى رسمه ولم يبق في الحقيقة إلا اسمه، وتوارت أنواره وذهبت أسراره، وانقطع سنده، وارتفع مدده، وأفلت بدوره، وتهدم سوره، واختلت أركانه، وتبدلت أعيانه، وقد تشرفت البلاد بطارف فضله وتالده، وأحلته محل السمع والبصر وأجلته في البلدان لمحامده، ونادت عنايته بلسان حال ولايته لكل النواحى والآفاق، هلموا إلى بحر الأسرار والبدر الذي لا يعتريه محاق، فأتاه السعداء من كل جانب ومكان بمحبة وأشواق، ومدامع غزار، وصدق يكاد أن يؤثر في الحجار، فعمرت به البلاد، وتبدّت به بدور الإرشاد، وهرعت إليه الناس من سائر الجهات، ليقتبسوا من نوره الذي هو أضوأ من مصباح في مشكاة، وانقادت إليه الملوك والسلاطين والعلماء العاملون والنساء والرجال والعبيد والأحرار، وسرى حبه في قلوبهم سريان الماء البارد في نفس الظمآن، والعافية في الأبدان، ولنا فيه من قصيدة.

كـم مـن عزيـز أتـاه هائمًـا شـغفًا   وكـم رئـيس وكـم شـهم وكـم بطـل
قـد اسـتوى في هـواه النـاس كلـهم   وكيـف لا وهـو قطـب وارث الرسـل

الفصل الرابع

(في ثناء العارفين عليه والصالحين والعلماء من أهل بلاده وغيرهم من قبل زمانه وفي زمانه ومن بعده)

إعلم أن الشيخ ﷺ لما ظهرت للناس شموس علاه، وسرى في قلوب العالمين حبه وهداه، وفاض من رياض عرفانه في بقاع الأرض شذاه، وصار فريدًا تهرع إليه الفحول، وتضرب إليه أكباد الإبل من الجهات لأخذ الطريقة والوصول.

قد أعلن بالثناء عليه ما ستذكرهم من الأعيان والأولياء أهل الشان، فمن ذلك ما روى عن الولى الربانى الشيخ حمد المكاشفى البتلابى رحمه الله تعالى عند اجتماع مولانا البشير بن مالك به بالكندفيرة، وقصة الرؤيا التي رآها وجوابه له بقوله: يخرج منك ولد تكتحل به بصائر جميع أهل الجهات كما تقدم لك بيانه. ومن ذلك قول القطب الغوث سيدي الشيخ محمد السمان رضى الله تعالى عنه: على رأس السبعين من عمرك ستصير قدمك على رقبة كل ولى لله تعالى، ومن ذلك قول العلامة الأمير المصرى رحمه الله تعالى لمن سأله عن مقام الشيخ المترجم وعن علمه ومعارفه: إن ما بين علمكم وعلمه كما بين السماء والأرض.

أخبرنى محمد بن البشير السرورابى عن شيخه الشيخ الطريفى ابن الشيخ يوسف العركى رحمه الله تعالى؛ قال: سمعت والدى كثيرًا ما يقول: ما أبدت الأيام كالشيخ أحمد الطيب، وقد نهانا رسول الله ﷺ عن إساءة الأدب معه، فمن أساء معه الأدب لم يفلح أبدًا. وأخبرنى أيضًا بعض من التقى به أن بعضًا من العركيين عتب على رجل منهم لأجل أخذه الطريقة على الأستاذ المترجم، وكان ذلك بحضرة سيدي الشيخ يوسف قدس سره؛ فقال لهم: أما الشيخ يوسف هذا فلا إنكار في ولايته؛ وأما سيدي الشيخ أحمد الطيب فبحر لا ساحل له، فضحك عند ذلك الشيخ يوسف، وقال: صدقت ثلاثًا،

وكان العلامة الشيخ أحمد ولد عيسى الأنصارى رحمه الله تعالى كثيرًا ما يرسل بعض تلامذته لأخذ الطريقة عليه والانتظام في سلكه، وممن أرسله إليه وأخذ طريقته وانتفع بها الشيخ محمد ولد على ولد غلام الله الركابى، والفقيه النخلى ولد مكى، والفقيه بدوى ولد أبى صفية، والفقيه خوجلى ولد حتيك؛ والعلامة محمد الأزرق، والفقيه أحمد ولد الشيخ ولد عبد الدافع الحميدانى، والفقيه إبراهيم المفتى. لكن بمكاتبة، وغيرهم. وقد أرسل الأستاذ المترجم قدس سره كتاب حكمه إلى الفقيه أحمد ولد عيسى المذكور، فلما قرأ منه هذه الحكمة، وهي قوله:

(أول المقامات في طريق أهل الله التوبة لله، والتزام طاعة الله بخوف الله، والصبر على مراد الله، والزهد فيما سوى الله).

قال: لله در الشيخ من إمام عارف، كنا نظن قبل هذا أن الزهد انتهاء المقامات. ثم كتب على ظهر كتاب الشيخ كتابًا وأرسله إليه، وقال فيه من بعد كلام مضمونه الثناء على كتاب الحكم: إنه جمع فأوعى.

وكان القطب النفيس، السيد أحمد بن إدريس قدس سره يقول: من منة الله تعالى على وليه الشيخ أحمد الطيب ﷺ، أنه منذ فتح عليه ما تخلف عن الصلاة خلف رسول الله ﷺ، لا حيًا ولا ميتًا. وكان يقول: إنه من الأفراد.[1]

وكان العارف بالله تعالى السيد محمد عثمان الميرغنى قدس سره، يقول: ما اشتمل هذا الزمان على أعف ولا أزهد ولا أرشد ولا أمينًا على الأسرار كالشيخ أحمد الطيب ﷺ. وكان يقول: لا أود اليوم شيئًا مثل أن يأمر النبي ﷺ الأستاذ الشيخ أحمد الطيب بالإفاضة على الكون، إذ لو أمره وأفاض عليه لملأه بالأسرار حتى ذراته.

وسأله بعض تلامذته عن مقام سيدي الأستاذ المترجم، قدس سره، فقال: أنا سابقًا فقد رأيته في الحضرة كبير الأوتاد، وأما الآن فلا يعلم مقامه إلا الله تعالى. وأخبرنى ذلك السائل، وهو الخليفة الجزولى ابن إدريس الجعلى: أنه مدح سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ بقصيدة في عهد شيخه المذكور نظير ما كان يسمعه منه من حميد الثناء على الأستاذ المترجم. منها قوله:

أيـا طيـب الأخـلاق بـل أنـت طيـب   بطيبـك طـاب الـروح، والعقـل والجـسد

وكان العارف بالله تعالى السيد الحسن الميرغنى ﷺ يقول في حق الشيخ المترجم: لا يوجد اليوم على ظهر البسيطة ولا باطنها في كافة القطر السودانى مثله، ولا أمثل إرشاده إلا بإرشاد سيدي الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ. وأخبرنى تلميذه محمد ولد عمر الرفاعى. قال: سمعته يقول: لما زرت سيدي الشيخ ﷺ وجدت عند ضريحه ملائكة لا يحصون عددًا. وأخبرنى أيضًا تلميذه عبد القادر ولد السيد الدولابى قال: لما زرت معه سيدي الشيخ ﷺ بكى عند ضريحه بكاء كثيرًا، وأيضًا تلامذته، ثم خرج من القبة وخرجنا خلفه، فلما

١- هذا ينفي ما ذهب إليه كامل الأحمدي في تعليقه على مناقب العارف بالله سيدي السيد أحمد بن إدريس ﷺ. راجع تعليقه والرد عليه في آخر هذا الكتاب تحت عنوان ((تذييل)).

جلس في ظل الجامع سألناه عن سبب ذلك البكاء الذي لم نعهده من أنفسنا قبل اليوم، فقال: لما دخلنا لزيارة الشيخ ﷺ وجدنا عنده رسول الله ﷺ فنظر إليكم بعين الرحمة.

وأخبرنى أيضًا تلميذه الفقيه مدنى ولد عبد الصادق الهوارى قال: رأيت سيدي الحسن الميرغنى قدس سره حينما زرت معه مرة سيدي الأستاذ الشيخ أحمد الطيب ﷺ- قابضًا بيديه على صدره أمام ضريح الشيخ ويبكى ويقول بأعلى صوته: مدد يا أستاذ. وحكى الرجل الصالح الفقيه المصطفى ابن الفقيه الأمين وقوع مثل ذلك منه.

وكان السيد قدس سره يكثر من زيارة الشيخ والثناء عليه والتأدب عند ضريحه، ويعزى نفسه ألية في الطريقة السمانية؛ وذلك لأنه أخذها على مولانا العارف بالله تعالى الشيخ حسيب بن إمام المغربى تلميذ الأستاذ المترجم، كما هو مذكور في مناقب الفرد السيد الحسن المذكور، وقد رأيته سنة ألف ومائتين وسبعة وسبعين وهو يكثر من ذكر الأستاذ المترجم، ثم قال: ذلك هو الرجل الذي واجه الحضرة وواجهته، وقد سمعته أمر بنقل راتب الطريقة السمانية فنقل إليه ووضعه في جيبه، وما زالت السادة المراغنة رضان الله عليهم وأتباعهم يميلون إلى محبة الأستاذ المترجم، ويكثرون من زيارته ومحبته والثناء عليه دون غيره من الأولياء الذين ببلادنا.

وكان الولى الكامل المحبوب، سيدي الشيخ محمد بن قمر الدين الشهير بالمجذوب. يقول: من أراد أن ينظر إلى أخلاق رسول الله ﷺ فلينظر إلى أخلاق الأستاذ الشيخ أحمد الطيب ﷺ، وقد حكى بهلول صنو أحمد فضل الله المشهور بشجر الخيرى قال: نزل عندنا الهمام الفرد السيد الحسن الميرغنى قدس سره بكرى، فبالغ يومًا في ذكر سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ بالثناء عليه، فقلت له: يا سيدي قد ألحقته بسيدي الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ، فقال: ليس ذلك بأزيد منه. قلت: أراد بذلك أن كلا منهما كان قطبًا غوثًا، وإن اختلفت الآيات والأحوال والخوارق.

وقد أخبرنى أيضًا من أثق به من أهل الفضل قال كنت مع العارف المذكور ببحر أتبره فقرأت بين يديه (فتوحات) الشيخ محى الدين بن عربي فتعجب الحاضرون من علو نفس الشيخ وزيادة رتبته في المعارف، فقال السيد المذكور للحاضرين: عندنا شيخ ليس ابن عربي هذا بأكمل منه فقالوا: من هو؟ قال: الأستاذ الشيخ أحمد الطيب قدس سره. وكان ولده الكامل السيد محمد عثمان ﷺ إذا مر بالشرق عند سفره إلى جهة السافل وحاذى قبة الأستاذ المترجم فإنه ينزل عن ظهر دابته ويأمر بإنزال حملته، ويستقبل القبة إلى أن يأخذ برهة من الزمن ثم يرتحل.

وكان الولى الكامل الفقيه عبد الله ولد الرواج يسميه الأكسير، ويأمر تلامذته بالأخذ عنه؛ فممن أخذ عليه الطريقة منهم محمد ولد خالد الرفاعى المشهور، ولكن أخذه لها كان في حال صغره عند مرور الأستاذ المترجم إلى مدينة سنار، وذلك بقندال الغابة المعروفة. وكان الولى الصالح الزاهد الفقيه الأمين ولد محمدين دفين أبى عشر رحمه الله تعالى قد سمع رجلا بحضرته يقول: زيارة سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ الحج الأصغر، فقال له ليس كما قلت، بل زيارته الحج الأكبر، هكذا سمعته من شيخنا رحمه الله تعالى. وكان الشيخ عوض الجيد ولد أبى الحسن الخالدى رحمه الله يقول: لا يوجد اليوم رجل عنده سر الله الخالص كالشيخ أحمد الطيب ﷺ فقيل له هل رأيته؟ قال نعم. لقيته مرة على الطريق وهو راكب على فرس وأنا على حمار فعرفنى وعرفته، فنزلت لزيارته وقبّلت يده وهو على فرسه كحالته، وسنّة قريب من سنى أو سنى قريب منه، قلت: ومعنى قوله لا يوجد اليوم إلخ. يريد بذلك عدم التفات قلب الشيخ إلى شيء من الأكوان. وكان العارف بالله الشيخ إبراهيم الرشيد قدس سره يقول: كل أولياء السودان بالنسبة إلى الأستاذ الشيخ أحمد الطيب ﷺ مريدون، وقد زار ضريحه عام ألف ومائتين وتسع وستين من الهجرة فوجد منه مددًا وفيضًا ورشدًا. وكان العالم العلامة الفقيه أحمد ولد كنان رحمه الله تعالى مع صلابته في الدين وانتقاده على كثير من المتصرفة يقول:

ما رأت عينى وليًا على موافقة الشرع والزهد وحسن الإقبال على الله تعالى وصدق الإخبار بالغيب كالشيخ أحمد الطيب ﷺ، وكان يقول: لا يجوز لأحد أن يأخذ الطريقة إلا عليه، لذا لما جاء الفاضل الشيخ محمد النور ولد عربي من زيارة سيدي الشيخ المترجم ﷺ وكان ذلك سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين من الهجرة ونزل على الفقيه المذكور أكرمه غاية الإكرام، وطلب منه المؤاخاة ثم قال له: لولا عزوك في الطريق إلى الأستاذ الشيخ أحمد الطيب لما آخيتك، وإنما طلبتها منك لتشملنى بركته بواسطة مؤاخاتى لك، وكان الفقيه المذكور يقول: والله ما ترك سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ في الولاية لأحد شبرًا، وما رأيته قط إلا وازداد حبه في قلبى وكنت سابقًا قبل رؤيتى له منكرًا فيه. فلما رأيته أبدل ذلك الإنكار حبًا، والحمد لله على ذلك. وكان يقول: الأولياء يجيرون ويحمون كل من استجار بهم إلا من قصده سيدي الشيخ أحمد الطيب فإنه لا يقدر أن يحميه أحد، لأنه سلطان لإيجار عليه، ويذكر في ذلك حكايات كثيرة تتعلق به وبغيره من أبناء عصره، وكان إذا جرى ذكر الشيخ المترجم بحضرته يقول: ذاك الولى الذي لا يختلف فيه اثنان. وكان الفاضل العلامة الفقيه السيد ولد حماد يقول: كشف لي عن الملكوت فما رأيت في الأولياء الأحياء كالشيخ

أحمد الطيب، ولا في الأموات كالشيخ إدريس ولد الأرباب، وكان يأمر تلامذته بزيارة الأستاذ المترجم والأخذ عليه، فمن أخذ عليه منهم الفقيه محمد ولد الطيب ولد عبد المحمود المدفون بقبة الأستاذ المترجم، ومع أخذه عليه قد صاهره وكان صالحاً مباركا مشهورًا بذلك، وكان سيدي الوالد ﷺ إذا ذكر الشيخ بين يديه يقول ذاك الذهب الأبريز. وكان العارف بالله الشيخ أحمد البصير بن عبد الرازق الخلاوى رحمه الله تعالى يذكر في بعض الأحايين في حلق الذكر باسم الأستاذ المترجم قلت ولا إنكار فيه فقد ورد أن الطيب أسماء الله تعالى، ومن المعلوم أن الولى لا يجهل، وإنما الأعمال بالنيات. وكان المذكور إذا أرسل لسيدي الشيخ ﷺ هدية على دابة من الدواب ثم رجعت الدابة فإنه يقبلها تعظيما لمكانته ولكونها جاءت من عند الشيخ، وكان شيخنا العلامة الفقيه محمد ولد زروق رحمه الله تعالى يحدم في زرع له، وكان ذلك زمن قراءتي عليه أردت أن أخدم معه فمنعني وقال لي: أخشى من خدمتكم معي إساءة الأدب مع سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فكماني منكم أن تسألوا الله ﷻ لي حسن الخاتمة. وقد رأيت الفاضل الكامل الخليفة الماحى بن الجبارة رحمه الله يتواجد عند رؤيته لي وربما ضمني لصدره ويقول: كل ما أنا فيه من الخير إنما حصل لي ببركة جدكم، وكثيرًا ما كان يقدمني في عهد مرضه للصلاة حين أزوره على الحاضرين، ولو كانوا أكبر سنًا وأكثر علمًا، مراعاة لمقام الأستاذ المترجم ﷺ.

وكان العلامة الشيخ عبد الله الموارزى الشهير بأبى المعالى ﷺ يقول: مررت بالمشرق والمغرب فما رأت عينى كرجلين، قيل له من هما؟ قال. أما بالمغرب: فالأستاذ الشيخ أحمد الطيب بن البشير ﷺ، وأما بالمشرق فالسيد أحمد بن إدريس قدس سره. وكان الشريف له ولد رحمه الله الحسينى مع رفيع مقامه في الولاية لا يحب أن يذكر أحد من الأولياء بين يديه إلا سيدي الأستاذ المترجم، ويقول ذاك هو الرجل الذي تنمو بذكره أنوار القلوب، وتنكشف مدلهمات الكروب، وكان العارف الربانى سيدي الشيخ أبو الحسن ابن الشيخ عبد الكريم السمان قدس سره يقول: قد تحقق لدينا الوارث لسر قطبانية سيدي الشيخ محمد السمان ﷺ هو سيدي الشيخ أحمد الطيب قدس سره، قلت: ولذا انتمى إليه بأخذه الطريقة على تلميذه سيدي الشيخ حسيب ابن إمام رحمه الله تعالى، فأجازة أولاده بالمدينة المنورة إلى يومنا هذا ناطقة بذلك. وكان العارف الشيخ حسيب المذكور كثيرا ما يتواجد عند سماعه لذكر الشيخ، ولما بلغته- وهو بمكة- وفاة الشيخ بكى بكاءًا كثيرًا. وقال: لا يوجد اليوم على ظهر الأرض أحد مثله يكون شيخًا للحقيقة، وكان قد مدح الأستاذ المترجم- عند ملا قاته له وأخذه عنه الطريقة (بأم مرح)- بقصيدتين أحداهما ثمانمائة بيت، والأخرى أربعمائة بيت ذكر فيها العجب العجاب، من الكلام الذي يخلب العقول ويسحر الألباب. وقد وقفت

عليهما وأحرزتهما عندى إلا أنهما أخذتهما يد الضياع عند قيام ثورة المهدية مع ما كان عندنا من نفائس الكتب. فمن وجدهما فليلحقهما بهذا الموضع من هذا الكتاب.

وكان القاضى أحمد ولد الكامل الحلاوى رحمه الله تعالى المدفون بمقبرة عالم المسلمى بالحلاوين يقول بعد أن اجتمع بسيدي الشيخ وأخذ عنه وسأله عن بعض المسائل العلمية: والله لو اندرست المذاهب الأربعة لأحياها سيدي الشيخ ﷺ من نفسه، وذلك لسعة اطلاعه وطول باعه في المعارف. وكان الفقيه محمد ولد أبى سعيد يقول: لا يسلم علم الباطن والحقيقة إلا لسيدي الشيخ ﷺ ومن عارضه فيه قصم ظهره، وإنما قال ذلك لمسألة كانت بينه وبين الفقيه أحمد ولد مرتضى الشقلاوى. وسيأتى الكلام على ذلك في فصل كلام الشيخ ﷺ.

حدثنى الشيخ محمد بن الإمام رحمه الله تعالى قال: سمعت العارف بالله تعالى الشيخ محمد التوم ولد بأن النقا، قد بالغ يومًا في ذكر الوليين الكاملين؛ سيدي الشيخ موسى ولد يعقوب، والشيخ هجو ولد حماد، وذكر ما لهما من الكرامات والمناقب. ثم قال: إن جميع ما ذكرته وما لم أذكره من كراماتهما ومناقبهما فهو نقطة من كرامات سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ، قال: وسمعته مرة يقول: ما طالت لحية إلا بصحبة سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ. فقال له رجل من الحاضرين: يا سيدي إن فلانا يعنى رجلا من مشاهير زمانه قد طال، وما بلغنا أنه صحب سيدي الشيخ أحمد الطيب قدس سره، فقال: والله لقد عثر وأمرنى سيدي الشيخ بتولية أمره، وهو في بركة سيدي الشيخ ﷺ. قال: ولما توفى هذا الرجل المذكور قدم إلى العزاء فيه سيدي الشيخ محمد التوم قدس سره من بلاده. وذلك شاهد التولية، ولم يكن قبل ذلك بينه وبينهم عزاء ولا اتصال، وكان لما أراد الشيخ القدوم إلى العزاء قد منعه منه الشيخ عبد القادر ولد الشيخ الزين الموسابى اليعقوبابى فلم يقبل، وقال: لنا فيه نظر، وهو إشارة إلى ما قدمنا آنفًا.

وكان قاضى القضاة العلامة الشيخ أحمد السلاوى رحمه الله تعالى كثيرًا ما يكثر الثناء على الأستاذ المترجم، ولعله سمع شيئًا من مناقبه من شيخه العلامة الأمير عند قراءته عليه بالجامع الأزهر ومن غيره من الفضلاء، أو لأمر رآه في نفسه من جهة الشيخ ﷺ، وقد تمكنت منه محبته فصاهره وسمى باسمه أحد أولاده. وقد شوهدت لولده المسمى باسم سيدى الشيخ كرامات عديدة مشهورة بين أهل الفضل. وكان العارف بالله تعالى الشيخ القرشى بن الزين رحمه الله تعالى يقول: كل ولى على قدم نبى وسيدى الشيخ على قدم رسول الله ﷺ.

وكان يقول: كل ولي له حدّ مسمى في الإرشاد إلا سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ فإن إرشاده باق إلى يوم القيامة. قلت: وقد وافقه على ذلك جماعة من العارفين كالكامل السيد الحسن الميرغنى، والشيخ إبراهيم الكباشى وغيرهما. وكان الولى الصالح الزاهد الفقيه الأمين ولد أم حقين إذا مدحه شخص يقول له: كف عنى فإن المدح إنما يليق بسيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره. وكان يقول: إذا اتصف أحد في عصرنا هذا بصفة كمال انفرد بها فإن لسيدى الشيخ أحمد الطيب تسعًا وتسعين صفة لا يشاركه فيها أحد. وكان الشيخ محمد ولد مكى رحمه الله تعالى إذا نسبه أحد إلى جده الشيخ إدريس ولد الأرباب قدس سره بأن بركته منه يقول له: لا منة لأحد على إلا لسيدى الشيخ ﷺ وحده.

وكان بعض المريدين من تلامذة الأستاذ المترجم يسمونه النور المجموع لشدة إشراق نور وجهه. وسمعت العارف الشيخ القرشى بن الزين رحمه الله تعالى يقول: لقد رأينا له ضياء في الظلام يكاد القارئ أن يقرأ به ما شاء، وقد سأل رجل من ذرية سيدى الشيخ إدريس بن الارباب قدس سره الشيخ إبراهيم الكباشى رحمه الله تعالى: هل أعظم مقام جدى الشيخ إدريس أم مقام الشيخ أحمد الطيب؟ فقال له: أعظم مقام سيدى الشيخ أحمد الطيب. وكنت وقتئذ حاضرًا بالمجلس ولم يعرفنى أحد من الحاضرين، فتغير خاطر ذلك الرجل وكان تلميذًا له، فأراد رجوع الشيخ إبراهيم الكباشى عن كلامه بكلام ألقاه له فقال له: يا هذا إن هدير تيار بحر إرشاد سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ منعنا المنام، وهو شاهد قوى على أفضلية الأستاذ المترجم على غيره، وكان العارف بالله الشيخ محمد ولد بدر رحمه الله تعالى يقول: لولا قطب (أم مرح) ما صحا قلب مصلح، وله حكاية في ذلك سنذكرها إن شاء الله تعالى في فصل الإرشاد.

وكان العلامة الفقيه مختار الشنجيطى رحمه الله تعالى إذا سمع شيئًا من كلام سيدى الشيخ ﷺ فإنه يبادر لنقله بيده ويقول للحاضرين: ألا تشمون رائحة الولاية! وكان الفاضل الصالح الشيخ محمد المقابلى رحمه الله تعالى إذا ذكر سيدى الشيخ في مجلسه هام وهاج ومنع أن يذكر معه غيره إلى أن يختم المجلس، ولو كان الغير أبا يزيد كما نقل ذلك عنه.

حدثنى الكامل الفاضل الصالح السيد المكى ابن العارف الهمام السيد إسماعيل الولى ابن السيد عبد الله الكردفانى قدس الله سره. قال: قال لي والدى: لولا أن داركنى سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ عندما فتح على، ووضع يده على صدرى لأخذنى الفتح، وهو له على أعظم منة: قلت: وقد زار السيد المذكور الأستاذ المترجم عند قفوله من الحج (بأم مرح) ورأيت ولده وخليفته الفاضل السيد المكى يرسل بعض أزواجه إلى زيارة ضريحه لطلب

الذرية في عهد إقامته (بأم درمان) إحياء للود القديم، واعترافًا بما حصل لوالده من الأستاذ المترجم من الإغاثة والإمداد، وكان السيد إسماعيل الولى المذكور يقول: لما فتح عليّ وأطلعنى الله على من في الديوان، ما رأيت أحدًا عليه هيبة ووقار وبهجة كسيدى الشيخ أحمد الطيب رضى الله عنه، قال وقد رأيته في الحضرة وهو النائب عن رسول الله ﷺ، وسمعت أهل الديوان لا يلوذون إلا به، والهواتف لا تهتف إلا باسمه. وكان الرجل الصالح الفقيه الإمام ولد دوليب رحمه الله تعالى يقول: لما فتح على ودخلت ديوان أهل الله تعالى سألت عن القطب الغوث فقيل لي: صاحب العنق الطويل، وهو الذي بين يدى رسول الله ﷺ، يعنون بذلك سيدى الشيخ ﷺ. وكان العطا المجذوب العقيلى رحمه الله تعالى يقول: ما سمعت ولا رأيت وليًا يمازح أصحابه بشر الله كسيدى الشيخ ﷺ فرأيته يعطيه لمن طلبه في الحال، وإذا ضاق صدره منه أخذه عنه.

حدثنى الفقيه محمد ولد البشير السرورابى رحمه الله قال: كان الشريف محمد الهاشمى كثيرًا ما يمر علينا، وقد تزوج هناك في السروراب بدار الجلال بنت الحاج عبد الوهاب ولد محمد تلميذ الشيخ البحيرابى، وإذا مر في بعض الأحيان بطريق قبة الشيخ لم يزره كعادة غيره، فسألته يومًا على عدم زيارته، فقال لي: رأيت في القبة نسوة ولم أستطع الزيارة مع وجودهن هنا، فنام عندى بالشرق في الثمانيات، فانتبه من نومته عجلا وقال: بادرْ بنا إلى المركب لزيارة سيدى الشيخ. فقلت له: ما حصل لك؟ فقال: قد دخلت الآن الديوان رأيت النبي ﷺ والأولياء حوله، وسيدى الشيخ أحمد الطيب وهو أكبر من حوله، وهو الغوث والفرد والقطب. فلما أردت الوصول إلى النبي ﷺ، أمرنى أن لا أقدم عليه إلا من بعد وصولى إلى الشيخ ﷺ، فبادرت معه إلى البحر إلى أن خرجنا، وزار سيدى الشيخ واعتقده اعتقادًا كاملا، وأكثر من زيارته إلى أن مات رحمه الله بالدامر ودفن به.

وسمعت الكامل الصالح الشيخ حمد النيل ابن الشيخ أحمد الريح رحمه الله تعالى يكثر من الثناء على الشيخ كثيرًا. وعندما كنا نحن وهو في سجن الخليفة عبد الله بن محمد خليفة المهدى قال لي: لا يخرجنا من هذا السجن إلا سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ. وقد رآه أحد أتباعى البارحة أمام منزلى بأم درمان، وهو يريد إخراجنا من السجن، فلابد من خروجنا منه. وقد سرت محبته بذلك فينا إلى أن سمى علينا مولودًا ولد له مدة إقامته بأم درمان، وقد توفى ذلك المولود بأم درمان.

وكان الفاضل الكامل الزاهد الشيخ محمد ولد يونس خليفة الشيخ دفع الله رحمه الله تعالى يبالغ في ذكر الشيخ والثناء عليه. وسمعت العالم العلامة الشيخ الحسين ولد للفقيه

إبراهيم زهر لمرحمة الله يقول: لما توجهت إلى الحج زرت ضريح سيدى الشيخ ﷺ، فحصل لي أنس عظيم، وصرت أبكى إلى أن فاتنى رفقتى. وكان السيد العظيم والشريف الفخيم الشريف محمد الأمين الهندى قدس سره يقول: الشيخ أحمد الطيب هو عماد الأولياء ومحل إمداداتهم، وقد أردت الانتظام في سلكه على يد وارثه العارف بالله الشيخ محمد التوم ولد لبان النقا في عهد قراءتى العلم بسنار على شيخنا الفقيه النذير، إلا أن المذكور قد منعنى من ذلك، وإنى إلى اليوم غير راض عنه. وكان العلامة الصالح الفقيه محمد ولد الفقيه إدريس الشهير بولد دوليب إذا ذكر الشيخ ﷺ في مجلسه يكثر من التواجد والثناء عليه جدًا وربما قطع الدرس التذاذًا بسيرته.

وكان الأستاذ العارف بالله تعالى سيدى الشيخ محمد أبو الحسن السمان قدس سره، يقول: من أراد الوصول، فعليه بطيب الأصول. وكان الشيخ عبد الباقى ابن الشيخ عبد القادر البطاحنى يقول: اللهم انفعنا بأربعة من الموسومين من الأولياء بأحمد، وانفع بالباقين أهليهم. قيل له من هم؟ قال: أحمد الرفاعى، وأحمد البدوى، وأحمد زروق، وأحمد الطيب رضوان الله عليهم أجمعين، وغير ذلك من ثناء العارفين.

مــا فيـــه عيـــب غـــير أن ضـــياءه	حـسدته شمـس الأفـق عنـد طلوعهـا
وعـــلاه ذكـــر النـــور لمـــا قـــد عـــلا	في الحـــضرة العليـــاء بـــين جموعهـــا
الطيـــب المختـــار مـــن أزل لنـــشر	أصـــول طـــرق الأوليـــاء وفروعهـــا

الباب الرابع

وفيـه عشرة فصــول

الفصل الأول

(في مبنى طرائقه اللآتي ذكرها وغيرها من طرائق السادة الصوفية، وأركانها، وأحكامها، وواجباتها، وإلزامها)

فمبناها على ستة أشياء: التوبة، والعزلة، والزهد، والتقوى، والقناعة، والتسليم. وأركانها ستة أيضًا:- العلم، والحلم، والصبر، والرضا، والإخلاص، والأخلاق الحسنة في الصبر على الأمر المقضي.

وأحكامها سته أيضًا: المعرفة، واليقين، والسخاء، والصدق، والشكر، والتفكير في مصنوعات الله تعالى.

وواجباتها ستة أيضًا: ذكر رب العالمين، وترك الهوى والدنيا، واتباع الدين، والإحسان إلى المخلوقات، وفعل الخيرات، وربطها. وإلزامها المبايعة، فتكون البيعة بمنزلة النكاح ليصير الولد صحيحًا لا عاهرًا. وكيفيتها؛ أن يأمر الشيخ المريد بالتوبة من جميع الصغائر والكبائر، ثم يقابله بوجهه ويضع يده على يده ويأمره أن يغمض عينيه ويقول: (لا إله إلا الله) ثلاث مرات والمريد يسمع. ثم يقول المريد: (لا إله إلا الله) ثلاث مرات، والشيخ يسمع، ثم يقرأ للتبرك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الفتح:١٠]، ثم يدعو له ويوصيه بما فيه إرشاده ونفعه من الأوراد. وعند بعضهم: فيقرأ الشيخ عند مبايعته للمريد البسملة والفاتحة والإخلاص والصلاة على النبي ﷺ بلا انتقاص، لتكون مهرًا.

الفصل الثاني

في بيــان طريقتــه النقشبنـدية

(وهي الطريقة المنسوبة إلى قطب العارفين، وتارج الواصلين، وخلاصة أهل الحق والدين، سيدى بهاء الدين النقشبندى البخارى قدس سره)

إعلم أن هذه الطريقة طريقة الصحابة على أصلها، لم تزد ولم تنقص؛ وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهرًا وباطنًا مع كمال الالتزام للسنة والعزيمة، وتمام الاجتناب عن البدعة والرخصة، في جميع الحركات والسكنات، في العادات والعبادات والمعاملات، مع دوام الحضور بالله تعالى على طريق الذهول والاستهلاك، في طريق الانصباغ والانعكاس، لكما لارتباطهم بها مع هذه المجاهدة الذكيه المستورة، يستوى في استفاضتها الشيوخ والصبيان، وفي إفاضتها الأحياء والأموات، ويندرج انتهاؤها في الابتداء، وابتداؤها في انتهاء غيرها، لما فيها من انجذاب المحبة الذاتية مما فضل به واسطتها الصديق الأكبر ﷺ، فهذه أمّ الطرق ومعدن الأسرار الصديقية والحقائق، ولا جرم أمرها كبير، وشأنها خطير، ترى منكرى الأولياء مذعنين لها لاستقامتها واعتدالها فضلا عن الموقنين المعتقدين، لتحريرها عن الشطح والرقص وسفاسف السماع، وسلامتها عن كدورات جهلة المتصوفة وزخارف الرقاع والابتداع، وتحليها من السنة السنية بالاتباع، وغلبة العلم والاستماع له من الأتباع. وهي مما جرى على قبوله الوفاق، وأقر بفضله علماء الآفاق. وبالجملة فهي الطريق الأقرب الأفضل الأقوى الأتم الأكمل الأحكم الأوضح، والمشرب الأعذب المصون عن كل قادح.

لا يـدرك الواصـف المُطـرى خصائـصه   وإن يكــن ســابقًا في كــل مــا وصــفا

سقانا الله تعالى من رحيقها المختوم، بطابع أسرار العلوم اهـ.

قال (في جامع الأصول): إن أصول طريق النقشبندية، التمسك بعقائد أهل السنة، وترك الرخص. والأخذ بالعزائم، ودوام المراقبة والإقبال على المولى، والإعراض عن زخارف الدنيا، بل وعن كل ما سوى الله وتحصيل ملكة الحضور، والخلوة في الجلوة، مع التحلى بالاستفادة، والإفادة في علوم الدين، والتزيى بزى عوام المؤمنين، وإخفاء الذكر، وحفظ الأنفاس بحيث لا يدخل ولا يخرج نفس مع الغفلة عن الله الكريم، والتخلق بأخلاق النبي

صاحب الخلق العظيم. وشرائط هذه الطريقة، والاعتقاد الصحيح، والتوبة الصادقة، والاستحلال من أرباب الحقوق، ورد المظالم، واسترضاء الخصوم، والتحقق بآداب السنة في الأمور كلها، والدقة، والتحقيق على العمل بأصح الشريعة، والاهتمام على المجانبة من كل المنكرات والمبتدعات، والغيرة على التباعد عن الهوى والمذمومات.

قال (في الروض النضير): وللطريقة هذه أصلان، من أعطيهما أعطى كل شيء، اتباع النبي ﷺ، وصحبة الشيخ الكامل، ولكنها ليست توجد بالتكلف بل التكلف عندهم زندقة، ولكن هي من عطاء الله تعالى يمن على من يشاء من عباده، فالصحبة بشروطها مع هذين الأصلين كافية للانصباغ والانعكاس، ثم رابطتهم ولو بالمعاينة، ثم الالتزام بما يتلقى عندهم من الأذكار الواردة عندهم معنعنًا، كاسم الذات والنفي والإثبات، فمن يستعد لتقدم السلوك فله الثاني، فأما المبتدىء في السلوك فله الأول، وكلاهما للمترقى فيه، ويتدرج بالذكر في اللطائف الخمس التي هي: القلب والروح والسر والخفى والأخفى، (فالقلب) هو وإخوانه من الروح والسر والخفى والأخفى الذي هو عالم من عالم الأمر الذي خلقه الله تعالى (بكن)، بغير مادة مركبة من لطائف عالم الخلق الذي خلقه الله تعالى من مادة النفس الناطقة، والعناصر الأربعة: محل القلب المضغة التي تحت الثدى اليسار، والروح محلها في اليمين، والسر في يسار الصدر، والخفى في يمينه، والأخفى في وسطه، والنفس في الدماغ. والعناصر تندرج فيها، فكل من هذه المحال محال الذكر على الترتيب، فكيفية ذكر إسم الذات بالقلب مثلا أن يتصل اللسان بسقف الحلق، وينطلق النفَس على حاله، والأسنان على الأسنان، ويخيل في القلب نقطة الجلالة بمعناها، فيستمر على ذلك من غير انقطاع، وإن تكلم باللسان عند الحاجة فلا ينقطع خياله، فإنه مدخل لما وراء هذه القوى المعهودة من القوة الوهبانية من رسوخ المذكور في القلب ونسيان الأغيار، وإذا ارتسخ في القلب ذكره انتقل إلى الروح، ثم إلى الخفى، ثم إلى الأخفى، فكذلك الرسوخ لما بعد القلب من اللطائف على الترتيب المذكور، فإذا ارتسخ بالذكر لطيفة النفس حصل سلطان الذكر، بأن يعم على جميع رسوخ الإنسان بل على الآفاق أيضًا، فعند ذلك يلقن كلمة لا إله إلا الله.

وكيفية الذكر أن يلتصق اللسان بلا إله إلا الله، كما في الأول، وينحبس النفس تحت السره، ويتخيل منها إلى الدماغ، ومنه إلى الكتف الأيمن، ومنه إلى القلب فيحيط على اللطائف كلها، ويلاحظ معناها بأن لا مقصود إلا الله، فإن نفى المقصودية أبلغ، لأن كل معبود مقصود، ولم يعكس، ويقول في آخرها «محمد رسول الله» ويريد به الاتباع بالتقييد،

ويكررها على قدر قوة النفس، فإذا ضاق النفس يطلقه من الفم على الوتر؛ ويقول: «اللهم أنت مقصودى، ورضاك مطلوبى» فإذا استراح يشرع في نفس آخر، لكن يراعى بين النفسين بأن لا يغفل، بل يبقى التخيل على حاله لئلا يخل الاستمرار، فإذا انتهى العدد إلى الإحدى والعشرين تظهر النتيجة، وهي نسبتهم المعهودة من الذهول والإستهلاك، فإذا لم تظهر فمعلوم أنه لم يكمل الآداب، فليستأنف وليطابق الفعل القول، فإن المقصودية في سواه إذا كانت باقية في الواقع لزم الكذب فليس بصادق. ولا حصر للعدد، فإذا جاهد فيه حق الجهاد وانتفى وثبت المثبت: وظهرت النتيجة تصح له المراقبة، وهو أن يلازم القلب معنى اسم الذات على طريق الاستغراق والاستهلاك، بحيث لا ينفك عنه في أي حال كان، فإذا انتهى أمره إلى انتفاء العلم مطلقًا حصّل مبادىء الفناء، فيسوغ له الذكر المسانى بلا إله إلا الله مع التدبر الحقيقى، وأقله خمسة آلاف، وبحصول الفناء التام حصلت له أول درجة الولاية الصغرى، وبقى بالله تعالى وقام به ﷻ، فحينئذ يليق به الاشتغال بنوافل الصلوات، فإذا انتهت الصغرى بمحض كرمه تعالى وتشرف بالكبرى، وهي ولاية الأنبياء ساغ له الاشتغال بالتلاوة، فإذا سهلت عليه العناية، وتمت له الأفنية، وحصلت له الأبقية، وانقطعت البرازخ تشرف بولاية الملأ الأعلى، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

ولا يظن الظان سهولة الأمر، فإن قطع مسافة أدنى درجة منه مقدار خمسين ألف عام:

كيـــف الوصـــول إلى ســـعاد ودونهـــا   قُلـــل الجبـــال وبيـــنهن حتـــوف

وهذه إشاره إلى جمال هذا الشأن العظيم تذكرة، وأين الإجمال وأين التفصيل فإن لا تسعه الأسفار، لكن من اشتملت عليه العناية الأزلية يقدر له المقدار، ولا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

وسند الشيخ ﷺ في هذه الطريقة، هو أنه أخذها بسندها المعلوم عن قطب دائرة الأكوان، سيدى وأستاذى الشيخ محمد بن عبد الكريم الشهير بالسمان؛ وهو أخذها بسندها المعلوم المتصل بإمام الطريقة، وغوث الخليقة ذى الفيض الجارى، والنور السارى، المعروف بشاه النقشبندى بهاء الدين محمد البخارى، قدس سره وعم بره، عن منبع المعارف والكمال، رئيس السادات السيد أمير كلال، قدس سره عن المقبل على الله ولما سواه ناسى، قطب الاتقياء الشيخ بابا السماسى، قدس سره، عن الواله في محبة مولاه الغنى المعروف

بحضرة عزيزان على الراميتى قدس سره وعم بره، عن المعرض عن المراد الدنيوى والأخروى، شيخ المشايخ الشيخ محمود الأنجير فغنوى، قدس سره، عن المتسلق عن الحجاب البشرى، قطب الاتقياء الشيخ العارف الريوكرى قدس سره، عن القطب الربانى غوث الخلائق عبد الخالق الغجدوانى قدس سره، عن الغوث الصمدانى الشيخ يوسف الهمدانى قدس سره، عن النشوان من رحيق الحب السر مدى، قطب الواصلين على الفارمدى الهمدانى قدس سره، عن المحبوب السبحانى، غوث السالكين أبى الخرقانى قدس سره، عن المؤيد بالتأييد الإلهى صاحب الفيض الإلهى، أبى اليزيد البسطامى قدس سره، عن الإمام جعفر الصادق ﷺ، عن الإمام محمد بن أبى بكر الصديق، عن الصحابى المعدود من آل بيت رسول الله ﷺ سلمان الفارس ﷺ. عن خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق ﷺ، عن منبع الصدق والصفا أفضل الخلائق محمد المصطفى ﷺ وتسمى هذه بسلسلة الذهب.

واعلم أن النقشبندى قد أخذها أيضًا عن روحانية الغجدوانى إلى آخر النسبة، والفارمدى أيضًا عن الشيخ أبى القاسم الكركانى عن الشيخ أبى عثمان المغربى عن الشيخ أبى على الكاتب عن الشيخ أبى على الروذبارى، عن الشيخ أبى على القاسم الجنيدى البغدادى، عن شرى السقطى، عن معروف الكرخى، عن الإمام على الرضا، عن والده الإمام محمد الباقر، عن والده الإمام على زين العابدين، عن والده الإمام الحسين ﷺ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، عن سيد المرسلين محمد ﷺ.

والكرخى أيضًا عن داود الطائى، عن حبيب العجمى، عن الحسن البصرى، عن على بن أبى طالب، عن سيد الكونين. وعلى أيضًا عن الصديق الأعظم، عن النبى ﷺ. قال العارف عبد الوهاب الشعرانى فى المدارج: إعلم أيها الطالب أن المريد إن لم يعلم آباءه وأجداده فى الطريق فهو أعمى، وربما انتسب لغير أبيه فيدخل فى قوله ﷺ «لعن الله من انتسب إلى غير أبيه»، وقال سيدى عمر بن الفارض قدس سره:

نسب أقرب فى شرع الهوى ... بيننا من نسب من أبوىْ

وذلك لأن الروح ألحق بك من حقيقتك، فأبو الروح يليك وأبو الجسم بعده، فكان بذلك أحق أن ينسب إليه دون أبى الجسم.

وقد درج السلف الصالح كلهم على تعليم المريدين آداب آبائهم ومعرفة أنسابهم، وأجمعوا كلهم أن من لم يصح له نسب القوم فهو لقيط فى الطريقة لا أب لهْ، ولا يجوز له

التصدر والجلوس لإرشاد المريدين، إلا بعد أخذه آداب الطريق من شيخ كامل مجمع على جلالته وخبرته بالطريق، ثم يؤذن له تصريحًا بأن يرشد ويلقن ويلبس الخرقة على شروط ما كان عليه السلف ﷺ أجمعين.

ثم من بعد كلام يسير قال فيه أيضًا: إعلم يا أخي أن السر في التلقين إنما هو لارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الله ﷻ، وأقل ما يحصل للمريد إذا دخل في سلسلة القوم بالتلقين أن يكون إذا حرك السلسلة تجاوبه أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الله ﷻ، فمن لم يدخل في طريقهم بذلك فهو غير معدود منهم، ولا يجيبه أحد إذا حرك السلسلة.

الفصل الثالث

(في بيــان طريقتــه القــادرية)

أي المنسوبة إلى القطب الأعظم، والغوث الأكرم، قدوة العارفين، وتاج هامة الواصلين، العالم الفاضل الأكمل، المحقق المدقق المجتهد الأفضل، والسر الضارى، والمدد الجارى، في المشارق والمغارب، ملجأ الأولياء والسالكين، كنز المطالب الشيخ محي الدين عبد القادر أبى محمد بن أبى صالح موسى بن داود ابن عبد الله بن موسى الجون، ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طلب ﷺ أجمعين.

كان مولده قدس سره سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بجيلان، وسكن بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وله ثماني عشرة سنة، وأمه أم الخير أمة الجبار فاطمة ابنة أبى عبد الله الصومعى، وكان لها حظ وافر من الصلاح والتقوى.

قال (في جامع الأصول): وكان ﷺ نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر، عريض اللحية، أسمر، مقرون الحاجبين حفيا، ذا صوت جهورى، وسمْت بهى، وقدز علىّ، وعلم وفىّ، ﷺ.

وأصول طريقته الخمسة: علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزمة، وتعظيم النعمة. فمن علت همته ارتفعت مرتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن أنفذ عزمته دامت هدايته، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها، ومن شكرها استوجب المزيد من النعم حسب ما وعده. وفي (الروض النضير): ومبنى طريقته هذه على الذكر الجهرى في حلق الاجتماع، والرياضة الشاقة، وتقليل الأكل، والفرار من الخلق، والذل والانكسار.

قال العارف بالله تعالى سيدى الشيخ عبد الغنى النابلسى ﷺ:

طريقتنـــــا شـــــرقية قادريـــــة ... فــلا تختـــشى قهـــرًا وذلا ولا قوتـــا

وفى الشرق عبد القادر القطب شيخنا ... طريقتـــه تفـــضى إلى العـــز مثبوتـــا

طريقـــــة ذل وانكـــــسار لأجـــــل ذا ... إلى الـشرق مـدت سـنة أرجـل المـوتى

ومن شرط السلوك فيها أن يكون مصحوبًا في البداية باستحضار جلال الله تعالى وعظمته، إذ به تنقمع النفس وتذهب.

قال على بن الهيتى ﷺ: كانت طريقة سيدى عبد القادر قدس سره، تجريد التوحيد وتوحيد التفريد، مع الحضور في موقف العبودية، لا شيء ولا لشيء. وكان الشيخ عدى بن مسافر ﷺ يقول كانت طريقة سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ الذبول تحت مجارى الأقدار، بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر، والقرب والبعد، وكان الشيخ بغا بن بطو ﷺ يقول: كانت طريقة الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ اتحاد القول والفعل، والنفس والوقت، ومعانقة الإخلاص والتسليم، وموافقة الكتاب والسنة، في كل نفس وخطرة وازدحال، والثبوت مع الله ﷻ وكانت طريقته التوحيد وصفًا، وحكما، وحالا. وتحقيقه الشرع، ظاهرًا، وباطنًا. ووصفه؛ قلب فارغ، وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر، بسريرة لا تتجاذبها الشكوك، وسر لا تتنازعه الأغيار. وأذكارها خمسة، ولها أساس يستعمل دبر الصلوات الفرضية، وأوراد بالليل في خلوات كل ذكر.

أما أساسها فالاستغفار ولفظه: استغفر الله الغفور الرحيم، والصلاة على النبي ﷺ، وصيغها: (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، ولا إلى إلا الله، ويا الله، ويا هو)، والجملة أنها خمسة كما تقدم، وكل منها ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى، ووسطى، وصغرى، على قدرهم المريدين، فصغرى (الاستغفار) مرتان، ووسطاه عشرون، وكبراه مائتان. (والصلاة على النبي ﷺ) كالاستغفار في مراتبها الثلاثة، الصغرى، والكبرى والوسطى. (ولا إله إلا الله) صغراها ثلاث مرات، ووسطاها ثلاث عشرة مرة، وكبراها ثلاثمائة وثلاث عشرة مرة. (ويا الله) صغراه خمس، ووسطاه أحد عشر، وكبراه مائة وستون مرة. (ويا هو) صغراه إحدى عشرة مرة، ووسطاه تسع عشرة مرة، وكبراه ثلاثمائة وسبعون مرة، على عدد (عش).

قلت: هذا هو الذي أخذناه عن مشايخنا، وهم قد أخذوه عن شيخ الطريقة وسلطان الحقيقة سيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره، وعليه غالب أهل الطريقة الطيبية السمانية القادرية ببلادنا، وقد وقفت على رسالة للعارف بالله تعالى الشيخ إسماعيل بن الشريف تقاديم أحد الآخذين عن الشيخ ﷺ وخواصة، وهو يذكر فيها أن صغرى الاستغفار سبعون مرة، والوسطى من كل الأساسات الخمسة فقد أنزله منزلة الكبرى التي تقدم ذكرها آنفًا، وأما الكبرى فقد ذكر أن كل واحد من الأساسات الخمسة يذكر ألفًا، ثم قال: إن تقديم

مشايخنا القادرية الاستغفار على الصلاة على النبي ﷺ بمنزلة التخلية للبيت من القذرات، والصلاة على النبي ﷺ بمنزلة التحلية بالبخور، والتهليل بمنزلة الكرسى العظيم، واسم الجلالة بمنزلة الملك العزيز الكريم، وما بعده من الأسماء بمنزلة الوزراء، والبيت المشار إليه قلب المريد اهـ كلامه، فلنرجع إلى ما نحن بصدده.

فمن بعد قراءة الأساس الذي اختاره له شيخه من أحد أعداده الثلاثة الصغرى والوسطى والكبرى فليغمض عينيه وليذكر أسماء الإشارة وهي (هذه؛ ها. هو. هي.) ولأشياخنا فيها معان شتى كلها تشير إلى الذات العلية وقد رأيت في رسالة لقطب دائرة الأكوان، قطب هذه الطريقة سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام التي تسمى «بإغاثة اللهفان ومؤنسة الولهان» أن (ها) إشارة إلى الهاء من لا إله، وأن (هو) إشارة إلى الهاء من إلا الله، وأن (هي) إشارة إلى الهاء من محمد رسول الله، والألف من (ها) والواو من (هو) والياء من (هي) للاشباع. اهـ حسب[1]. وكيفية الإشارة بذلك من بعد تغميض عينيه، أن يشير (بها) إلى العلو (وبهو) إلى اليمين والشمال والخلف والأمام، مع استدارة وجهه في ذلك، ويشير (بهى) إلى أسفل، ثم يقول المريد: لا وجود لغير الذات المنزهة عن التشبيهات ويختم بصلاة تنجينا.

وأما أوراد الليل من الأسماء الخمسة المذكورة؛ فالصغرى من الاستغفار سبعة آلاف، والوسطى إثنا عشر ألفًا، والكبرى سبعون ألفًا وصغرى الصلاة على النبي ﷺ إثنا عشر ألفًا، والوسطى إثنان وخمسون ألفًا، والكبرى سبعون ألفًا. وصغرى التهليل إثنا عشر ألفًا، ووسطاه خمسة وثلاثون ألفًا، وكبراه سبعون ألفًا، وكبرى الكبرى مائة وخمسون ألفًا، وذلك ما بين اليوم والليلة، قال شيخ الطريقة سيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره: ولا يداوم على هذا إلا صاحب بصيرة. وصغرى الجلالة، أربعة آلاف؛ ووسطاه أربعة وعشرون ألفًا، وكبراها ستة وستون ألفًا، وإن شئت قلت سبعون ألفًا، وكبرى الكبرى مائة وتسعون ألفًا، وهو ورد سيدى الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ. وصغرى الهوية ألفان، ووسطاها إثنى عشر ألفًا، والكبرى تسعة عشر ألفًا، وهو ذكر الانتهاء والاستغراق في عظمة الربوبية. ولكل واحد من هذه الأعداد خلوة وعلوم ومكاشفات، وفتح يرد على قلب المريد، ولكن الشرط الصدق والإخلاص وصحبة العارف بالله، ولا ينتقل المريد من ذكر إلى ذكر إلا بعد ظهور الثمرة، أو إشارة الشيخ، أو الإذن الآلهى، أو بهاتف، أو بإلهام من الله تبارك وتعالى، أو بإذن نبوى،

١- لعله حسنى.

ومن فعل بخلاف هذا، فإنه لا يجيء منه شيء. مادام على هذه الحالة فافهم والله ولي التوفيق.

واعلم أن كيفية الذكر بالكلمة الشريفة بعد التأدب بآدب الذكر المذكور في كتب القوم، من طهارة ووضوء واستقبال القبلة وصمت، واستحضار صورة النبي ﷺ، وروحانية شيخه وغير ذلك، هو أن يقدم الاستغفار ألفًا، والصلاة على النبي ﷺ كذلك ألفًا، ثم يشتغل بالعدد المأذون فيه من أعداد الكلمة المذكورة؛ إذا فرغ ذكر الإسم المفرد ألفًا، والهويه كذلك ألفًا.

وأما النفوس في هذه الطريقة، ولوامة، وملهمة، ومطمئنة، فما دام المريد في الأولى فذكره الكلمة، وفي الثانية المفرد، وفي الثالثة الهوية، وهنا ينتهى سيره بأطوار النفوس الثلاثة المذكورة، وقد تحصل للمريد في ذكره لاسم الهوية هذا جذبات الكمال، ويفتح له خزائن سر السر، وإنما سميت نفسه فيها بالمطمئنة، لأنها اطمأنت بعد شقها للحجاب بأنامل التسليم للقدر، والامتثال بخفض الجناح للأمر المحتوم المقدر، فكان جزاؤها بعد إقامتها لناموس هذين الوصفين، أن يقول لها مليكها يوم حشر الثقلين، ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧/٢٨] .

وأما سند الشيخ ﷺ في هذه الطريقة القادرية فإنه أخذها ولبس خرقتها من بحر العرفان، وقطب الزمان، سيدى الشيخ محمد ابن عبد الكريم المدنى القرشى الشهير بالسمان؛ رضى الله تعالى عنه وعنا به. في كل آن، بالمدينة المنورة عام ثلاثة وسبعين بعد المائة والألف. وهو أخذ الطريقة ولبس الخرقة من صاحب الكرامات والمورد الهنى، سيدى الشيخ محمد طاهر المدنى. وهو قد أخذ الطريقة ولبس الخرقة من كنز الحقائق، سيدى العارف بالله الشيخ محمد الصادق. وهو أخذ الطريقة ولبس الخرقة من الإمام العلامة الأوحد، التحرير الفهامة المسند، التقى المتفنن البارع سيدى محمد عقيلة بن أحمد بن سعيد المشهور والده بعقلية الحنفى المكى ﷺ. وهو أخذ الطريقة ولبس الخرقة من الشيخ قاسم محمد البغدادى. وأيضًا قد تلقى الذكر ولبس الخرقة من السيد محمد بن على الأحمدى، والسيد عبد الله بن على أبا حسين السقاف، وأجاز له مكاتبه السيد على بن عبد الله العيدوس الساكن ببندر (سورت) من أرض الهند، وأخذ الطريقة ولبس الخرقة سيدى قاسم المذكور عن سيدى عايذ الفتاح بالذال المعجمة. وهو قد تلقن الطريقة ولبس الخرقة من سيدى قريب الله السائح– روى أنه اجتهد في تهذيب نفسه وترقيتها في مقامات الكمال نحو أربعمائة سنة حتى تفرغ بعدها لإرشاد المريدين، وهو الذي قرب به سندنا إلى رسول الله ﷺ دون غيرنا من الفروع القادرية– وهو قد أخذ الطريق ولبس الخرقة عن سلطان الأولياء،

وقدوة الأصفياء سيدى عبد القادر الجيلانى الشريف الحسنى. وقد أخذ الطريق ولبس الخرقة عن الأستاذ أبى سعيد محمد القاضى المبارك. وقد أخذ ولبس عن شيخ الإسلام أبى الحسن على بن أحمد بن يوسف الهكّارى القرشي. وقال في الأنساب: وهَكار بفتح الهاء وتشديد الكاف في آخرها راء مهملة بعد الألف، بلدة أو ناحية من جهة فوق الموصل من الجزيره. وقال ابن الأثير في اللباب: وهكار ولاية تشتمل على حصون وقرى من أعمال الموصل وهو قد تلقن ولبس عن الأستاذ أبى الفرج محمد بن عبد الله الطرسوسى بسينين مهملتين بينهما واو لسبة إلى طرسوس، وهي بلدة مشهورة، وهو قد أخذ ولبس من الأستاذ أبى الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحرس التميمى. وقد أخذ ولبس عن الأستاذ أبى بكر دُلَف بضم الدال وفتح اللام ابن حجدر الشبلى نسبة إلى شبلة، قرية من أسْر وشنَه- بضم الهمزة وسكون السين وفتح الشين المعجمة والنون وبعدها هاء بلدة عظيمة وراء سمر قند من بلاد ما وراء النهر، وهو ﷺ مالكى المذهب. وهو قد أخذ ولبس عن سيد الطائفة الإمام أبى القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز- بالخاء المعجمة والزاى المشددة المكررة- النهاوندى القوايرى. وهو قد أخذ الطريقة ولبس الخرقة عن خاله أبى الحسن السرى بن المُغَلس- بضم الميم وفتح الغين وكسر اللام المشددة وبعدها سين مهملة- السقطي. وهو قد أخذ الطريقة ولبس الخرقة من أبى محفوظ معروف بن فيروز الكرخى- بفتح الكاف وسكون الراء بعدها خاء معجمة- نسبدة إلى قرية ببغداد. وهو أخذ الطريقة ولبس الخرقة عن أبى سليمان داود بن نصير بضم النون- الطائى الكوفى تلميذ الإمام أبى حنيفة النعمان وأجل أصحابه. وهو أخذ الطريقة ولبس الخرقة عن حبيب بن محمد العجمى. وهو أخذ الطريقة ولبس الخرقة عن سيد التابعين أبى سعيد الحسن بن أبى الحسن بن عز بدل بن سر بدل بن أربدل بن مرعبل بن معربل بن مسربل بن مسرهذ بن مسدد البصرى. روى عن أبى نعيم أن نسبة الحسن هذه المذكورة رقية للعقرب، وإنما الأعمال بالنيات. وهو قد أخذ الطريقة ولبس الخرقة عن أمير المؤمنين، ويعسوب العارفين، وقدوة العلماء والصالحين، أبى الحسن على بن أبى طالب كرم الله وجهه. وهو قد تلقن الطريقة ولبس الخرقة من علم الوجود، وشمس الشهود، محمد ﷺ. وهو عن روح القدس جبريل عليه السلام. وهو عن رب العزة جل جلاله وتعالت أسماؤه وصفاته. وقد أدرجت هذه السلسلة الذهبية نفعنا الله بأسرارها العلية في هذه القصيدة:

شــرب المحبــة مــن ألــسْت أديــرا　　　وبـــه الأوائـــل نالـــت التـــوقيرا

فغدوا سكارى غائبين عن السوى بشهود من أهدى النُّهى التنويرا
لم يعرفوا غير الذي أفناهم لا آمرًا أبدًا ولا مأمورا
أضحوا ملوكًا في الزمان وسادة وشموس فضل ظاهر وبدورا
في كل مرتبة لهم قدَم وفي كل المجالي قَدْ حبوا التصديرا
فَرَقَت إلى أوج العلا أرواحهم وجنت من الروض الغيوب زهورا
ورأوا هناك عجائبًا وغرائبا مستورة في غيبها وستورا
لله يا لله من شرب به صارت أئمتنا الكرام صدورا
فلقوا به نوقًا بحار حقائق ولهم كلام قد حلا تعبيرا
بمشارق الفخر العزيز فقد بدوا بالنور بدرًا قد مَحَا الديجورا
ومرادنا بالشرب ذلك سر ما قد كان في توحيدنا مستورا
هي كلمة الإخلاص من هي خلصت من كان في أيدى الرجيم أسيرا
حازت[1] بها أمم لها فتلقنوا علمًا وعزًّا دائمًا وحبورا
حتى لعمرى صَيَّرُوا بشَرَابها الـ أشْهَى نُحاسِيَّ الطباع نضيرا[2]
تاهوا بها حيث استدام شرابهم من كأسها واستعملوا التبصيرا
أملاك أحوال إذا ما شمتهم لرأيتهم بعيون قلبك نورا
لا ريب أن الكون وهو عُبَيْدهم فيه[2] فأثر حكمهم تأثيرا
والسر هذا لا يكون سوى بتلـ ـقين امرىء فَضَل الورى تشميرا
وإذا أديرت في الدياجى كؤسه فاحت لكل الشاربين عبيرا
وهناك ترقص عن هوى أرواحهم طربًا بشرب قد أهاج ضميرا

---

١) معناه: حازت بها أمم علمًا وعزًّا فتلقنوا لها، ففيه تعقيد لفظى سبب خفاء معناه.
٢) فيه متعلق بأثر.

وبكأس هذا السر توحيد الهدى   أسقى الإلهُ أمينَه المنصورا

جبريل مَولاى الذي قد كان مِن   مولاه للرسل الكرام سفيرا

هذا سقى المختار أفضلَ مرسل   من جاء بالحق المبين بشيرا

وهو الذي في حقه قد أنزل الـ   ـرحمن قولا صادقًا مزبورا

شرفًا له في هذه الدنيا وفى   يوم به للنار كان زفيرا

هذا سَقى زَوْجَ البتول عليٌّ من   بالعلم كان مكاشفًا وخبيرا

هذا سقى حسن المعالى إمامنا الـ   ـبصريَّ من بالحق كان بصيرا

هذا سَقى العجمى ذاك حبيبهم   كأسًا غدًا بشرابها مغمورا

هذا سَقى دَاودًا الطاء الذي   قد كان روضًا في العلوم مطيرا

هذا سَقى معروفًا الكرحيَّ حـ   ـتى صار عن غير الإله نفورا

هذا سقى محيى الدياجى سريهًم   كأسًا سرى في كل قلب نورا

هذا سقى فخر الطريق جُنَيْدَهم   فسقى الأنام صغيرهم وكبيرا

لله دره من فتى متبحر   قد فاق فيضًا أنهرا وبحورا

هذا سقى الشبلى مِن جِرْ يا له   كأسًا بها في الله غاب عصورا

هذا سقى الأستاذ عبد الواحد الـ   ـفرد الذي للكاس كان مديرا

هذا سقى طرسوسهم أعنى أبا الـ   ـفرج الذي في القوم كان أميرا

هذا سقى العلم الهكارى الذي   قد كان سحبًا ماطرًا وهميرا

أعنى أبا الحسن الإمام المرتضى   قولاً وفعلاً غيبة وحضورا

هذا سقى القاضى المبارك يا له   من شيخ علم كم أفاد حبورا

هذا سقى كنز الغنى غوث الرجا   شمس الضحى بدر الدجا المشهورا

سلطان كل الأولياء الجيلى من   لسقى من الكاس الطهور كثيرا

رب الكرامـــات الـــتي لم يحـــصها قلـــم البنـــان ولا أمـــرؤ تعـــبيرا

أهـــلا بـــه مـــن ســـيد ســـرنا بـــه دنيـــا وفـــي يـــوم يكـــون أخـــيرا

هـــذا ســـقى القطـب الهـدادى عَلِـيهِمُ كأسًـــا بهـــا قـــد لازم التـــشميرا

هـــذا ســـقى الـــسامى قريـــب الله مـــن قـــد كـــان في كـــشف الغيـــوب شـــهيرا

مـــن ســـلح عـــد التـــاء مـــن أعوامنـــا باجمًـــل العـــالى أنـــى مـــسطورا

هـــذا ســـقى الأســـتاذ ذاك العائـــذ الــــ ـــفتاح مـــن في الفـــتح كـــان كـــبيرا

هـــذا ســـقى مـــن خنـــدر يـــسه قاسمًـــا قـــسما بمـــن أعطـــاه كـــان عطـــيرا

هـــذا ســـقى طـــود العلـــوم عقيلـــة الــــ ـــمكى مـــن ســـاه الكبـــار صـــغيرا

هـــذا ســـقى شـــيخ الـــشيوخ محمـــدًا أعنـــى بـــذاك الـــصادق المنظـــورا

هـــذا ســـقى للطـــاهر الأواه ذا ك محمـــد كأسًـــا جلـــى التكـــديرا

هـــذا ســـقى قطـــب المدينـــة ســـيد الــــ ـــسادات كأسًـــا مترعـــا مخمـــورًا

بـــواب خـــير الأنبيـــاء محمـــد الــــ ـــسمان مـــن فـــاق البـــدور ظهـــورًا

مـــن كـــان مـــن بـــين الـــورى نظراتـــه للـــسالكين طريقـــة أكـــسيرا

فوحـــق مـــا قـــد نالـــه مـــن ربـــه لازال صـــباغًا ولـــو مقبـــورا

هـــذا ســـقى قطـــب الحـــضائر طيـــب الــــ أطيـــاب بحـــر شـــرابنا المـــسْجورا

نجـــل البـــشير فيالـــه مـــن كامـــل أســـقى البريـــة منجـــدًا ومغـــيرا

فكأنـــه في أي قلـــب ســـعادة شَـــهْدٌ وبـــدرٌ قـــد أضـــاء مـــنيرا

بركاتـــه عمـــت وأعجـــز آيـــةُ أهـــل الـــذكاء مـــن الـــورى تـــسطيرا

لله در أولئـــك القـــوم الألى عظـــم الزمـــان بهـــم وكـــان حقـــيرا

أشـــياخنا الغـــر الألى هـــم في الـــورى حـــصن يقـــى المكـــروب والمـــذعورا

مـــن لم يكـــن متمـــسكا بجنـــابهم في عمـــره فقـــد اشـــترى التـــأخيرا

وكذاك من لم ينتظم في سلكهم ... أو ليس يبقى عندهم مذكورا

لو يعلمون الناسُ ما هم فيه من ... حال لما جافى الجميعُ فقيرا

أم كيف لا وهم السلاطين الألى ... أحكامهم لا تقبل التدبيرا

تأتى من المولى بواسطة لهم ... يدرونهم كشفًا فخذ تحريرا

فوحققهم دنيا وأخرى لا يضا ... م محبهم أبدًا ولو موزورا

لهم الشفاعة في غد فحديثها ... قد صح نقلا أوجب التشهيرا

وعلى النبى صلاة مولاه الذي ... أحيا به الأحياء والقبورا

وعلى الصحابة ثم آله ما تلا ... تال لدى ظلم الدياجي النورا

أو هاج قلب عند نغمة طائر ... ففدا وُلوعا بالحبيب كثيرا

ولسيدى معروف الكرخي ﷺ هذا نسبة أخرى: وهو أنه قد أخذ الطريقة عن على لرضا بن موسى الكاظم. وهو عن أبيه السيد موسى الكاظم، وهو عن أبيه السيد جعفر الصادق، وهو عن أبيه السيد الباقر، وهو عن أبيه السيد زين العابدين، وهو عن أبيه الإمام الحسين، وهو عن أبيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو عن سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ.

ولسيدى جعفر الصادق هذا ﷺ وصلة أخرى: وهو أنه قد أخذ الطريقة عن جدّه لأمه القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وهو أحد الفقهاء السبعة من التابعين بالمدينة، وكان من أكملهم في علم الظاهر والباطن، وهو قد أخذ الطريقة عن سلمان الفارسى ﷺ، وهو قد أخذها عن أبى بكر الصديق، وهو عن النبي ﷺ.

ولسيد الطائفة الإمام أبى القاسم الجنيد قدس سره اتصال أيضًا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وبالإمام على بن أبى طالب من جهة أويس القرنى وعبد الله بن مسعود، من طريق الفضيل بن عياض ﷺ، فمن تلك الجهة تكون الطريقة القادرية متصلة بالطريقة الأويسية والفضيلية أيضًا.

وللقطب الأعظم سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ وصلة أخرى إلى عمر وابن عباس؛ وهو أنه قد أخذها عن أبى الخطاب محفوظ الكلودانى، عن القاضى أبى يعلى، عن

مولانا الحسن بن حامد، عن مولانا أبى بكر عبد العزيز، عن أحمد بن محمد الخلالى، عن أبى بكر المروزى، عن الإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمر وابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ.

وله ﷺ وصلة أخرى إلى أبى بكر الصديق ﷺ: وذلك أنه أخذ الطريقة عن أبى الوفاء الكردى، عن سيدى أبى محمد الشنبكى، وهو عن أبى بكر بن هوار البطايحى، عن روحانية سيدى أبى بكر الصديق ﷺ، فنسبته إليه كنسبة أويس القرنى عن روحانية النبي ﷺ. قال العارف ابن باديس ﷺ في منظومته المشهورة:

ولابـــن هـــوار في المقامـــات رتبـــة تقـاعس عنهـا ذو التكاسـل والـنفس

رأى المـــصطفى في نومـــة قـــائلا لـــه أبـوبكـر الـصديق شـيخك في الأنـدلس

فأصـبح مكـسوا مـن الـصوف جبـة وطاقيـة تمحـو الثآليـل مـن بـاس

وقـال سنتحيى سـنة القـوم بعـدما أميتـت وتفـشو بـالعراق إلى الـرمس

فنـــال اشـــتهارًا في الأنـــام كأنمـــا لـه الخلـق حثـوا بالـدعاء إلى النـيس

وأما كيفية أخذ المريد من الشيخ فيها. فهو أن يجدد الوضوء أولا وإن اغتسل فهو أفضل، ثم يصلى ركعتين تحية الإرادة بالفاتحة مرة والإخلاص سبعًا، ثم يجلس أمام الشيخ على هيئة جلسة التشهد، والشيخ يمسك المريد بيده ويقرأ، بسم الله الرحمن الرحيم مرة، وأستغفر الله سبع مرات، أمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، والبعث بعد الموت حق مرة واحدة. ويقول بعد ذلك: أسلمت وجددت إسلامى، وتطهرت من جميع الذنوب توبة نصوحًا، وتبرأت من الكفر وموجباته، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أخذت الطريقة والخلافة والأجازة، ولبست التاج أو العمامة، وعاهدت الله على يد الأستاذ الفلانى على الاستقامة والشريعة الغراء بتقوى الله والتفويض في جميع الأمور إلى الله، والرضا بقضائه، والشكر على آلاء الله، كما عاهدهو على يد شيخه فلان الفلانى، وهكذا إلى ما شاء الله من مشايخ السند، محليًا لهم بأبلغ الأوصاف وأكملها، وإما إلى آخره أو ما أراده منهم. ثم يقرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾[الفتح: ١٠] ثم الفاتحة، ويدعو للمريد بالاستقامه على الشريعة والطريقة، ثم يعلمه راتب الطريقة القادرية، وهو أن يقرأ الفاتحة بعد صلاة الصبح ويهدى ثوابها لروح النبي ﷺ، وروح سيدنا عبد القادر الجيلانى ﷺ وجميع السادة القادرية.

قلت: وأما كيفية أخذ العهد في هذه الطريقة السمانية عن مشايخنا فيها، رضوان الله عليهم: هو أن يلقن الشيخ مريده هذه الكلمات قبل الكلمة الشريفة وآية المبايعة بعد أن يمسك إبهام المريد من يده اليمنى: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا، وبالقرآن دليلا، وبالكعبة قبلة وبالشيخ فلان شيخًا ودليلا إلى الله ورسوله، وبالمؤمنين إخوة، والطاعة تجمعنا والمعصية تفرقنا، ثم يقرأ الاستغفار مرتين والصلاة على النبي ﷺ مرتين، ولا إله إلا الله ثلاثًا، نافيا عن يمينه مثبتًا عن شماله، وبعدها يقول: محمد رسول الله ﷺ، ثم يا الله خمسًا، ثم (هو) إحدى عشرة مرة، ثم أسماء الإشارة المذكورة آنفًا، ثم يقول: لا وجود لغير الذات المنزهة عن التشبيهات، ثم يقرأ صلاة تنجينا... الخ. ثم يقول سلكت هذه الطريقة القادرية السمانية الجنيدية العلوية المحمدية الجبريلية الإلهية. اللهم انفعنا بها ثلاثًا، ثم يخرجان يديهما من الاشتباك ويرفعانهما للفاتحة، ثم يقبل يد شيخه ويشتغل بما يأمره به من الأوراد.

وللسادة القادرية أيضًا ﷺ كيفية أخرى في المبايعة والتلقين، وهو أن يجلس الشيخ مستقبل القبلة على طهارة ووضوء وخشوع وأدب. كحالة جلوسه للصلاة، والمريد يكون كذلك على طهارة ووضوء، ثم يأمره بالتوبة عند إرادة السلوك تبعًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾[المتحنة: ١٢]، وبصلاة ركعتين لله تبارك وتعالى، ثم يأمره بأن يدنو منه، بحيث يلصق ركبته بركبته أو قريبًا من ذلك، ثم يأخذ الشيخ بإبهام المريد اليمنى فيقرأ كل واحد منهما التعوذ والبسملة والفاتحة إلى آخرها، ثم الاستغفار مرتين، ثم الصلاة على النبي ﷺ مرتين، ثم يأمر الشيخ المريد أن يغمض عينيه ويفتح عين قلبه ملاحظًا لمعنى الذكر، فيلقنه لا إله إلا الله ثلاث مرات، مبتدئًا بلا إله، بجهة القلب، خاتمًا بإلاَّ الله صعودًا وهبوطًا، ثم يقرأ بعد ذلك «رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا، وشيخنا فلان شيخًا» فإن زاد على ذلك فواسع، ويقرأ آية المبايعة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠] ثم يقبل المريد يد شيخه ويخرج يده من يده ثم يرفعانهما بالفاتحة، ويدعو الشيخ لمريده بالمغفرة والعفو والعافية والقبول، لعله ينال بها من الله القربة والوصول.

الفصل الرابع

(في الكلام عن الخرقة)

إعلم أن الخرقة، وهي عبارة عن ما يلبسه الشيخ للمريد من قميص وثوب وَقلنسُوة، سواء كان ذلك أخضر أو أسود أو أحمر أو أبيض على أنواعها، وكذلك تاج السادة الخلوتية.

وقد اختلف العلماء في صحة الحديث الوارد في الخرقة واجتماع الحسن البصرى بالإمام على كرم الله وجهه وأخذه منه وتلقينه.

فقال ابن دحية وابن الصلاح والدمياطى والذهبى والهكارى وابن حبان والعراقى وغيرهم: ببطلانه والأكثر على صحته، وهو الأرجح.

وقد ذكر العلماء في الأصول في وجوه الترجيح، أن المثبت مقدم على النافى لأن معه زيادة علم.

واستدل القائلون بصحة الحديث بما أوردة المزنى في التهذيب من طريق أبى نعيم عن أبى القاسم عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن بن زكريا بسنده إلى يوسف بن عبيدة، قال: سألت الحسن البصرى فقلت يا أبا سعيد، إنك تقول: قال رسول الله ﷺ وإنك لم تدركه؟ قال: يا ابن أخى، لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك عندى ما أخبرتك، إنى في زمان كما ترى، فكلما سمعتنى أقول قال رسول الله ﷺ فهو من على بن أبي طالب ﷺ، غير أنى في زمان لا أستطيع أن أذكر عليا. وكذا نقل سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس في الجزء اللطيف بسنده إلى الحافظ أبى طاهر السلقى أن نسبة الخرقة انتقلت من النبي ﷺ إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وكذا إلى الحسين، وانتقلت من على إلى الحسن البصرى، ومن الحسن إلى زين العابدين.

وفي «البراهين الكسبية» أن من خدش في طريق لبس الخرقة من المتأخرين متمسكه في ذلك عدم سماع الحسن من على ﷺ، بناء على إنكار جماعة من الحفّاظ سماعه، ولم يقم دليل على نفى اللبس غير إنكار السماع، فإذا صح وثبت بأسانيد الأئمة المعتبرة في الكتب المعتمدة، كالإمام أحمد والترمذى والنسائي والحاكم والضياء المقدسى وأبى نعيم والدار قطنى وأبى يعلى وغيرهم لم يبق للخادش النافى متمسك في الخدش، ثم قال: إن لبس الخرقة من طريق الحسن البصرى قد رواه جماعة من أكابر أهل الله، ومن المعلوم أن فيهم من هو جامع

بين الفقه والتصوف وطرف صالح من الحديث، كالشيخ عبد الكريم بن هوازن القشيرى، وأطال في ذلك فراجعه إن شئت.

وقال الشيخ أحمد الطاهر الحميرى: في «مطية السلك إلى مالك الممالك»، في الكلام عن الخرقة نقلا عن الإمام الشعرانى في مدارج السالكين: وقد رأيت في بعض الكتب أن أصل هذه الخرقة إلى رسول الله ﷺ،أخرج له جبريل صندوقًا ففتحه فإذا فيه خِرق، خضرٌ، وحمرٌ وسودٌ، فقال ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذه خرق ستكون لخواصّ أمتك، قال: ورأيت هذا الحديث متصل السند من صاحب الكتاب إلى رسول الله ﷺ، ثم قال: رواه البزار أيضًا بإسناد لا بأس به والله أعلم. لكن قال شيخنا: هذا متكلم فيه، نعم قد أوصل في «المدارج»، سنده في الخرقة من شيخه سيدى محمد الشناوى اللابس من يد شيخ الإسلام زكريا الأنصارى إلى أويس القرنى، وفيه أنه لبسها من يد عمر وعلى رضى الله عنهما بأمر النبي ﷺ لهما بذلك، وأنهما رضى الله عنهما لبساها من يد رسول الله ﷺ، وهو ﷺ لبسها من يد جبريل عليه السلام في بعض الإسراءات السماوية، وجبريل لبسها بأمر الحق جل وعلا، قال: وهذا مجمع عليه.

فما ذكره ابن خلدون في مقدمة تاريخه من أنه لا أصل لرفع سند الخرقة إلى على رضي الله عنه، وأنه كرم الله وجهه برىء من ذلك، وأنه لم يختص من بين الصحابة بتحلية ولا طريقة في لباس ولا حال، وأن الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة لا يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه، مردود وفيه من القدح في أئمة الدين العارفين ما لا يخفى. وكان ﷺ يخص من شاء من أصحابه بما شاء من العلوم والطرائق، كما خص حذيفة رضي الله عنه بعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، أفاده في «سعود المطالع».

لكن قال الزرقانى في «مختصر المقاصد»: لبس الخرقة المشهور بين الصوفية باطل لا أصل له، نص عليه جمع من الحفاظ حتى من لبسها اقتداء بالسادة الصوفية. وألف الجلال السيوطى مؤلفًا سماه (اتحاف الفرقة برفو الخرقة) لكن غاية ما فيه إثبات أن الحسن البصرى سمع من على في الجملة، وليس فيه إثبات أن عليًا ألبس الحسن، ولا أن المصطفى ألبس عليًا الخرقة على الصورة المتعارفة بينهم اهـ.

ثم الكلام إنما هو في أصل السند: فأمّا لبسها من أهلها لأهلها فهو معروف لا ينكر، فلكل قوم شعار، ولكل شعار وقار، وقد نصوا على جواز تمييزهم في الحياة وبعد الممات،

وأما لغيرهم فلا يجوز، قال الصاوى في «شرح الصلوات»[١] قال بعض العارفين: إن خرقة القوم لأهلها نور وزينة، ولغيرهم سماجة وظلمة، بل يدخل في الوعيد لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران:١٨٨]. وأما قول بعض العارفين:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

فالمراد التشبه بالعمل ومجاهدة النفس.

قال السهروردى: لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمريد وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبته، يقصد شيخًا بحسن الظن وعقيدة يحكمه في نفسه لمصالح دينه، يرشده ويهديه ويعرفه طريق المواجيد، ويبصره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو، ويسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوا به في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة إظهارًا للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم، ودخوله في حكم الشيخ ودخوله في حكم الله ورسوله، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله اهـ «من عوارف المعارف»[٢].

ولله در العارف بالله تعالى سيدى عبد الرحيم البرعى حيث قال:

لله خرقة أقوام تداولها   أئمة لهم التمكين والجاه

إلى أن قال:

وكم خلائق لا يحصون عدتهم   في نهج خرقتنا تاهوا وما تاهوا

وأما إدخالنا في الخرقة لتاج السادة الخلوتية، فقد ذكره سيدى الشيخ أحمد الصاوى (في شرح الصلوات): مما يسمى بالتاج بين الصوفية الذي يوضع على الرأس وقرصة صوف أبيض، وهى الخرقة المعروفة للسادة الخلوتية التي هي شعارهم، وفيه إشارة كما قال أستاذنا المؤلف ﷺ إلى سلوك طريق التصوف وبياض القلب، وهو مضروب على وجه مخصوص محيط به أربع جلالات. أي في كل جهة إثنا عشر ضلعًا. عدة حروف لا إله إلا

١- مكتبة القاهرة (مطبوع بها).
٢) مكتبة القاهرة (مطبوع بها).

الله، إشارة إلى شهود إحاطة الرب به إحاطة من جميع جهاته، إحاطة قيومية معنوية لا حسية تنزه الله عن ذلك. وبعضهم يجعل وسطه زرًا إشارة إلى الوحدة، وبعضهم يجعله خاليا إشارة إلى الفناء، وبعضهم يجعل في وسطه هاء هكذا (ه) إشارة إلى الهوية الدائرة بالعالم دوران علم وقدرة وقيومية لا دوران حس. اهـ

الفصل الخامس

(في طريقته الخلوتية الجنيدية المنسوبة إلى أبى محمد الخلوتى)

قال سيدى مصطفى البكرى قدس سره في شأنها: إن طريقتنا خلاصة جميع الطرق وإنها تجمعها، وذكر مالها من الخصائص في مؤلفاته الشهيرة قال أبو البركات في شرحه لفوائد الفوائد عند قول الناظم:

وكن على نهج الجنيد سارى ... فإنه طريقة المختار

وإن نهجنا أتانا منه ... معنعنًا كما رواه عنه

يعنى أن نهجنا أي طريقنا السالكين نحن عليه، وهي الطريقة الخلوتية المنسوبة لأبى محمد الخلوتى رأس الخلوتية، وإمامهم. كان يلازم الخلوة كثيرًا وكذا أتباعه فسموا الخلوتية، قد أتانا أي ذلك النهج منه، أي من الجنيد. معنعنًا، أي مسندًا لإمام عن إمام كما رواه الثقات عن الجنيد. فقد رواه أستاذنا القطب الربانى أوحد العارفين، وإمام السالكين سيدى مصطفى ابن كمال الدين البكرى، والد المصنف، عن شيخه العارف بالله تعالى الشيخ عبد اللطيف، إلى أن أوصلها إلى القطب العارف بالله تعالى أبى محمد الخلوتى، ثم منه إلى إمام الصوفية أبى القاسم الجنيد، ثم منه إلى رسول الله ﷺ. وقد بين أركانها وأورادها في «المنهل العذب» ووضع فيها أورادًا أجلها الورد المشهور في آفاق الدنيا، تلقته الأئمة بالقبول، وهو «ورد السحر» وهي أقرب الطرق إلى الله تعالى، كما قال في قصيدة:

ألا إن نهجى نهج خير الخلائق ... محمد الداعى لأسنى الرقائق

فهيا اسلكوا يا قوم إن طريقتى ... خلاصة ما تحويه كل الطرائق

وإن رمتموا سيرًا بها يا أولى النهى ... فجزوا بسيف الجد عنق العلائق

وإنما كانت خلاصة ما تحويه كل الطرائق، لأنها بعد أن شاركت الطرق في الأركان من الجوع والسهر، والعزلة والصمت وملازمة الذكر والفكر وخلوص النية لله وحده، وإسناد لشيخ عارف سلك طريق القوم ليسلم له قياده، ويخرج عن اختياره لما يراه فيه ذلك الشيخ، والصدق في الجميع، اختصت بأشياء لم يوجد مجموعها في غيرها، وذلك لأنها احتوت على

أكثر من ثلاثمائه آية كل يوم وليلة من كتاب الله تعالى، باعتبار ختم الصلاة، وسورة يس، وما يليها من ورد الستار وتبارك، وعم يتساءلون وغيره. وأكثر من خمسمائة صلاة على النبي ﷺ، باعتبار ما تفرق في الأوراد، مع قراءة الدر الفائق. وعلى أكثر من ثلاثمائة استغفار، باعتبار ما يتلى في الأوراد، مع ورد المسبحة، وما يتلى قبل صلاة الصبح. وعلى تلاوة أسماء الله الحسنى كل يوم. وعلى قراءة سورة الإخلاص مع تسبيح مخصوص، وهذا المجموع لم يوجد في طرائق القوم على تقليل الطعام، والكلام، والمنام، والاجتماع على الأنام، مع ذكر الله تعالى على الدوام، وصحبة شيخ عارف يقطع بالسالك مفاوز الأوهام، مع اجتهاد وصدق عزيمة ومراقبة للملك العلام اهـ بحروفه.

وقال في المنهل: وقد سردنا مجموع ما يقرأ المريد في الأوراد الليلية والنهارية، ما خلا ورد الستار والصلوات، وأوردناها فرأيناه يزيد على مائتى آية من كتاب الله تعالى. وقد جاء في الحديث الشريف «من قرأ مائتى آية من كتاب الله تعالى. وقد جاء في الحديث الشريف «من قرأ مائتى آية فقد أكثر». رواه أبو نعيم عن المقداد.

وفي رواية «من قرأ أربعين أية في ليلة لم يكتب من الغافلين» و«من قرأ مائة آية كتب من القانتين». و«من قرأ مائتى آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة». و«من قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر». وفي رواية: «من قرأ ثلاثين آية في ليلة لم يضره تلك الليلة سبع ضار ولا لص طار وعوفى في نفسه وأهله وماله حتى يصبح». رواه الديلمى عن ابن عمر اهـ «مطية السالك».

واعلم أن النفوس في هذه الطريقة سبعة، وحقيقتها أنها نفس واحدة، وإنما تعددت باعتبار صفاتها: أمارة، لوامة، ملهمة، مطمئنة، راضية، مرضية، كاملة. وحقيقة النفس هي الجوهرة البخارى اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم الروح الحيوانى، وهي جوهر مشرق للبدن، وعند الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن دون باطنه، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد: إلا أن الموت هو الانقطاع الكلى، والنوم هو الانقطاع الناقص، فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب، فمتى بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة، وإن انقطع ضوؤها عن ظاهره دون باطنه فهو النوم، وأما بالكلية فهو الموت.

والنفس الأمارة هي التي تأمر بالشهوات واللذات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.

قال في جامع الأصول: إعلم أن النفس شأنها عظيم، وأمرها خطير، وقد جاءت في التحذير منها الآيات والأحاديث. والحث على تزكيتها والتبري منها. فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[الحشر:١٨]. وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[الشمس:٩/١٠]. وقوله: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾[يوسف:٥٣]. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[التحريم:٦].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «إن أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك».

وقوله: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب». وعلى جميع المسلمين وجوب مراقبة الله، وتهذيب الفس وتزكية أخلاقها على كل من لم يرزق قلبًا سليما.

وهذه النفس مذمومة عند كل شخص. وفي كل زمان، بل أهل جميع الملل متفقون على ذم النفس والتحذير من مكرها وخداعها، وعدم الميل إلى غرورها، فلذلك جعل أئمة الطريق أول اشتغال المريد بقهر النفس ورياضتها، ومخالفة هواها، وقطع مألوفاتها وشهواتها، وأمروه بالحذر منها والمكر منها وألزموه بمحاسبتها، قال ﷺ: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا). وقال البوصيرى رحمه الله تعالى:

وراعهـــا وهـــي في الأعمـــال ســـائمة	وإن هـــي اســتحلت المرعـــى فـــلا تـــسم
كـــم حـــسّنت لـــذة للمـــرء قاتلـــة	مـــن حيـــث لم يـــدر أن الـــسم في الدســـم

فإذا فرضت معرفتها فرض عين على كل فرد من أفراد الوجود، لأن معرفة الرب موقوفة على معرفة النفس، لقوله ﷺ: (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ونقيضه من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه، فمعرفة الرب فرض عين، لأن عبادة الرب تعالى تتوقف على معرفته، لأن من لم يعرفه لم يعبده.

والحاصل أن معرفة النفس منبع العلوم والحكم ومطلع الفضائل والشيم، ومصباح كشف أحوال الملكوت، ومشكاة شهود أنوار الجبروت، ومعارج الوصول إلى حضرة اللاهوت، فما يصل أحد من بنى آدم إلا بمعرفة نفسه، ومعرفة النفس لا تحصل بنظر عقلى، بل إنما تحصل بنور يقذفه الله تعالى في قلب عبده، ولا يقذف الله ذلك النور إلا في قلب من تمسك بحبل الشريعة الغراء، وتشبث بذيل السنة العليا، من الرياضات المتعالية والمجاهدات المتوالية، بالانسلاخ عن الدنيا بالكلية، والتجرد عن القوة الجزئية والكلية، وتزكية النفس

عن الصفات الردية، وتوصيفها بالأخلاق الحميدة، فبعد ذلك يقذف الله تعالى على قلبه نورًا من عنده، وبذلك النور يعرف نفسه ثم يعرف ربه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر: ٢٢]. فمن ذلك جميع علوم الأنبياء والأولياء والعرفاء بالله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور: ٤٠].

ولا يظن ظان أن تلك المعرفة تحصل بقراءة الكتب الشرعية، ومطالعة كتب الصوفية، من غير مجاهدة بالأعمال الصالحات، وغير تزكية النفس وتجريدها عن الشواغل البدنية، فهيهات أن يعطى ذلك الظان معرفة أو كشفًا أو شهودًا.اهـ.

ملخصًا من «جامع الأصول» لكن مع حذف أو زيادة.

وحيث علمت أن عدد النفوس سبعة كما تقدم لك ذلك، فقد وضع أهل طريقتنا الخلوية أسماء سبعة، لأن كمال كل نفس وخلاصتها من الحجب الظلمانية والنورانية لا يحصل إلا بتجليات تلك الأسماء على الترتيب المعلوم عندهم وهو الذي تقدم، أمارة. لوامة. ملهمة. مطمئنة. راضية. مرضية. كاملة.

(فالأمارة): وهي تأمر بارتكاب السيئات، وتزين لصاحبها ذلك بحيث يرى معاصيه حسنات، وهي نفس الفساق لا تأمر بخير أصلا، أخذوها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف: ٥٣] ووضعوا لها من الأسماء (لا إله إلا الله) لنفى الأغيار من كل حجاب ظلماني.

(واللوامة): هي التي بعد وقوع صاحبها في مهامه المعاصي لامته على فعله لعرفانها أن ترك ذلك أدب مع مالك النواصي، وأخذوها من قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] ووضعوا لها الاسم الأعظم، وهو (الله) للخلاص، فإن تجليه يضنيها.

(والملهمة): هي التي تلهم المريد وترشده للخير والفعل السديد وبسببها يظهر له بعض الإلهامات والمكاشفات وهي من أعظم الآفات إلا على من وفق وأخذوها من قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[الشمس: ٨]، ووضعوا لها الاسم الثالث وهو (هو) بالسكون والمد، وهو موضوع لحقيقة الحق، فذكره يناسب الفاني في ذات الله، وصاحب هذه النفس فإن في مقام السكر.

(والمطمئنة): وهي التي اطمأنت على مداومة الطاعات وملازمة الاستقامة على ممر الآنات، وهي أول درجات العارفين، ويطلق على صاحبها نسبة العارف عند أهل التمكين، وأخذوها من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر: ٢٧] ووضعوا لها (حقا)، لأن تجليه يحصل به دوام الطمأنينة، لكون معنى (حق) الثابت الذي لا يقبل الزوال أزلا وأبدا.

(والراضية): قد أخذوها من قوله تعالى (راضية) وهي التي رضيت لأحكام المولى، واطمأنت تحت أقداره تبارك وتعالى، ووضعوا لها من الأسماء (حيا) لتجليه عليها بالحياة السرمدية.

(والمرضية): أخذوها من قوله تعالى: (مرضية) والمعنى أنها مرضية للرب جل وعلا، ووضعوا لها (قيومًا) لأن به قوام العالم، فتخلع على صاحبها خلعة القيومية فيصلح للخلافة الكاملة، وهي من قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ آية ووضعوا لها (قهارا) لتخلع على صاحبها خلعة يقهر بها المعاندين والمعرضين؛ لأنه صار داعيا من دعاة الحق.

قال العارف سيدى محمد الجفرى في شرحه على وسيلة شيخه وأستاذه القطب سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره: وصاحبها هو الذي أتصف بجميع المقامات، ومقامه القطبية عند السادات، نفعنا الله بهم في الحياة وبعد الممات.

وأما سند الشيخ ﷺ في هذه الطريقة الميمونة والذخيرة المخزونة، فإنه ﷺ أخذها من قطب دائرة الأكوان المربى بنظرات سيد ولد عدنان، سيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم المدنى القرشى الشهير بالسمان، وهو قد أخذها على من لازال نهر فيضه على القلوب يجرى، شيخ مصر والحجاز والشام السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى، وهو قد أخذها عن الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبى، وهو عن العارف بالله مصطفى أفندى الأدرنوى، وهو عن سيدى على قره باشا أفندى، واشتهرت الطريقة به، وهو عن سيدى إسماعيل الجرومى، وهو عن سيدى عمر الفؤادى، وهو عن سيدى محيى الدين القسطمونى، وهو عن الشيخ شعبان، وهو عن خير الدين التوقادى، وهو عن جلبى سلطان الأقسدائي الشهير بجمال الخلوتى، وهو عن محمد بهاء الدين الأرزنجانى، وهو عن سيدى يحيى الباكوبى، وهو عن صدر الدين الخيالى، وهو عن سيدى الحاج عز الدين، وهو عن محمد ميرام الخلوتى، وهو عن عمر ميرام الخلوتى– وهو الذي أنبلجت الطريقة على يديه – وهو عن سيدى محمد الخلوتى، وهو عن إبراهيم الزاهد التكلانى وهو عن سيدى جمال الدين التبريزى، وهو عن شهاب الدين محمد الشيرازى، وهو عن ركن الدين محمد النجاشى، وهو عن قطب الدين الأبهرى، وهو عن أبى النجيب السهروردى، وهو عن عمر البكرى، وهو عن وجيه الدين القاضى، وهي عن محمد البكرى، وهو عن محمد الدينورى، وهو عن سيد الطائفة الجنيد بن محمد البغدادى– وهو الذي انتهت إليه الطرق المشهورة– وهو عن السرى السقطى، وهو عن معروف الكرخى، وهو عن داود بن نصير الطائى، وهو عن حبيب العجمى، وهو عن الحسن البصرى، وهو عن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو عن سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام، ﷺ وألحقنا بنسبهم أجمعين.

الفصل السادس

(في طريقته الأنفاسية نسبة إلى الأنفاس)

جمع نفس بفتحتين، وهو نسيم الهواء. سميت بذلك لصاحبتها وملازمتها الأنفاس في خروجها ودخولها، وكيفيتها: إذا خرج منك النفس تقول(اللّه) وإذا دخل تقول(هُوْ) بالسكون. وهذه الطريقة من أعظم الطرق لاشتما لها على هذين الإسمين؛ الإسم الأعظم الذي هو الله، والثاني اسم الهوية، لتخصيصها بالجمع بينهما بين النفسين الصاعد والهابط، بحيث لا تجد النفْس ولا الخاطر دخولا على قلب ذاكرهما.

واعلم أن اسم الهوية محيط بجميع الموجودات، وهذا الاسم- أعني الله- مستودع جميع معاني الألوهية وصفات الربوبية، وهو كنز الأزلية وخزانة القدسية، فجميع ما اشتملت عليه اللاهوتية والملكوتية والجبروتية مندمجة في سره في خزائن غيبه. والذكر به وهو يكون قلبيًا بالجنان من غير حركة اللسان. وذلك بالإثبات من غير نفي، كما أمر الله به نبيه ﷺ بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ آية. وهي نسبة الصديق الأعظم التي أخذها باطنًا من المصطفى ﷺ، وهذا هو السر الذي وقر في صدره كما دل عليه الحديث: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، بل بشيء وقر في صدره». وهذا هو ذكر الصديقين من دوائر الأولياء، وجميع خوارقهم متوقفة على الذكر به في الملكوتيات والشهاديات. قال في «مطية السالك، إلى مال الممالك»: وذكر ابن العربي أن هذا الذكر ذكر الخاصة من عباد الله الذين عمّر الله بأنفاسهم العالم.

وقال اليافعي رحمه الله تعالى: إنّ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذكر الأولياء. وذكر الأقطاب: الله، الله، الله، بسكون الهاء وتخفيف الهمزة، كذا ذكره في «شموس الآفاق».

وقال أبو العباس المرسى لبعض أصحابه: ليكن ذكرك (الله) فإن هذا الإسم سلطان الأسماء،وله بساط وثمرة؛ فبساطه وثمرته النور، ثم النور ليس مقصودًا لنفسه وإنما ليقع به الكشف والعيان، وقال في «البراهين الكسبية» سيدى شيخ بن محمد الجفرى رحمه الله تعالى: إن الاسم الأعظم هو الاسم (الله) عند أكثر العلماء ﷺ لأنه الإسم الجامع المنعوت بجميع الأسماء.

قال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم:٦٥] أي هل تعلم أن غيره يسمى الله. قلت: وقد رأيت في «الدر المنثور في تفسير الأسماء الحسنى بالمأثور»، للعالم الفاضل النحرير الكامل الشيخ عبد العزيز نفعنا الله به من بعد كلام على هذا الاسم (الله) وكونه لا يطلق على غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازًا، قدمه على بقية الأسماء، بخلاف سائر الأسماء، فإنه قد يطلق على غيره مجازًا كالقادر والرحيم والعليم هكذا قيل، واعترض باسم (الرحمن) فإن أجيب بأنه أطلق على مسيلمة الكذاب، اعترض بالمثل وهو أن بعض النساء سمت ابنها الله فنزلت نار من السماء فأحرقته، إلا أن يقال: فرق بين من بقى أو بقات ومن هلك سريعًا.

وقد رجح بعض الصوفية الذكر به على الذكر بكلمة (لا إله إلا الله).

قال الإمام المرسى: استحياء من النفى والإثبات في حضرة مشهودهم.

وفي «النفحات الإلهية في كيفية سلوك الطريقة المحمدية» لسيدى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان قدس سره، نقلا عن مفتاح الفلاح لسيدى تاج الدين بن عطاء الله السكندرى: سأل رجل الشبلى: لم تقول الله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: لأن الصديق أعطى ماله كله فلم يبق معه شيء فتخلل بكسائين بين يدى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: ما خلفت لعيالك؟ فقال: الله، فلذا أنا أقول الله، فقال السائل: أريد أعلى من هذا. فقال الشبلى: استحى من ذكر كلمة النفى في حضرته والكلّ نوره. قال: أريد أعلى من هذا، فقال الشبلى: قال الله لنبيه ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنعام:٩١]. فقام الشاب وزعق زعقة، فقال الشبلى: الله، فزعق ثانيًا، فقال الشبلى: الله؛ فزعق ثالثًا ومات، فاجتمع أقارب الفتى وتعلقوا بالشبلى وادّعوا عليه الدم، وحملوه إلى الخليفة فأذن لهم، ودخلوا عليه وادّعوا الدم. فقال الخليفة للشبلى: ما جوابك؟ فقال: روح حنّت، ورنت، وسمت وصاحت، فدعيت، فسمعت، فأجابت، فماذنبى؟ فصاح الخليفة: خلوا سبيله.

قال شيخنا في هذه الروح الزكية، التي طابت فعادت نفسها زكية، فهنيئًا لها هنية:

روح تحـــنّ إلى اللقـــاء دوامـــا	وتـــذوب مـــن شـــوق إليـــه غرامـــا
روح إذا سمعـــت بـــذكر حـــديثكم	حنـــت إليـــه صـــبابة وهيامـــا
لبـــت لـــداعيكم إجابـــة ســـرعة	كـــشفت لـــه لـــثم الجمـــال فهامـــا
سمعـــت لـــداعيكم فحركهـــا الهـــوى	وازداد وقْـــدًا عـــشقها وضـــراما

صاحت وما باحت بسر منكمُ ... ولقد كست مهج النفوس سقاما
فرقت بكم لما أصيبت منكمو ... من قوس سلاب النفوس سهاما
وسمت إليكم عن شجى وتلهف ... وصبت لتعطى بالوصال مراما
ولها بكم ولهٌ يزيد ولوعة ... وَلَهٌ الذي قد أتحفوه كلاما
وجمالكم لما بدا لعيانها ... وبكم أزاح القرب منه لثاما
خرجت من القفص الذي يردى بها ... فتظل تستسقى المدام دواما
عكفت على حان الشهود بربها ... واستنشقت طيبًا يفوق خزاما
ماذا على الشادى الذي يشدو بها ... إذ ما أجابت للهوى استسلاما

وفي آخر باب الذكر من الرسالة القشيرية: «سمعت الجريرى يقول: كان بين أصحابنا رجل يكثر من قول (الله)، فوقع يومًا على رأسه جذع، فسقط الدم فكتب على الأرض الله، الله».

قال في «مفتاح الفلاح»: لأن ذاكره مشاهد لجلال الله وعظمته، فانيًا عن غيره.

قال بعضهم: ومن كان هكذا حاله فلا تستغرب منه الخوارق.

قال (في جامع الأصول): اعلم أن اسم الجلالة والعظمة والهيبة ويقال اسم الذات وهو لفظة الله، وهذا الاسم الشريف موضوع للذات الإلهية باعتبار اتصافها بجميع الصفات الألوهية، والأسماء الربوبية، والجلال، والجمال. والكمال. وعند بعض العارفين هو اسم موضوع للذات البحت من حيث هي، لا باعتبار الاتصاف بشيء، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ آية وبهذا الوضع كان أعلى من اسم الأحد، ومن سائر الأسماء الإلهية من حيث الرتب. وقيل: مشتق. وقيل: لا. وقيل عربى، وقيل لا، وقيل: موضوع لمعين. وقيل: لا، وقيل مستعمل بجميع الألسنة. وقيل لا، والأصح إنه اسم الذات وجميع الأسماء والصفات والكمالات مندرجة تحته. وهو الإسم الأعظم عند أبى حنيفة وعند العارفين من أهل الطريقة، وإن لكل نبي من الأنبياء اسمًا مخصوصًا تجلى الله تعالى به عليه. ولنبينا ﷺ هذا الاسم الشريف، وبه تجلى الله عليه، فإذا كانت رتبة نبينا ﷺ أعلى من رتب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت رتبة هذا الإسم الشريف أعلى من رتب سائر الأسماء الإلهية اهـ

قلت: وقد ورد في الحديث القدسي عن الله تعالى ما يوجب كمال التشهير في ذكر هذا الإسم واجتناء ثمراته كل يوم وليلة وأنه تعالى قال: (أنا مع عبدى ما تحركت بى شفتاه) وفى «الأنوار السنية» أنه ﷺ قال: (إذا قال العبد الله، خلق الله من قوله ملكا مقربا لا يزال يصعد حتى يغيب في علم الله وهو يقول الله الله، وينزل على موضع صعوده عمود من نور قد سد الأفق يغلب نوره على نور الشمس، ثم لا يزال ذلك العمود يتسع حتى يملأ الكون طولا وعرضا، فلا يمر شيطان إلا وأخنسة وأذله وربما أحرقه، ويقول الله: يا ملائكتى هذا عبد من عبادى قد أجريت على لسانه اسمى الأعظم، فوعزتى وجلالى لأفيضن عليه نوالى وجودى وأنا الجواد الكريم، وإنى لا أختص لاسمى إلا من ارتضيته لي ووليته على دائرة حضرتى، فهو ولى ما دام ذكرًا لي). اهـ.

(فائدة) قد اجتمعت برجل من أولياء الله تعالى فقال لي: هل تحب أن أمنحك فائدة ما سبقت منى لأحد غيرك؟ قلت نعم، قال: اجتمعت في بعض الوقائع بسيدنا عزرائيل عليه السلام فقال لي: إن ذكرى من بين الملائكة بالإسم (الله) وقد أذنتك فيه أن تذكره في نصف كل ليلة ألف مرة، فكرته على ذلك، وذكرت هذا الإسم لوقته فوجدت فيه حياة، وقد أذنت لكل من طهر لسانه من الغيبة وقلبه من الخواطر البخسة في ذكره.

إسمـــا إذا مـــا كنـــت تـــذكره تـــرى مـــددًا وفيـــضا كالـــسحاب الهاطـــل
وإذا لـــه لازمـــت ألفًـــا نلـــت مـــا تهـــواه مـــن عـــز ومجـــد كامـــل

وأما (هو) فهو اسم موضوع للإشارة عند أهل الظاهر، لا يتم الكلام إلا بالخبر نحو قائم وقاعد، فنقول هو قاعد. وعند هذه الطائفة هو اخبار عن نهاية التحقيق، ويكتفون به عن كل بيان يتلوه، لاستهلاكهم في حقائق القرب، واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم فما سواه لا شيء حتى تقع الإشارة إليه.

وحكى عن الشبلى أنه قال: لقيت جارية حبشية وهى مولعة تجدّ وتسرع في مشيها فقلت لها: يا أمة الله رفقا عليك والطفى بنفسك، فقالت: هو هو، فقلت لها: من أين أقبلت؟ فقالت: من هو، فقلت لها أين تريدين؟ فقالت إلى هو. فقلت لها: ما تريدين؟ فقالت: هو. فقلت لها. ما إسمك؟ قالت هو. فقلت لها كم تذكرين؟ فقالت لا يفتر لسانى عن ذكر هو حتى ألقى هو، ثم قالت:

وحرمـــة الـــود مـــالى عـــنكم عـــوض ولـــيس لـــي في ســـواكم بعـــدكم غـــرض
ومـــن حـــديثى بكـــم قـــالوا بهـــا مـــرض فقلـــت لا زال عنـــى ذلـــك المـــرض

قال الشبلى رحمه الله: فقلت لها يا أمة الله ما تعنين بقولك هو؟ آ الله تريدين؟ فلما سمعت ذكر الله شهقت شهقة فاضت منها نفسها رحمة الله عليها.

قال: فأردت أن آخذ في تجهيزها ودفنها، فنوديت. يا شبلى من هام بحبّنا وتاه في طلبنا، وتوله بذكرنا، ومات باسمنا، فاتركه لنا فديته علينا، قال الشبلى: فالتفت أنظر من المنادى والمتكلم. فسترت عنى وحجبت عنها فلم أدرأرفعت أم دفنت، رحمها الله بمنه وغفر لنا بفضله. قال في «البراهين الكسبية» من بعد كلام على هذا الاسم: وفيه معنى لطيف وهو أن قولك (هو) حرفان هاء وواو، فالهاء تخرج من آخر مخارج الحروف، والواو تخرج من بين الشفتين، فهو أولها مخرجًا، فأشار إلى ذاته بهذين الحرفين تعالى فقال: هو الله إلى قوله هو الأول والآخر لا أول قبله ولا آخر بعده، منزه عن الحلول والنزول كما لا يخطر بالعقول.

قال الشيخ عبد الكريم الجيلى: إعلم أن هذا الاسم أي إسم (هو) أخص من إسمه الله وهو سر لاسم الله، ألا ترى أن اسم الله ما دام هذا الاسم موجودًا كان له معنى يرجع به إلى الحق وإذا فك بقيت أحرفه غير مفيدة.

وقال بعض المشايخ: إن (هو) إسمه الأعظم لأنه ليس له مبتدأ ولا منتهى فهو من أقصى الجوف إلى مالا نهاية له.

واعلم أن الأسماء كلها دالة على أفعال وصفات والاسم (هو) لا صفه له، فإنه دال على الذات المعروفة الموصوفة ومنه ظهرت الصفات وإليه تعود، ألا تراه هو يقول: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ثم قال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ثم قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، ثم قال: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ ثم قال: ﴿ هُوَ ﴾، ثم قال: ﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾، فهو أصل الأسماء، وإليه تشير القلوب، وحوله تطوف السرائر فهو الظاهر الذي لا ينكر، والباطن الذي لا يدرك، فاعلم ذلك فإنه من السر المصون والأمر البديع المكنون وما أجدرني حينئذ أن أنشد وأقول شعرًا:

بـــدًا لـــكَ ســـرٌّ طـــال عنـــك اكتتامـــه ولاح صـــباح كنـــت أنـــت ظلامـــه

فأنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه

ولله در من قال:

فاسمع إذا غنت المثاني تقول يا هو لبيك يا هو
ما قلت للقلب أين حبي إلا وقال الضمير ها هو

اهـ من (البراهين الكسبية).

وحيث علمت أن كيفية الذكر في هذه الطريقة أن تقول: (الله) عند خروج نفَسك (وهو) بالسكون عند دخوله فالمطلوب عدم إهمال شيء من أي عدد لازمت عليه من أعدادها، وبه أُمرت من حضرة شيخك، وذلك يكون على حسب الهمة وصدق الطلب، وخلوص النية، فمن الأعداد ما هو ألفان، ومنها ما هو سبعة آلاف، ومنها ما هو أحد عشر ألفًا، ومنها ما هو خمسة وعشرون ألفًا، فإذا لازم المريد على واحد من هذه الأعداد مع صحبة الشيخ الكامل، فما بينه وبين الوصول إلى الله تعالى إلا كما بين سواد العين من بياضها، وكم وصل بهذه الأوراد في ليلة أو ليلتين أو يومين أو ثلاثة أيام، وإن شئت أن تقول بعد قولك الله في سرك: مقصودى، أو محبوبى، أو معبودى: أو أنت الله لا غيرك، ولحظت بقولك الله بحت الذات بلا تركيب ولا مبناه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ آية وهو يشير بها إلى القرب، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ آية فهو أبلغ وأحسن وأقرب للترقية وفيضان السر على قلبك.

(لطيفة): حكى أن بعض المريدين كان شغله بهذه الطريقة إلى أن استغرق سره وسر سره ذلك الذكر المشغول به، وهو الاسم (الله) والاسم (هو) على الصفة المذكورة، وكان نائمًا وبقربه رجل من المريدين وهو قائم يصلى فقال أحد أولاد إبليس لأبيه لعنه الله: هلا أغويت هذا القائم؟ فقال: لولا نفس النائم لأغويته.

الفصل السابع

(في بيـان طـرق لـه مجملة)

فقد أخذ الأدب عن شيخه سيدى الشيخ محمد السمان، وهو عن السيد عبد الله بدهر العلوى. وأخذ الحديث عن شيخه المذكور، وهو عن علامة الآفاق سيدى الشيخ محمد الدقاق، وهو عن شيخ الشيوخ سيدى عبد القادر الفاسى. وأخذ علم النقل والعقل عن شيخه المذكور، وهو عن سيدى محمد المغربى وغيره. وأخذ علم التصوف عن شيخه المذكور، وهو عن روحانية الشيخ محيى الدين بن العربى، لذا كان يقول: مذهبى محيى الدين، وطريقتى قادرية.

وفيما بعد كان يقول: ليس لأحد من أشياخى على منة إلا سيد الإنس والجن، قاله العلامة الجفرى في شرحه على التوسل.

قال: وقال لي: تربيت بنظرات رسول الله ﷺ مشافهة، وأخذ عن شيخه أيضًا من الأسرار المأخوذة المتصلة أسانيدها بالباز الأشهب قدس الله سره، ونفعنا بهم أجمعين، وأيضًا قد أخذ عنه ما أخذه من الحق تعالى في يوم الخطاب من الإفاضة، بشهادة قوله شعرًا:

وفـــى يـــوم الخطـــاب نـــاجى ... مبـــشرًا بـــالمنى جنـــانى

وقوله أيضًا:

أنـــا كنـــت مكنونـًــا لـــسرّ علمتـــه ... وعـــن فهمـــه إدراك غـــيرى قـــاطع

ويـــم (ألـــست) الكـــل جـــاء لـــدعوتى ... وهـــام بحـــسنى والـــدموع هوامـــع

أشار بالكل إلى تلامذته، كما وقع ذلك لأضرابه كالسيد إبراهيم الدسوقى، وأبى يزيد، وسهل بن عبد الله التسترى، فإنهم كانوا يعرفون مر يديهم من يوم الخطاب، ويرسلون تلامذتهم لمن ولد منهم في أي قطر كان ويأتون بهم إليهم، كأبى العباس المرسى في قصة يا قوت العرشى اهـ.

الفصل الثامن

(في بيـان طـريقته الإسميـة)

وهي طـريقة الموافقـة

سميت بذلك لنسبتها لأسماء الله الحسنى، فإنها لا يؤخذ إلا منها. ويختلف الأخذ فيها على حسب الأغراض الدنيوية والأخروية. لكن ذلك لا يكون إلا بأنفاس الشيخ الكامل المرشد المربى. وهذه الطريقة لم يشتهر بها في بلادنا هذه أحد بالتربية والترقية غير الأستاذ المترجم، وهي الجامعة لمعانى الأسماء وأسرارها التي لا تحيط بها الأفكار، ولا يتوصل إلى البعض منها إلا الخواص الأخيار، وإليها أشار الحق تعالى بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ فالمشايخ قد أرشدوا بها المريدين على نياتهم وترقياتهم ونصيبهم في الله تعالى؛ ولما رأوا تقلبات أحوالهم في حالة السلوك فتحوا لهم في هذه الطريقة بابًا لتيسير الأمور الصعبة الدنيوية ليتفرغوا لطلبهم الأخروى.

والطريقة المذكورة هي تنقسم على أربعة أقسام: (حرفية)، (وطبيعية)، (وعددية)، (وحالية). فإذا استكملت الأربعة في اسم قام مقام الاسم الأعظم، فحينئذ يفعل به المريد ما يشاء ويختار، سواء كان المختار دنيويا أو أخرويا، والعمل بها راجع إلى نية العامل، فإن الشيخ الكامل يعطيه من الأسماء ما يوافق لحاله منها. فمعنى الإسم المعطى هو الذي يخلق منه روحانى الاسم تتقضى به الأشياء؛ وليس كل ما يعلم يقال، وفيما ذكرناه كفاية لمن له مع الله حال، ولها افتتاح وأساس ودعوة تقرأ بعد تمام الإفتتاح.

(أما الإفتتاح) فهو: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك من كل معصية ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ آية.

(وأما الأساس) فهو: أستغفر الله العظيم، والصلاة على النبي ﷺ، وصيغتها: اللهم صلّ على سيدنا محمد النور وآله. ثم لا إله إلا الله، ثم يا ذا الجلال والإكرام، ثم الإسم الموافق لاسم الذاكر لأسماء الله تعالى؛ والقاعدة في ذلك أن يقرأ المريد كل واحد منها خلف الصلوات الفرضية، على عدد اسمه بالجمّل الكبير، وإن دخل الخلوة فبهذا الإسم الإلهى الموافق لإسمه أعنى المذكور آنفًا.

(وأما الدعوة): فهي تقرأ بعد تمام الأذكار المذكورة والعدد الكبير، وشرطها أن تركب على معنى الإسم الموافق لاسم الذاكر، وكذلك الروحاني.

وللطريقة هذه خلوتان، (ظاهرية) (وباطنية)؛ (فالظاهرية) ثمرتها أنها تجلو مرآة القلب من أشكال تنتقش فيها؛ وهذه الأشكال ظلمات منطو بعضها على بعض، فيحصل صدأ القلب وهو الغفلة، وبواسطة الخلوة والذكر والصوم والطهارة والسكوت ونفى الخواطر والربط وتوحيد المطلب تنجلى مرآة القلب من الصدأ، فالخلوة كالكير، والذكر نار ومبرد. ومطرقة، والصوم والطهارة آلة التصقيل، والسكوت ونفى الخواطر ينقى الخاطر من الظلمات، والربط تلميذ، وتوحيد المطلب أستاذ، فهذه الخلوة وسيلة إلى الخلوة الحقيقية، أعنى الباطنية التي هي محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره، وأما صورتها فهو ما يتوصل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله، والانقطاع عن غيره اهـ.

وسند الأستاذ ﷺ في هذه الطريقة، هو أنه قد أخذها من الخضر عليه السلام، وقيل من شيخه الإمام الهمام الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان قدس سره، بالسند المذكور عنده، إلى الإمام أبى حامد الغزالى ﷺ.

الفصل التاسع

(في طـريقتـه ﷺ في المسبعات الخضرية)

فإنه قد أخذها عن شيخه سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره. وهو عن الشيخ محمد طاهر المدنى، وهو عن السيد نعمة الله الهندى، وهو عن الخضر عليه السلام، وهو عن النبي ﷺ، وسيأتى الكلام في بيانها.

قال الإمام أبو طالب المكى في الجزء الأول من كتابه (قوت القلوب) بعد أن ذكر المسبعات العشرة هذه: وإن الخضر عليه السلام أهداها إلى إبراهيم التميمى، وأنه أمره أن يقرأها غدوة وعشية، قال له الخضر عليه السلام: إنها أعطانى إياها محمد ﷺ، وذكر من فضلها وعظم شأنها ما يجل عن الوصف، وأنها لا يداوم عليها إلا عبد سعيد قد سبقت له من الله ﷻ الحسنى.

قال: وحذفنا ذكر فضائلها اختصارًا فوجدنا ذلك قد استكمل الفضل، والمداومة عليها تجمع له جميع ما فرقناه من الأدعية.

وروى ذلك سعيد بن سعيد عن أبى طيبة عن كرز بن وبرة– وكان من الأبدال– قال: أتانى أخ لي من الشام فأهدى لي هدية وقال: يا كرز أقبل منى هذه الهدية، فإنها نعم الهدية، فقلت: يا أخى من أهدى لك هذه الهدية؟ قال: اعطانيها إبراهيم التميمى. قلت: أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه؟ قال: بلى. قال: كنت جالسًا في فناء الكعبة وأنا في التهليل والتسبيح والتحميد، فجاءنى رجل فسلم على وجلس عن يمينى، فلم أر في زمانى أحسن منه وجهًا، ولا أحسن منه ثيابًا، ولا أشد بياضًا، ولا أطيب ريحًا. فقلت: يا عبد الله من أنت ومن أين جئت؟! فقال: أنا الخضر. فقلت: في أي شيء جئتنى؟ قال: جئتك للسلام عليك وحبًا لك في الله ﷻ، وعندى هدية أريد أن أهديها إليك. فقلت ما هي؟ قال: هي أن تقرأ قبل طلوع الشمس وقبل أن تغرب (سورة الحمد) سبع مرات، (وقل أعوذ برب الناس) سبعًا، (وقل أعوذ برب الفلق) سبعًا، (وقل هو الله أحد) سبع مرات، (وقل يا أيها الكافرون) سبع مرات، (وآية الكرسى) سبع مرات، وتقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) سبع مرات، (وتصلى على النبي ﷺ) سبع مرات، (وتستغفر لنفسك ولوالديك وما توالدا ولأهلك والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات) سبع مرات، وتقول:

(اللهم يا رب أفعل بى وبهم عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل، إنك غفور حليم جواد كريم رؤوف رحيم) سبع مرات.

وانظر أن لا تدع ذلك غدوة وعشية.

فقلت أحب أن تخبرنى من أعطاك هذه؟ فقال: أعطانيها محمد ﷺ. فقلت: أخبرنى بثواب ذلك، فقال لي: إذا لقيت محمدًا ﷺ فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك، فذكر إبراهيم التيمى رحمه الله تعالى أنه رأى ذات ليلة في منامه أن الملائكة جاءت فاحتملته حتى أدخلته الجنة، فرأى ما فيها ووصف وصفًا عظيما مما رأى في صفة الجنة. قال: فسألت الملائكة. وقلت لمن هذا كله؟ فقالوا: للذي يعمل مثل عملك، وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها: فأتانى النبي ﷺ ومعه سبعون نبيا وسبعون صفًا من الملائكة فكل صف كما بين المشرق والمغرب، فسلم علىّ وأخذ بيدى، فقلت: يا رسول الله إن الخضر أخبرنى أنه سمع منك هذا الحديث فقال صدق الخضر صدق الخضر، وكل ما يحكيه فهو حق، وهو عالم أهل الأرض، وهو رئيس الأبدال، وهو من جنود الله ﷻ في الأرض. قلت يا رسول الله فمن فعل هذا ولم ير مثل الذي رأيته في منامى هل يعطى مما أعطيته؟ قال: والذي بعثنى بالحق إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرنى ولم ير الجنة، إنه ليغفر له جميع الكبائر التي عملها، ويرفع الله ﷻ عنه غضبه ومقته، ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه شيئًا من السيئات إلى سنة، والذي بعثنى بالحق نبيًا لا يعمل بهذا إلا من خلقه الله تعالى سعيدًا، ولا يتركه إلا من خلقه الله شقيًا.

وكان إبراهيم التيمى رحمه الله تعالى مكث أربعة أشهر ولم يطعم طعاما ولم يشرب شرابًا. فلعله بعد الرؤيا، والله ﷻ أعلم. ذكره الأعمش اهـ.

قال العلامة الصاوى رحمه الله تعالى في شرحه على الصلوات مشيرًا إلى المسبعات المذكورة وإنها من أوراد الطريقة، قال: ومن فوائدها زوال الحقد والحسد.

الفصل العاشر

(في فضائل طرائقه التي تقدم ذكرها)

روى عن غوث الثقلين، وإمام الثقلين، القطب الرباني، الشيخ عبد القادر الجيلاني، أمدنا الله بمدده، أنه كان يقول: البيضة منا بألف والفرخ لا يقوّم. يريد بالفرخ المريد المفتوح عليه، وبالبيضة غير المفتوح عليه، وأي فضيلة أكبر من هذه. وكان يقول أيضًا: أنا آخذ بيد كل من عثر من أصحابي ومريدي وأحبابي إلى يوم القيامة، نعمة من ربي وكرامة، فإن فرسي مسروج، ورمحي منصوب، وسيفي مشهور، وقوسي موتور، لحفظ مريدي إلى يوم القيامة. ومن كلامه ﷺ:

أنـــا لمريــــدي جــــامع لـــشتاته	وأخرجـــه مــن كــل شـــر وفتنـــة
تمـــسك بنـــا في كــل هـــول وشـــدة	أغيثـــك في الـــشدات طـــرًا بهمـــة
مريـدي إذا مـا كـان شـرقًا ومغربـا	أغثـــه إذا مـــا صـــار في أي بلـــدة

ومن كلامه: من استغاث بي في كربة كشفت عنه، ومن ناداني في شدّة فرجت عنه، ومن توسل بي إلى الله تعالى في حاجة قضيتها اهـ.

وقال الإمام سيدي الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان ﷺ: من أخذ طريقتي أدخلته في سلك النبي ﷺ، ولم يكتب شقيًا، ولو كان فاسقًا مبتدعا فإن الله تعالى يصطفيه بخير، ويخصه بما خص به أولياءه.

ومن كلامه: من أخذ طريقتي لا بد أن تجذبه العناية ولو عند الموت، وتحسن خاتمته ويكون من أولياء الله تعالى.

قال تلميذه الشيخ صديق ابن عمر خان رحمه الله: وقد شاهدنا ذلك مرارًا. وكان يقول: من أخذ طريقتنا كتب علينا، ومن أكل طعامنا دخل الجنة. ويشمل هذا المعنى كل من أكل طعام من يعزى إليه من مريديه.

ومن كلامه ﷺ: كل من أخذ طريقتي أغناه الله، وإن طريقتي غنى في الدنيا وكرامة في الآخرة.

واعلم أن الغنى يكون على قسمين: إما من خالص الدنيا من درهم ودينار وغيرهما، أو باليقين كما هو المقصود عند خواص أهل الدين وعقلاء المسلمين.

وقد أشار ﷺ في بعض كلامه بما به غنى للمريدين، وبهجة للمحبين، وأمن للخائفين، وفرج للمكروبين المستغيثين:

أنا في الدنا أحمي مريدي إذا أتى ... بصدق، وفي العقبى له أنا شافع

أنا غوث من قد أمّ نحوي وحرزه ... إذا مسه من نكبة الدهر فاجع

وفي مقام الخطاب ناجي ... مبشرًا بالمنى جناني

وفضله: أنه لا يخزى له مرتد في الدار الآخرة.

ومن كلام القطب الشهير سيدي الشيخ أحمد الطيب بن البشير قدس سره: طرحت عليّ ورقة فيها ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[يس:٥٨]، إلى عبدنا الطيب، قد غفرنا وقلبا لكل من رآك أو رأى من رآك إلى سبعة، أو أخذ عليك طريقك.

وقال سيدي عبد الغني النابلسي قدس سره، مشيرًا إلى هذه الطريقة القادرية، عند أخذه لها على يد الشيخ عبد الرزاق من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ:

أيا ساكنين الشقر قد شرقت بكم ... عيوني برفع حين شامت سنا البرق

فقوموا بعذري عندكم إن مبتدي ... غرامي بكم قد كان من أقرب الطرْق

وما ذاك إلا أنني كنت غافلا ... أظن جداري ليس يؤذن بالخرق

فمدت يد شرقية قادرية ... بها نشأني خضراء طيبة العرق

فقلت لأهل الغرب لا تعتبونني ... بكم إنني في الجمع من غير ما فرق

صعدت بكم أوج العلا وترنمت ... بألحانكم في القلب ساجعة الورق

ألا فاعذروا طرف المحب فإنه ... رأى البرق شرقيًا فهاج إلى الشرق

ومن كلامه أيضًا:

طريقتنا شرقية قادرية ... فلا تخش قهرًا ولا ذلا ولا فوتا

وفي الشرق عبدالقادر القطب شيخنا — طريقتــه تفـضى إلى العــز مثبوتــا

طريقـــة ذل وانكـــسار لأجــــل ذا — إلى الشرق مُدّتْ سُنَّة أرْجُلُ الموتى

وقال الأستاذ الأوحد، والإمام الأمجد، سيدى مصطفى البكرى قدس سره، مشيرًا إلى ما خص به من حضرة مولاه، عندما قربه إليه واجتباه: إنه قد أخذ عنى الطريقة سبعة من ملوك الجان، وأخذت عليهم عهودًا عامة وخاصة، نفعها عام وخاص بمريدى. فعلم من هذا أن الجان ليس له تصرف فيمن يعزى إليه إلى منتهى الأبد.

قال سيدى الشيخ صديق بن عمر خان تلميذ العارف السمان ﷺ، في (الكوكب الزاهر الدرى، في مناقب السيد مصطفى البكرى): وكان ﷺ يقول: أنا وزير المهدى، فمن شاء منكم فليؤم إلىَّ ليهتدى.

فلما انتقل سأل رجل أستاذنا العارف بالله سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ وأرضاه، وقال له: شيخكم يقول: أنا وزير المهدى، وذا هو قد انتقل قبل أوانه وظهوره! فقال له: صدق فيما قاله وبه اعترف، ألا ترى أن السلطان يجهز العساكر إلى جهة تختلف أعمالهم فيها ويؤمّر عليهم أمراء عديدة، ويقدمهم أمامه فيمهدوا له الأرض حتى يلحق بهم، فلم يعصوا كلامه، فمنهم من مهد الأرض، ويبقى حتى يصل إليه الملك، ومنهم من يقاتل حتى قبل وصوله ويهلك. فالسيد ﷺ ممن تقدم ومهد الأرض، ثم انتقل قبل وصول المهدى إليه، فانقطعت حجة الرجل، ولم تبق له شبهة عليه، وعلم أن ما قاله السيد حق، وفهم المعنى وزال عنه الشك وبالحق لحق، ومن نظمه رضى الله تعالى عنه:

أزال الحجـــب عنـــى ذو الجـــلال — وأطلعنـــى علـــى ذاك الجمـــال

وفـــى حـــان التـــدانى مَـــنَّ فـــضلا — علـــىَّ بقربـــه بعـــد المطـــال

ونلـــت مكانـــة في القـــرب جـــد[1] — أمـــامى دونهـــا كـــل الرجـــال

وأســـقانى مـــدام الحـــب صـــرفًا — ومَنًّـــا كـــان وصـــلى واتـــصالى

أنـــا البكـــرى والحـــسنى جـــدى — رســـول الله طـــه ذو الكمـــال

مريـــدى لا تخـــف واشـــرب بكأســـى — وهِـــمْ تِيهًـــا علـــى كـــل المـــوالى

١- لعله جدى إمامى أو أمامى والله أعلم.

أنـا قطـب الـورى بـل كـل قطـب لأمـري طـائع في كـل حـال
واسمـي مـصطفى البكـري وفخـري لـه طوعًـا دنـا أوج المعـالي
لـي الأكـوان في التـصريف حقـا بـلا ريـب فـدع كثـر الجـدال
فـسيفي قـاطع فاحـذره تـنج وإلا ذقـت أنـواع الوبـال
مريـدي أنـت منـي في احـتراز فـلا تهـتم مـن قيـل وقـال
لـي الجـاه المعظـم عنـد ربـي فكـم أسـدى وأعطـاني سـؤالي
وأكرمنـي بمـا قـد رمـت منـه لجـدي الهـاشمي غـوث المـآل
صـلاة الله تغـشاه دوامًـا وأصـحابًا كرامًـا بعـد آل
وجـدي الـصاحب الـصديق حقـا رفيـق الغـار محمـود الخـصال
مـدى الأزمـان مـا غنـت حمـام علـى الأغـصان في جـنح الليـالي

وأما طريقة القطب الهمام، الغوث الرباني، سيدي الشيخ بهاء الدين النقشبندي قدس سره، قال في (جامع الأصول): فهي طريقة الانصباغ والانعكاس، لكمال ارتباطهم بها مع هذه المجاهدة الزكية المستورة، يستوي في استفاضتها الشيوخ والصبيان، وفي إفاضتها الأحياء والأموات، ويندرج انتهاؤها في الابتداء، وابتداؤها في انتهاء غيرها؛ لما فيها من انجذاب المحبة الذاتية مما فضل به واسطتها الصديق الأكبر ﷺ. فهذه أمّ الطرق: ومعدن الأسرار الصديقية والحقائق، ولا جرم أمرها كبير وشأنها خطير.

وأما الطريقة الأنفاسية، فيكفي في شرفها أن ذاكرها يترقى في درجات القرب على عدد خروج نَفَسه ودخوله.

وأما طريقة الأسماء فيكفي أنها طريقة الوسائط بين العبد والرب، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ آية.

وأما المسبعات فقد سبق الكلام على فضلها، نفعنا الله بها وسائر الطرق الواصلة إلى الله تعالى، المغترفة من بحر النبوة.

الباب الخامس

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

(في إثبات كرامات الأولياء كتابًا وسنة وإجماعًا)

(الأولياء) جمع ولي، والولي في اللغة: ضد العدو، وفي اصطلاح أهل الحقيقة له معنيان: فعيل بمعنى مفعول- كقتيل وجريح، وهو من يتولى الله رعايته وحفظه فلا يكله إلى نفسه لحظة، كما قال: (وهو يتولى الصالحين).

والثاني فعيل مبالغة فاعل- ككريم وعليم، وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته، فيأتي بها على التوالي من غير أن يتخللها عصيان أو فتور، وكلا المعنيين شرط في الولاية، فمن شرط الولاية والولي: أن يكون محفوظًا، كما أن من شرط النبي أن يكون معصومًا، وكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع، هكذا ذكره الإمام القشيري وغيره من أئمة الطريق.

(والكرامات) جمع كرامة، وهو: ما يكرم الله به عبده من الأمور الخارقة للعادات. ووقوع الكرامات جائز، ومتحقق عند أهل العلم والمعرفة. وفائدتها معرفة الولي الصادق من المدعي الكاذب بتعريف الله تعالى.

قال أبو عثمان ﷺ: من كان له شريرة صالحة سنية أظهر الله تعالى منها رداء يعرف به. ولا بد من كونها فعلا خارقًا للعادة في زمن التكليف.

قال في (اليواقيت والجواهر) في مبحث المعجزات: إن كرامات الأولياء ثابتة شائعة بين أهل السنة والجماعة، وإنما أنكرها أكثر المعتزلة لعدمها فيما بينهم، وذلك من أدل دليل على أنهم أهل بدعة. ومن شبه المعتزلة في إنكارها قولهم: لو جوزنا وقوعها على يد الأولياء لعجز الناس عن الفرق بينها وبين المعجزة، والجواب: لا تعجيز؛ لأن المعجزة هي التي تظهر مع الدعوى، بخلاف الكرامة فإن صاحبها لا يتحدى بها، ولو أظهرها وقت الدعوى كانت شعوذة اهـ

ومن الدليل على جواز الكرامة قول صاحب سليمان ﵇: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾، وقول عمر ﷺ في خطبة يوم الجمعة: يا سارية الجبل، وبلغ صوته إلى

سارية تلك الساعة، حتى أخذ حذره من العدو الكامن في الجبل، وكان سارية بمصر[1] وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ ولم تكن مريم نبية، وقصة أصحاب الكهف، وتكليم الكلب لهم.

والذي كونه كرامة مثل إظهار الطعام في غير وقته، أو ماء وقت عطش، أو قطع مسافة بعيدة في مدة قريبة، أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف، أو نحو ذلك، ومن ذلك كلام الطفل لجريج الراهب حين قال: من أبوك؟ قال فلان الراعي، ومن ذلك قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين دعوا الله ﷻ بصالح أعمالهم، فانفرجت عنهم الصخرة التي لا يستطيع الجم الغفير أن يزحزحها من فم الغار، ومن ذلك كلام البقرة التي حمل عليها صاحبها المتاع وقولها: (إني لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث) كما في الصحيحين، ومن ذلك أن أبا بكر الصديق ﷺ أكل مع ضيفه فكان كلما أكل لقمة من تلك القصعة يربو من أسفلها أكثر منها حتى شبع الضيوف، وهي أكثر مما كانت قبل بثلاث مرات.

ومن ذلك أن حارثة بن النعمان كان يقول لعياله في كل شيء احتاجوا إليه: إرفعوا الفراش تجدوا حاجتكم فيرفعونه فيجدونها، ولم يكن تحت الفراش شيء قبل ذلك، وبالجملة فقد ورد عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ما يبلغ حد الاستفاضة، وقد سئل الإمام أحمد ﷺ لم لم يشتهر عن الصحابة كثرة الكرامات كما وقع لمن بعدهم من الأولياء؟ فقال: إنما لم يشتهر عن الصحابة كثرة الكرامات لأن إيمانهم كان في غاية القوة بخلاف إيمان من بعدهم، فكلما ضعف إيمان قوم كثرت كرامات أولياء عصرهم، تقوية ليقين الضعفاء منهم.

قال اليافعي: والناس في إنكار كرامات الأولياء على أقسام؛ فمنهم من ينكرها مطلقًا وهم أهل مذهب مشهور، ومنهم من يصدق بكرامات من مضى ويكذب بكرامات أهل زمانه، فهؤلاء كبني إسرائيل، فإنهم صدقوا بموسى حيث لم يروه وكذبوا بمحمد حين رأوه حسدًا وعدوانًا، ومنهم من يصدق بأن لله تعالى أولياء في عصره ولكن لا يصدق بأحد معين، فهذا محروم من جميع الإمدادات في عصره، وبعضهم إذا رأى أحدًا من أولياء زمانه متربعًا في الهواء، قال هذا استخدام للجن لا ولاية، وأطال اليافعي في ذلك ثم قال: وبالجملة فلا ينبغي لأحد التوقف في كرامات الأولياء لأنها جائزة عقلا وواقعة نقلا، أما جوازها عقلا فلأنها من جملة المكنات التي لا تستحيل على القدرة الإلهية، وبذلك قال أهل السنة والجماعة من المشايخ العارفين، والنظار والأصولين، والفقهاء والمحدثين، ﷺ أجمعين.

١- الصواب أنه كان بأرض نهاوند ببلاد العجم.

الفصل الثاني

(في عقوبة من آذى أولياء الله تعالى، أو أنكر لكرامتهم)

ورد في الحديث القدسي عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله ﷻ: (من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب) أي أعلمته أني محارب له، ومن حاربه الله لا يفلح أبدًا.

قال العلماء: لم يحارب الله عاصيًا إلا المنكر على الأولياء وآكل الربا، ويخشى عليه خشية قريبة من سوء الخاتمة، إذ لا يحارب الله إلا الكافر.

قلت: وقد بلغنا في عصرنا عن المشددين في الإنكار حسدًا وعدوانًا على الفقراء أهل الطريق أنهم قد عرضت عليهم شهادة التوحيد عند الموت فأعرضوا. أعاذنا الله من ذلك بمنه وفضله.

قال سيدى وأستاذى العارف بالله الشيخ محمد السمان ﷺ في «النفحات الإلهية في كيفية سلوك الطريقة المحمدية»: سئل الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى أن قومًا من الفقهاء ينكرون على الصوفية إجمالا وتفصيلا فهل يعذرون أم لا؟ فأجاب ينبغى لكل ذى عقل ودين أن لا يقع في عرضة الإنكار على هؤلاء القوم، فإنه السم القاتل، كما شوهد ذلك قديمًا وحديثًا، كما روي عن ابن السقا المنكر على أولياء الله فأشاروا عليه أن يموت كافرا، وشوهد عند موته بعد تنصره لفتنته بنصرانية أبت عليه إلا أن يتنصر، فاستقبل الشرق وكان كلما حول إلى القبلة استقبل الشرق، حتى طلعت روحه وهو كذلك، وإنه كان أوجه أهل زمانه علما وذكاء وشهرة وتقدما عند الخليفة، فحقت عليه الكلمة بواسطة إنكاره.

قال: وإن الإمام أبا سعيد بن عصرون إمام الشافعية في زمانه صدر منه لذلك الولى نوع قلة أدب، فأوعده بأن تغرقة الدنيا إلى أذنيه، فولاه نور الدين الشهيد الأوقاف بدمشق، وكان سيدى عبد القادر الجيلانى ﷺ قد تأدب معه عند اجتماعه به، فدعا له ووعده بالولاية، وأن قدمه ستصير على رقبة كل ولى لله. فانظر سوء الأدب وعاقبته، وحسن الأدب وفائدته.

وحكى الإمام سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى في الطبقات الكبرى في ترجمة سيدى الشيخ سويد السنجارى قال: وكان يقول: من وقع في أولياء الله تعالى ابتلاه الله بانعقاد

لسانه عند النطق بالشهادتين عند الموت. ولقد كان شخص من أكابر بلدنا يقع في حق الفقراء، فأدركته الوفاة فقالوا له: قل: لا إله إلا الله. فقال: لا أستطيع ذلك، فعلمت من أين أُتي، فدخلت الحضرة وجعلت أترضى خاطرهم حتى رضوا عنه، فأطلق لسانه وأسأل الله قبول توبته.

وقال أيضًا في ترجمة سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى ﷺ: ونام عنده جماعة من فقهاء الأزهر في بركة الحاج، فوجدوا عند الشيخ مملوكين أمردين من أولاد الأمراء، وينامان معه في الخلوة فأنكروا عليه، ثم رفعوا أمره إلى الشرع بالصالحية، فأرسل القاضى وراءه فحضر فدخل الصالحية وقال: مالكم؟ فقال القاضى: إن هؤلاء يدّعون عليك أنك تختلى بالشباب وهذا حرام في الشرع، فقال: ما هو إلا هكذا. وقبض لحيته بأسنانه وصاح فيهم، خرجوا صائحين ولم يعرف لهم خبر بعد ذلك الوقت. ثم جاء الخبر أنهم ارتدوا وتنصروا ببلاد الأفرنج، فشفعوا فيهم عند الشيخ فلم يقبل شفاعة أحد، ثم انقطع خبرهم، وقال أيضًا: ورماه أهل بيت من متبول باللواط مع ولدهم، فقال: هتك الله ذراريهم، فمن ذلك الذوم صار أولادهم مخانيث وبناتهم زوان إلى يومنا هذا. ورماه واحد أيضًا بفاحشة فقال له: سود الله نصف وجهك، فصار له خد أسود، وكذا ذريته إلى وقتنا هذا.

وقال سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ في رسالته التي تقدم ذكرها: روى عن المشايخ العارفين، والأئمة الواصلين، أنهم قالوا: أقل عقربة المنكر على الصالحين أن يحرم بركتهم، قالوا: ويخشى عليه سوء الخاتمة، أعوذ بالله من سوء القضاء. وقال بعض العارفين: من رأيتموه يؤذى الأولياء، وينكر مواهب الأصفياء، فاعلموا أنه محروم مطرود عن قرب الله. قال الإمام المجمع على جلالته وإمامته، أبو تراب النخشبى ﷺ: إذا ألِفَ القلب الإعراض عن الله صحبته الوقعية في أولياء الله. قال الإمام العارف شاه بن شجاع الكرمانى: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله؛ لأن محبتهم دليل على محبة الله. وقال أبو القاسم القشيرى: إقبال المشايخ على المريد أصدق شاهد على سعادته، ومن رده قلب شيخ يرى شؤم ذلك ولو بعد حين، ومن خذل بترك حرمة الشيوخ فقد أظهر الله رقم شقاوته وذلك لا يخطئ.

حكى الإمام اليافعى، عن الشيخ عبد العزيز الدرينى، أنه أدركه المغرب وهو في حاجة، فصلى وراء فقير يلحن في قراءته، فعزم الشيخ على الإقامة عنده ليعلمه، فلما سلم قال له: يا عبد العزيز ألحق حاجتك فإن من هي عنده يريد السفر، وما عليك من هذا اللحن

الذي سمعته والتعليم الذي نويته، قال: فكربت من قوله، وتوجهت إلى مقصدى، فلما وصلت إلى من عنده تلك الحاجة وجدته عازمًا على السفر، ولو تأخرت عنه ساعة لفاتني.

وذكر اليافعي: أن جماعة من الفقهاء أنكروا على جماعة من الصوفية لحنهم في مواجيد، فأعادوا تلك الكلمات في الحال وأعربوها بوجوه من الإعراب، ثم أنشدوا:

لحنهـــا معـــرب وأعجـــب مـــن ذا أن إعـــراب غيرهـــا ملحـــون

وقال أحد المشايخ لبعض الفقهاء المنكرين عليه بعد ما عرض له أسد فمنعه منه، اشتغلتم بصلاح الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بصلاح الباطن فخافنا الأسد. وقال آخر لمن أنكر عليه قراءة ملحونة، فقال له: إن كنت لحنت أن في قراءة القرآن، فقد لحنت أنت في الإيمان. يريد بذلك عدم إخلاصه في أعماله، ونسبتها لنفسه لا لله تعالى، وهو لحن فاحش عند الطائفة.

حكى الشعراني في طبقاته في ترجمة الشيخ محمد بن أحمد الفرغل رحمه الله: أنه قد مر عليه شيخ الإسلام ابن حجر بمصر يوما، حين جاء في شفاعته لأولاد عمر، فقال في سره ما اتخذ الله من ولى جاهل، ولو اتخذه لعلمه- على وجه الإنكار عليه- فقال له: يا قاضى، فوقف فأمسكه، فصار يضربه ويصفعه على وجهه ويقول: بل اتخذنى وعلمنى.

واعلم أن الإنكار هذا قد يختلف باختلاف المنكرين؛ فمنهم من يقصد بن الفضيحة للمنكر عليه، وتنقيصه بين الناس ونفورهم من محبته، حسدًا نفسيا وعدوانًا شيطانيًا؛ ومنهم يتوصل إلى ذلك بجهله ودعواه العلم؛ فيتكلم في حقائق ومعانيهم على غير الوجه المطلوب عندهم.

وكـــم مـــن عائـــب قـــولا صـــحيحًا وآفتـــه مـــن الفهـــم الـــسقيم

ومنهم من يكون إنكاره احتقارًا وانتقاصًا وسببًا جارًا للهلاك والقتل على يد بعض الظلمة؛ ومرجعه إلى الحسد أيضًا: ومنهم من يكون إنكاره فيما حصل لهم من العلوم اللدنية والأسرار الوهبية التي لا يتوصل إليها أحد إلا بالفيض الإلهى، وما أساروا إليه من الرموز والكلام المعمى. وقد نبهوا ﷺ جميعًا على أنه لا يجوز لأحد أن يخوض في كلامهم إلا من عرف مصطلحتهم؛ فالإنصاف الوقوف عندما لا يصل إليه فكر المرء من كلامهم وأقوالهم.

قال شيخ الإسلام المخزومي: لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلا إن

سلك طريقهم ورأى أقوالهم وأفعالهم مخالفة للكتاب والسنة، وأما بالإشاعة فلا يجوز إنكاره عليهم.

وقال العلامة ابن حجر في تحفته من كتاب الردة: ولا أثر لسبق لسان، أو إكراه، أو حكاية كفر، أو شطح ولي في غيبته، أو تأويله فيما هو مصطلح عليه بينهم وإن جهله غيرهم؛ إذا اللفظ المصطلح عليه حقيقة عند أهله لا يعترض عليه بمخالفته لاصطلاح غيرهم، كما حققه أئمة الكلام وغيرهم، ومن ثمّ زل كثيرون في التهور على محققي الصوفية بما هم بريئون منه اهـ.

وفي «العرائس القدسية» قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: وقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة بالخلق خصوصًا أهل الجدال، فقل أن أن تجد منهم أحدًا شرح الله صدره بالتصديق لأحد معين، بل يقول لك إن لله أولياء أصفياء موجودين لكن أين هم، فلا تذكر له أحدًا إلا ويأخذ يدفع ويرد خصوصية الله له، ويطلق اللسان بالاحتجاج على كونه غير ولي لله تعالى، وغاب عنه أن الولي لا يعرف صفاته إلا الأولياء، فمن أين لغير الولي نفي الولاية عن إنسان، فاحذر يا أخي عمن هذا وصفه، وفر منه فرارك من السبع الضاري.

قال العارف ابن عطاء الله السكندري في كتابه «لطائف المنن»: قد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمه الله:

استتار الرجال في كل أرض ... تحت سوء الظنون قدر جليل

ما يضر الهلال في حندس الليل ... سواد السحاب وهو جميل

ثم قال: وأشد حجاب يحجب عن معرفة أولياء الله تعالى شهود المماثلة، وهو حجاب قد حجب به الله تعالى الأولين، قال سبحانه حكاية عنهم: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ﴾[المؤمنون: ٣٣] وقال سبحانه مخبرًا عنهم: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ ﴾[القمر: ٢٤] فإذا أراد أن يعرّفك بوليّ من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته، فإياك أيها الأخ أن تصغى إلى الواقعين في حق هذه الطائفة والمستهزئين بهم، فتسقط من عين الله تعالى وتستوجب المقت منه، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق والإخلاص والوفاء ومراقبة الأنفاس مع الله، وقد سلموا قيادهم إليه وألقوا أنفسهم سلمًا بين يديه، وتركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربوبيته واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم والمغالب لمن غالبهم اهـ.

قلت: ومع ما أوردناه من النصوص المثمرة والأقوال النافعة المحررة، فلا يسلم من داء الإنكار على هذه الطائفة في جميع الأعصار، إلا من أراد الله به خيرًا ليرسمه في ديوان الأخيار.

وما الآيات تغني للحسود عن الإنكار والنص الصريح

فكم من حاسد يدرى صوابا وقوله كله فيهم قبيح

الفصل الثالث

(في بيان الأنفع للمريد بعد معرفته الواجب عليه شرعا، هل هو الإكثار من قراءة العلم والتبحر فيه؟ أم سلوك طريق القوم على وجه الرياضات والمجاهدات؟)

فالجواب: أن الأنفع له سلوك طريقة القوم، وإيضاح ذلك؛ أن معرفة الله تعالى متوقفة على معرفة النفس، كما ورد عنه ذلك ﷺ «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، ونقيضه من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه، فمعرفة الرب فرض عين؛ لأن عبادة الرب تعالى تتوقف على معرفته، لأن من لم يعرفه لم يعبده، وعبادة الرب فرض لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات : ٥٦] .

قال ابن عباس: أي يعرفوني ويوحدوني، وكل ما يتوقف عليه فرض فهو فرض، فمعرفة النفس فرض عين، فمن جهل معرفة نفسه فهو أجهل بمعرفة ربه، فلا بد من معرفة نفسه حتى يعرف ربه ويعبده، وذلك لا يكون إلا بصحبة العارفين الواصلين الكاملين،لأنهم يطلعون المريد على دسائس نفسه، ويطهرونها من نجاستها المعنوية المانعة لها من دخول حضرة الله تعالى، ولا يكون ذلك بكثرة العلم ولا بتدريسه ولا بتأليفه ولو أقام المريد في ذلك ألف سنة، فإن آخر مجالسه فيه كأول مجلس من عمره فيه. لذا قال الشعراني في «الأنوار القدسية»:

واعلم أنه لا يمكن لطالب العلم العمل بالعلم وآدابه ويصير[1] عليه الأنس والخير إلا إن كان معتقدًا في طائفة الفقراء مخالطًا لهم؛ لأنهم ينبهونه على الدسائس المانعة للقلب عن قبول الخير، لأن العلم قوة للنفس، وكلما كثر قويت وتكبرت وبعدت عن الخير. وكثيرًا ما أسمع شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ﷺ يقول: الفقيه إذا لم يكن له إلمام بطريق القوم وملاحظهم وإصطلاحهم ومأخذهم فهو جاف، ولذلك عدم أهل الجدال من الفقهاء والعباد الترقي في درجات الولاية، وجمدوا على ما فهموا من ظواهر النقول ولم يتعدوا إلى ما وضعه الشارع في طيها من الزواجر والروادع، فلم يزدادوا بكثرة العلم وتلاوة القرآن زهدًا في الدنيا وإقبالا على ربهم، وماتوا وأحدهم يود لو كان عنده واديان من ذهب، بل يود أن لوزيد له رغيف آخر على خبزه.

١- قوله ويصير: أي ويحصل له.

فافهم يا ولدى فإن السالك على يد الفقراء كالطيار إلى حضرات القرب، والسالك من غير طريقهم كالذي يزحف تارة ويسكن أخرى، مع بعد الطريق.

وقال اليافعي ﷺ: مكثت نحو عشرة سنين وأنا بين خاطرين، خاطر يدعونى إلى طريق الفقهاء، وآخر يدعونى إلى طريق الفقراء، فاجتمعت بشيخ من أولياء اليمن، فكاشفنى وعرف ما في قلبى. وقال لي: يا ولدى مبدأ الفقير نهاية الفقيه، ولأن مبدأ الفقير الفقر عن كل شيء والإخلاص لله تعالى في جميع عباداته، ولا يطلب منه عوضًا على عبادته، وهذا نهاية الفقيه، ثم يترقى الفقير في درجات القرب والمواهب. ثم قال: إن أحببت أن أريك شيئًا من ثمرات العلم الذي تريده وثمرة الفقر فعلت ذلك. فقلت له: نعم. فأرسل إلى شخص من أكابر العلماء أن يأتى وأمر الجماعة أن لا يقوموا له ولا يفسحوا له، فجاء ولم يجد إلا موضع النعال، ولم يلتفت أحد إليه فتكدر وكاد أن يكفرهم، فقال له الشيخ: يا فقيه أجد في نفسى منك شيئًا. فقال: وأنا أيضًا في نفسى منك شيئان، وقرن بين أصبعيه وولى ساخطًا يسب الشيخ وجماعته. فقال: أنظر ثمرة هذا العلم الذي تطلبه. ثم أرسل إلى فقير من الفقراء فجاء ووقف ولم يجد موضعًا كالأول، وسلم ولم يرد عليه أحد سوى واحد، فضحك ووقف في وصف النعال وأدارها لهم. فقال له الشيخ: أنا في نفسى منك شيء. فقال: يا سيدى أنا أقول أستغفر الله وكشف رأسه، فقال: أنظر ثمرة طريق الفقراء، قال: فلزمت طريق الفقراء إلى أن صرت كما ترونى. فاسمع يا أخى هذه الحكاية، واشتغل بما يثم لك هذه الثمرة، واحذر أن تكون ممن يكثر من جمع العلم من غير عمل، اعتمادًا على الأحاديث الواردة في فضل العلم، كقوله ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل». و«العلماء ورثة الأنبياء» فقد قال ﷺ: «من ازداد علمًا ولم يزدد هدى فقد ازداد من الله بعدًا».

وقد اجتمع الشيخ عبادة المالكى بالشيخ مدنى ﷺ فلم يعظمه ولم يلتفت إليه، فقال له: يا سيدى ما منعك أن تعطينى حقى في الإكرام؟ فقال: وكيف وأنت مشرك؟ فقال وما وجه إشراكى؟! قال: حالك الذي أنت فيه الآن، وطلبك التعظيم والخضوع لك، وليس ذلك إلا الله تعالى، فمن ينازع الله فيما يستحقه، ويطلب أن يكون له مثله كيف يكرم، وإنما يستحق الإهانة والاحتقار، فسكت الشيخ عبادة ساعة، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، تبت إلى الله تعالى، وهذا أوان دخولى في الإسلام بيعن بصيرة وكمال صدق. رحمه الله، لأن الإسلام هو الانقياد وترك المنازعة لله تعالى في أوصافه وما يستحقه، وملازمة الأعمال الصالحة، ورؤية نفسه أنه أحقر خلق الله، فافهم أرشدنا الله وإياك الصراط المستقيم.

الفصل الرابع

(في بيان عدد الأولياء)

وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، والكل متفرقون في البلاد، كلما مات شخص خلفه آخر من صالحى المسلمين، منهم النقباء ثلثمائة والنجباء سبعون، والأبدال كما ذهب إليه الجم الغفير أربعون، والأخيار سبعة، كما أن الأوتاد أربعة، والإمامان واحد عن يمين القطب وواحد عن الشمال، فإذا مات خلفه صاحب الشمال بحكم الكبير المتعال، وإذا ما توفى واحد منهما خلفه واحد من الأوتاد، وإذا توفى واحد منهم خلفه واحد من الأخيار العباد، وهكذا كل طبقة دنيا تخلف الدرجة العليا، وهكذا قال الصوفية الثقاة: كمحى الدين والقونوى عليّ الدرجات. ومنهم الأمناء الذين لم يظهروا على ظواهرهم ما في بواطنهم وهم الملامتية، وهم أعلى الطائفة، ولم يزل مريدهم متقلبًا في أطوار الرجولية، وسموا بذلك للوم الناس لهم على كل حال، مع كمال الرسوخ في ميادين طرق الفحول الرجال، لم ينسبوا لأنفسهم قولا ولا فعلا، بل يرون الجميع صادرًا من المولى. ومنهم الأفراد، وهم الرجال الخارجون عن نظر القطب سيدهم؛ وليس لهم علم بقطب ولا غيره، لاستغراقهم في شهود ربهم، وهم الذين تولى تربيتهم المحبوب الأعظم ﷺ بنفسه، وأدخلهم على ربه فأضحوا مطمئنين في مقعد حضائر قدسه.

ثم الأولياء على أربعة أقسام، كما قال الشيخ الأكبر الهمام: (رجال الباطن)، (ورجال الظاهر)، (ورجال الحد)، (ورجال المطلع) وهم الأكابر.

(فرجال الباطن): هم الذين لهم التصرف في عالم الغيب والملكوت، فيستنزلون أرواح الكواكب فيما يريدون بقدرة الحى الذي لا يموت، اختصهم الحق بفتح مغلق باب باطن الكتب المنزلة، والصحف المطهرة المكملة، وكلام العالم في الأرض والسماء، ونظم الحروف من جهة معانيها والأسماء، وهم جلساء الحق، ولهم المشورة في مقعد صدق.

(ورجال الظاهر): هم الذين لهم التصرف في عالم الملك والشهادة، الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والعبادة.

(ورجال الحد): هم الذين لهم التصرف في عالم الأرواح النارية، وعالم الجبروت والبرزخية، وهم رجال الأعراف، أهل التشمير والتمييز والسراح عن ذميم الأوصاف،

والأعراف سور حاجز بين الجنة ودار الثبور، وبرزخ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فهو حد بين السعداء والأشقياء أهل المرية والحجاب، وهم أهل الرحمة التي وسعت كل شيء، الكاملو الأوصاف، ولهم في كل حضرة دخول وإشراف، وهم العارفون بالصفات التي يقع بها الامتياز لكل موجود، عن غيره من الموجودات الحسية والعقلية بقدرة الواحد المعبود.

(ورجال المطلع): وهم الذين لهم التصرف في أسماء الله فيستنزلون بها ما شاء الله، وهذا ليس لغيرهم من العارفين، ويستنزلون كل ما هو تحت تصريف الرجال الثلاثة المتقدمين، وهم أعظم رجال الصوفية ويسمون بالملامتية.

والأقطاب أولو المقامات والتمكين أقسام، كما ذكره في فتوحاته الشيخ محي الدين.

القسم الأول– الأقطاب العيسويون: وهم الذين جمع لهم الميراثان، الروحاني الذي يقع به الانفعال على مر الزمان، والمحمدى الذي تقع به الرحمة على جميع الأنام. وهم الذين سرى حالهم في مريدهم بضرب الصدر والظهر والمعانقة، إشارة لصلاح الأمر، أو بسط ثوب ويغرفون فيه من الهوى ويأمرونه بضمه إلى صدره فلم ينس ما روى، كما وقع لسيد الأنام، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، في غرفه من الهوى ثلاث غرفات وحطها في ثوب أبى هريرة لما اشتكى له كثرة النسيان مع كثرة مجالسته وسماعه حديث سيد ولد عدنان، وأمره بضم الثوب إلى صدره، فما نسى بعد شيئًا من نهيه وأمره. وضربه جرير بن عبد الله البجلى في صدره بيده الشريفة، لما اشتكى له سقوطه دائمًا عن ظهر الفرس السمينة والضعيفة، وغير ذلك مما ثبت معجزة للمحبوب الأعظم، فهو كرامة لورثته من كل محب أكرم. ومن علامتهم الشفقة على كل مسلم وكافر، ومحسن وظالم، وعدم التكلم إلا بخير، ويرون الأشياء بعين المنصف العالم.

القسم الثاني– الأقطاب المصونون في ضنائن غيب رب العالمين: وهم الموسومون عند السادة الصوفية بالسادة القادة الملامتية، للوم الناس لهم على ما يفعلون، وهم في الباطن مع معمرون، وهم الذين صانهم وسترهم في قاب صون الغيرة الإلهية الملك العلام، وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ آية: فلا يُعرفون بين العالم بخرق العادات، ولا يوصفون بينهم بكثرة العبادات، ولا يشار إليهم بالصلاح الذي في عرف العباد، ومع كونهم محفوظين عما لا يليق بعناية رب العباد، فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء، والأكياس الصلحاء الأولياء، المختارون الغامضون في الناس، فيهم قال عن ربه سيد الأكياس: «إن أغبط أوليائى

عندى المؤمن خفيف الحاذ[1]. ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر والعلانية، وكان غامضًا في الناس». قد دخلوا في مقام القرب من رب الأرباب. واكتفوا بالمسبب عن الأسباب. فهنيئًا لهم، نالوا هذه المرتبة عند الله، لصونهم القلوب عن أن يدخلها غير الله، أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله، فليس لهم حديث ولا جلوس إلا مع الله، فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راجعون، ولله منقلبون، وعن الله ناطقون، ومن الله آخذون، وعلى الله يتوكلون، وعند الله قاطنون، فمالهم معروف رواه. ولا مشهود إلا إياه، صانوا نفوسهم عن نفوسهم فلا تعرفهم نفوسهم، فهم فى غيابات الغيب محجوبون، وهم ضنائن الحق المستخلصون؛ يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشيًا ستر عن كل حجاب، فهذه حالتهم أبد الآباد؛ أولئك هم أولو الألباب.

القسم الثالث– أقطاب النيابة، وهم رجال مخصوصون ذوو سيادات، وهم الذين يسمعون عن الله، ويتكلمون بالله، ويقلبون العادات عبادات، فيأكلون بنية التقوّى على طاعة الله، وينكحون لأجل الكف عن محارم الله، وينامون في القيلولة لأجل القيام في حنادس الظلام، ويلبسون أفخر الثياب إظهارًا لنعمة الملك العلام، وهكذا في جميع الحركات والسكنات، أولئك أهل المكارم والسيادات، شغلوا أنفسهم بتمحيص النيات، وأحسنوا القصد في الحركات والسكنات، قلوبهم وأسرارهم متعلقة بالله ربهم من حيث معرفة نفوسهم، لا إجتماع لهم بالنهار مع العاملين؛ حركاتهم ليلا نظرهم في غيب رب العالمين، وهم في الرجال قليلون، وكل الطوائف لمقامهم متطلعون، لأنه مقام ضيق جدًا على كل عالم، لا حتياج صاحبه إلى حضور دائم، وأكبر من كان فيه أبو بكر الصديق الأكبر، ودونه كل محبوب مجذوب شفيق أعطر.

القسم الرابع– أقطاب الركبان. وهم قسمان؛ منهم من يركب نجب الهمم، ومنهم من يركب نجب الأعمال. ونعتهم في الفتوحات فأفصح وقال:

إن الله عبـــــــــادًا ركبـــــــــوا	نجـــب الأعمـــال في الليـــل البهـــيم
وترقـــــت همـــــم الـــــذل بهـــــم	لعزيـــز جـــل مـــن فـــرد علـــيم
فاجتبـــــاهم وتجلــــى لهـــــم	وتلقـــــاهم بكاســـــات النـــــديم

١– خفيف الحاذ: أي خفيف الظهر.

من يكن ذا رفعة في ذلة … إنه يعرف مقدار العظيم

رتبة الحادث إن حققتها … إنما تظهر فيها بالقديم

لطفت ذاتًا فما يدركها … عالم الأنفاس أنفاس النسيم

إن لله علومًا جمة … في رسول ونبى وقسيم

ومنهم أقطاب دائمة، وأبدال ونقباء وأوتاد، ومنهم نجباء ورجبيون وأفراد. فالطبقة الأولى من هؤلاء الأمم وهم الراكبون نجب العزائم والهمم، تركت التصرف في هذا العالم مع كامل التمكين والتولية لهم من القوى المتين، ولبسوا جلبات الستر والخفاء، وكُتبوا في سجل الفتيان الشرفاء، ودخلوا في سرادقات العيب واستتروا بحجب العوائد، وشربوا من عقار لزوم العبودية والافتقار الطارف منه والتالد، وهم الكرام الأخفياء، الأبرياء الأصفياء، هجيرهم لا حول ولا قوة إلا بالله؛ تبرءوا من الحول والقوة ونسبوهما إلى الله، واتصفوا بلسان وبى يتكلم وبى يبصر ويسمع، مشاهدين صدور الضر والنفع منه متأدبين بآداب الله، لا يضيفون ما لا يليق بالله إلى الله، على قدم الخليل إبراهيم، المخبر عنه ربنا الملك العليم، بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ • وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ • وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ آية ولم يقل أمرضنى تأدبًا مع الله تعالى، فأضاف الخلق والهدايه والشفاء إليه. فالمرض من حيث إنه قبيح ظاهر لم ينسبه إليه؛ متصفين بحاله الحالى: علمه بحالى يغنى عن سؤالى. مغردًا عندليب لسان حالهم عن صحة مقالهم:

حدب الدهر علينا وحنا … ومضى في حكمه وما ونى

فعشقناه غنيًا فعسى … يطرب الدهر بإيقاع الغنى

نحن حكمناك في أنفسنا … فاحكم إن شئت علينا أو لنا

ولقد كان له الحكم وما … كان ذاك الحكم للدهر بنا

فشفيع هو دهرى والذي … طرف الدهر كذا طرفنا

فركبنا نطلب الأصل الذي … جعل السر لدينا علنا

القسم الخامس– الأقطاب المدبرون: وهم الطائفة الثانية الركبانية العارفون، وهم الذين

جعل بأيديهم التدبير والتفصيل لجميع المخلوقات. فلهم الإسم المدبر المفصل، وهجيراهم ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾، وهم العرائس أهل المناص، سادات العوام والخواص، فلهم المعتاد وغير المعتاد من الآيات، فالعلم عندهم كله بينات، وهم العقلاء الناظرون في لب الأمور لا في قشورها: وهم الباحثون عن بطون المعاني والغير المكتفين بظهورها.

القسم السادس- أقطاب «ألم تر كيف»: وهم الذين على مرّ الآنات من شتاء أو صيف، يتفكرون في صفات مبدع هذه المخلوقات، ويجولون بالنظر إلى ملكوت الأرضين والسموات، مستغرقين في شهود رب العالمين، ليس لهم وجهة إلا الله، ولا يقع لهم نظر إلا عليه، أولئك الخواص من الناس، الأصفياء الأكياس.

القسم السابع- أقطاب «صل فقد نويت وصالك»: وهم المعنيون بقول: «يحبهم ويحبونه». فخذ أيها الناظر هذه الفائدة لك، وهي نداء من الحق يناديهم بالوصال، ويفقههم بأنه قد نوى وصالهم وحصل الكمال، كما قال على لسان سيد ولد عدنان: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ آية، ثم قال: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾ فإن الدعاء صدر منى وهو لي، وقال في الحديث القدسى تبارك وتعالى: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا» الحديث، إكرامًا وإجلالا، فإذا اجتهد العبد في وصال مولاه تولاه ونصره وآواه.

القسم الثامن- أقطاب الرموز: وهم الذين أطلعهم الله على تلك الكنوز من سر الحروف التي يعلمها هو، وحققهم بمعنى لا إله إلا هو، ومكنهم رب الأرض والسماء، من التصريف في وضع الأشياء، وجعل مقامهم أسمى اهـ.

نقلا من الشرح المسمى: «بالجنا اليانع الأقرب، لمن أحب رفع القناع عن محيًا معاني جالية الكرب، ومنيلة الأرب» للعالم العلامة الأوحد، والفهامة الأمجد، السيد محمد الجفرى رحمه الله تعالى.

الفصل الخامس

(في بيـان تحقق قطبانية الأستاذ المترجـم قدس الله سره، ورفع بين الخلائق ذكره)

حدثنى الحاج محمد ولد نعيم رحمه الله، قال: قد سألت الشيخ رضى الله عنه عن مقامه عند ربه تعالى في ملأ من صالحى تلامذته، فقال لي: أنا القطب الجامع، وإن العلوى والسفلى تحت قدمى هذه، ثم ضرب الأرض ضربًا خفيفًا بقدميه مرة أو مرتين، وذلك بعد دخولنا عليه للزيارة. وكان من عادتنا أن نزوره كل يوم في الغداة، فقال لنا: خرجت روحى البارحة إلى السماء السابعة، فوجدت سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام هناك. وأعطانى هذه العصا، وهي من سَلَم وجدناها في يده، وأمرنا بالتبرك بها، وقال: لا يضعها أحد على ظهره إلا وقد ولد وإن كان عقيما. قال: فوضعتها على ظهرى وكنت عقيما لا ذكر عندى ولا أنثى، فولدت ببركتها أنا وأولادى نحو خمسين ولدًا من ذكر وأنثى، والعصا المذكورة كانت قدرها نحو ذراع ونصف، وقد رفعت من بعد وفاة الأستاذ قدس سره، ولنرجع إلى ما نحن فيه.

حدثنا شيخنا رحمه الله تعالى قال: قال سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ لسيدنا الشيخ: على رأس السبعين من عمرك ستصير قدمك على رقب كل ولى لله تعالى. حدثنى الصالح الشيخ أحمد الكوفلى رحمه الله قال: حدثنى من أثق به من أهل الفضل قال: سألت سيدى الشيخ ﷺ عن القطب الغوث هل هو كما قيل لا يفارق مكة، أو في كل بلد يكون؟ قال: بل يكون في كل بلد، إلا أن نوره يتصل بمكة. قال: فرأيت في الحال نورًا خرج من الشيخ حتى رأيت من بمكة والبيت والمسجد من قائم وقاعد وطائف، فعلمت أنه هو القطب الغوث من غير شك منى في ذلك. ولما تصرف ولده الشيخ إبراهيم الدسوقى رحمه الله في بعض الظَلَمة بالحال زجره ﷺ، وقال له معرفًا بحاله: إن الكون كله تحت قدمى هذه، فما مالت نفسى أن أتصرف في شيء منه ولو قدر جناح بعوضة. وبلغنا أنه قد سلب حاله نحوًا من ثلاثة أشهر أدبًا، ثم ردها عليه بعد أن تاب على يديه.

حدثنـى الشيخ حبيب الله بن أحمـد الباسطابـى قال: قال لي رجـال اجتمـع بالشيخ وكان من الثقات: سمعت سيدى الشيخ ﷺ وهو يقول: ما من روح يخرج من جسده إلا ويعرض علينا، سواء كان شقيا أو سعيدًا، ثم يذهب إلى ما شاء الله له.

حدثنى الحاج إبراهيم الحليمابى- وكان من أهل الذوق- قال: رأيت منامًا كرسيا أمام الكعبة- وذلك في عهد الشيخ- وجلس عليه رجل ما رأى الراءون مثله، قلت: من هو؟ قيل سيدى القطب عبد القادر الجيلانى، ثم قام وجلس بعده سيدى محمد السمان قدس سره سويعة، ثم قام فجلس بعده سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ ولم يقم، فانتبهت من نومى، وقصصت هذه الرؤيا على سيدى الشيخ ﷺ، من غير إيضاح لاسمه واسم سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، فقال لي ﷺ: هذا كرسى القطبانية. ولا يجلس عليه إلا القطب، وآخرهم هو أكثرهم عليه جلوسًا.

حدثنى الشيخ محمد ولد طه القاطن أمام بندر المسلمية رحمه الله، عن شيخه الشيخ محمد ولد على الركابى، عن الشيخ حسيب بن إمام الكوباوى قال: قال لي: كنت سائحًا ببلاد المغرب، فصعدت على جبل فوجدت فيه حية مطوقة بطوق من ذهب، فصيحة اللسان، وهي من الجن، فقلت لها كم لك ها هنا؟ قالت: لي ألف سنة، فقلت لها: ما شغلك؟ قالت: إجراء ذكر كل قطب من الأقطاب على لسانى، وكنت قد وجدتها وهي تقول: السمان، السمان. فقلت لها: إن السمان قد توفى. فقالت: السمان هو الطيب. فعلمت أنه هو الوارث لقطبانيته، وهذا هو السبب الذي حركنى من بلاد المغرب إلى صحبة سيدى الشيخ والأخذ عنه.

قلت: وقد وجدت له قصيدتين مدح بهما الأستاذ بعد مقابلته له، ورأيت فيهما العجب العجاب وشهادة بقطبانيته: إحداهما أربعمائة بيت، والثانية ثمانمائة بيت.

قال الفقيه فضل السيد ولد حسين، وكان أحد التلاميذ الصالحين: قال لي شيخنا هذا ﷺ: ما من ولى على وجه الأرض في هذه الأيام إلا وهو محتاج إلى فيوضاتنا وإمداداتنا وتولينا له في جميع أموره الظاهرية والباطنية.

وقال الشريف محمد الهاشمى المغربى الحسنى: حضرت الحضرة فوجدت صاحب الوقت والتصريف سيدى الشيخ ﷺ، وأمرنى جدى رسول الله ﷺ أن أحييه بالسلام، وأن أقف بين يديه حتى أرجع إليه ﷺ.

وفيما سيق لك في فصل الثناء من هذه المناقب وغيره من الفصول كفاية لأولى الألباب، والله الموفق بمنه وكرمه للصواب.

الفصل السادس

(في بيان ما تحدث به مما أنعم الله تعالى به عليه مما يشهد برسوخ قدمه وسعة ما خصه الله به من كرمه)

حدثني الحاج دفع الله الرفاعي قال: سمعت سيدى الشيخ رضي الله تعالى عنه وأنا بين يديه وهو يقول: كنت في حضرة فيها جميع الأولياء، فسمعوا هاتفا من قبل الحق جل وعلا وهو يقول: يا معشر الأولياء، إن الطيب من سلاطينكم، قلت: وبهذا اللفظ قد أخبرنى بعض إخوانى أنه سمع مثل ذلك عن ولده سيدى الأستاذ نور الدائم ﷺ.

حدثني الشريف صالح ولد عمر التيجانى الهندى قال: حدثنى الفاضل محمد ولد ساتي على قال: قال لي الشيخ ﷺ: دخلت الحضرة فوجدت. أقرب الاولياء إلى النبي ﷺ السيد أحمد البدوى، وسيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى، وسيدى معروف الكرخى، وأبا يزيد البسطامى، فأقامنى ﷺ وحدى عن يمينه وهؤلاء عن شماله، ثم قال: إن الطيب هذا هو يد من أيدى، من أحبه أحبنى. وقال ﷺ: كثيرًا ما رأيت رسول الله ﷺ يقبلنى كما يقبل الأب ولده الصغير.

ومن كلامه ﷺ: ما حجب عنى رسول الله ﷺ ساعة من الساعات، ولم أقل قولا ولم أفعل فعلا إلا بإذنه في جميع الأوقات.

ومن كلامه ﷺ، قال رسول الله ﷺ: أنت وإبراهيم ولدى كهاتهين، وأشار بأصبعيه ﷺ السبابة والوسطى مضمومين، ومن كلامه ﷺ: كان الشيخ أبو مدين شعيب المغربي ﷺ يوصل في النظرة الواحدة إلى الله تعالى سبعين رجلا، وأنا لست دونه.

ومن كلامه ﷺ: حصل بى الحال، فبينما أنا طائر في آفاق السماء الرابعة، وإذا بجبريل ﷺ قد لقينى فقلت له: يا جبريل أين أخى محمد ﷺ؟ فقال لي: يا ابن البطون الطاهرات إنما أخوه على: قلت أراد بذلك له الوقوف على الأولى، وهي تربية جبرائيلية، وإن كان القول بالأخوة له ﷺ قد أجازه الحديث المروى عنه ﷺ، ففي صحيح الإمام مسلم ﷺ سنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولتنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابى وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: كيف تعرف من لم

يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابى، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهرى خيل دُهم بُهم[1] ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: فإنهم يأتون غرًا محجلين من الوضوء، وأنا فرَطهم على الحوض، ألا ليذادن رجال كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحقًا، سحقًا». فالأخوة ثابتة كتابًا وسنة، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ آية ولكن الأدب تركها معه ﷺ، وأن يدعى برسول الله ونبى الله، كما أرشدنا رب العزة ﷻ بقوله: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ آية. ويرحم الله القائل:

ودعــا جميــع الرســل كــلاً باسمــه ودعــاك وحــدك بالرســول وبــالنبي

ولكن القطب المترجَم معذور في ذلك الوقت، لأنه في حال هيام واصطلام، والله در من قال:

يقولــون زرنــا واقــض واجــب حقنــا وقــد أســقطت حــالى حقــوقهم عنــى

وقد أشار الإمام النابلسى ﷺ بقوله في ديوانه المشهور:

نحـــن إخـــوان النبــــى المــصطفى وَدّ لـــو كــــان رآنــــا وكفــــى
وهـــم الأصـــحاب كـــانوا قبلنـــا جـــاء هـــذا في حـــديث يقتفـــى
وانقـــضت أصـــحابه وانقطعـــوا وبقينــــا نحــــن إخــــوان الــصفا
حبّنـــا مـــــن حبــــه مكتـــــسب ومـــع البعـــد بـــه البعـــد انتفـــى
وهـــو يـــشتاق ونـــشتاق كمـــا يـــشتكى نـــشكو تبـــاريح الجفـــا
وإذا ودّ وددنــــــا مثلـــــــه وهـــو أمـــر جـــل عـــن أن يوصـــفا
إن للاخـــوان في الحكـــم يـــدًا تقتـــضى منـــه عهـــودًا ووفـــا
وهـــو أيـــضًا نـــسب متـــصل وحـــدة الـــروح مقـــام الخلفـــا

١- بهم: جمع أبهم؛ وهو الذي لا يخلط لونه شيء.

وإذا الـــصحبة في الظـــاهر قـــد	عظمـــت فـــضلا وزادت شـــرفا
نـــسبة الإخـــوان في البـــاطن لا	تقتـــضى إلا الجـــوى والـــشغفا
شـــرطوا الرؤيـــة بـــالعين فمـــن	نالهـــا منـــه فبالجـــسم اكتفـــى
وتركنـــا الـــذات للـــذات تـــرى	رؤيـــة التحقيـــق مـــن غـــير خفـــا
فـــاعرفوا بـــالفرق مـــا بينهمـــا	فـــاز بالإحـــسان مـــن قـــد عرفـــا

وقول جبريل عليه السلام له: يا ابن البطون الطاهرات، هو شاهد على طهارة نسبه رضي الله عنه.

ومن كلامه رضي الله عنه: من دفن بيني وبين الشيخ عبد المحمود أبى شيبة المشهور بالطيار، فإنه لا يعذب في قبره بنوع من أنواع العذاب ولا بالنار.

ومن كلامه رضي الله عنه: قد دخلت الخلوة وجاءني جبريل عليه السلام وبيده قطعة من حرير مكتوب فيها هذه الصلاة وهي: «اللهم صل على سيدنا محمد النور وآله». وقال لي: هذه هدية منا لك، وأطلعني على أسرارها عليه السلام.

ومن كلامه رضي الله عنه: قد أدخلت ولدنا عبد الرحمن الفادنى الخلوة بصلاة اسمه تعالى (رحمن)، فعرضت روحه على الحق جلا وعلا فخضعت وتأدبت، وقال: إلهى ما جزاء من أحب عبدك سيدى أحمد الطيب؟ قال جزاؤه ألا أحرقه بنارى.

ومن كلامه رضي الله عنه: من رآنى، ومن رأى من رآنى، إلى ثلاثة، وفي رواية إلى سبعة، لم يحرق بالنار.

ومن كلامه رضي الله عنه: من قال عند حفره لقبر ميت من الأموات: هذا قبر أحمد الطيب، فلا يعذب ولو لم يكن من أهل الطاعات.

ومن كلامه رضي الله عنه: قد سألت الحق جل وعلا هل الأفضل للمريد الصادق أن يتوسل إليك بصلاة الأسماء يعنى صلاته أن بدلائل الخيرات؟ قال لي: وعزتى وجلالى وارتفاعى في علوى، إن من توسل إلى مرة واحدة بصلاة الأسماء، أفضل ممن يتوسل إلىّ بسبعين مرة بدلائل الخيرات.

ومن كلامه رضي الله عنه: أنه قد كان معى يومًا أخى الحاج أحمد البقارى: فسمعت هاتفًا من قبل الحق تعالى وهو يقول: لأقرّبنكما في الدنيا والآخرة.

واعلم أن الحاج المذكور من أصدقاء الشيخ ﷺ وخواص أحبابه. وكان أخذه على سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره بالمدينة المنورة، وهو من أهل القدم الرفيع في الولاية، وقد زوجه الشيخ بأخته آمنة بنت البشير وولد منها. وله مناقب وكرامات وفضائل شتى، وهو من آل بيت النبوة، حسينى النسب، وأجداده قاطنون بدار فور، وهم أشهر من أن يذكروا. كالشيخ الماحى ولد داود وغيره. وإنما شهر بالبقارى لسكناه في أرض البقارة. ونهيئته بهيئتهم؛ كنسبة السيد أحمد البدوى إلى البادية، وماله فيها إلمام غير الهيئة فقط.

ومن كلامه ﷺ. من حصل به هم فليقل: يا أحمد الطيب، يا أحمد البدوى، فلا يرى همًا بعد هذا.

وكلامه ﷺ لا يحصى، وفيما ذكرنا غنى لمن استغنى، وهناء لمن أراد الله له أن يهنأ.

الفصل السابع

(في بيـان ما أكـرمه الله به من فسحة أجل من حضـرت لقبض روحه ملائكة القبض عليهم السلام، وشبه ذلك)

حدثني الفاضل الصالح الشيخ الحسين ابن الفقيه إبراهيم الخليل ابن الفقيه محمد الأغبش قال: مرضت مرضًا أشرفت فيه على الهلاك إلى أن يئس كل الناس من حياتي، فجاءتني ملائكة القبض لقبض روحي، فرأيت سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ وهو قريب منهم، يقول لهم؛ أما قلت لكم لا تقبضوا روحه! فرجعوا عند ذلك. فإن قال قائل: إن هؤلاء الملائكة لا يقدمون على أحد إلا بإذن من الله تعالى.

فالجواب: أن الأمر والشأن كذلك، ولكن قد يحصل النسخ خرقًا للعادة، إكرامًا من الله تعالى لوليه. وهذا فيما تعلق به خاطره في فسحة أجل المذكور.

ونظير هذه الحكاية ما ذكره سيدي عبد الوهاب الشعراني في ترجمة سيدي الشيخ محمد الشربيني، قال: لما ضعف ولده أحمد وأشرف على الموت، حضر عزرائيل لقبض روحه، قال له الشيخ: إرجع إلى ربك فراجعه فإن الأمر قد نسخ. فرجع عزرائيل، وشفي أحمد من تلك الوعكة وعاش بعدها ثلاثين عامًا. ومن ذلك المعنى الخارق للعادة أن سُريته رابحة التي أهداها إليه الشيخ ناصر ولد أبي لكيلك لما توفيت ودفنت، كان الشيخ ﷺ جالسًا على شفير قبرها، فلما حضر الملكان زعق زعقة بهم عالية، ثم قال: يا أبى الله ورسوله أن يفتن أو يعذب جسدًا التصق بجسدي، فسئل عن ذلك فقال؛ إن الملكين أرادا أن يفتناها فنحيتهما عنها بإذن الله تعالى.

قلت وقد رأيت في شرح الصاوي ﷺ على بعض كتب التوحيد، أن الشيخ إبراهيم اللقاني رحمه الله تعالى، لما دفن وحضر الملكان ليسألاه، قد حضر عنده إمام دار الهجرة مالك بن أنس ﷺ، وقال لهما: أمثل هذا يستحق أن يسأل في أمر دينه؟! فتنحيا عنه. وهذا الكلام إما أن يكون هكذا لفظه، أو حكيته بالمعنى، لأن عهدي به طويل.

ونظير هذا الكلام– إكرام الله تعالى لأوليائه– ما حكاه الشيخ الجفري العلوي، في كتابه (كنز البراهين الكسبية، والأسرار الوهبية الغيبية) في ترجمة سيدي عبد الله با علوي، قال: ومنها أن رجلا أنشده أبياتًا تتعلق بالبعث والحساب، فتواجد صاحب الترجمة وخر

مغشيًا عليه، فلما أفاق قال للرجل: أعد الأبيات، فقال الرجل: بشرط أن تضمن لي الجنة، فقال: ليس ذلك لي، ولكن اطلب ما شئت من المال. فقال الرجال: ما أريد إلا الجنة فقال إن حصل لناشئ ما كرهنا، ودعا له بالجنة، فحسنت حال الرجل وانتقل إلى رحمة الله تعالى، وشيعه صاحب التـرجمة وحضر دفنه، وجلس عند قبره سرعة فتغير وجهه، ثم ضحك واستبشر. فسئل عن ذلك فقال: إن الرجل لما سأله الملكان عن ربه، قال: شيخى عبد الله يا علوى، فتعجبا لذلك، ثم سألاه أيضًا فأجاب بذلك، فقالا: مرحبًا بك وبشيخك عبد الله.

ويدخل في هذا المعنى قول الشيخ ﷺ الذي تقدم، وهو إذا أردتم أن تحفرون قبر ميت فقولوا: هذا قبر أحمد الطيب، فإن الله تعالى لا يعذب صاحبه.

ومن ذلك حكاية سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى ﷺ، أنه قال: أيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستى خفف الله عنه العذاب يوم القيامة. وكان رجل يصرخ في قبره ويصيح حتى آذى الناس، فأخبروه فقال: إنه رآنى مرة ولا بد أن الله يرحمه لأجل ذلك، فمن ذلك الوقت ما سمع له أحد صراخًا.

حدثنى من أثق به قال: رأيت صبيًا أحضره أهله بين يدى الشيخ ﷺ وهو مريض، فقال لهم: إن أجل ابنكم هذا قد حضر. ولكن لا يقبضه الملك وهو عندنا هنا، فاحفظوه ألا يخرج. فلما كان بعد أيام قد خرج الولد إلى الصحراء، فجاء أهله ولم يجدوه، فلما أخبروا الشيخ ﷺ قال لهم: اذهبوا خلفه وخذوا معك كفنًا وادفنوه فإنه قد مات، وإيضاح ذلك أن الشيخ ﷺ قد اطلع من طريق الكشف أن قبض روحه لا يكون في موضعه، ولكن يكون في موضع آخر، فلما كان وقع الأمر على حسب اطلاعه وكشفه، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾[الجن:٢٦/٢٧] أي أو ولىّ، كما قال أجلة المفسرين.

الباب السادس

وفيه عشرة فصول

الفصل الأول

(في بيان كراماته في حياته)

إعلم وفقنى الله وإياك على محبة الأولياء، والتصديق بكرامات الأصفياء، أن كرامات الشيخ ﷺ لا تحصى، ومناقبه لا تستقصى، وجميع ما حواه هذا المؤلف من بدايته إلى نهايته كله كرامات، ولكن عقدنا هذا الفصل كعادة أهل المؤلفات، فنقول: منها ما هو معلوم لدى كل من حضره وشاهده، وهو أثر أصابع رسول الله ﷺ ظاهر على هامة رأسه مؤثر فيها، وله ضياء يبصر به الوجه من نظر إليه ليلا.

ومنها ما أخبر به الحاج العباس ولد أحمد ولد القاضى نصير السرورابى، أنه قال قال: لما قتل الشيخ عبد الله ولد عجيب، المشهور برأس تيره، فقد توجه الشيخ ناصر ابن الشيخ الأمين إلى ملك سنار ليستخلفه في بلده من بعد المذكور، فتوقف الملك، وأحب أن تكون الرئاسة لأخيه أو تسرى الأمين. وكان قد حضر مع الشيخ ناصر الفقيه محمد ولد أبى أمونة، وكان من المهتمين بأمر الشيخ ناصر وشأنه. فذات يوم قال له أبناء القاضى نصير كالداعبين له: خذ الطريقة على أحد هؤلاء المشايخ ودع ما أنت فيه. يشيرون بذلك إلى سيدى الشيخ أحمد الطيب، والشيخ يوسف ابن الشيخ محمد الطريفى رضى الله عنهما وغيرهما، وكان يومئذ بمدينة سنار. فقال لهم: لا آخذها إلا على من يخبرنى بما في نفسى مكاشفة، فطافوا به على مشايخ الطريق، فما خاطبه أحد منهم، إلى أن دخلوا به على سيدى الشيخ، وذلك بعد العشاء الأخيرة، فأمرهم بالرجوع إلى محلهم والإتيان إليه عند صلاة الصبح، فلما حضروا التفت الشيخ ﷺ إلى الفقيه محمد ولد أبى أمونة، وقال له: إن ناصرًا قد قلدناه أمر الرئاسة التي يطلبها في هذه الليلة، من غير رضاء ملككم، فعند ذلك تواجد محمد ولد أبى أمونة طربًا، ووقع على قدم الشيخ يقبلها، وقال: والله هذا الذي كنت أضمرته في نفسي. ثم إنه طلب الطريقة من الشيخ فأعطاها له، ومن قبل طلوع شمس ذلك اليوم قد ضرب الدنقر الذي هو علامة على المشيخة في دار الملك، بمشيخة الشيخ ناصر ورئاسته على بلده بعد أن كان ذلك أبعد في نفس الملك من كل بعيد.

ومنها ما هو أشهر من أن يذكر: وهو أن الشيخ عبد الله ولد عجيب، الشهير برأس تيره تعدى على جماعة من الجموعية فقتلهم، وأخذ أموالهم ظلماً فاستغاثوا بالشيخ ﷺ في رد أموالهم عليهم، فكتب إليه الشيخ كتابًا في ذلك، فأبى أن يرد إليهم شيئًا. ثم كتب إليه ثانيًا فأبى، ثم ثالثًا بالعزل عن الملك. فقتله أولاد الشيخ الأمين في ثاني ليلة ذلك اليوم شر قتلة.

حدثني الحاج العباس ولد أحمد ولد نصير، قال: حدثني عمى الحاج الأمين، قال: كنت ممن حضر مع الشيخ ﷺ صلاة صبح تلك الليلة التي قتل فيها عبد الله رأس تيره المذكور، فسمعت الشيخ ﷺ بعد أن صلينا الصبح، يقول: الآن قد عرضت على جنازة عبد الله رأس تيره، قال: فاختلج صدرى في كلامه وتردد، وما زلت على ذلك إلى أن وردت الرسل إلى جهتنا بقتله، وكان ذلك في صحوة ذلك اليوم. فبادرت إلى الشيخ ﷺ مسرعًا وجلا مما كان منى، فطلبت منه السماح فسامحنى، ﷺ.

ومنها ما أخبرني به الحاج العباس المذكور أيضًا، قال: حدثني عمى الحاج الأمين قال لي: كنت مرة جالسًا بين يدى الشيخ ﷺ، فلما رأيت انكباب الناس على زيارته وتعظيمهم له، ومحبتهم فيه، قلت في سرى: هذا كاد أن يكون كشيخنا الشيخ يوسف بن محمد الطريفى، فما استتم هذا الخاطر حتى امتلأ جسمى نارًا وحرًا؛ ولم تزل الحرارة تزداد في إلى أن وصلت إلى قلبى، فاستغثت عند ذلك بشيخنا الشيخ يوسف ﷺ، فتحولت تلك النار والحرارة إلى ظهرى، ولم تزل كذلك، وإنى في غاية من الضر والألم الشديد، ومع ذلك كرهت نفسى أن تبدى جزعًا، فالتفت على الشيخ ﷺ بحالة غضب، وقال: نحت جبل بأظفار، وحفر بئر بإبار، أهون على من كلمة إنكار. قال: فقلت: يا سيدى أتؤاخذنى بالخطرات القلبية؟! فقال لي: ألا تتوب بعد هذا؟ فقلت: بلى. قال: فكأنما طفئ بماء.

ومنها ما بلغنى عمن أثق به من إخواننا السمانية: أن التُرك عند خولهم البلاد من جماعة منهم بناحية الشيخ ﷺ فرأوا نسوة فهربن منهم، فتبعوا أثرهن إلى أن دخلن على الشيخ ﷺ، فزعًا منهم، فأرادوا الدخول على الشيخ وإخراجهن من عنده قهرًا. فعند ذلك أشار الشيخ قدس سره بيده إليهم وقال قهار، فخرجت من تحت أرجلهم ريح عاصف، فأخذتهم وما كانوا عليه راكبين من الخيل، ولم يقف أحد على خبرهم إلى يومنا هذا.

ومنها ما أخبر به الحاج أحمد بن محمد الأغبش رحمه الله وغيره من تلامذة الشيخ، قالوا: كنا عند الشيخ ﷺ عند دخول الترك في البلاد، فقصد جماعة من أعيانهم إحراق

سيدى الشيخ بالنار، كما فعلوا ذلك بغيره، فلما أوقدوا النار في البيت الذي فيه الشيخ؛ هممنا بأن نحمله ونخرجه منه خوفًا عليه، فزجرنا وقال لنا: قفوا مكانكم، فإنى وعزة ربى مؤمّن من النار الدنيا والآخرة، ثم التفت إلى النار فخمدت بعد اشتعالها؛ فارتعدت فرائص المذكورين وتصببوا عرقًا، حتى كادت أرواحهم أن تزهق خوفًا وفرقًا حتى جثوا على ركبهم ونزعوا ما على رؤوسهم، وبكوا بين يديه ﷺ.

ومنها ما أخبرنى به من أثق به من الأخيار، قال: بلغنا أن الشيخ ﷺ مرّ يومًا بمقبرة سنار والناس يمشون خلفه. وهو راكب على فرس. فوقف عند قبر جديد دفن وضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال للحاضرين: أمن الفونج صاحب هذا القبر؟ قالوا نعم، وله ثلاثة أيام من حين موته، فسكت، فقال له بعض الناس؛ أخبرنا يا سيدى بخبره. قال ﷺ: سمعت الملَكين يسألانه وهو يجيبهما بلا إله إلا الله محمد رسول الله، وذلك إلى أن بلغ ثلاث مرات، ثم سألاه في الرابعة فقال: وهات الملك بإبدال الحاء هاء، وذلك بلغته- يريد بذلك وحياة الملك لا أزيد على ذلك. قيل للشيخ ﷺ: ماذا فعل به؟ قال: كاد الشجاع أن يكون وليًا.

ومنها ما أخبرنى به جماع ولد عجيب، عن خاله الحاج ولد البشير الترابى عن أبيه قال: لما أشتهر الشيخ ﷺ بالولاية والكرامات، وخوارق العادات وانقياد الناس إليه، حسده بعض العلماء والمنسوبين إلى الصلاح من أهل بلدة، لا سيما أهل الجاه من أبناء الصالحين المتقدمين، فاتفق رأيهم على على أن يذهبوا إلى الشيخ ناصر ابن الشيخ الأمين في أمره، لينهى الناس عن زيارته وعن الاعتقاد فيه، وأن لا يلقبه أحد بالشيخ، فتوقف الشيخ ناصر عن ذلك، ثم ألحوا عليه فوافقهم، فحبس في ذلك اليوم جماعة ممن يعتقدون في الشيخ ﷺ ويزورونه، فلما كان اليوم الثاني صار الغالب على الناس كثرة الاعتقاد في الشيخ زيادة على ما كانوا عليه، ولا يزالون يزدادون عقيدة وطريقة، وإنهم من كثرة اشتغالهم بذكره وبحبه تركوا كثيرًا من أمورهم، فجمع الشيخ ناصر المذكورين الذين كانوا سببًا في هذا الأمر، وقال:

ماذا تراءى لكم في هذا الرجل؟! قالوا: كثرة الاعتقاد فيه وقوة أمره، قال: ينبغى أن يقال فينا وفيكم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ الآية. ثم إن الشيخ ناصر ولد الأمين قد أرسل إلى الشيخ ﷺ هدايا كثيرة وطلب منه السماح فسامحه، وصار من المعتقدين فيه إلى أن مات. ويحق أن ينشد في هذا الموضع هذه الأبيات، وهي للعارف الشيخ عبد الغنى النابلسى وهي هذه:

شمعتـــى أشـــرقت بنـــورك ربـــى ... وعليهـــا حواســـدى كـــالفَراش

كلمـــا حـــاولوا بـــأن يطفئـــونى ... حُرقـــوا بـــى، فكـــان أمـــرى فاشـــى

وأضـــاءت بـــالحق أنـــوار شمـــسى ... فرأونـــــى بـــــأعين الخُفـــــاش

أتظـــن الكـــــلاب إذ نبحتنـــــى ... أن تعـــــييرهم يـــــدنس شاشـــى

أو بـــأنى في النـــاس أنقـــص قـــدرًا ... بكـــــلام الأراذل الأوبـــــاش

لا ومـــــن خـــصّنى بزائـــد علـــم ... لم يعمّـــوا مـــن وبلـــه برشـــاش

رجـــلا خـــاطرى بنـــور يقـــين ... ورمـــاهم في حـــيرة وانـــدهاش

وابـــــتلاهم بخيبـــــة وعنـــــاد ... وقلـــوب أســـرى الـــشكوكِ عطـــاش

وحبـــانى رَفعًـــا علـــيهم جميعًـــا ... بمقـــام عـــال شـــريف الحـــواش

لا ينـــــالون بـــــالتعرض منـــــى ... غـــير كفـــر بـــالحق واســـتيحاش

وضـــلال عـــن الـــصواب ولعـــن ... في معـــاد علـــى المـــدى ومعـــاش

فانقـــشوا يـــا منـــافقون أو امحـــوا ... ســـأريكم فـــضيحة النقـــاش

قـــد نبـــشتم عـــن كفـــركم بـــاعتراض ... فـــاقطعوا بيـــنكم يـــد النبـــاش

أو لم تعلمـــــوا بـــــأنىَ نـــــور ... لاح للكـــشف في الظـــلام الغاشـــى

فَلتَفِـــرُّوا إنـــى طلعـــت شـــهابًا ... يـــا شـــياطين أو جـــنوا حـــرب جـــاش

فـــارس الـــسهلب الكميـــت بعيـــد ... أن تجـــارى مـــداه عـــرج الجحـــاش

ومنها ما أخبر به الخليفة عبد الجبار ولد سعد، عن شيخه السيد الحسن الميرغنى ﷺ قال: سمعته يقول: إن الله تبارك وتعالى قد أكرم وليه الشيخ أحمد الطيب بكرامتين عظيمتين في أولاده الأولى: أن لكل واحد منهم نفحة من الله تعالى تدركه ولو عند الموت. والثانية: أنهم لا يموتون إلا على حسن الخاتمة، قلت: ومصداق هذا أن كل من ينسب إلى الشيخ ﷺ لا يخلو من حال تشهد بفضله، وإن كان ممن لا يعتنى به في ظاهر الأمر.

ومنها ما أخبر به الحاج محمد ولد نعيم رحمه الله قال: رأيت رجلا أصيب بجنون

فأتى به أهله إلى سيدى الشيخ ﷺ وهو مقيد، فلما رآه قال لهم: فكوا منه القيد، فلما أطلقوه خرج منه دهان نتن وفاق لوقته.

ومنها ما أخبر به رجلا من أهل الصعيد قال: سافرت في بعض السنين إلى الجبال، فلما وصلت إلى جبل يقال له (قريريصة) ذهب ما معى من الماء واشتد بى الظمأ، فاستغثت بالأولياء؛ فرأيت في تلك الحالة رجلا جليلا مهابًا أصفر اللون، فوقف أمامى ثم أشار بيده إلى موضع قريب منى، فقصدت اشارته فوجدته قربة مملوءة ماء فأخذتها، والتفت إليه فلم أجده، فلما رجعت إلى بلدى وأخبرت بذلك بعض الناس، قال رجل منهم: هذا الوصف لا أراه إلا في سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فتعلق خاطرى بزيارته، فلما وقع بصرى عليه عرفته وعرف هو أنى عرفته، فتبسم وقال: أنت صاحبنا بقريريصة، قلت نعم. ثم دعا لي بالبركة، فرجعت منه إلى بلدى فرحًا مسرورًا.

ومنها ما أخبر به الشيخ محمد ولد طه الرفاعى قال: كنت قبل صحبتى لسيدى الشيخ مصحبًا لبعض المشايخ المشهورين، فلما صحبت سيدى الشيخ ﷺ أقمت عنده أعوامًا، ثم طلبته الإذن في الرجوع إلى وطنى، فأذن لى وأمرنى بزيارة ذلك الشيخ، وكان شيخًا غيورًا، فتغير به الحال عندما رآنى، ثم عاتبنى على اتصالى بالشيخ وانفكاكى عنه، فسكت غير معتذر له. فلما علم عدم رجوعى إليه وجه همته على بالضرر، فخرجت من عنده مسافرًا إلى بلدى، فلما سرت كذا كذا ميلا فلم أشعر إلا وهو بين يدى، فلما أراد أن يأخذنى بالحال استغثت بسيدى الشيخ ﷺ، فرأيته قد نزل من الجو بيننا، فأخذ كل واحد منا بيد من يديه ووضعه فوق فراشه من محله.

ومنها ما أخبر به الرجال الصالح تلميذه العارف بالله الشيخ محمد ولد الحاج النور البريابى قال: كنت في عهد الشيخ إذا حملت ثيابة إلى البحر لأغسلها فإنى أسمع أمواج البحر بالأذن الظاهرة تقول لى: دع لنا ثياب الشيخ نغسلها. قال: وهذا دأبها في كل وقت جئت لغسلها، حتى عزمت على التصرف فيها بالاسم الأعظم. فعند ذلك سكتت ولم تقل شيئًا.

ومنها ما أخبر به الحاج النعيم ولد الزملى رحمه الله تعالى قال: كنت مع سيدى الشيخ ﷺ بالجزيرة الشهيرة بقندال، فصلى بنا المغرب في بعض الأيام، فلما قرأنا الراتب سمعته يقول: وعليكم السلام يا سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى، وعليكم السلام يا سيدى أحمد البدوى، وعليكم السلام يا سيدى أحمد الرفاعى، وعليكم السلام يا سيدى إبراهيم

الدسوقي، وهكذا إلى أن عد كثيرًا من الأولياء. ثم قال: وعليكم السلام يا سيدى إبراهيم الخليل وعليكم السلام يا سيدى إسماعيل الذبيح، وعليكم السلام يا سيدى موسى بن عمران، وعليكم السلام يا سيدى عيسى بن مريم، وهكذا يذكر نبيًا بعد نبى إلى أن قال وعليكم السلام يا سيدى يا رسول الله، ثم بكى كثيرًا وبكى الحاضرون لبكائه. ثم لمعت أنوار باهرة، وفاحت ريح عاطرة، فهام المريدون بذلك، وحصل أنس عظيم ومدد فخيم.

ومنها ما أخبرتنى به بعض زوجات الشيخ ﷺ: كان من عادة الشيخ كثرة السهر وعدم الاضطجاع، فبات عندى في ليلتى وهو قائم على أقدامه، فلما بقى من الليل نحو الثلث، رأيت في بيتى نورًا أضوأ من الشمس، وبدت له رائحة أحلى من المسك، فأردت أن أكشف الثوب عن وجهى لأنظره، فأمرنى أن لا أكشف الغطاء عن وجهى، فلما طلع الفجر زال ذلك النور والرائحة. ثم بعد أيام سألته ﷺ عن ذلك فقال: ذاك رسول الله ﷺ، كنت أتكلم معه في أمر الكون، ثم أمرنى ﷺ بالكتمان، فكتمته إلى أن توفى ﷺ.

ومنها ما أخبرنى به الشيخ سعيد المسلمى قال: سمعت سيدى الشيخ ﷺ يقول: كنت في حضرة فيها جميع الأولياء، فأدنانى رسول الله ﷺ، ثم غطانى بأنواره الخاصة به، فحجبت عن الأولياء ولم يرنى أحد منهم بعد ذلك، إلى أن جاء سيدى محمد السمان ﷺ فرآنى وقال: يا رسول الله من هذا الذي إليك أدنيته، وبأنوارك غطيته؟ قال: الطيب ابنى. قال الشيخ سعيد المذكور: سمعت سيدى الشيخ ﷺ، بعد أن ذكر هذه القصة يقول: لا أشك بعد هذا في شرفى واتصالى برسول الله ﷺ وأبوّته لي. قلت: ولذا قلت في بعض قصائدى التي مدحته بها:

من نسل فاطمة الزهراء ذو شرف ... وسادة ما لهم في المجد أقران

ومنها ما أخبر به شيخنا رحمه الله قال: رأيت سيدى الشيخ قدس سره إذا جلس في ليلة مقمرة يكاد أن يباهى نوره نور القمر، وكثيرًا ما كنت أدخل بيتًا مظلمًا يتراءى للعين كأنّ فيها سراجًا، حتى لو أن أحدًا أراد أن يقرأ مكتوبًا على ضوئه لقرأه.

أخبرنى حمد ولد على الجميعابى عن عمه أو عن أبيه قال: قال: جئت ليلا من محلى بالجميعات قاصدًا لزيارة سيدى الشيخ ﷺ، فلما وصلت لم أعرف الموضع الذي هو به ولم أجد من يدلنى عليه، فعندما آيست لاح لعينى نور في بعض بيوت نسائه، فقصدته وكنت أظنه مصباحًا، فلما قربت تبين لى أنه نور يبدو من جبهة الشيخ ﷺ.

ومنها ما أخبرت به جدتنا رحمة بنت الصائم قالت: دخلت على الشيخ ﷺ مرة فوجدته نائمًا متبسما، فعجبت من ذلك، ثم خرجت. فلما مشيت قليلا سمعته تنحنح فرجعت إليه وزرته، ثم سألته عن تبسمه في حالة نومه قال: كان معي في هذه الساعة رسول الله ﷺ، وقد قبلني بين عيني فتبسمت فرحًا بذلك.

ومنها ما أخبر به رجل من أهل شالدى قال: سافرت في بعض السنين إلى دنقلة لأشترى تمرًا، وكان معي جماعة من أهل بلدى، فنزلنا عند رجوعنا منها عند الشيخ ﷺ، وكان الوقت غلاء، فقال لنا: هل نجد فيكم ذا مروءة يبيع لنا تمره لأجل مسمّى نستعين به على الفقراء والضيوف؟ قال: فقلت له نعم. فدعا لى بالبركة وأمرنى بالإقامة معه، واستلم تلامذته منى التمر وكذلك الجمل الذي يحمله بالثمن الذي رضيت به. ثم إنه ودع رفقتى الذين كانوا معى فسافروا. وبعد أيام كتب لى كتابًا وأمرنى أن أسافر إلى بلدى، وأن لا أقرأ ذلك الكتاب إلا بعد أن أرى بلدى، فلما رأيت البلد فتحته وقرأته؛ فإذا فيه: من أحمد الطيب بن البشير إلى فلان وفلان وفلان- ثلاثة من الجن سماهم بأسمائهم، مضمونه: إذا وصلكم كتابى هذا فاعطوا حامله من الذهب ما يكفيه. قال: فخرج من الأرض ثلاثة على أحسن هيئة فقبلوا يدى ورجلى، واستبشروا بقدومى عليهم، ثم أمرونى أن أغمض عينى ففعلت، فإذا أنا بأرض بيضاء وبساتين وقصور ما رأى الراءون مثلها، ورأيت الجن يهرعون إلى من كل جهة بالهدايا الذهبية- كالأوقية والنصف والربع ودون ذلك- وسمعتهم يقولون لبعضهم فرحًا وسرورًا: اليوم جاءنا رجل من سيدى الشيخ أحمد الطيب. وهكذا حالهم معى، إلى أن تمت لى ثلاثة أيام، ثم جاء الثلاثة المذكورون وبيدهم طاسة مملوءة ذهبًا، وأمرونى أن أغمض عينى كالحالة الأولى، ففعلت ذلك؛ فإذا أنافى الموضع الذي حملونى منه. فلما وصلت محلى بشالدى وقع بصر زوجتى على، فرأيت وجهها كالحًا عابسًا؛ وداخلها من جهتى شر عظيم لتخلفى عن أصحابى، لأنها حملتنى على العدم بإضاعة مالى. فلما رأيتها على تلك الحالة بادرت بإطلاعها على ما عندى من الذهب، فلما رأته كادت أن تزهق روحها فرحًا بذلك. قال الرجل المذكور: فوالله كل ما وجدته من ذلك فهو من بركة سيدى الشيخ ﷺ؛ وإنى لا أفتقر بعد ذلك إلى ولد الولد.

ومنها ما أخبرنى به محمد ولد أحمد ولد صغيرون قال: كنت جالسًا مع سيدى الشيخ ﷺ في بعض الأحيان، فرأيت صقرًا نزل من الجو بين يديه كالمتألم الشاكى، فتناول ﷺ ورقة على عجلة وكتب، فيها كتابة وعلقها في عنقه فطار، وأنا إلى هذا اليوم في خيرة من ذلك.

ومنها ما أخبرنى به الأخ الصالح يس ولد عبد الله الدويحى قال: حدثنى رجل من الفضلاء قال: كان بالمغرب رجل من الأقطاب فسلب حاله من القطبانية، فتوجه من بلاده لزيارة النبى ﷺ، رجاء أن ترد عليه قطبانيته، فلما وصل المدينة المنورة رأى النبى ﷺ، وهو يأمره بزيارة سيدى الشيخ ﷺ. فعند وصوله بالذامر وجد به رجلا من تلامذة الشيخ فأطلعه على أمره، فناوله طاقية عنده كان أهداها له الشيخ ﷺ، فلما وضعها على رأسه عادت عليه القطبانية في الحال، فأخبر بذلك التلميذ المذكور فسجد شكرًا لله تعالى؛ وكتب له كتابا إلى سيدى الشيخ ﷺ يخبره بأمره، وبما حصل له ببركته، وتوجه من وقته إلى بلاده حامدًا شاكرًا.

ومنها ما أخبرنى به من أثق به قال: إن رجلا يقال له إبراهيم بن منصور، وهو من ذرية الأولياء المشهورين ببلادنا قد نزل بالتمانيات، وكان قد أفتى للناس بعض أشياء ليعتقد بها، فتُخبر الشيخ ﷺ بذلك، قال: مروه أن لا يقيم تجاه وجهى، فأمروه فأبى، وسُمع منه كلامه فيه رائحة افتخار ودعوى، وأن الشيخ لا يتصرف فيه، فما استتم كلامه حتى تغير عليه الحال، وأخذته الأحوال، وتراكمت عليه الأهوال، فخرج مسرعًا مذعورًا، وترك ماله من دابة وغيرها. فلما وصل محله سئل عن ذلك فقال: عندما تكلمت بكلامى هذا سمعت من جهة الشيخ ﷺ أصواتًا مرهبة وأنفاسًا مزعجة، ورأيت عوالمًا ومدافعًا تكاد الأرض أن تنقلب منها، ولولا مبادرتى بالخروج لهلكت. قلت: وما سمع أن هذا الرجل بعد ذلك مر على تلك الناحية إلى أن مات.

ومن ذلك ما أخبر به نصير ولد عبد المحمود قال: حصل بنا عطش شديد على الطريق عند مجيئنا من دار فور، حتى أشرفنا نحن ومن معنا على الهلاك، فاستغثنا بسيدى الشيخ ﷺ، فأخذتنى سنة من النوم؛ فرأيت الشيخ ﷺ وفي يده إناء مملوء ماء، فناولنى إياه فشربت حتى رويت، وكنت قد رأيت في الإناء نجيلا، فلما استيقظت وجدت نفسى ريان، وفي فمى بعض من النجيل- وهو نبات معلوم، ثم بدت لنا سحابة، وكان الوقت صيفًا، فأرسلت ماء كثيرًا، فملأنا ما عندنا من الأوانى وتوجهنا، فلما وصلنا زرنا الشيخ ﷺ، فأخبرنا بما وقع لنا من ذلك كله مكاشفة.

ومن ذلك ما أخبرنى به رجل كان له اعتقاد في الشيخ ﷺ، قال: سافرت في بعض السنين إلى القضارف، فلما بقى بينى وبينها مسافة قلية، تعرض لى ومن معى جماعة من قطاع الطريق، فحصل بيننا وبينهم قتال شديد، فضربنى رجل منهم برمح في جوفى حتى

خرجت أمعائي، فوقعت على الأرض ولم أشعر بشيء، فلما افترق الفريقان، ورآني أصحابي على تلك الحالة يئسوا من حياتي، وذهبوا إلى عرب كانوا بالقرب منا، ليأخذوا منهم آلة يحملوني عليها، فقبل رجوعهم جاءني سيدي الشيخ ﷺ، وأدخل أمعائي في محلها فالتأمت كما كانت، فلما رجعوا ورأوا ذلك كادوا يطيرون فرحًا، فسألوني عن ذلك، فقصصت عليهم أمري، فقالوا لي: والله هذه أعظم كرامة الشيخ ﷺ.

ومن ذلك ما أخبرت به بعض زوجات الشيخ رحمة الله عليها قالت: رأيت سيدي الشيخ ﷺ كثيرًا ما يتطور في الأوقات: فتارة يكون شابًا، وتارة يكون صبيًا، وتارة يكون شيخًا، وهكذا.

ومنها ما أخبر به الشيخ محمد ولد علي ولد غلام الله رحمه الله تعالى، قال حضرت مرة عند سيدي الشيخ ﷺ عند صلاة العشاء الأخيرة، فقام وأمرني أن أحمل الركوة وأن أمشي خلفه، وأن لا أضع قدمي إلا في موضع قدمه، ففعلت ذلك،ولم يزل هو ﷺ ماشيًا إلى أن مشى على بحر، فلما جاوزه وقف أمام بيت فيه صبي يبكي، ومعه امرأة تستغيث بالشيخ ﷺ في إزالة ما به من الألم، ثم سكت الصبي من بكائه، فرجع الشيخ وأنا خلفه كعادتي إلى أن وصلنا، ولا أدري هذا في أي البلاد.

ومن ذلك ما أخبر به الفقيه عبد القادر ولد سعيد تلميذ الشيخ قدس سره قال: كنت كثير الخوف من الجوع، فشكوته يومًا إلى الشيخ ﷺ، فمس بيده الشريفة على بطني، فمن ذلك اليوم ما جعت يومًا من الدهر. ومن ذلك ما أخبرني به غير واحد من تلامذة الشيخ ﷺ، قالوا: نزل عند الشيخ رجل مغربي، فلما رأى كثرة الفقراء والواردين وضيق النفقة، استأذن من الشيخ أن يعطيه وفقًا يستعين به على النفقة، فأذن له في ذلك، فاستعمله بين يده فاستخرج منه نصف أوقية، فلما رأى الشيخ منه ذلك ضرب بعكازه على ذلك المحل الذي استخرج منه نصف الأوقية، وقال للرجل: أنظر في موضع هذه الضربة. فنظر قال: فما الذي رأيته؟ قال: سوقًا. قال: فماذا سمعت؟ قال: سمعت شخصًا يقول ضاعت لي نصف أوقية. قال له: أهكذا تفعل الرجال! ثم إن الشيخ ﷺ وضع دائرة على الأرض بعكازه، ثم ضربها به فصارت ذهبًا خالصًا. فقال له: الأمر هكذا إن استطعت، فتاب الرجل لوقته، وأخذ على الشيخ الطريقة وصار من المحبين فيه.

ومن ذلك ما أخبرني به مقبول ولد أحمد الولي قال: كان ببلدنا رجل من الجبابرة الشجعان، فظهرت منه إساءة أدب مع بعض أصحاب الشيخ ﷺ، فأخبر بذلك الشيخ،

فقال: أخذنا منه رداء الشجاعة وألبسناه رداء الخوف. فمن ذلك الوقت صار قلبه أضعف من قلب الطائر إلى أن توفى. ومن ذلك ما أخبرنى به رجل من الجموعية قال: كان به جنون في حال صغره، فأخذته جدته وذهبت به إلى سيدى الشيخ فشكت له ذلك، فأمره ﷺ بالنظر إلى وجهه، فمن ذلك اليوم زال منه ما كان يجده في نفسه.

ومن ذلك ما أخبر به محمد ولد عجبنا الحلاوى قال: زرت مع سيدى الشيخ أحمد البصير رحمه الله تعالى سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فشكى له ما وقع من قاسم ولد محمد أبو لكيلك من العداوة والأذى؛ كالطالب للإذن في التصريف فيه؛ فقال الشيخ قدس سره: لا تطلب نحو هذا؛ فإنك إن فعلته حصل لي منك الإياس: أما تعلم أن لكل ولى فرعون، وإن فرعونى حسن ولد بشير، فإنه شكانى وحركنى إلى الحلفاية لأجل ذلك نحوًا من اثنتى عشرة مرة، فما مالت نفسى في أن أصرف فيه بشيء. ولكنه مرة قد مر بحائط ولد عجيب الحاكم الذي شكا إليه، فنزل الحائط إلى أسفل وضربه حتى وقع مغشيًا عليه غيرة منه، فأبى قلبى فارتفع الحائط إلى محله.

ومن ذلك ما أخبرنى به مقبول ولد أحمد ولد الولى قال: إن حسن ولد بشير قد جمع يومًا جموعًا كثيرة، وتوجه بهم إلى قتال الشيخ وعشيرته، فلما قربوا وعلموا قلة الناس الذين مع الشيخ رفعوا أصواتهم فرحين معتقدين الظفر، فعند ذلك نهرهم الشيخ ﷺ نهرة وقع البعض منهم منها على الأرض، ثم ولوا هاربين، فلم يتيسر لهم بعد ذلك جمع لمحاربة الشيخ ﷺ، ولا الإقامة ببلده، وصاروا كأن لم يكونوا.

ومن ذلك ما أخبرنى به مقبول ولد أحمد ولد الولى المذكور قال: إن الملك نمر ملك الجعليين لما تغلب عليه ابن عمه المساعد وأخذ منه البلاد، وذلك عام ستة عشر بعد المائتين والألف من الهجرة، توجه لملك سنار ليرد البلاد عليه، فما وجد عنده مقصده، وعند رجوعه نزل بالكنجر عند الشيخ ﷺ، وشكى إليه ما حصل له من عدم قبول ما طلب من ملك سنار، فقال له الشيخ: لا تصريف لأحد في البلاد، فاشترها منى وأنا أبيعها لك، قال: اشتريتها بسبعين أوقية من الذهب وعشرة من الخيل، فقبل الشيخ منه ذلك، ووعده بالنصر هو ومن معه، وكانوا نحوًا من أربعين فارسًا، وأمرهم أن لا ينزلوا إلا بالعواليب. وعند مقابلتهم للعدو أن يحضروا صورته في قلوبهم ويقولوا: شاهت الوجوه ثلاثًا. فلما وصلوا العواليب وقابلهم جيش المساعد، وكان جيشًا عرمرمًا، مشتملا على جميع الفروع العباسية

سافلا وصعيدًا وغيرهم، كالمسبعات[1]. فلما فعلوا ما أمروا به انهزم الملك الساعد وجيشه الهزيمة المشهورة التي يضرب بها المثل في أقطار الأرض، واستوى نمر بن محمد على البلاد، ووفى للشيخ ﷺ بما عقده معه، ولم ينازعه أحد بعد ذلك، إلى أن قتل إسماعيل بن محمد على باشا، وكان ما كان.

ومن ذلك ما أخبرني به الشيخ أحمد ولد الكوقلي رحمه الله تعالى، قال: كان الشيخ حسيب بن إمام المغربي رحمه الله تعالى يدخل تلاميذه الخلوة بمكة، فأدخل أحد الفقراء الخلوة بجبل النور، ودخل هو أيضًا بجواره، فسمع في بعض الليالي إنسانًا يتحدث مع تلميذه، ثم ذهب وجاء آخر وتحدث معه كالأول: فخرج الشيخ وجاء إلى التلميذ وقال له: أتدري من تحدث معك أولا؟ قال: لا، قال: ذلك الخضر عليه السلام، والثاني: سيدى وأستاذى الشيخ أحمد الطيب، جاء من زيارة النبي ﷺ متوجهًا إلى بلاده، وكلاهما قاصدٌ إرشادك، فاجتهد فيما أنت فيه.

ومنها ما أخبر به تلميذه الحاج محمد ولد الأغبش قال: إن بعضًا من تلامذة الشيخ المقيمين معه كانت له سُرِّية، فرآها شخص من التراك فتعلق خاطرة بها، وأراد أن يأخذها من ربها ظلمًا، فأخبر الشيخ بذلك، فالتفت إلى الفقراء وقال لهم: أذنت لكم بالتصرف في هذا الشخص، فوالله لقد رأيته انتفخ بطنه في الحال، ومات على أسوأ حالة.

ومنا ما أخبر به الرجل الصالح أحمد بن حامد بن أحمد الجيلاني رحمه الله تعالى، قال: سافرت في طلب الشيخ المرشد نحوًا من خمس عشرة سنة، فما من مدينة إلا وقد دخلتها، ولا قرية إلا وقد طفت بها، وقد دخلت مكة والمدينة ومصر، فلم يتيسر لي مقصدى، ثم أخبرت بسيدى الشيخ ﷺ فقصدته، وقلت في سرى: لا آخذ عليه حتى أرى آية تدلك على كماله، قال: فلما قربت منه لاقيت الخضر عليه السلام، فعلمت أنه شيخى ومرشد وقته، ثم دخلت عليه في موضعه رأيت النبي ﷺ جالسًا معه، فنظر إلىّ ﷺ مبتسمًا وقال لي: هل وجدت طلبك؟ قلت: نعم سيدى! فمد إلى يده وبايعنى، والحمد لله على ذلك.

ومنها ما أخبر به دفع الله ولد عايس الشايقابى قال: كان في نفسى من جهة الشيخ ﷺ شيء، بأسباب الفتنة التي حصلت بيننا وبين عشيرته، فحدثتنى نفسى وحسنت لي شقوتى قتل الشيخ ﷺ، فصعدت على الجبل ليلا، وكنت ممن يعرف وقت خروجه. فلما

١- اسم القبيل من الناس.

انتصف الليل خرج كعادته، وكان بيدى رمح، فلما وقع بصرى عليه رجف قلبى، وسالت دمعتى ندمًا على ما خطر بقلبى، ثم رأيت على رأسه نورًا أشد ضياء من المصباح، فكسرت عند ذلك رمحى وتبت على يده. فسامحنى ﷺ.

ومنها ما هو أشهر من أن يذكر، وهو أن حسن ولد بشير، المشهور بأذية الشيخ وعداوته، قد جمع جمعًا لقتل الشيخ ﷺ حسدًا وشقاء، فلما قربوا منه ظهر لهم ما بينهم وبين الموضع الذي فيه الشيخ أسد كريه المنظر، كأنه قطعة جبل، فهربوا منه، ولم يزالوا كذلك إلى أن وصلوا محلهم، وذلك كان جهارًا، ومنها ما أخبر به سالم ولد مضوى، الشهير بولد الحسين، قال: حدثنى محمد ولد حسن ولد بشير قال: نويت ليلة قتل الشيخ ﷺ، ومعى جماعة من بنى عمى، فقعدنا على الطريق الذي كان من عادته أن يمر عليه، وذلك ليلا، فما نشعر إلا وقد خرج من بيننا، ثم مشى قليلا ووقف. فنهبت أصحابى وذهبنا إليه بسيوفنا ورماحنا، فلم يزل شخصه في أعيننا، فلما قربنا منه وأردنا أن نبطش به ظهر لنا المرئى حجرًا، فتعجبنا من ذلك، وعلمنا مكانته عند الله تعالى.

ومنها أن كل من بارزه بعداوة أو حسد، أو أضمر في نفسه من ذلك شيئًا، فإنه يتلاشى أمره. وقد رأينا أبناء أهل العداوة، وهم إلى يومنا هذا كأن على وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا إلا من تاب. وسبب هذه العداوة التي ذكرناها حتى أدتهم إلى الجراءة على هذا القطب الأعظم وإرادتهم قتله مرارًا: هو أن بعضًا ممن ينسب إلى الشيخ قد حصل بينه وبين المذكورين فتنة إلى أن أدت إلى القتل، ولم تزل الفتنة نامية، وأم الجماعة الذين مع الشيخ لا زالوا ظافرين بهم مع قلتهم وضعفهم، فوقع في أنفسهم أن هذا الظفر كان عليهم من جهة الشيخ، وأضمروا العداوة، وأنهم لا يقتلون إلا الشيخ وأولاده. وقد خيب الله مقاصدهم، فمزقوا كل ممزق.

قـــوم لقـــد بـــدّد الجبـــار جمعهـــم ‏ فأصـــبحوا لا تـــرى إلا مـــساكنهم

فإياك ثم إياك يا أخى من عداوة الأولياء وأذيتهم، وفي الحديث القدسى: «من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»، أي أعلمته بأنى محارب، قال العلماء: لا يحارب الله إلا الكافرين.

وفي الحديث عنه ﷺ: «لو نقض أحدكم الكعبة حجرًا حجرًا، ثم حرقها بالنار، أهون عند الله من أن يؤذن وليًا من أوليائه».

ومن كرامته ﷺ ما أخبر به النصيح ولد أبى عاقلة السرورابى قال: كانت لي ساقية كثيرة الهدم، فذهبت يومًا إلى الشيخ ﷺ وشكوت له ذلك، فأمرنى أن أدخل البحر لي سرتى قريبًا من الموضع الذي فيه ساقيتى، وأن أنادى بأعلى صوتى: أيها الملك الأحمر أنا رسول من سيدى الشيخ إليك. وقد أمرك بالخروج أنت وجندك من هنا. قال: فمن ذلك اليوم ما رأيت لها هدمًا.

ومنها ما أخبرنى به من أثق به من أهل طريقتنا السمانية وعلمائها قالوا: بلغنا أن الملك المتولى في عهد الشيخ بسنار كان له اعتقاد في بعض الأولياء، وكان لا يحب أن يذكر في مجلسه إلا ذلك الولى. فاتفق يومًا أن حضر عنده رجل من تلامذة الشيخ، فبالغ في مدح الشيخ وماله من المناقب والكرامات، فغضب ذلك الملك من كلامه حتى قام من مجلسه، فعند ذلك خاف الناس على الرجل منه، فمكث نحو ساعة، ثم عاد إلى مجلسه فرحًا مسرورًا مستبشرًا، ووجد الناس على ما كانوا عليه من الجلوس، فقال لهم: أتدرون ما حدث بى؟ فقالوا: لا نعلم من ذلك شيئًا! قال: لما قمت من المجلس على الحالة التي رأيتمونى عليها، قد خطفتنى شيء فلم أشعر إلا وأنا بين يدى سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ بأم مرح التي بالسافل، فعاتبنى على ما صدر منى، فتبت على يديه، وأخذت عنه الطريق، وأقمت معه ثلاثة أيام بلياليها، ثم دفعنى فما أشعر إلا وأنا بدارى، فتعجب الحاضرون من ذلك وقالوا: ما على هذا مزيد. ثم إن الملك منع من ذلك اليوم أن لا يذكر في مجلسه أحد إلا سيدى الشيخ ﷺ، ولا زال على محبته والاعتقاد فيه إلى أن مات.

ومنها ما أخبر به الشيخ يعقوب الدويحى رحمه الله قال: كنت قبل أخذ الطريقة على سيدى الشيخ ﷺ مالت نفسى على أخذها على بعض الأشياخ، فرأيت النبي ﷺ وذلك بعد أن استخرت الله تعالى أن يدلنى على مات يوصلنى إليه ويقبلنى عليه- وهو ﷺ يشير إلى سيدى الشيخ أحمد الطيب ويقول: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾[الأنعام:١٥٣]. وكان مع الشيخ وقتئذ ثلة من الأولياء، وقال: فذهبنا إليه أنا وأخى المصرى ولد قنديل، وأخذنا عنه والحمد لله على ذلك.

ومنها ما أخبر به بعض الفضلاء: كان في عهد الشيخ ﷺ رجل يستعمل التنباك في فمه، فلامه بعض الناس على ذلك، فذهب إلى سيدى الشيخ ﷺ، وطلب منه أن يتفل في فمه رجاء أن يتوب، فتفل له في فمه كما طلب منه ذلك، فتاب لوقته، ثم صار يقرأ القرآن على مظاهر قلبه، ولم يزل على ذلك إلى أن مات رحمه الله.

ومنها ما أخبر به الحاج الماحى العبيسابى قال: زرت سيدى الشيخ ﷺ في عهد الشباب، وطلبت منه أن يكتب لي ورقة أعلقها على عضدى، وكان قلبى يومئذ مولعا بالقرآن ولم أحفظ منه شيئا، فلما كتب لي ﷺ تلك الورقة وعلقها على عضدى، صرت كما ترى أقرأ القرآن جميعه على ظهر قلبى.

ومنها ما ذكره بعض العارفين، كالشيخ المجذوب ولد قمر الدين وغيره قالوا: إن الأولياء رضوان الله عليهم اتفقوا على إهلاك السودان من حلفا إلى جبال إدريس، وأرادوا بذلك سعادتهم؛ لأنهم رأوا إن تركوا يموتون على غير دين الإسلام، وذلك حسب ما تراءى لهم من الكشف، إلا سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ ورجلا من الأولياء، أبيا أن يوافقا على ذلك، فحصل النزاع بين الشيخ والقطب المتولى وقتئذ وطال بينهما ذلك، إلى أن حضرا بين يدى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ آية؛ فتأخر عند ذلك الغوث، وعلم مطابقة مراد الشيخ لمراد النبي ﷺ.

ومن ذلك انعقاد إجماع أهل الإسلام على ولايته، وتسليم الناس له، وانقيادهم إليه، ومحبتهم فيه حيا وميتا، بداية ونهاية؛ على اختلاف بلدانهم وطرائقهم، وأخلاقهم وعقائدهم في الأولياء، فلا تجد قوما إلا ولهم فيه غرام؛ ولا محفلا إلا وله فيه تولع وهيام، ولا أذكياء إلا ولهم معرفة بكراماته، ولا أولياء إلا ولهم تعرض لنفحاته؛ وهذا نادر في غيره. وكان الفقيه العلامة أحمد ولد كنان رحمه الله تعالى مع صلابته في الدين وشدة إنكاره على المتصوفة؛ إذا ذكر الشيخ في مجلسه يقول: ذلك هو الولى الذي لا يختلف في ولايته إثنان؛ وغير ذلك من الكرامات العظيمة والآيات الفخيمة، التي تستغرق الأعمار، ولا تسعها الأسفار.

فمن لي بعد البحر والبحر زاخر ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب

الفصل الثاني

(في إحيـائه للأمـوات)

هذا الفصل وإن كان ملحقًا بالذى قبله من تبيين الكرامات، فقد أحببنا أن نفرده وحده ليعيه الفكر بدون تردد وإيهام.

إعلم أن إحياء الأولياء للأموات مشهور، وهو من خصائص أهل وحدة الصفات، ولا يكون للولي إلا إذا فنى عن صفته الحادثة، كقدرته بشهود قدرة الحق تعالى. فإذا فنى عن قدرته خلع عليه تعالى خلعة قدرته القديمة. قال الأستاذ المترجم في حكمه: لا يخلع عليك خلعة من خلع قدمه إلا أن تريح باطنك جملة من منازعته، أي في صفاته، وأهل وحدة الذات[1] لهم ذلك الأحياء، بخلاف غيرهم.

ذكر الأستاذ المترجم ﷺ في شرحه على حكمه أنه قال: سألت الحق تعالى أن يحيى لي رجلا قد مات، فأحياه لي، فسألت الملك الذي أتى إليه بروحه عما يسأل عنه الموتى؟ قال لي: من قواعد الإسلام الخمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا، وقد ثبت أن الفاضل الصالح الحاج أحمد ولد محمد الشريف الشهير بالبقارى، صنو الشيخ ﷺ في الطريق وصهره، أنه لما توفى وحمل إلى المقبرة، قد جلس الشيخ عند رأسه ونحى الناس عن قربه، إلا رجلا واحدًا اختفى قريبًا منه ليسمع كلامه مع المذكور. فقال الشيخ ﷺ: قد بقى لي من العمر ثلاثون سنة، وأردت أن أهبك من عمرى لترجع إلى الدنيا، فإن فيك إصلاحًا للمسلمين. فقال: لا أشاركك فيها، لأنى أعلم يقينًا أنك أنت الأصلح الأنفع. فألح عليه فلم يقبل، ثم ودعه ودفنه، ومثل هذا كثير.

ومن ذلك أنه ﷺ لما دخل مدينة سنار قدم عليه القضاة والعلماء وأركان الدولة، وقالوا له: نريد أن تحيى لنا ميتًا من هذه القبور، وكان البعض منهم قد أخذ عنه الطريق، والبعض متوقفون. فقال لهم: اختاروا أي قبر أردتم، وكان بمجلسه الفقيه المصرى ولد قنديل، والشيخ يعقوب ولد على الدويحي، وكانا قد أتياه للطريق، وكان ذلك يومًا مشهودًا. فخرج معهم حتى وقف على القبر الذي أرادوه، فأحيالهم من فيه، وكان رجلا، وأسمعهم كلامه وخطابه، فاعتقدوه بذلك الاعتقاد الزائد وصار لديهم أكمل ولى على وجه الأرض.

١- لعلها الصفات.

الفصل الثالث

(في بيـان مكاشفاته ﷺ وعنـا بـه)

فمن ذلك ما أخبر به العارف بالله تعالى الشيخ المصطفى بن الشيخ الإمام، خليفة سيدى الشيخ دفع الله ولد سيدى إدريس العركى ﷺ، قال لما أخذت الطريقة على سيدى الشيخ ﷺ، قلت في سرى: هل الولى الكامل مثل سيدى الشيخ هذا يوصل إلى الله تعالى في اللحظة نحو خمس من الرجال؟ فالتفت عليّ وقال لي: نحو أربعين.

ومن ذلك ما أخبرنى به الحاج العباس ولد أحمد ولد نصير رحمه الله، قال كان عمى الفقيه محمد ولد القاضى نصير من العلماء، وكان قد توجه في بعض السنين إلى الغرب، وعند رجوعه منه جاء مارًا بموضع الشيخ عشاء، فأمر من معه أن يذهبوا إلى بعض خلوات الشيخ للمبيت عنده. وأما هو فجلس على الأرض كالمتحير؛ لما في نفسه من الكدر ووساوس الكبر، وهو يقول في سره: إن الرجل أخى وابن عمى، وسنّه كسنى، والآن قد لقب بالشيخ وبالسيد وبالفقيه وبالحاج، فما الذي أدعوه به عند ملاقاتى له! وما زال خاطره متفرقًا عليه، إلى أن حضر عنده الشيخ في الموضع الذي هو به، فباشره وضمه إليه، وقال: مالى أراك يا محمد أخى متردد الخاطر، فإن دعوتني بالطيب هو اسم أبى لي، وإن دعوتنى بالفقيه لقب آبائى لي، وإن كان بالحاج فقد حججت إلى بيت الله الحرام، وإن كان بالسيد أو بالشيخ، فقد لقبنى بهما سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، فعند ذلك بادر الفقيه المذكور وطلب منه السماح، وقال: ما كنت أظن هذا، فأنت والله سيدى ثم سيدى، ثم ذهب معه مسرور الخاطر، وشهد بكرامته ومكاشفته.

ومن ذلك ما أخبر به أيضًا الحاج العباس المذكور، قال: كان عند مجيئ الشيخ ﷺ من المدينة المنورة قد بنى على الجبل خلوات للتعبد فمر ذات يوم جدنا القاضى نصير ولد محمد والقاضى عبد المحمود ولد أبى القاسم لأمر لهما بالجيماب، فلما نظرا إليه وهو على الجبل يبنى، قالا سرًا: أيزعم ابن أخينا هذا أن الله تعالى هناك، ثم صعدا الجبل لمقابلته لصلة الرحم، فقال لهما مكاشفًا: إن الله تعالى منزه عن الجهة والمكان، ولكن بنائى هنا هنا بأمر من سيد الأكوان ﷺ، فوقع الندم في قلوبهما وتابا، ثم طلبا منه السماح فسامحهما، ثم ذهبا إلى ما كانا يقصدانه.

ومن ذلك ما أخبر به العارف بالله تعالى الشيخ محمد ولد على ولد غلام الله الركابى. تلميذ الأستاذ المترجم رحمه الله تعالى، قال: أمرنى سيدى الشيخ قدس سره يومًا أن أحلق

رأسه، فلما فرغت رأيت في أذنيه شعرات، فقلت في سرى: أما يأمرني بحلقها. فقال ﷺ مكاشفًا على ما في ضميرى: هذه الشعرات التي ترغب أن آمرك بحلقها جاءتنا شبهًا من جدنا العارف بالله تعالى الشيخ حسن ولد حسونه.

ومن ذلك ما حدثني به شيخنا رحمه الله، قال: إن رجلا من الكبابيش يقال له مردس، جاء زائرًا سيدى الشيخ ﷺ، فسأله عن اسمه فقال: اسمى عبد الواحد. فقال له الشيخ: بل اسمك مردس، فبهت الرجل عند ذلك، ثم أخذ الطريقة عليه، وتاب عليه يديه وصار من الصالحين.

ومن ذلك ما أخبرني به الخليفة الحاج البشير الترابي قال: زرت سيدى الشيخ ﷺ مع شيخنا الشيخ النعيم ولد مضوى الترابي، فلما رأيت سعة إمداداته وكثرة فيوضاته، طلبت منه طريقة الموافقة الأسمائية، فقال لي: ما اسمك؟ قلت: الحاج. قال: لا، ولكن حتى تعرف اسمك. وما بلغني قبل ذلك من أحد من أهلى أن لي اسمًا غير هذا. فلما رجعت وسألت أهلى بعد أن أخبرتهم بكلام سيدى الشيخ ﷺ، قالوا إن اسمك الذي سميت به يوم سابع ولادتك هو صالح.

ومن ذلك ما أخبرني به الشريف محمد بن الشريف النور ولد الطاهر الباسطابى رحمه الله تعالى، قال: قال لي والدى: قدمنا من الفججة أنا وخالى الشريف محمد نورين للطريقة عند سيدى الشيخ ﷺ، وكتبنا له من عندنا كتابًا بجميع مرادنا منه، ولم نطلع عليه أحدًا. فلما أخذنا عنه الطريقة أمرنا بإحضار ذلك الكتاب، فلمنا قرأه أفاض علينا بجميع ما فيه مما طلبناه منه ﷺ.

ومن ذلك ما أخبرني به عبد الرحمن البابلي المدني، عن بعض العارفين بأحوال الشيخ ومناقبه، قال: لما دخل الشيخ ﷺ مصر ونزل بجامع الأشراف، أتاه ثلاثة من الشبان؛ أحدهم توسل بالشيخ إلى الله تعالى أن يرزقه محبة سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، والثاني طلب أن يرزقه محبة الصبيان. والثالث طلب حاجة وعينها باسمها، وكان ذلك في سرهم. وقال الثالث: إن قضيت حاجتى لأهدين لسيدى الشيخ قنديلا وشايًا. فلما دخلوا عليه أخذ بيده شيئًا وتفل فيه وأعطاه للأول، وقال: اللهم ارزقه محبة سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره. وقال للثاني: تب عما أضمرت في نفسك، فتاب لوقته. وقال للثالث: قد قضيت حاجتك إئتنا بالقنديل والشأى.

ومن ذلك ما أخبر به الكثير من الناس قالوا: إن رجلا قد شهر نفسه في عهد الشيخ بأنه

كمال الدين ابنه، وقد أيقن الناس عليه بأنه هو وكان يكثر من زيارة الشيخ ﷺ وتزور معه أعيان البلد وتزوج بامرأة في السروراب من الخليلاب، ولم تظهر كلمة من الشيخ فيه. فسأله ذات يوم بعض من الناس: هل هذا الرجل يا سيدى هو كمال الدين ابنك كما قال أم لا؟ فأجابه ﷺ: ليس هذا بكمال الدين، وإنما هو على ولد بخيت. فمن ذلك اليوم طفيت شهرته وخرج من البلد خجلا عاجلا. ثم بعد أشهر قلائل قد جاء أهله وعرفوا أنه على ولد بخيت.

ومن ذلك ما حدثنى به الشيخ أحمد الكوقلى رحمه الله قال: حدثنى الفقيه أحمد ولد كنان قال: قال لي والدى: كان بينى وبين الشيخ محبة وصحبة، فذات يوم ذهبت لزيارته ومعى جماعة، فرأيته يخاطب كل واحد منهم باسمه من غير سابقة في ذلك.

ومن ذلك ما أخبرنى به غير واحد من آل بيت الشيخ قدس سره قالوا: زار جماعة الشيخ ﷺ في عهده، فلما رأوا تلامع وجهه بالأنوار، وبروز الحقائق من فيه ولطائف الأسرار، كبر شأنه عندهم. ووقع بصر واحد منهم على سيدى البشير بن مالك رحمه الله تعالى، فقال في سره: أمثل هذا كيف يخرج منه هذا؟! مشيرًا بذلك إلى الشيخ ﷺ. فنظر إليه الشيخ من بين الجماعة نظرة غضب وقال: يا هذا وعزة ربى، إن هذا البشير الذي رأيته، وأسأت الأدب معه، لقد رأيت في اللوح المحفوظ أنه من الأولياء الصديقين. فجعل الرجل عند ذلك، ثم وقع على قدمى الشيخ يطلب منه السماح فسامحه.

ومن ذلك ما أخبر به الشيخ ولد فضل الله الصنجاوى قال: كنت أطلب رؤية سرة الشيخ ﷺ- عندما سمعت أن من رآها لم تأكله النار- فذات يوم ركب إلى محل بالقرب فحملت نعليه ماشيًا خلفه وفي نفسى ذلك الخاطر، فالتفت إلى ﷺ وقال: يا فلان باسمى، إن من رأى من رآنى لم تأكله النار. قال: فحمدت الله على ذلك وأردفت الحمد شكرًا، حيث جعلنا من أتباع الشيخ ﷺ ومحبيه.

ومن ذلك ما أخبر به الشريف محمد المكى قال: قدمت من مكى شرفها الله تعالى لزيارة الشيخ ﷺ والانتظام في سلك طريقته. فلما وصلت الجميعاب نمت بها، فرأيته ﷺ فرحًا بى، مستبشرًا بقدومى عليه، ثم عانقنى فحصل لي من السرور بعد اليقظة مالا أصفه، فلما وصلت ودخلت عليه وجدته جالسا على فرش وبين يديه جماعة، فقبلت يده ولم أجد عنده ما رأيته في نومى قبل ذلك، فانكسر خاطرى. فالتفت إلىّ ﷺ وقال: أما يكفيك ما حصل بالجميعاب بالأمس، ثم قال: كنت في هذه الليلة بمكة، وقد حصل بينى وبين من فيها من بعض الأولياء نزاع في أمر، فنفذت ما شئته، وقد جئت هنا قبيل الصبح، قال ذلك وهو معتذر لي، فقلت: يكفينى بذلك يا سيدى، فأخذت عنه الطريقة، والحمد لله على ذلك.

الفصل الرابع

(في بيـان إخبـاره ﷺ بالمغيبات)

إعلم أن إخباره بالمغيبات كثير جدًا. فمن ذلك ما حكاه لي من أثق بـه مـن الجموعيـة قال: زار جماعة من الجميعاب سيدى الشيخ ﷺ، وكان فيهم رحمة ولد منصور والد الـزبير باشا، فلما خرجوا من عنده أخبر بأن رحمة ولد منصور سيخرج من صلبه ملك مبارك، فكان هو الزبير باشا كما ذكر. ومن ذلك إخباره بعرور الشيخ إبـراهيم الرشـيد بـن حـاج الـدويحى الأحمدى بالبلاد وثنائه عليه.

ومن ذلك ما أخبر به الشيخ الضو والـد الـشيخ الطيـب راجـل الـسوكى الركـابى قـال: ذهبت لزيارة سيدى الشيخ ﷺ، وللإذن في التبرك باسمه، فلمـا زرت وأعلمتـه بـذلك قـال: وهبتك الاسم وروحه، فما أتى عليه وقت يسير إلا وقد ولد ولدا وسماه الشيخ الطيب، فـصار مباركا.

ومن ذلك ما أخبر به الفقيه محمد أحمد بن الحاج عبد الوهـاب البحيرابـى قـال: رأى والدى أن واحدًا من أولاد الشيخ ﷺ يرضـع في ثديـه أو جـالس علـى رأسـه، فـأخبر بـذلك الشيخ ﷺ، قال: أتعرفه؟ قال: لا، ولكن إذا رأيته عرفته. فأمر الشيخ إحضار أولاده عنـده فحضروا، وكانوا نحو اثنى عشر صبيًا، فقال له من هـو مـن هـؤلاء؟ قـال: هـذا، وأشـار إلى الوالد سيدى الشيخ نور الدائم ﷺ، قال له: هو الوارث لنا.

ومن ذلك ما أخبر به الصديق ولد أحمـد ولـد مالـك، عـن الـشيخ أحمـد الرفـاعى ابـن الأستاذ المترجم، رحمه الله تعالى قال: تزوجت بسبعة من النساء فما ولـدت واحـدة مـنهن، فذهبت بعد أن تزوجت بالثامنة لوالدى وشكوت له عدم الذريـة ومـا أنـا عليـه مـن الـشفقة والضجر، فرأيته رفع طرفه إلى الـسماء، ثـم قـال: رأيـت لـك غلامـين: أحـدهما الـصديق، والثاني عمر، فكان الأمر كما قال. وإن عمر هذا هو المدعو الآن بالشيخ، وهو المجذوب.

ومن ذلك إخباره للفقيه الأمين ولد أم حقين- حيث أتاه زائرًا مع خاله الفقيـه سـليمان ولد حامد الجموعى. وهو يومئذ صبى ساكن مع خاله المذكور بالحلفايـة- إذهـب إلى جزيـرة إسلانج، فإنه سيكون لك بها شأن.

ومن ذلك قوله للحاج أحمد ولد سنهورى- حين صحبه واستأذنه في السكنى بالصعيد- قد أخبرنى رسول الله ﷺ أن سكونك يكون بالجميعاب فإنك تحظى منهم، فسكن ثمت وصار له من الحظوة والمكانة ما لا يخفي.

ومن ذلك ما أخبر به أحمد ولد منير الضوابى الجميعابى قال: سألت الشيخ ﷺ عن الملك لمن يكون بعد الفونج والهمج؟ فأخذ قبضة من تراب وطرحها على الأرض، فإذا هي قد صارت نملاً أحمر، قال: سيكون للترك. قال: فما أتت علينا بعد كلامه سنين إلا وقد جاء الترك وملكوا البلاد.

ومن ذلك حكاية عبد العدل العقلي، فإنه كان قد اشتهر بالصلاح، وظهرت على يده كرامات، فأثنى عليه يومًا بين يدي الشيخ ﷺ، فقال الشيخ للحاضرين الذين أثنوا عليه: قولوا لصاحبكم بعد اليوم: العبد قد اعوج، فما أتت عليه بعد ذلك أيام إلا وقد جاء الترك، ومال قلبه إلى الرئاسة فقلدها، وظلم وشرب الخمر وترك الصلاة.

حدثنى محمد ولد حسن الكبورابى، قال: سافرت معه إلى سنار، بعد أن ذهب ما كان نعتقده فيه من البركة. فرأيته لا يصلى، فوبخته على ذلك، فقال لي: قل اللهم إنى أعوذ بك من السلب بعد العطاء؛ وحكايته أشهر من أن تذكر.

ومن ذلك إخباره بقصر عمر ولده نور الله، بعد أن أخبر بولايته، فكان الأمر كما قال: وكذلك بعدم رجوع ابنه كمال الدين من سياحته، وكانت في عهده.

ومن ذلك إخباره للتلامذة بقوله: سيقدم عليكم أديب الأدباء، فما مرت عليهم أيام قلائل إلا وقد جاء سيدى الشيخ محمد التوم ولد بانقار رحمه الله تعالى، وأخذ على يدى الشيخ الطريقة، وأطلق عليه الاسم في حياة الشيخ وبعدها.

ومن ذلك إخباره للشيخ محمد بن الشيخ يوسف والد الشيخ أحمد الريح رحمه الله، عند ما خشى التنازع مع إخوانه في شأن الخليفة، وذلك في آخر عمر والده وجاء ليلا مستغيثًا به، فقال له: إن الخلافة لا تخرج منك، ولا من ذريتك من بعدك، فكان الأمر كما قال.

ومن ذلك إخباره لجدتنا فاطمة بنت عبد الجبار: بأنه لا يموت إلا في بيتها وفي نوبتها، فكان الأمر كما قال.

ومن ذلك إخباره لتلميذه الشيخ محمد ولد بشير السرور ابى العلا يـابى بعـد أن وضـع يده على رأسه: لا يدفن الرأس الذي وضعت يدى عليه إلا ببقيع الغرقد. فبعد وفـاة الـشيخ ﷺ سافر المذكور إلى الحج وزيارة النبي ﷺ فتوفى بالمدينة، ودفن بالبقيع.

ومن ذلك قوله للعالم العلامة الفقيه محمد ولد الفقيه سالم الشهير بولـد قطـب العـودى الصغير ونابى: يا صاحب خليل، أرى عمرك سيكون طويلا، فإنه قـد عمـر حتـى بلـغ مـن الكبر عتيًا.

ومن ذلك ما أخبرنى به شيخنا رحمه الله قال: قال لي ﷺ- عند وداعـى لـه في آخـر زياراتى له وكنت قد زرته في عمرى خمـس مـرات: اقـرأ علـى ولـدنا الـشيخ أحمـد البـصير السلام، وما أظن أنه يكون بينى وبينه بعد الآن اجتماع في الدنيا.

ومن ذلك إخباره بغلبة الملك نمر ولد محمد السعدابى على ابن عمه الملك المساعد مـع مـا كان فيه المساعد من الشدة والقوة. ومن ذلك إخباره بحرق الملـك إدريـس بالمـسجد الجمـوعى بالنار، عندما أساء الأدب معه، وقتله للشفيع ولد أحمد ولد صغيرون.

ومن ذلك إخباره للحاج محمد ولد نعيم الزملى بطول عمره، فعاش مائة وخمـس عـشرة سنة حتى توفي، وغير ذلك.

الفصل الخامس

(في شرح ما أورده علينا أخونا الشيخ عبد النور ابن الوالد)
(الأستاذ سيدى نور الدائم من كلام الشيخ ﷺ)

قال: قد اجتمعت في أسفارى في بعض السنين بالعالم الفاضل الفقيه دفع الله بقوى بتقلى، فلما عرف نسبتى إلى الشيخ فاتحنى بالثناء على الشيخ وقال لي كالمباسط والسائل: كان في عهد قراءتنا للعلم (بأبى عشر) عند شيخنا الفقيه الأمين ولد محمدين، أتانا رجل من تلامذة جدكم، فإذا قلنا له مثلا: اقرأ معنا فإنه يقول لنا: قال لي شيخنا سيدى الشيخ ﷺ: «ارقوا ولا تقرءوا» وهذا الكلام في نفسى منه شيء، مع علمى بكمال الشيخ. فقلت له: سأوضحه لكم على مراد الشيخ إن شاء الله تعالى، لينجلى لكم ما توهمتوه. اعلم أن قوله ﷺ: «ارقوا ولا تقرءوا»، أو من بعد معرفة ما افترضه الله عليكم بالحفظ والسؤال من علم الظاهر، ثم ارقوا في علم الباطن، الذي هو علم القلم وما حواه من الأرواح والنفوس، بالتشبث بذيل السنة العلياء بالرياضات والمجاهدات، لتصفى الروح من كدراتها العنصرية، وتزكو النفس من قذراتها الطبيعية، وتطهر الذات من الأحداث المعنوية المانعة عن التقرب من الله تعالى. ومن بعد ذلك يشرق الذهن. ويستضئ العقل، وتستنير جميع القوى، وتستقيم الحواس على الهدى، ويشرق القلب ببارقة المحبة، ويتجوهر الروح بالأنوار الإلهية. فبعد ذلك يصير عارفًا بنفسه، ومشاهدا لربه، يتجلى له ربه على الداوم في الباطن والظاهر، ويكون معه تعالى على كل حال، بمضمون (لي مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل).

وقوله: ولا تقرءوا، أي زيادة على ما افترضه عليكم كعلم الأقضية والبيوع والأنكحة والمواريث والآلة والجدال، وغير ذلك، فإن هذا مانع لكم عن خلوص نفوسكم من شوائبها وأكدارها، وشاغلكم بما ليس فيه طائل: كالتدريس لأجل السمعة، والجدال والتمييز على الأقران، وحب الجاه والرئاسة، والقرب إلى السلطان، والتدليس وتحسين اللسان، وتنميق العبارات والخطب على المنابر، وتطويل القراءة في المحراب وهو مع الله غير حاضر، وغير ذلك من لبس الفراوى وتكبير العمائم، مع أنه في بحر العمى والغواية عائم؛ ولذا قال المحققون: إنه لا يمكن لطالب العلم العمل بالعلم وآدابه، ويصير عليه الأنس والخير، إلا إذا كان معتقدًا متمسكا بهذه الطائفة؛ لأنهم ينبهونك على دسائس نفسك، المخرج لها عن

طبائعها الكدرية. فإن العلم من غير سلوك لها فيه قوة على مقصودها من الأهوية.

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ آية. فإذا علمت من هذا بأن للنفس تصرفًا فيمن هو على عِلم، فكيف فيمن هو على جهل!.

ولمزيد ذلك العلم الباطنى، ولما يؤدى إليه من ثمرات علم الشريعة وأسرار الحقيقة، قال الامام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى، بعد أن كان يقول، قبل أن يجتمع بالشيخ أبى الحسن الشاذلى ﷺ، ويأخذ عنه: هل ثم طريق يقرب إلى الله تعالى غير ما بأيدينا من الفقه؟ فلما اجتمع بالشيخ صار يقول: من أدل دليل على صحة طريق القوم، وأن أهلها قعدوا على القواعد، وقعد غيرهم على الرسوم، ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولم تقع على يد فقيه كرامة ولو بلغ من العلم ما بلغ، ما لم يتبع طريقهم.

وكان الإمام أحمد بن حنبل ﷺ يقول لولده عبد الله: يا ولدى عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه. فلما صحب أبا حمزة البغدادى وعرف أحوال القوم، صار يقول لولده: يا ولدى، عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة، والخشية والزهد، وعلو الهمة.

وبلغنا أن الإمام الشافعى ﷺ كان يجالس الصوفية ويقول: يحتاج الفقيه إلى معرفة اصطلاح الصوفية ليفيده من العلم ما لم يكن عنده.

واعلم أن هذا العلم الباطنى لشدة ثمرته، وترقية العاملين به لحضرة الحق تعالى، جنح إليه كثير من العلماء من المتقدمين والمتأخرين. واعتقدوه وآثروه على غيره للنفع، وعملوا به، وأمروا بالعمل به، وألفوا فيه الكتب النافعة من علماء المذاهب الأربعة.

فمن الحنفية: كابن الهمام، وابن الشبلى، والشر نبلانى، وخير الدين الرملى، والحموى، وأمثالهم.

ومن الشافعية: كسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، والغزالى، والسبكى والسيوطى، وشيخ الإسلام القاضى زكريا، والشهاب بن حجر وأضرابهم.

ومن المالكية: كالعارف أبى الحسن الشاذلى، وخليفته أبى العباس المرسى، وخليفته ابن عطاء الله، والعارف ابن أبى جمرة. وناصر الدين، والزروقى، وغيرهم.

ومن الحنابلة: كالشيخ عبد القادر الجيلانى، وفخر الإسلام، والشيخ عبد الله

الأنصارى، وابن النجا، ونحوهم. فهؤلاء العلماء الكرام بعد التضلع في علم الظاهر اشتغلوا بتحصيل علوى الباطن، واستفادتها من أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك وحسن الاعتقاد، والإخلاص والتخلية من الرذائل، والتحلية بالفضائل، كما نقل بعض العلماء قال: رأيت الغزالي في البرية وعليه مرقعة وبيده عكازة وركوة، فقلت له: يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلى شررًا وقال: بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل.

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ... وعدت إلى تصحيح أول منزل

ونادت بى الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

ولما كان هذا العلم من أبلغ العلوم وأنفعها، وهو علم الأكابر، المحتوى على جميع الذخائر، حتى أن الواحد من أهله لو سلم له فيه لوسع العالم علمًا.

قال سيدى الشيخ صديق بن عمر خان السمانى ﷺ، في «النفحات السمانية» مشيرًا إلى كمال أهل هذا العلم وفضلهم على غيرهم: واعلم يا أخى أنه لو قدرنا ألف عالم رزق من العمر ألف سنة ودرس كل واحد منهم في ألف مسجد، وصنف من الكتب ألف ألف كتاب، لما بلغوا جميعًا مدّ ولى من الأولياء ولا نصيفه. وهو أفضل منهم بخصلة واحدة، وهي التي فضل بها سيدنا أبو بكر الصديق على سائر الصحابة، وهي معرفة الله تعالى، قال ﷺ: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صدقة، بل بشيء وقر في صدره». وأنى لمن ضيع عمره كله وهو يقول: القضية إما كلية أو جزئية. وآخر يقول: مدة الحيض عشرة أيام، وأقله ثلاثة أيام، وجاء زيد راكبًا واستقبال القبلة شرط، والركوع ركن، والزكاة طهارة المال، أن يدرك رتبة من قول: استقبال القبلة إشارة إلى التوجه الكلى في طلب الحق، والركوع إشارة لانعدام جميع الموجودات الكونية تحت وجود التجليات الإلهية.

وأما الزكاة فهي عبارة عن التزكى وإيثار الحق على الخلق؛ يعنى يؤثر شهود الحق تعالى في الوجود على شهود الخلق. فإذا أراد أن يشهد نفسه يؤثر الحق فيشهده سبحانه وتعالى. فهيهات وأين الثريا من يد المتناول، تطاولت الأعناق منهم في الطلب وقصرت الهمم، ووقف يعبوب عزمهم دون ذلك، وانقطع سبب رجائهم وانصرم، نعم لو أنهم عملوا بما علموا، وأفنوا نفوسهم في بقاء مولاهم وانعدموا، لأناخت بهم مطاياهم في حمى الأحباب، وفتح لهم بواب الحضرة الباب، وقطع لهم راهب الدير الزنار، وسقاهم الخمار راح رحيق

الشهود في الآثار، وتلى عليهم القس (فاعتبروا يا أولى الأبصار). وانكشفت لهم الحقائق، وهبت عليهم نسمات الرقائق، وشهدوا الوحدة في الكثرة، وأقيلت عنهم العثرة، وعلموا أن تفريقهم إياه بقولهم: الله قديم ليس بحادث. فلو كان حادثًا لكان متغيرًا، وكل متغير حادث- إنما كان به، وأنهم ضيعوا العمر بالتعريف وما وقفوا عليه، وقد أفنوا في طلبه، وما شهدوا بعد كشف الغطا، ومانالوا من المواهب الربانية العطا.

عجبت من فئة أفنوا زمانهم ... والعمر يا رب في بحث القضيات
يرجون منه دليلا يستبين على ... توحيد ذاتك جهلا بالنتيجات
وما كفاهم بإخبار الكتاب بها ... على لسان رسول بالدلالات
فهم مع الشك ما عاشوا وما برحوا ... إلى انقضا النحب في نفي وإثبات

قلت حينئذ: يظهر لك أن كلام الأستاذ المترجم ﷺ. «إرقوا ولا تقرءوا» إشارة إلى معظم أركان العلم، كقوله ﷺ: «الحج عرفة».

الفصل السادس

(في بيان أخلاقه ﷺ وتواضعه وخشوعه وآدابه)

(أما أخلاقه): فقلّ أن توجد في غيره، ولا في جبلة من الجبلات مطبوعة، وهي روضة تفوق الرياض بما فيها من الأزاهير، وإنه بحر لا يغيره شيء ولا يخرج منه إلا الدر والجواهر. أقول:

فلـو مزجـت بـالملح أخـلاق ذاتـه ... لـصارت أعـذب مـن سلـسال خمـار

فـلا يماثلـها شـهد ولا ثمـر ... بـستانه قـد سـقته سـحب أمطـار

(وأما تواضعه وخشوعه): فذاك هو العجب العجاب؛ لأنه ﷺ قد خمدت نيران شهواته، وسكت دخان صدره، وأشرق علم قلبه بنور التعظيم لله تعالى فلم يزل قائم القلب بين يديه، مطرق السريرة لمشاهدته وقربه إليه.

(وأما آدابه): فكان نفعنا الله به، لا يعترض على أحد في شيء من أحواله وأقواله الظاهرة والباطنة، ولا يمدح الطائع على طاعته حتى يغتر، ولا يذم العاصي على عصيانه حتى يفر. يرى الناس كلهم عبيد الله، وأنه تعالى الفاعل فيهم ما يريد.

قال في الروض مشيرًا إلى أخلاقه رضي الله تعالى عنه: وكان لا يرضى ولا يغضب إلا في الله تعالى؛ أخلاقه كأخلاق رسول الله ﷺ كما سبق لك في باب الثناء عن ولي الله تعالى الشيخ محمد المجذوب ابن قمر الدين رحمه الله تعالى، ومما يدلك على ذلك أن الشايقية شنوا الغارة على الجميعاب في بعض السنين، وقد رأى فارس منهم ثوبًا على الأستاذ المترجم ﷺ، وهو وقتئذ بالكنجر فتجرأ وأخذ ذلك الثوب، ظانا أنه من آحاد الناس. وكان ذلك الرجل به صداع شديد منذ عشرين سنة، وقد أيس لشدته من معالجة الأطباء. فلما أخذ ذلك الثوب ولبسه شفي لوقته، ولم يعد عليه ذلك الصداع، بعد أن كان ملازمًا له: وحكى لقومه بعد رجوعه من الجميعاب ما حصل له من الشفاء، وبث لهم الأمر على وجهه، فقالوا: هذا الذي أخذت منه الثوب ولبسته هو الأستاذ الأعظم قطب البلاد، سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير، رضي الله تعالى عنه، فكاد الرجل أن يذوب خجلا بما حصل منه من الإساءة، ففزع ورجع إلى الشيخ طالبًا منه العفو والسماح، وانخلع عن الثوب ووضعه بين يديه واعتذر

إليه، فقال له قدس سره: قد رأينا حين أخذك لـه عارضًا عليك وداء، فأردنـا شـفاءك بـه فالبسه، فرجع إلى أهله مسرورًا آمنًا مطمئنًا، وهذه الحكاية بين الشايقية أشهر من أن تذكر.

ومن ذلك أن الملك إدريس الجموعي الشهير بالمحينة، لما أغار على الجميعاب دخـل بعـض جماعته على حلة سيدى الشيخ بقصد النهب، فوصل رجل منهم إلى موضع سيدى الشيخ ووجـده قائمًا يصلى سُبحة[1] الضحى، فأخذ الفروة التي تحته فلم يتغير الـشيخ لـذلك، ولم يتـصرف فيـه بشيء. فدخل عليه بعض أهله ولامه على عدم تصرفه فيه، فقال لهم: الأمر سهل، فلا ينبغى لنا التصرف بشيء من أسرار الحق تعالى لأجل ذلك، فهذا التصرف نقص عندنا.

ومن ذلك ما حكاه ﷺ قال: كنت مشغولا بورد عتق لأبوى، فجاءت جنازة حسن ولـد بشير محمولة، وكان المـذكور مـن أشـد الأعـداء علـى، فرأيـت عليهـا مـا أوحـش صـدرى، وأحببت أن لا أهبه منى شيئًا من الدعاء. فسمعت هاتفًا من قبل الحـق تعـالى يقـول لـي: لا تبخل بما أعطاك الله. فوهبت له ذلك الورد عن رضى منى دون سخط.

ومن أحسن تواضعه لله تعالى وانكساره أن امرأة كان عندها عجين، فقالـت لهـا بعـض النسوة: إن فلانًا أو فلانة قد مات، إذهبى معنا للعزاء فيه. فقالت: لو وجدت مـن يحـرس لي عجينى ذهبت معكن. فسمع قولها الشيخ ﷺ، فقال لها: ائتنى به فأنا أحرسـه لـك إلى أن تأتى.

وكان ﷺ رءوفًا بالعباد شفيقًا عليهم، فإذا وجد من هو محتـاج لحلـق رأسـه حلقـه لـه بيده، وكانت له أمواس وإبار معدّة لـمن يحتـاج لـذلك، ويمـسح بالـدهن رءوسـهم، لاسـيما اليتامى والمساكين، وكان يباشر خدمة أهله بنفسه، وإذا بنى بيتًا لإحدى زوجاته فإنه يباشر العمل مع البنائين ولا يستنكف، حتى أن بعضًا من المحبين رآه يباشر بناء فـأراد أن يـترك الشيخ له ذلك العمل يباشره هو تعظيما وإجلالا للشيخ، فأبى عليه ﷺ وقال: من لم يكن له بطش بيده لم يكن له حظ في الرجولية.

(ومن آدابه ﷺ): أنه مارؤى يومًا مادًا رجليه بين الناس، وكان جلوسـه علـى نـوعين: إما أن يضع فخذه على رجله الأخرى، أو يتربع في جلسته، ولا يزيد عليها طـال المجلـس أو قصر وكان محبًا للفقراء والمساكين، باذلا لهم ما عنده، وإذا ضاق عليهم الخناق في أمر المعيـشة تصرف من قبل الحق تعالى وأزال ما بالمساكين والجياع، كما تقدم في فصل الكرامات قبله.

١- السبحة: التطوع بالذكر والصلاة.

الفصل السابع

(في أقواله وأفعاله وأحواله مجملة)

منها: ما سمعناه من تلميذه الشيخ القرشى بن الزين رحمه الله. ومنا ما سمعناه من غيره ممن أدركناهم من أهل الفضل. كان قدس سره لا يجلس. إلا وهو مستقبل القبلة مغمضًا عينيه، كثير الذكر، سبحته لم تزد على نسعة وتسعين حبة، وكلما فرغ من واحدة تناول الأخرى. وهكذا.

وكان يطوى نحو اثنى عشر يومًا ولا يطلب ماء، إذا كان مفطرًا في الأيام التي يمنع الصوم فيها كالأعياد. فإذا أتى إليه به أخذ منه قليلا ثم يتركه، وإذا دخل الخلوة الأربعينية– وكان يكثر من دخولها جدًا– لا يأتدم إلا بورق السدر. ويقول: هو أخف للمعدة، وكان ليس له مرحاض كعادة الناس، وإذا أراد الخلاء لا يخرج إلا إذا نامت العيون. ويقول بعد قضاء حاجته: (الحمد لله الذي أخرج عنى مشقته، وأبقى في جسمى قوته).

وكان إذا سلم عليه إنسان لا يقول له إلا (اللهم أعنه على دينه)، ولا يزيد على ذلك.

وكان لباسه القميص، ولا يلبس تحته سراويل، ويلبس الطاقية الحجازية، وعليها عمامة بيضاء، وتارة أم قرين؛ وهي التي كان يلبسها رسول الله ﷺ تحت قلنسوته، وفوقها يلبس مغفره في الحرب. وكان نعله التي يلبسها النعل الحجازية المعروفة بين سلاطين السودان، وقد أدركناها وشاهدناها. وكان يأخذ في يده عصا من سَلَم، وهي تسع قبضات بقبضة يده، وذكر فيها فضلا، وكانت له رائحة كأنها المسك الأذفر، إذا أقسم على شيء يفعله فإنه ينجزه، ويقول في حلفه: وعزة ربى، ولا يزيد بعدها شيئًا. وإذا قيل إن فلانًا قد قال كذا وكذا، يقول: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ آية.

وإذا قيل له: إن الفلانيين اقتتلوا. يقول: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ آية. وإذا قيل له: إن فلانًا قد مات، يقول: متى حَيى حتى يقال مات، كان الله ولا شيء معه، وكان عنده الخير والشر، والحلو والمر، والموت والحياة، وغير ذلك كله سواء. وكان لا يهتم بعشاء ولا غداء، وإذا ورد عليه ضيف أو جماعة من المريدين فلا يكل أمرهم إلا إلى الله تعالى، فما يشعرون إلا ويأتيهم من يقوم بأمرهم من أولاده أو أزواجه أو غيرهم. وإذا سئل

عن مسألة علمية تكلم على قدر الإفادة، وإذا كانت دنيوية سكت ولم يتكلم. وإذا باحثه أحد في سر من أسرار الحقيقة تغيّر حاله، وربما تكلم فيها نحو أربع ساعات. وإذا كان المباحث أهلا للامداد انتقل حاله من حالته الأولى إلى حالة أخرى، ويقول: آه أواه. فما يشعر إلا وهو صريع على الأرض لا يدرى حسه من معناه، وتحصل له العافية بالولاية وكمال الفتح. وكانت نساؤه أربعًا، وكان يدور بينهن واحدة بعد واحدة، وكان ليس له تلميذ يأخذ ما يرد عليه من الهدية، وكل من حضرها فهي له، قريبًا كان أو بعيدًا. وكان لا ينسب له شيء من الدنيا ولو شاة. ولا ينام من الليل ولو ساعة، لأنه صار مروحنًا كالملائكة عليهم السلام.

وكان له لوح من نحاس يكتب فيه، ولا يكتب إلا بقلم الثُّمام ويقول: هو أبرك من غيره، ويكتب بالمداد الأحمر دون غيره، إلا إذا اضطر إلى المداد الأسود، وإذا أساء عليه أحد وقال له بعض الناس: ألا تتصرف فيه؟! يقول: التصرف لا يليق إلا لمن عرف الناس ومدحتهم وهديتهم ونساءهم، وأما أنا فإني لا أعرف من هذا شيئًا. نحن قوم قلوبنا بالله عامرة، لا نعرف الدنيا ولا الآخرة.

وإذا أتاه مريد وطلب منه الطريق أخذ بخورًا ووضعه على جمرة وأمره أن يدخله تحت ثيابه، فإن خرج دخانه نتنًا أعطاه الطريق، وقال له: طريقة شيخك ملطخة بالدنيا لا تصلح لإرشاد المريدين، فيعطيه الأوراد، وما تمر عليه أوقات قليلة إلا ويفتح الله عليه، هذا إذا كان المريد أخذ الطريقة قبله على الأشياخ. وكان إذا مشى يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ آية.

وإذا جلس يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ آية.

وإذا مد يده على طعام قال: (تبارك ربك ذو الجلال والإكرام)، أنظر كيف مد يدك على الطعام.

وإذا قيل له: أعطنا من الأوراد ما نقضي به حوائجنا عاجلا، يقول: عليكم بالصلاة على النبي ﷺ وكان له مِرْوَد ومُكحلة ومُشط يسرح به لحيته، ويكثر من دهن رأسه ولكن يجعل له وقاية.

وكان لا تستفزه الضراء، ولا تستخفه السراء، على غاية الشجاعة والسخاء، والورع والمروءة. وهذا الفصل مما لا يحصر، وفيما بيناه كفاية.

الفصل الثامن

(في فنائه في الله وبقائه به)

إعلم أن الفناء كناية عن الطهارة، والبقاء كناية عن الصلاة عند أهل الإشارة، وأنشدوا:

إنّ الفنـــاء طهـــارة الإنـــسان ... لـــصلاة معرفـــة البعيـــد الـــدانى
فـــصلاة معرفـــة الإلـــه بغـــير مـــا ... طهـــر الفنـــاء عديمـــة الأركـــان
والكفـــر فيهـــا ظـــاهر بكلامـــه ... وبفعلــــه وإزالـــــة الإيمـــــان
إن الفـــاء طهـــارة معروفـــة ... لـــصلاة معرفـــة علـــى الإنـــسان
وهـو الفنـاء المحـض بـالتطهير عـن ... خبـث الجـسوم كثـائف الإنـسان

وقال آخـــر:

لـيس الفنـا إعـدام صـورتك الـتي ... قـد سميـت بـالمكن الإنـسان
حتـى تلاشـت ظـاهرًا وتعينًـا ... وغـدت بـلا وجـه مـن الوجـدان
لكنـه اسـتهلاك وصـفك يـا فتـى ... في وصـف موجـدك العلـى الـشان
فـإذا فنيـت بقيـت بـالحق الـذي ... أبـداك يـا معـدوم في الأعيـان
وظهـرت في هـذا الوجـود بخـارج ... حتـى اسـتفدت وجـودك المتـدانى

وكان الأستاذ المترجم ﷺ من شدة سطوع شموس التجليات الذاتيـة علـى قلبـه لا يـرى ولا يسمع ولا يحس بشيء، وذلك في غالب أوقاته.

وقد دخل عليه مرة والدنا سيدى الأستاذ نور الدائم، فقال لـه: مـن أنـت؟ قـال: نـور الدائم. قال: لمن تنسب؟ قال: ابنك قال: ما كنت أظن قبـل اليـوم أن لـي ولـدًا اسمـه نـور الدائم، مع أنه من مشاهير أولاده. وكان من تتابع الأفنية عليه تأتيه في بعض الأحيان المرأة من نسائه فتجده لم يعرفها، فتقول له: أما عرفتنى! أنا زوجتك فلانـة. فيقـول: إن كنـت كما قلت ائتينى بشهادة، أو احلفى على هذا المصحف أنك زوجتى، وغير ذلك.

وعند العارفين أن الولي إذا استغرق قلبه في الشهود الذاتي كالأستاذ هذا، فإنه يعمى عن الأكوان، ولا يرى الدنيا ولا الآخرة.

ومن كلامه في حكمه الذي يشهد له بتحقيقه بهذا المقام قوله: إن أوصلك المنان إلى أعظم مكان، أشهدك لا أنت ولا أكوان. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

وقوله: نحن قوم قلوبنا بالله عامرة لا نعرف الدنيا ولا الآخرة، وأنشدوا:

وبعد الفنا في الله كن كيفما تشاء فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

الفصل التاسع

(في عجائب إرشاداته وغرائب فيوضاته)

سمعت العارف بالله تعالى الشيخ القرشي بن الزين رحمه الله تعالى يقول: ما من أحد أخذ عن سيدي الشيخ أحمد الطيب قدس سره إلا وقد فتح عليه. قلت: ويؤيد هذا قوله في كتاب (حكمه): توحيد الحال طريق المقربين لا الأبرار، فمن سلكه على يد خبير عارف بالله كان من هل حضرة الله. يشير بذلك إلى نفسه ﷺ.

ومن عجائب إرشاداته وغرائب فيوضاته، ما حدثني به الشيخ سعيد المسلمي، تلميذ الأستاذ المترجم ﷺ، قال: سمعت سيدي الشيخ قدس سره يقول: بأن أبا بكر ولد أبي القاسم الضوابي الجميعابي كان أخذ علينا الطريقة وأقبلناه على الله تعالى، فمات قبل أن يفتح عليه، فما زلت أرقيه في قبره، والآن من وقت وفاته قد بلغ ستة عشر عامًا، وقد أدخلته في هذا العام القطبانية، فمن زار قبره سبع جمع ولم تأكله النار.

قال الشيخ سعيد المذكور: فلما سمعت ذلك من سيدي الشيخ ﷺ ذهبت لزيارة قبره، فلما جلست عنده رأيته يميد كما تميد السفينة في يوم الريح العاصف، فعلمت بذلك كرامته، وحمدت الله أن جعلنا من أتباع الشيخ ومحبيه.

ومن ذلك ما حدثني به رجل من تلامذة الشيخ ﷺ، يقال له الحاج إبراهيم الحليمابي. بعد أن اختبرته في علوم الشيخ ومعارفه، وإفادته لي بعبارة يقصر عنها فهم غيره مع أنه أمي، فسألته عن السبب الذي أوصله إلى هذه المعرفة، فقال: أمرني سيدي الشيخ ﷺ مرة أن أمشي خلفه، وأن أضع قدمي في موضع قدمه، فلما فعلت ذلك نحو ثلاث مرات، غبت عن وجودي، ووقعت على الأرض نغشيًا علي، فلما أفقت وجدت في نفسي هذا العلم.

ومن ذلك ما أخبرني به العالم العلامة الفقيه أحمد ولد دفع الله البريابي بستار عام تسعين بعد المائتين والألف.

قال: زرت سيدي الشيخ ﷺ في عهد شبابي، ومعي جماعة من عشيرتي، فبادرت بالدخول عليه قبل الجماعة، فوقع في بصري كأنه الشمس أو البدر عند تمامه، فلما قبّلت يده التفت عليّ وقال: قد دنا العمر بالانقضاء، فهل نجد أحدًا نعطيه الطريقة ونكيله كيلا.

ثم قال: وعزة ربى إن أسرار الله عندى بالقرب والكوب والكيزان قال: فوالله ما استتم كلامه حتى رأيت في الموضع الذي هو فيه قربًا وأكوابًا وكيزانًا تدور وهي من نور دورانًا شديدًا، فدهشت عند ذلك ثم خرجت، وأخبرت بذلك أصحابى فقالوا لي: إنا لا نشك فيما أخبرتنا به، لأننا نعلم أن للشيخ ﷺ ما هو فوق هذا، لكن نخشى إن أخذنا الطريقة أن ينفحنا بنفحة تزهدنا فيما نحن فيه من محبة المال والنساء، وكانوا شبانًا عنابًا، قال: ومن جهلنا وشدة غباوتنا وعمى بصائرنا قد اتفقنا الجميع على عدم النزول عند الشيخ، خشية أن يزهدنا في مرغوبنا، فتوجهنا إلى السروراب، وما زلنا نتوارى بالأشجار مخافة أن يخرج من محله فيلحظنا. قال: فما مرت علينا أيام يسيرة إلا وقد بلّغنا وفاته ﷺ، فندمت ندمًا ما علمته لغيرى على عدم اتصالى به، وأخذى منه الطريق بعدما رأيته بعينى من خوارقه، فذهبت إلى تلميذه الشيخ أحمد البصير فأخذت عنه الطريق، ثم من بعده ذهبت إلى تلميذه سيدى الشيخ محمد توم فأخذت عنه، ومع هذا فما طفيت جمرة حرارة ندمى.

ومن ذلك ما أخبر به شيخنا رحمه الله. قال: كنا في حضرة الشيخ رضى الله تعالى عنه، فجاء رجل من الحامداب، يقال له الحاج السراج ولد عمر من أهل واوسى، وكان عنده هدية، فمد يده بها إلى الشيخ ﷺ قائلا له: يا سيدى هاك. فالتفت إليه الشيخ وقال له: وأنت هاك، فوقع في الحال مغشيًا عليه، ورأى ما رأى من الأسرار.

ومن ذلك ما أخبرنى به محمد ولد البشير قال: إن جدى محمد ولد نبق لما طلب من سيدى الشيخ ﷺ الطريق قال له: إنك لا تستطيعه، ولكن املأ نظرك في وجهى، ففي الحال تغير عليه الحال، وصار مجذوبًا إلى أن مات.

ومن ذلك ما أخبر به العارف بالله الشيخ بشرى (بضم الباء) ابن بشير. الأستاذ المشهور ببلاد الرحمان من الحبشة، قال: لما أخذت الطريقة على يد سيدى الشيخ ﷺ، فكاشفته على ما في ضميرى، ثم أمرنى أن أقول وأنا بين يديه ثلاث مرات هذه الصيغة: «اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة دائمة مستمرة بدوامك يا فتاح» فلما قلتها كشف لي عن الملكوت وكان ما كان.

ومن ذلك ما أخبرنى به من أثق به من الفضلاء قال: جاء رجل إلى الشيخ: قدس سره يطلب منه الطريق إلى الله تعالى، فقال له الشيخ: هات ما عندك، فأخرج الرجل شيئًا ومده إلى الشيخ، وقال: والله لا أملك إلا هذا المثقال، وفقال له الشيخ: قبلناه منك وصيرناك من الأبدال، فتجوهر الرجل من وقته وبلغ درجات الكمال.

ومن ذلك ما أخبرني به شيخنا رحمه الله تعالى قال: كنت يوما في حضرة الشيخ ﷺ، فطلب رجل منه ثوبًا، فخلعت ثوبي وألبسته ذلك الرجل، فنظر إلى الشيخ ﷺ ثم قال: اللهم اكسه من نور جمالك وجلالك، وقال لي: ما دعوتها لأحد قبلك. قلت: لا يخفى بعد ذلك ما كان عليه ببركة دعوة الشيخ من الحلل الجمالية، والبرد الجلالية التي فاق بها أهل عصره.

ومن ذلك ما حدثني به أيضًا شيخنا رحمه الله قال: حضر يومًا عند سيدى الشيخ ﷺ ثلاثة من تلامذته وهم: الشيخ محمد ولد مكى، والشيخ محمد بن الحاج النور البريابى، والفقيه محمد بن الطيب ولد عبد المحمود، فالتفت الشيخ ﷺ إلى الشيخ محمد ولد مكى وقال: وهبت لك مقام جدك الشيخ إدريس ولد الأرباب ﷺ، وقال للشيخ محمد بن الحاج النور وأنت أيضًا وهبتك مقام جدك الشيخ على ولد برى رحمه الله تعالى، وللفقيه محمد ولد الطيب ولد عبد المحمود: أنت معى في الدنيا والآخرة، قلت: أما الشيخ محمد ولد مكى رحمه الله تعالى فقد ظهرت على يده خوارق تشهد له بذلك، منها ما أخبر به الرجل الصالح الحاج الحسن ولد بلول تلميذ العارف بالله تعالى السيد أحمد بن إدريس قدس سره، القاطن بقرى قال: سألت الشيخ محمد ولد مكى رحمه الله تعالى عما حصل له من المدد من سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فقال لي: لا يحصى، ولكنى في كل ليلة أجتمع بالأنبياء من عهد آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ،حدثنى الشيخ على الرباطى قال: قال لي شيخ رحمه الله تعالى: إن الله منّ علىّ بمقام جدى الشيخ إدريس ولد الأرباب ببركة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، إلا أنه قد زاد علىّ باثنين؛ كثرة الكرامات، وطول العمر.

وأما الشيخ محمد ولد الحاج النور البريابى، فقد كان آية من آيات الله تعالى:

وقل ما شئت فيه من مديح   تجده فوق ما نطق المديح

أخبرنى الرجل الصالح الشيخ أحمد ولد إبراهيم رحمه الله تعالى قال: بلغنا أن خاتمة العرفان سيدى السيد محمد عثمان الميرغنى ﷺ لما مر بمقبرة البرياب، جعل يكثر النظر في قبر الشيخ محمد بن الحاج النور رحمه الله، ثم قال لأصحابه: هذا القبر أكمل من صاحب هذه البنية، يعنى جده الفقيه على ولد برى رحمه الله.

وأما الفقيه محمد ولد الطيب فإنه مع ما كان عليه من الفقه والصدق والبركة التامة، فقد زوجه سيدى الشيخ ﷺ بإحدى بناته، وبعد موته دفن مع الشيخ في قبته، وهذا شاهد كلامه ﷺ.

أخبر الفقيه الصالح الكامل الشيخ إبراهيم ولد عبد الدافع المفتى الحميد ابى رحمه الله تعالى، قال: كانت بينى وبين الفقيه محمد ولد الطيب حال حياته محبة قوية، فلما جئت من مصر، زرت سيدى الشيخ ﷺ، وسلمت عليه فرد السلام علىّ الفقيه محمد المذكور، وسمعت من قبل الشيخ كلامًا أعجميًا لم أفهمه. فأرسل المفتى المذكور كتابًا بذلك إلى عبد المحمود ولد الطيب صنو الفقيه محمد، يخبره فيه بهذه الكرامة الظاهرة.

ومن ذلك أن العارف بالله تعالى الشيخ محمد التوم ولديان النقا. كما روينا ذلك عن الثقات، لما خدم سيدى الشيخ ﷺ سبعة أيام، أمره أن لا يزيد على ذلك. وقال له: ما حصل لي من سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ من المدد في السبع سنين التي خدمته فيها، وهبته لك في السبعة الأيام هذه، وأعطيتك مقام جدك الشيخ موسى ولد يعقوب ﷺ. وملّكتك أرض الصعيد. قلت: ولا يخفاك بعد هذا ما كان من أمره وخوارقه وتصريفه، وانقياد الصغير والكبير له، والأحمر والأسود، والسلطان والوزير، والحاكم والأمير، والصلحاء والعلماء، مع الإرشاد الذي لا يحاذى، والمدد الذي في النفوس أحلى من الشذا.

ومن ذلك أنه قد أوصل إلى الله تعالى تلميذه الشيخ المصطفى ابن الشيخ الإمام، خليفة العارف بالله تعالى سيدى الشيخ دفع الله ولد أبى إدريس العركى ﷺ، بمجرد المبايعة من غير سهر ولا رياضة. ووهبه بعد ذلك مقام جده الشيخ دفع الله المذكور.

ومن ذلك أنه أوصل إلى الله تعالى الشيخ محمد ولد يعقوب العَبَطى في أول ليلة من اجتماعه به وأخذه عليه.

ووهب للشيخ حسيب بن الإمام المغربى ألفين وخمسمائة من الجن يخدمونه، وذلك بمجرد الاجتماع به قبل ليلة المبايعة.

وأرشد التكرورى الذي جاء بكتاب سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، بمجرد تلاوته للكتاب.

ومن ذلك أن تلميذه صالحًا الجرارى رحمه الله تعالى كان أميًا، فلما اجتمع به وأخذ عنه الطريق، أرشده وصار من كبار المؤلفين في المعارف. وقد رأيت له نظمًا بديعًا في الحكمة وغيرها، وسماه: «بشمسية الإشراق، في علم الحروف والآفاق»، وهو يشهد بكماله.

ومن ذلك ما حدثنى به الشيخ نور الدائم ابن أخينا الشيخ الصديق رحمه الله تعالى، قال: حدثنى الفقيه محمد ولد فضل الصبحاوى، تلميذ سيدى الشيخ ﷺ، قال: كنت قبل

أخذى الطريقة على سيدى الشيخ ﷺ أميًا لا أعـرف شيئًا، فطلبت منـه بعـد الأخـذ أن أرجـع إلى بلادى، قال: فأخذ بيده الشريف إبريقًا فيه ماء وصبه على رأسى، فأحسست بذلك الماء ﷺ لا في باطن جسدى، ولم أر على ظاهره ﷺ، فتعجبت مـن ذلـك، فلمـا فـرغ ﷺ، قال لي: هذا السقىُ الذي تعنيه القوم، اذهب فإنه لك ما تروم، قال: فمن ذلك اليـوم نزل على قلبى من العلم اللدنى والفيض الإلهى ما لا يخطر ببالى قبل ذلك، والحمد لله.

ومن ذلك ما أخبر به العلامة الفقيه أحمد ولـد كنـان رحمـه الله، قـال: زرت سـيدى الشيخ ﷺ، في مدة حياته- وهو في ذلك الوقت بأم مرح الصعيدية- ومعى رجلان من تلامذة سيدى الشيخ يوسف ابن الشيخ محمد الطريفى قدس سره، فلما دخلنا عليه في الموضع الذي هو به، رأيته كالشمس في رابعة النهار. فقال لنا: خذوا عنى طريقًا أخذ مـن يـد رسـول الله ﷺ، قال: فتوقفت أنا عن الأخذ، وأخذ عليه الرجلان اللذان معى، فلما خرجنا مـن عنـده قلت لهما: ما جوا بكما لسيدى الشيخ يوسف؟ فقال أحدهما: أما أنـا فمـن حـين وضـعت يدى على يد الشيخ ﷺ، لقد كشف لي حتى رأيت اللوح المحفوظ، وقال الآخـر: والله أنـا قد حصل لي بعد خروجى منه مثل ذلك.

قال: ولعلمى بصدقهما ودينهما رجعت إلى سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، وطلبت منه الطريق فأبى، وقال لي: فاز بها أخوالك. قال: فندمت على ذلك أشد الندم. وأمـا همـا فقد بلغا من الآيات وظهور الكمالات مالا ينكر.

ومن ذلك ما أخبرنى به من أثق به قال: إن رجلا كان من زبالة أبى جريـد قـد تـاب على يد الشيخ ﷺ، وصار من المنتظمين في سلكه وأقام معه أيامًا، ثم حدثته نفسه بـالرجوع إلى مذهبه، فاستأذن الشيخ في أن يذهب إلى أهله، ووعده بـالرجوع إليـه، وكـان ذلـك كـذبًا منه، فعلم الشيخ ﷺ ما في نفسه كشفًا، وأمره أن يذهب إلى شجرة كانت بقربه ويشتغل ثمة بالذكر جهرًا، نحو ساعة أو ساعتين، حتى بعد ذلك يأذن له بالسفر إلى أهله، فقام الرجـل من عند الشيخ فرحًا، وصار مشتغلا بالذكر كما أمر، ثم إن الشيخ أتاه من خلفه ولم يشعر به الرجل، فضربه بالعكاز على كتفيه، فتقايأ الرجل عند ذلك دمًا عبيطًا،ثم خرج من بطنه هرٌ كبير، يسمى في عرف أهل بلادنا (بأبى عاج) ففتح عليه في الحال، وصار من الأبدال.

ومن ذلك ما أخبر به بعض الفضلاء:إنه قد أرشد في مدة إقامته بمدينة (قنـا) مـن أرض الريف عشرين ألفًا: وفي مدينة (سوهاج) ثلاثة آلاف ومن ذلك جمعـه للـشريف محمـد النـور المدفون بالحمران- كما أخبرنـى بـذلك الـشريف محمـد بـن الـشريف النـور- مـن أول ليلـة بالخضر ﷺ، واستمر على ذلك إلى أن مات.

ومن ذلك ما حكى أنه جاءه رجل وطلب منه أن يعطيه اسمًا يذكر الله تعالى به، فأمره أن يذكر الله ببصل، فذكر بها إلى أن وصل، فسئل بعد ذلك، فقال: لما أمرني سيدى الشيخ ﷺ بالذكر بهذه اللفظة لم يتردد خاطرى في ذلك، وأخذت كلامه على الجد، ففتح عليّ من كل حرف منها معنى اسم من أسمائه تعالى؛ فمن الباء بَر، ومن الصاد صبور، ومن اللام لطيف، فصار لساني لاهيًا بهذه اللفظة، وقلبى ملاحظًا للأسماء المذكورة مستترًا بها من حيث الظاهر، ذاكرًا من حيث الباطن، فافهم.

ومن عجائب إرشاداته، وغرائب فيوضاته، فتحه لتلميذه الشيخ محمد ولد مكى في الحال، بسبب حكاية الدهن المشهورة. ومن ذلك إرشاده لتلميذه الشيخ يعقوب بن أحمد الأنصارى القاطن بقدبى، حين أمره أن يشهد الله تعالى في صقر مرّ عليه طائرًا، فخرقت بصيرته السموات السبع ورأى ما رأى، ثم إنه ملّكه بعد ذلك تسعًا وتسعين سيدًا من الجن. ومن ذلك أن أحمد ولد على النوفلابى طلب منه رؤية النبي ﷺ، فوهبها له في ليلة الإثنين والخميس، واستمر على ذلك إلى أن مات، ومن ذلك أن الشيخ حبيب الله ولد الفرضى الشويحاتي الكردفانى، قد كان أميًا من رعاة الأبقار، فرأى في منامه ماحثه على الاجتماع بسيدى الشيخ ﷺ، فذهب إليه وأخذ عنه الطريق، ثم أستأذنه ورجع إلى محله، قال الفقيه حسب الدائم الجعلى: قد رأيته مرة في حلقة ذكر بموضعه من أبى عرائش، وهو يدور في الهواء خاليًا من الأرض.

واعلم أننا لو أرخينا القلم في عجائب إرشاداته، وغرائب فيوضاته، لخرجنا من الغرض المطلوب من قصد الاختصار، وقد قالوا: يكتفى الحاذق اللبيب بما يدل على الكثير من القليل.

وفي كلام العارف بالله الشيخ القرشى ابن الزين الذي قدمناه في أولى هذا الفصل وهو أنه: (ما من أحد أخذ على سيدى الشيخ إلا وقد فتح عليه) غنية لأولى العقول، عما لا يتيسر لنا جمعه في هذه الفصول. وأما إرشاده بعد وفاته فهو كثير جدًا، وسنذكر نذرًا منه في فصل تلامذته الذين انتفعوا به، إن شاء الله تعالى.

الفصل العاشر

(في بيان ما أكرمه به الحق تعالى)

(من خرق العادة لمن نالوا به حفظ القرآن العظيم بدون قراءة على الأشياخ)

هذا الفصل، وإن كان محله فصل الكرامات، ولكن لعظم كرامة حفظ القرآن المجيد ومكانته، أفردناه هنا استقلالا.

فمن ذلك ما أخبرني به شيخنا رحمه الله تعالى، قال: كان أبو عاقلة المشهور بالولاية والكشف أول أمره أميًا، فلما صحب سيدى الشيخ ﷺ، وسار بسيره، صار يقرأ القرآن على ظاهر قلبه بالروايات السبع.

ومن ذلك ما أخبر به العلامة الفقيه أحمد ولد كنان رحمه الله تعالى، قال: رأيت رجلا أميًا قد جاء لزيارة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، وكان وقتئذ يأم مرح التي بالصعيد، فأهدى للشيخ حِمْل بعير من الذرة، وكان الوقت غلاء، فقال ﷺ: تمنّ علينا، فقال أتمنى حفظ القرآن، فأمره ﷺ بالوضوء، وصار يعلمه الوضوء شيئًا فشيئًا، فلما تم الوضوء فتح عليه بالقرآن جميعه.

ومن ذلك ما أخبر الفقيه مضوى تلميذ عبد الواحد الكباشى، الشهير بمردس، قال: حدثني شيخى قال: زرنا سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، مع الفقيه عبد الله ولد أبى الحسن العرماني، فلما رأيت إفاضته على المريدين وإرشاده للسالكين، طمعت نفسى بأن أسأله القرآن، وكنت أميًا لا أعرف منه شيئًا، فلما كلمته بذلك، أمرني أن أجمع عنده بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ثلاثين رجلا ممن يقرأ القرآن على ظاهر قلبه، فلما كان يوم الجمعة في الوقت المعين، جمعت العدد الذي أمرني به، فأمرهم أن يجلسوا حلقة، وأمرني بالجلوس وسطهم، وأمر أن يقرأ كل واحد من هؤلاء جزءا من القرآن؛ فلما فرغوا من قراءتهم، وجدت القرآن جميعه في صدرى.

ومن كلامه ما أخبر به شيخنا رحمه الله تعالى، قال: إن الفقيه عليا ولد قرشى الحلاوى المشهور، لما عسر عليه حفظ القرآن، وسمع بكرامات سيدى الشيخ بإعطائه القرآن لمن طلبه منه، ذهب إليه فأدخله الخلوة سبعة أيام، وأمره أن يقرأ كل يوم في المصحف سُبُعًا

من القرآن العظيم، ويتلوه ليلا على ظاهر قلبه،فلما كملت السبعة أيام، صار ممن يضرب به المثل في معرفة القرآن واتقانه، ثم إن سيدة الشيخ ﷺ وهب له مصحفًا عظيما، أهداه له سيدى الشيخ محمد السمان حين كان معه بالمدينة المنورة. قلت: وهو إلى يومنا هذا عند أولاده بالحلاوين، ويسمونه بالسمانى، وهو مشهور لديهم.

ومن كلامه ما أخبر به الحاج الماحى العيسابى قال: زرت سيدى الشيخ ﷺ في عهد الشباب. وطلبت منه أن يكتب لي ورقة أعلقها على عضدى، وكان قلبى يومئذ مولعًا بالقرآن ولم أحفظ منه شيئًا، فلما كتب لي ﷺ تلك الورقة وعلقتها على عضدى صرت كما ترى، أقرأ القرآن جميعه بحمد الله على ظاهر قلبى.

ومن ذلك ما أخبر به بعض الفضلاء قال: كان في عهد الشيخ ﷺ رجل يستعمل التنباك بفمه كعادة غيره من الناس، فلامه بعض الناس على ذلك، فذهب إلى سيدى الشيخ، وطلب منه أن يتفل في فمه رجاء أن يتوب من ذلك، فتفل له الشيخ في فمه كما طلب منه ذلك، فتاب لوقته ثم صار يقرأ القرآن على ظاهر قلبه، ولم يزل على ذلك إلى أن مات، وغير ذلك.

الباب السابع

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

(في بعض كلامه ﷺ وعنًا به)

فمن ذلك قوله: أدنى درجات الولي أن يكشف الله له من البهموت إلى الظلمة؛ وهو الكشف عن عالم الملكوت. وأوسطها الكشف عن عالم الجبروت. وأعلاها الكشف عن عالم اللاهوت.

ومن كلامه ﷺ: من علامات محبة المحب، فناؤه عن صفاته بصفات محبوبه.

ومن كلامه ﷺ: من المحال أن يفتح الله لك باب شهود حضرته وأنت لم تطهّر قلبك من جنابة شركه.

ومن كلامه ﷺ: التوحيد ظاهرة التنزيه عما لا يليق بالذات المقدسة العليه، وباطنه نفي الحول والقوة منك عنك بالكلية.

ومن كلامه ﷺ: توحيد الظاهر، تقوية لتوحيد الباطن، إن سلم صاحبه من دائه الكامن، ونظر لله تعالى وحده في المتحرك والساكن.

ومن كلامه ﷺ: أنت مع الوجود ما دامت تشهد لك معه وجودًا، فإن اصطفاك وهناك، جذبك وأدناك، وغيّبك عن إياك[1].

ومن كلامه ﷺ: إن أوصلك المنان إلى أعظم مكان، أشهدك لا أنت ولا الأكوان. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

ومن كلامه ﷺ: ما أحب رجل أن يعرف بإظهار الكرامات لديه، وانقياد الخلائق إليه، إلا فسد دينه، وذهب في مولاه يقينه.

ومن كلامه ﷺ: حب الكرامات، وانقياد الخلق من ظلمة الباطن.

١- أي عن نفسك والله أعلم.

ومن كلامه: ورود الواردات، وإظهار الكشوفات، وجلب الخليقات، والنظر في لوح المحو والإثبات، يقال إنها درجات، وعند أهل الدرجات ليست بدرجات، وإنما هي عَطالات وبطالات، من وقف معها حجب عن المطلوب، وطرد عن حضرة المحبوب.

ومن كلامه: إذا دخل قلبك سلطان الأحدية، غبت به عن الإنية، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها بالقهرية.

ومن كلامه: وصولك إلى الله وصولك إلى علم العظمة والجلالة، واتصالك بشهود وحدة ذاته وأسمائه وصفاته وبوحدة الأفعال.

ومن كلامه: الكشف ما أطلعك على الغيوب، والتجلي ما كشف لك عن المحبوب.

ومن كلامه: العارف بالله تعالى من شهد الحق في كل شيء يراه، والعارف بنفسه من استدل عليه بما سواه.

ومن كلامه: المؤمن ينظر بنور الله تعالى في الملكوت، والعارف من ينظر به إليه في حقائق اللاهوت.

ومن كلامه: للذِّكر ظاهر وباطن؛ فظاهره الاسم، وباطنه ملاحظة معناه، فمن وفق على ذلك فلا يستبطئ الفتح من الله تعالى.

ومن كلامه: أول المقامات في طرق أهل الله، التوبة لله، والتزام طاعة الله بخوف الله، والصبر على مراد الله، والزهد فيما سوى الله.

ومن كلامه: توحيد الأفعال لا يثبت في سكره إلا كل الرجال، إذا حصل لك فيه الفناء عن الأنام، كن رجلا جامعًا تابعًا لشرع من ظلله الغمام.

ومن كلامه: لا يخرجك عن شهود الوهم والخيال، إلا كثرة ذكر الله بالصدق والابتهال.

ومن كلامه: السلوك على توحيد الحال، طريق المقربين لا الأبرار. فمن سلكه على يَدِ خبير عارف بالله، كان من أهل حضرة الله.

ومن كلامه: المحب لا ينام، والعارف لا يلوم، والمشاهدة لا تدوم.

ومن كلامه: من سكن سره لغير الله تعالى، نزع الله نور الإيمان من قلبه، وألبسه لباس الطمع في غيره.

ومن كلامه: الخلق في الشريعة خلق، وفى الحقيقة حق.

ومن كلامه: السير إلى الله تعالى لا يكون إلا بهذه الأحرف الخمسة وهى: (خـززرس) فالخاء خبير عارف بالله تعالى، والزاى الأولى زاد؛ وهو التقوى. قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ آية، والزاى الثانية؛ زاملة الهمة التي تصل بها إلى عين النعمة، والراء: رفاقه، وهم الإخوان المساعدون على الطريق، والسين: سلاح ترهب به العدو، وهو الاسم.

ومن كلامه: إذا أردت أن تكون من المقربين أهل السباق، فلا تـر لوجـودك أثـرًا، ولا لذاتك رفعة، ولا لنفسك عملا منك إليه يساق.

ومن كلامه: رأيت هو الفاعل، وسمعت هو القائل، وشاهدت القدم، وحققت العدم، وتلاشى الناسوت، وبقى اللاهوت.

ومن كلامه: إن للاسم جسدًا ونفسًا وروحًا، فإن اختل واحد منهن فإنـه لا ينـتج أبـدًا. قال أما جسده: فجامع الأنوار، ونفسه: الشعور بعظمة الله، وروحه: نفى الحول والقوة.

ومن كلامه: أيها المريد الناسك المهتم، ومن تقصيرك في طلبك كـالمغتم، طرائقنـا علـى عدد حروف (نقط جم)، فإن كنت للأسرار لم تفهم، إئتنا بصدق تظهر بـين الـورى كـالعلم، من لم يأتنا في زماننا هذا لا بد أن يندم.

ومن كلامه مشيرًا إلى علم الحقيقة: لو لوحت فهمى في هذا العلم عـن الأفهـام، لعجـز عن فهمه كل ولى لله تعالى في هذه الأيام.

ومن كلامه: نحن قوم قلوبنا بالله عامرة، لا نعرف الدنيا ولا الآخرة.

ومن كلامه: لا أرى في الكون إلا اثنين: إرادة تحرك، وقدرة تسكن.

ومن كلامه: حينما سأله العلامة محمد ولد أبى سعيد الكركسى، عن قول الفقيه أحمد ولد مرتضى عند سكرته وجذبته: أنا ظاهر الله، فقال له: وأنا باطن الله. فسكت عنـد ذلـك العلامة المذكور، فأنكر عليه بعض طلبته سكوته، فقال: هذا قطب لا يعارض، والأمـر لـه في ذلك مسلم.

ومن كلامه: أقول كما قال إمام الطريقة أبو القاسم الجنيد ﷺ: من أراد عـز الـدارين، فليدخل في طريقتنا هذه يومًا أو يومين.

ومن كلامه: أوصل إلى الله تعالى كل من جاءنى، ولو كان منكرًا أو مستهزئًا بى.

ومن كلامه: من فقدت عنده حروف (سكر) فإنه لا يذكر، سئل ﷺ عن ذلك فقال: السين: سر، والكاف: كيمياء، والراء: روحاني. قلت: وقد بلغنا أنه ﷺ وعنا به لا يعطي الطريقة لكل من طلبها من المريدين؛ فمنهم من يعلمه الكيمياء بأدنى إشارة، ويأمره بالزهد فيها إلا عند الشدة، ومنهم من يصرفه في الروحاني، ومنهم من يعطيه الطريقة ويمده بأسرارها، ويصحبه فيها بالذوق والهمة. وكثيرًا ما كان يحصل للمريد الفتح على يده عند المبايعة أو بعد ساعة أو ساعتين، أو يوم أو يومين، فلذا كان يسمى بين أهل الله بالإكسير.

ومن كلامه: لو علم أهل زماني ما أنا عليه لأتوني ولو حبوًا.

ومن كلامه: ما غضبت في عمري إلا مرة، ولا غبطت أحدًا إلا مرة، ولا خشيت مخلوقًا إلا مرة؛ أما الغضب فإنه حصل لي بسبب شتم شخص أردت أن أشتري منه طعامًا بسوق المدينة المنورة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، وذلك لمخالفتي ما في نفسه من الثمن. وأما الغبطة فإني رأيت بها غلامًا مكتوبًا على قلبه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمداد من نور أبيض، فأردت أخذ ذلك من قلبه فنهيت. وأما الخشية فعند دخولي بلاد الريف قصدني بالحال واحد من الأولياء المعمرين يقال له كمال الدين، وكان وليا عطابًا، فأمّنني منه رسول الله ﷺ. قلت: إن كمال الدين هذا هو الولي الذي سمى سيدي الشيخ باسمه ولده كمال الدين، فجاء كأنه هو حالا وذوقا.

ومن كلامه: من عهد آدم عليه السلام إلا وقتنا هذا ما وصل إلى ما وصلت إليه من درجات القرب من الأولياء إلا أثنا عشر وليا.

ومن كلامه: خيرت بين واحد من ثلاثة مقامات؛ مقام أبي القاسم الجنيد، والسري السقطي. وأبي يزيد البسطامي، فاخترت مقام أبي يزيد، وربي زادني عليه سبعين قدمًا.

ومن كلامه: كنت في حضرة فيها جميع الأولياء، فهتف هاتف من قبل الحق ﷻ قائلا: يا معشر الأولياء: إن الطيب هذا من سلاطينكم.

ومن كلامه: هتف بي هاتف من قبل الحق تبارك وتعالى، وكان معي وفتئذ أخي الحاج أحمد البقاري، تلميذ سيدي الشيخ محمد السمان ﷺ، يقول على لسان الحق ﷻ: لأعز نّكما في الدنيا والآخرة.

ومن كلامه لتلميذه الشيخ سعيد المسلمي. يا سعيد، لو أردت أن أكون بعد كبري هذا صبيًا لكنت، أو شابًا لكنت أو فوق ما أنا فيه من الكبر لكنت. قلت: وقد رأيته ﷺ وعنا به

عام خمس وتسعين بعد الألف والمائتين في حلقة ذكر عندنا بالصعيد، وهو صبى وعليه من الجلالة والأنوار مالا أصفه، ورأيته إذا تحرك يتحرك الناس بتحريكه، وإذا سكن كذلك، وإذا حصلت به حال فإنه يحصل لجميع الذاكرين. وهكذا إلى أن طلع الفجر وأذن المؤذنون، ثم خرج من أمام الحلقة، فافهم والعهدة على قائلها.

ومن كلامه: لكل ولى طريق من الأسماء، وأنا لي كلها طرق.

ومن كلامه لتلميذه سيدى الشيخ حسيب بن إمام المغربى، بعد أن تكلم معه في أسرار مثلث أبى حامد الغزالى ﷺ: يا حسيب، لو شئت أن أجرى لك هذا النيل خلف الجبل لأجريته، فبكى عند ذلك الشيخ حسيب ﷺ، وقال: معاذ الله أن أشك في ذلك يا سيدى.

ومن كلامه لما دخل الترك في هذه البلاد، أمر أهلها: أطيعوهم ولا تخالفوهم، فإنى لقيتهم بدنقلة وأردت أن أبطش بهم، فسمعت هاتفًا من الحق تبارك وتعالى يقول لي: (يا طيب تأدب لأمرنا فإنه قد ظهر)، فألقيت ما كان في يدى على البحر، فصار ذلك الموضع يفور كالتنور من شدة حرارة ذلك الملقى.

ومن كلامه لتلميذه فضل السيد الكباشى رحمه الله: اليوم شيخك شيخ لجميع المشايخ.

ومن كلامه للطيب ولد عبد المحمود كما أخبر بذلك الرجل الصالح الفقيه الأمين ولد أم حقين، رحمه الله قال: وجدت عند دخولى في ديوان أهل الله الشيخ إدريس ولد الأرباب، والشيخ موسى ولد يعقوب، يُدخلان الأولياء فيه، فأرادا أن يكون دخولى على يديهما، فاحتجبت عند ذلك عنهما. فما رأيانى إلا وأنا عند رسول الله ﷺ، ثم إنه ﷺ، قال لهما: (تأدبا فإن الطيب من سلاطينكم).

ومن كلامه: لما سئل عن ولده كمال الدين هل يجئ أم لا؟ فأجاب: بأن أمره الآن صار في يده، إن شاء أتى وإلا فلا. ثم ذكر أحوالا تركناها لضيق القلوب عنها.

ومن كلامه في حق تلميذيه الشيخ أحمد البصير الحلاوى، والشيخ عبد الرحمن القادنى: أما البصير فإنه يأتينى بالخبر من النبي ﷺ. وأما عبد الرحمن فإنه يأتينى به من عند الحق تبارك وتعالى.

ومن كلامه عندما سأله تلميذه الفقيه أحمد ود الكامل الحلاوى، عن المسألة المشهورة التي عجز عن حلها علماء العصر وصلحاؤه، وتكلم عليها من أول الظهر إلى العشاء الأخيرة،

فبكى تلميذه المذكور عند ذلك على تقصيره عن صحبة الشيخ قبل ذلك، فقال له: يا ولدى، جميع ما سمعته وما لم تسمعه من مواهب الله التي أعطانا إياها، فهي من دعوة دعاها لي رسول الله ﷺ، وهى قوله: (اللهم افتح عليه فتح العارفين بالله)، وبعد ذلك تفل لي في فمى.

ومن كلامه: ما حجب عنيّ رسول الله ﷺ طرفة، وما قلت قولاً وفعلت فعلاً إلا بإذنه ﷺ.

ومن كلامه: ما فارقنى رسول الله ﷺ في جميع أوقاتي وحركاتي وسكناتي، إلا عند النساء وبيت الخلاء.

ومن كلامه: لم يخاطبنى رسول الله ﷺ بين أهل الحضرة إلا بالطيب ابنى.

ومن كلامه: قال لي رسول الله ﷺ: (يا طيب، أنت وإبراهيم ولدى كهاتين)، يريد بهما الوسطى والسبابة.

ومن كلامه: لا يوجد اليوم قريب من رسول الله ﷺ إلا وأنا أقرب منه. ولما أنشده تلميذه العارف بالله الشيخ القرشى ولد الزين هذا البيت من القصيدة التي امتدحه بها وهو:

ويأتيـــه الـــنبي بكـــل أمـــر	ويـــأمره بـــأحوال تليـــق

قال له: صدقت. هكذا أخبرنا تلميذه المذكور. وكان ﷺ في بعض الأحيان يقول: لا أعلم لي أبًا غير رسول الله ﷺ. قلت: وهو يشير بذلك إلى الأبوة الحقيقية التي هي نور محمد ﷺ. وفى الحديث: «أنا من الله، والمؤمنون من نورى» ومن كلامه ﷺ تحدثًا بما أنعم الله به عليه.

صفا الزمان بنا من بعد أكدار	وفـــاز منـــي بإرشـــاد وأســـرار
فالكون بى لاهج والدهر منجذب	وبحر فيضى على أرض النهى جار
قوى الزمان جميعًا وهى قاصرة	عن فهم حالى، وعن وصفى، ومقدارى
خصصت بالرتبة العليا وفقت على	أهل الولاية من بدو وحضار
قوموا، تعالوا، تملوا بالوصال بنا	يـــا أهـــل ودى وقـــصادى وزوارى
نهجى قويم، وكأسى وهى دائرة	علـــى زمـــانى بـــسر ســـره ســـارى

هذا جمالى تبدى للعقول وقد   لا حت من الجانب القدسى أقمارى

وفاح نشرى فهام القوم كلهم   به ولذّت لهم في السمع أخبارى

طوبى لمن مرة في العمر أدركنى   وذاق كأس كمالاتى وأنوارى

لله در امرىء في حبنا سهرت   عيناه أو شم أنفاسى وأعطارى

لله درّ أويقات حوت شرفًا   بنا وفاض بها في الكون تيارى

أنا الإمام الذي أضحى الزمان به   أحلى من الطيب، أو من نعمة القارى

أنا الإمام الذي تحيا النفوس به   في كل دهر وآنات وأعصار

أنا الإمام، أنا القطب الشهير أنا   حكمى على كل سلطان وجبار الساقى

أنا الهمام، أنا الغوث المغيث أنا   لأهل الصفا كاسات خمار

أنا الهمام، ومفتاح الكنوز أنا   كنز المعانى، ولى الواحد البارى

أنا الهمام الذي دانت لهمته   كل الملوك بلا مَيْن وإنكار

أنا الولى الذي عزت مداركه   عن فهم كل امرىء بين الورى دارى

أنا الولى الذي تاه الوجود به   شيخ الطريقة في نجد وأغوار

أنا الولى الذي أغنت شوارقه   في ظلمة الليل عن ضوء وعن نار

أنا ابن أهل التقى فرع الأطايب مَن   طابت بهم في جميع الأرض آثارى

أنا طراز زمانى والمليك له   ومُحية بفيوضاتى وأذكارى

أنا المليك، أنا شيخ الطريقة من   في القرب فاقت على الأشياخ أسفارى

أنا الأمين الذي ما خان قط وما   مالت خواطره يومًا لدينار

أنا جليس النبي المعتلى شرفًا   بل طيب طبت في سرى وإجهارى

سلكت ما شئت من نهج الوصال وقد   نلت الذي بعده قد رد أفكارى

من ذا الذي في حضيرات الجمال له   يد كمثلى، وسعد نيل أو طارى

نلت المقاصد من يوم الخطاب وقد ... شهّرت ما بين عباد وأبرار

ما أمّ سوُحى شقى في الورى أبدًا ... ومن رآنى جُلى من كل أكدارى

لي البشارة من قبل الظهور ولى الـ ... ـظهور بالخير في الأخرى وفى الدار

أيامريدىَ لا تخش الزمان فلى ... إغاثة وحمى من كل أشرار

ثم الصلاة على المختار من مضر ... وآله ثم أصحاب وأنصار

ما أزعج الشوق مشتاقًا لساحته ... فأجرى للدمع في أصل وابكار

ومما قاله بعض المحبين على لسان الأستاذ هذه الأبيات:

وصلت إلى حقِّ الحقيقةِ بالحقِّ ... بُعيدَ حُقاقى في حَقِيقَةِ حقِّهِ

بعلمٍ ونوقٍ واكتشافٍ محقِّقٍ ... تعلمتُ علم الجمعِ من قبل فَرْقِه

محقتُ نظام الكائنات بنظرتى ... وأفنيتهُ من بعد إحكام سحقِهِ

ومن بعد ذا أبقيتُهُ لشريعتى ... فلولا لسان الشارعين لم ابقهِ

وإن كنت لا تدرى الوصول فحيِّهل ... إلينا لتدرى كيف حالةُ صدقِهِ

ستعلم عند الامتحان مكانتى ... وترفعنى من تحت قوْلى لفوقِهِ

وإن كنت لا تدرى الوصول فسلِّمَنْ ... وَكِل أمرنا لله مُرشِدِ خلقه

لقد عرَف الأقطاب أنى عارفٌ ... بحيِّى وسارٍ في سَنا نورِ برقِهِ

ستنبيك مصرٌ إن سألتَ خِيارَها ... بحالى وأنى فيه يعقوبُ شوقِهِ

وفى بلد الله الحرام أعِزَّةٌ ... درونى أولو التحقيق في حق حقِّهِ

عممتُ بإمساك العصا عند بيته ... الحرام فقال المجتَبى القطبُ ألقِهِ

وفي طيبةِ الأنوار فاح كرامةً ... عبيرٌ من المولى ففزت بنشقهِ

إلى الله فوضت الأمور مسلمًّا ... وطالب توفيق لإرشاد أفْقِهِ

فإنَّا من الظنِّ الجميل بربِّنا ... على منهج المختار طه وَوَفقهِ

وإن نظر الخفَّاشُ نقصًا فإنما ... رأى نقصه المركوزَ في نور حدْقِهِ

وإلا فإن الألمعيَّ إذا رنا ... وحقَّق أن الحقَّ حقٌّ لحذقِهِ

رأى ناصرًا دين الإله وسنة الرَّ ... سول على وَفق الكتاب وطِبقهِ

عليه صلاة الله ما ذرَّ شارقٌ ... وما حنَّ مشتاقٌ لبارق شرْقِهِ

الفصل الثاني

(في بيان مؤلفاته ﷺ في الطريق وغيره، وعدد أحزابه وصلواته على النبي ﷺ، وما وجد من الفضل في بعضها)

إعلم، وفقنا الله وإياك لاتباع آثاره، وسقانا وإياك من كؤوس خماره. (أن مؤلفاته) ﷺ كثيرة؛ منها: كتاب حكمه المسمّى (بالنفس الرحماني، في الطور الإنساني) وشرحه لها، الذي سماه (بالجوهر الفريد، في علم الوحدة والتوحيد)، ورسالة لطيفة ألفها في خلوة كل ذكر من الأذكار الخمسة، التي هي أساس طريقة السمان. وهي الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، ولا إله إلا الله، ويا ألله، ويا هو، وقد ذكر فيها العجب العجاب، من الكلام الذي يدهش المسامع ويسحر الألباب، ويرحم الله القائل في ذلك:

طريقة قطب الأولياء محمد إمام الهدى السمان دانية الغرس

عليك بها ما دمت في هذه الدنا ولازم بصدق ذكر أسمائها الخمس

وله مؤلف بديع تكلم فيه عن البسملة، وذكر فيه بعض خواصها ومعانيها وأسرارها ودعواتها وخلواتها وآدابها، وهي نحو من خمس وعشرين كراسًا. وله كتاب (خواص الأسماء) من صلاته المسماة (بسر الأسرار) وهو نحو كراسين ونصف. وله منظومة على المنازل القمرية الثمانية والعشرين مطلعها: (يا طالبًا لسعادة في المنزل)، قد بين فيها النحس والسعد من المنازل المذكورة. وله رسالة في علم الكيمياء. وله مؤلف يتعلق بالبروج الاثنى عشر المجموعة في قول بعضهم:

حَملَ الثورُ جوزةَ السرطان ورعى الليثُ سنبلَ الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

وله غير ذلك.

(وأما أحزابه) ﷺ: فأربعة: (حزب الأمان) المشهور بين الناس تلاوة ونفعًا. (وحزب الجلال والجمال والكمال)، الثلاثة ألفها ببلاد الريف، ما عدا حزب الأمان المذكور. وأما صلواته على النبي ﷺ فهي اثنتا عشرة صيغة: سر الأسرار، وسر سر الأسرار، واللاهوتية،

والعظمة، والعرشية، والنووية، والنوارانية، والأوصاف، ومفتاح القلوب، والكمالية، والروحية، والجمالية.

وأما ما جاء من الفضل في بعض صلواته على النبي ﷺ؛ فمن ذلك ما ذكره في صلاته (سر الأسرار)، وقد تقدم. ومن خصائص سر الأسرار؛ سرعة الفتح على من اشتغل بتلاوتها، وقد وصل بها إلى الله تعالى جماعة وحصل لهم الفتح؛ منهم سيدى الشيخ أبو صالح، نجل الأستاذ المترجم، وأخوه سيدى الشيخ عبد الرحمن، والشيخ محمد ولد مكى، والشيخ يعقوب الصليحابى، والفقيه أحمد المصطفى ابن الفقية الأمين، والفقيه فضل السيد الكباشى، والشيخ محمد ولد بدر، وغير ذلك. وكان الشيخ محمد ولد بدر رحمه الله تعالى قد اجتهد فيها اجتهادًا بليغًا حتى جنى ثمرتها، مع أمره لتلامذته بقراءتها والعكوف عليها.

وأما صلاته اللاهوتية، فقد رأيت بخطه الشريف ما نصه:

فصل في صلاتنا اللاهوتية، التي ألهمتها من قبل خير البرية، محمد ﷺ إعلم أيها الناظر إليها والتالى لها، إذا أردت درجات الكمال، والاتصال بحضرة الرب الفعال، اقرأها نهارًا على عدد لفظ الوصال، وليلاً كذلك، فإنك تنال ما ذكرناه لك بلا إشكال. ومن قرأها خلف كل صلاة مرة قبلت جميع أعماله التي بين الصلوات، ومحيت خطاياه التي تكون بينهما. قال: وقال لي بعض الأخيار: من حفظها حرم جسده على النار ولها من الأعداد ست وعشرون، ولها أيضًا ست مرات، ولها أيضًا خمسون مرة،اهـ كلامه بحروفه.

قلت: قد أخبرنى بعض أصحاب الشيخ ﷺ أن من داوم على قراءتها دبر كلّ صلاة فرضية مرة فإن النبي ﷺ يتولى قبض روحه عند موته.

وممن رأيته مواظبًا عليها دبر كل صلاة شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ القرشى بن الزين ﷺ. وبلغنا أن من قرأها على وضوء وطهارة في ليلة جمعة على عدد اسم (محمد) وهو اثنتان وتسعون مرة، فإنه يرى النبي ﷺ، وكل هذا مع صدق النية، وحسن العزم، وطهارة الباطن.

وأما صلاة العظمة، فقد حدثنى من أثق به عن الشيخ ﷺ، قال: دخلت مرة الحضرة فرأيت رجلا أعرفه، وهو أقرب الأولياء إلى رسول الله ﷺ في تلك الحضرة، فحصلت لي منه غبطة، فوردت على قلبى هذه الصلاة وأنا بين يدى النبي ﷺ، فلما جئت عند قول فيها (حتى أتصل به لحضرتك) حصلت لي غيبة فلم أشعر إلا وأنا أقرب إلى النبي ﷺ من ذلك

الرجل ومن كلّ قريب. وقد رأيت بعض ترغيبه في هذه الصلاة أنه قال: من كان به همٌّ وقرأها على عدد «هم»، وهو خمس وأربعون مرة، فرج الله عنه همه.

وأما النورية، فقد ذكر الشيخ أنه دخل خلوة ثلاثة أيام، فرأى جبريل ﷺ وفي يده هذه الصيغة مكتوبة بقلم القدرة بمداد من النور الأبيض، وذكر أن من دخل بها الخلوة وقرأها اثنى عشر ألفًا ما بين اليوم والليلة، فإنه يجد من الفيض والفتح ما فوق أمله.

وأما النورانية، فقد ذكر الشيخ ﷺ أنها محتوية على الاسم الأعظم وكفى بذلك فضلا.

وأما مفتاح القلوب، فقد ذكر الشيخ ﷺ أنها وردت عليه وهو ماسك بيده في شباك النبي ﷺ، وذلك مدة إقامته بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، قال: فبعد قراءتها أخذتني سنة من النوم، فمد إلى رسول الله ﷺ طستًا مملوءة سرًا فشربتها. وما بقى من الصلوات فلكل واحدة فضل تختص به، كيف لا، والكل جار على لسان قطب الزمان، ومحل نظر الله من الكيان.

وأما الأحزاب، فقد رأيت بخطه ﷺ مرغبًا في (حزب الأمان) ونصه:-

(تنبيه في حزبنا المسمى بحزب الأمان؛ إعلم أيها الأخ أنه حزب عظيم الفائدة كبير العائدة، أمان لقارئه من كل إنسي وجني وشيطان، بل من كل مؤذ من الحيوان: وقراءته لذلك مرة صباحًا ومثلها مساء، وعند الخوف يقرأ سبعًا).

وأما ما بلغنا عن بعض أصحابه ﷺ فهو: أن من قرأ هذا الحزب مرة واحدة فإن الله ﷻ يحفظه من جميع ما يكره، ومن قرأه مرتين يحفظ الله نفسه وولده وأهله وجيرانه، ومن قرأه ثلاثًا فإنه يحفظ به الكون جميعه، وفيه غير ذلك من الفضل. وأما بقية الأحزاب كما قيل في حقها:

قراءتها تحيي الفؤاد وينجلي	بها الهم واللأواء والسوء والغم
فمن رام في الأيام أمنًا ورفعة	عليه بها إن كان ممن له فهم

الفصل الثالث

(في ذكر ما كان مداومًا عليه من سور القرآن في صلواته الفرضية وبيان فضل تلك السور)

كان ﷺ يقرأ في صلاة الصبح بعد الفاتحة (سورة والضحى وألم نشرح). وفى الظهر (باقرأ وإنا أنزلناه). وفى العصر (بقل يا أيها الكافرون والإخلاص)، وقيل (بسورة الزلزلة والعاديات). وفى المغرب (بسورة الكافرون والإخلاص). وفى العشاء (بسورة ألهاكم والعصر). وممن واظب على ذلك اقتداء به تلميذه العارف بالله تعالى الشيخ القرشى بن الزين ﷺ، ولا أدرى ملازمة الشيخ ﷺ لهذه السور دون غيرها لكثرة ثواب، أو لخصوصية توجد فيها دون غيرها في الأوقات الفرضية من طريق الكشف، أو لحديث خاص بها،

وأما بيان فضلها، فقد ذكر العارف بالله السيد محمد حقى النازلى في كتابه (خزينة الأسرار): أنه روى عن أبيّ بن كعب ﷺ عن رسول الله ﷺ أن «من قرأ سورة والضحى سبع مرات عند طلوع الشمس وعند غروبها، لم يضع له ضائع، ولا يهرب له هارب، ولا يسرق له سارق من بيته، ولا يقع في بيته فساد، ولا يدخله وباء ولا طاعون، وكل سارق وطارق يقرب إلى بيته وسار بليل يجد على بيته سورًا من حديد، ولا يجد لمنزله سبيلا»، كذا في خواص القرآن.

وقال ﷺ: «من قرأ سورة (والضحى) كان له مثل أجر من وافى منى وعرفات».

وعن زين الدين البكرى رحمه الله تعالى: «من داوم على قراءة سورة والضحى أربعين يومًا، كل يوم أربعين مرة، يقول كل يوم عند فراغه من السورة: اللهم يا غنى يا مغنى أغننى غناء لا أخاف بعده فقرًا، واهدنى فإنى ضال، وعلمنى فإنى جاهل، أرسل الله إليه من يعلمه الحكمة في نومه أو يقظته بحسب اجتهاده». كذا في خواص القرآن وفي شمس المعارف.

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ (سورة ألم نشرح) فكأنما جاءنى وأنا مغتم ففرج عنى»، كذا في (روح البيان).

ومن داوم على قراءتها دبر الصلوات الخمسة يسر الله أمره، وفرج همّه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وقال بعضهم تلاوتها تيسر الرزق، وتشرح الصدر، وتذهب العسر في الأمور وتصلح لمن غلب عليه الكسل في الطاعات والتعطيل والمعاش إذا داوم قراءتها.

ومن قرأها دبر كل صلاة تسع مرات فك الله عسره ويسر رزقه.

ومن قرأها دبر كل صلاة أربعين مرة سبعة أيام متواليات، أغناه الله تعالى بلا شك ولا شبهة.

ومن (خواصها) أن من تعسر عليه أمر من أمور الدنيا والآخرة، فليتوضأ وليصل ركعتين ويقرأ بعد الفاتحة ما تيسر، ثم يجلس مستقبل القبلة متوجهًا لله تعالى، ويقرؤها عدد حروفها، ثم يسأل الله تعالى حاجته فإنها تقضى بإذن الله تعالى.

وأما سورة (القدر)، فقد قال ﷺ: «من قرأ سورة القدر أعطى ثواب من صام رمضان وأحيا ليلة القدر»، كذا في روح البيان. وقال ﷺ: «من قرأ سورة القدر مائة مرة أدخل الله تعالى اسمه الأعظم في قلبه». ويدعو ذلك العبد بما شاء تقضى حوائجه. ومن قرأها يوم الجمعة ألف مرة لم يمت حتى يرى سيدنا محمدًا ﷺ في منامه،

وروى عن على ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ إنا أنزلناه في ليلة القدر. آتاه الله بكل آية قرأها ثواب من قرأ الإنجيل».

وروى عن الحسين بن على رضى الله عنهما أنه قال: من قرأ «إنا أنزلناه في ليلة القدر» في فريضة من الفرائض نادى مناد: يا عبد الله قد غفر لك ما مضى من ذنوبك فاستأنف العمل، ومن أخذ ناصية من يحبه فقرأ عليهما «إنا أنزلناه في ليلة القدر» فإن الله تعالى يريه ما أحبه، ومن قرأها بعد وضوء قام بلا ذنب عليه، وكان كيوم ولدته أمه».

ومن خواص هذه السورة الجليلة: أنها مشهورة في جلب الغنى، فمن كانت له إلى الله حاجة فليقرأ «إنا أنزلناه في ليلة القدر» إحدى وأربعين مرة، ثم يدعو بهذا الدعاء إحدى وأربعين مرة وهو: (اللهم يا من يكتفى عن خلقه جميعًا، ولا يكتفى منه أحد من خلقه جميعًا، يا أحد من لا أحد له، انقطع الرجاء إلا منك، وخابت الآمال إلا فيك، يا غياث المستغيثين أغثنى). سبع مرات. فإنها تقضى بإذن الله تعالى، وذلك مجرب. ومن قرأها وسعى في حاجته رجع مسرور القلب وقضيت حاجته.

وأما (الكافرون وقل هو الله أحد) فقد أخرج أبو عبيدة من حديث ابن عباس رضى الله

عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن»، وعن النبي ﷺ قال: «من قرأ قل يا أيها الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن، وتباعدت عنه مردة الشياطين. وبرىء من الفزع الأكبر». كذا في التيسير.

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله، تقرءون قل يا أيها الكافرون عند منامكم».

وأخرج الترمذى وأبو داود والدارمى عن عرودة بن نوفل عن أبيه ﷺ أنه قال: «يا رسول الله علمنى شيئا أقوله إذا آويت إلى فراشى فقال: إقرأ «قل يا أيها الكافرون» فإنها براءة من الشرك». كذا في مشكاة المصابيح. وأخرج في الفردوس عن عبد الله ابن جراد ﷺ عن النبي ﷺ: «المنافق لا يضحى ولا يقرأ قل يا أيها الكافرون».

وروى أنه ﷺ قال: «عشرة تمنع عشرة؛ سورة الفاتحة تمنع غضب الرب، وسورة يس تمنع عطش القيامة، وسورة الدخان تمنع أهوال القيامة، وسورة الواقعة تمنع الفقر والفاقة، وسورة الملك تمنع القبر، وسورة الكوثر تمنع خصومات الخصماء، وسورة الكافرون تمنع الكفر عند الموت، وسورة الإخلاص تمنع النفاق، وسورة الفلق تمنع الحاسدين، وسورة الناس تمنع الوسواس»، كذا في مشكاة المصابيح: وفيها أن من قرأ «قل يا أيها الكافرون» برىء من الشرك وتباعدت عنه مردة الشياطين، وأمن من الفزع الأكبر، وهى تعدل ربع القرآن.

وأما (سورة الإخلاص) فقد وردت في فضلها أحاديث شتى، منها قوله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في كل ليلة ثلث القرآن؟! قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: اقرءوا قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن».

وعن أنس ﷺ قال: «قال رجل لرسول الله ﷺ إنى أحب هذه السورة «قل هو الله أحد» قال: «حبك إياها أدخلك الجنة»، كذا في المعالم. وعن أبيٍّ بن كعب عن النبي ﷺ: «من قرأ «قل هو الله أحد» مرة واحدة أعطاه الله من الأجر كمن آمن بالله وملائكته ورسله، وأعطاه من الأجر كمثل أجر ثواب مائة شهيد». كذا في التفسير الكبير.

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الإخلاص بإخلاص حرم الله جسده على النار».

وأخرج عقيل عن النبي ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن أجمع»، كذا في الجامع الصغير.

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل وأنس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قرأ «قل هو الله أحد» إحدى عشرة مرة، بنى الله له بيتًا في الجنة».

وأخرج الطبراني عن أبى هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ قل هو الله أحد إثنتى عشرة مرة،فكأنما قرأ القرآن أربع مرات، وكان أفضل أهل الأرض يومئذ إذا اتقى»، كذا في الإتقان.

وأخرج أبو نذر عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ قل هو الله أحد إحدى وخمسين مرة غفر الله له ذنوب خمسين سنة».

وأخرج الطبراني عن جابر بن عبد الله ﷺ، عن النبي ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد كل يوم خمسين مرة نودى يوم القيامة من قبره: قم يا مادح الله فادخل الجنة».

وأخرج البيهقى وابن عدى عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة غفر الله له خطيئة خمسين عامًا ما اجتنب خصالاً أربعًا: الدماء والأموال والفروج والأشربة»، كذا في الجامع الصغير.

وأخرج الخارجي في فوائده عن حذيفة ﷺ: من قرأ قل هو الله أحد ألف مرة فقد اشترى بها نفسه من الله. كذا في الجامع الصغير.

وأخرج البزار عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد مائة ألف مرة فقد اشترى بها نفسه من الله تعالى، ونادى مناد من قبل الله تعالى في سمواته وفي أرضه: ألا إن فلانًا عتيق الله فمن له قبله تبَاعة فليأخذها من الله ﷻ»، كذا في فتح المجيد. وأخرج ابن السنى عن عائشة رضى الله عنها النبي ﷺ: «من قرأ بعد صلاة الجمعة قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس سبع مرات أعاذه الله بها من السوء إلى الجمعة الأخرى».

وأخرج أبو سعيد القشيرى في الأربعين عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من قرأ إذا سلم الإمام يوم الجمعة قبل أن يثنى رجليه، فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الناس سبعًا سبعًا، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

(فائدة جليلة، وخواص عجيبة، وأسرار غريبة):

«إن من قرأ سورة الإخلاص ألفًا وواحدة، في مجلس واحد،ببسملة واحدة في أولها فقط

دون غيرها، وأن لا يفصل بكلام الدنيا في أثناء القراءة، فقد قرأ اسم الله الأعظم»، كذا ذكره نصره افندى.

وأخرج الترمذى من حديث أنس ﷺ: «من قرأ (إذا زلزلت) عدلت له نصف القرآن».

وأخرج أبو عبيدة من مرسل الحسن: «إذا زلزلت تعدل بنصف القرآن، والعاديات تعدل بنصف القرآن». كذا في الإتقان.

وأخرج الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن»، كذا في مشكاة المصابيح.

وأخرج الحاكم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعًا أنه ﷺ قال: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: من يستطيع ألف آية! قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر».

وأخرج الفردوس عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها عن النبي ﷺ «قارىء (ألهاكم) يدعى في الملكوت مؤدى الشكر»، كذا في الجامع الصغير ا هـ.

الفصل الرابع

في بيان أذكار كان يحث عليها
وفوائد وأدوية نافعة إن شاء الله تعالى

(فمن الأذكار) التي كان يحث عليها ﷺ، بل وأعظمها تلاوة القرآن صباحًا ومساءًا؛ فكان يأمر البعض من التلامذة بتلاوة السبع، والبعض بالجزء والجزءين، وغير ذلك. وكان كثيرًا ما يحث على تلاوة صلاته المسماة بسر الأسرار واللاهوتية وغيرهما من صلواته على النبي ﷺ، وحزبه المسمى «بحزب الأمان من سطوات الزمان». وذكر أن من قرأه سبع مرات فإنه لا يتصرف فيه إنس ولا جن، وقد جرب ذلك وصح، وكلمة لا إله إلا الله ما دام المريد في الحجاب، فإذا فتح عليه أمره بالاسم (الله)، وله عليه ﷺ هذه الدعوة وهي: «اللهم إني أسألك بك وبحق اسمك المخزون المكنون، الذي هو يبين الكاف والنون، وبحق اسمك المحبوب الذي تُبهر من اشتعال نوره العيون، وبحق اسمك الأعظم الذي قامت به الأكوان وفي معانيه انتظم. أن تجعلني مشاهدًا بك فيك في حياة الوجود، فانيًا بمشهد (أول آخر ظاهر باطن)»، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان شاهدًا وشهودًا، وصلى الله على النور الأول، والنبي الآخر الأزهر، اللهم صلّ عليه وسلم، وأيضًا لا إله إلا الله الملك الحق المبين مائة صباحًا ومثلها مساء، ولا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقًا وصدقًا، ألف ومائة وإحدى عشرة مرة، والبسملة على عددها الواقع عليها بالجمل الكبير، أو ألفًا أو اثنى عشر ألفًا، عند الشدة، وقد كتب ﷺ في فضلها وأسرارها كتابًا عجيبًا.

(ومن الأذكار) التي كان يحث عليها أيضًا الحسبلة أربعمائة وخمسين صباحًا، ومثلها مساء، وعلى عدد «لا تخف» وهو ألف ومائة وإحدى عشرة مرة، والاسم (اللطيف) على عدده الواقع عليه، وغير ذلك من أعداده، والأحراف النورانية وهي: (اللهم، كهيعص، طس، ق، الرحمن)، مائة وإحدى عشرة دبر كل صلاة فرضية، وبالليل يقرؤها ألفًا ومائة وتسعة وأربعين، وله ﷺ على هذه الأحرف النورانية دعوتان صغرى وكبرى؛ (فالصغرى) وهي هذه:

اللهم يا رحمن يا موجودًا بكل مكان، بحق أسمائك الظاهرة والباطنة، وبحق اسمك العظيم الأعظم، الكبير الأكبر، الفرد في أسمائك، الذي لا يماثله اسم من أسمائك، الجامع

المقدس السرياني، الذي من معانيه إخراج الأشياء من العدم إلى الوجود، الذي إذا دعيت به أجبت، وإذا سئلت به أعطيت، أن تكوّن لي فعل ما أريد، إنك فعال لما تريد، أجيبوا يا ملائكة التصريف؛ جبريل وميكائيل وإسّرافيل وعزرائيل. بحق من سمى نفسه «الله لطيف بعباده». وإنه لقسم لو تعلمون عظيم عليكم، وبحق النور المكرم الذي خلق منه نبينا محمد ﷺ». (وأما الدعوة الكبري فهي):

(اللهم إني أسألك بك، وبكاف كفايتك يا مكون الأكوان، وبهاء هدايتك يا هادى من استهدى إليك بلا أعوان، وبياء يقينك يا حى لا حى حيث كنت ولا مكان، وبعين علمك يا عليم يا من تعلم خائنة العَيْنان[1]، وبصاد صبرك يا صبور يا من لا يعجل بالعقوبة لأهل العصيان، وبطاء طوْلك يا ذا الطول الذي لا يخفى على أهل البصيرة والشان، وبسين سرعتك يا سريع لمن سأله بتهمهم الشفتان، ويقاف قدرتك يا قدير على كل شيء يعجز الثقلان، وألف أحديتك يا أحد يا من لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شيئًا من الأعوان، وبلام لطفك يا لطيف يا من تلطفت بخفى لطفك على عبيدك بجميع الإحسان، وبراء رحمتك يا رحمن يا من وسعت رحمته كل شيء مع طول الزمان، وبحار حلمك يا حليم يا من وصفت نفسك بالحلم حيث لا جن ولا إنسان، وبميم ملكك يا مالك الملك يا من بيدك ملكوت كل شيء من جماد وحيوان، وبنون نورك يا منور الأكوان، يا من ليس كمثله شيء مما يخطر في الأذهان، أسألك يا الله يا الله يا الله يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا حنان يا منان، بحرمة اسمك الأعظم، بسر كهيعص طس ق الرحمن، أن تقذف في قلبى نور هذا الاسم الأعظم، بحيث لا أرى شيئًا إلا أراك قبله بالعيان، وأن تسخر لي روحانيته القائمين به ليكونوا عونًا لي على صلاح دينى ودنياى في كل آن، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير. أجب يا خنيائيل، بحق اسم الله الأعظم عليك، أحب يا دعشطيش بحق خنيائيل عليك الوحا ٢ العجل ٢ الساعة ٢ ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية.

ومما كان يحث عليه ﷺ أيضًا من الأذكار: (الفاتحة) على عدد (فكاك) وهو مائة وواحد وعشرون مساء وصباحًا، وكذلك الاسم (الكافى) على عدده الواقع عليه وهو مائة وإحدى عشرة مساء وصباحًا، وله فيه ﷺ عدد عظيم لدفع الكروب وهو ثلاثة آلاف، وبعدها ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ آية ألف مرة.

١- الكلمات التي تحتها خط جارية في الطريقة الاعرابية على قول من يلزم المثنى حالة واحدة في جميع التراكيب.

(وأما الفوائد): فمنها حثه لمن ضاق به الخناق وخشى الإملاق بتلاوة هذه الأسماء دبر كل صلاة فرضية على عدد (رزق) وهو ثلاثمائة وسبع مرات، والدعوة خلفها مرة أو ثلاث مرات، ولك أن تقرأ ذلك ليلا أو صباحًا أو مساء. فالأسماء تقرأ على عدد ضربها في الأسبوع، وهى ألفان ومائة وتسعة وأربعون، والدعوة سبع مرات. والأسماء المذكورة هي هذه: (يا الله، يا رب، يا فتاح، يا رزاق، أسألك أن تفتح لي باب كل خير بكرمك، وتهب لي رزقي من فضلك، وتنشره عليّ من خزائن رحمتك، وتسوقه إليّ من غير مشقة قلب ولا بدن، يا الله يا هو يا رب يا فتاح يا رزاق يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ آيــة، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ آيــة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ آية، أجب يا نروائيل، وكن لي عونًا ومعينًا على صلاح دينى ودنياى، الوحا ٢، العجل ٢ الساعة ٣، وصلى الله على نبى الشفاعة).

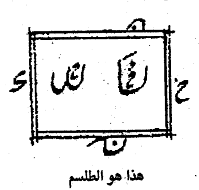
ومنها ما حث عليه أيضًا لأهل الفاقة، وهو تلاوة الفاتحة ألفًا ومائة وأحدى عشرة إلى تسعة أيام مع الرياضة وتجنب كل ذي روح، وبعد التسعة الأيام المذكورة يقرؤها صباحًا مائة وإحدى وعشرين مرة، ومساء كذلك على عدد (فكاك) فإنه يرى من التيسير ما لا ينكر.

ومنها ما وجد بخطه ﷺ ونصه: إن اسمه تعالى (الله) عدد حروفه ستة وستون، فمن وضعه في الوفق الثلاثى، والقمر مقارن الزهرة أو سعد الأخبية، فإنه يرى العجب في دينه ودنياه، وشرطه أن يقرأ الفاتحة أربع عشرة مرة قبل تركيبة، وسورة الواقعة ثلاث مرات، وأن يكون مستقبل القبلة على طهارة، في موضع طاهر. متطيبًا متبخرًا، فإن المراد يحصل إن شاء الله، وهذه صورته.

ومنها الطلسم الذي أخذه من شيخة القطب السمان قدس سره، فإنه نافع جدًا، سيما إن كتب في الحجب الحفظية، أو لأهل الأمراض الجنية، لكن تكتب قبله البسملة وصلاة اسمه (نافع) والفاتحة إلى نستعين، وهذه صورته:



هذا هو الوفق الثلاثى



هذا هو الطلسم

ومنها قوله لمن عسر عليه الحفظ أن يكتب هذه الآيات القرآنية عصر الجمعة وتقابل الكتابة بالنجوم، ثم تمحى عند إشراق الشمس يوم السبت ويشر بها، وهكذا إلى سبعة أيام، فإنه يكون ممن يضرب به المثل في الحفظ. والآيات المذكورة وهى هذه: ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ آيـة، ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ آيـة، ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ آية، ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ آية.

ومنها ما رأيته بخطه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ آية، قال: عددها ٢٥٢٥، ولها من أسمائه تعالى، (الله وهاب، سريع، مجيب مغيث). ولهذا وفق عظيم من إلهام كريم لجلب الرزق وقضاء الحوائج: يقرأ يس مرة واحدة، والأسماء المذكورة على عددها ٧٣.

ومنها قوله ﷺ: يكتب لمن به حمى هذه الأسماء شقش ٢ شقموش ٢ نمو شلخ ٢ راع المنخ ٢ أبا نوخ ٢ العجل ٢ الساعة ٢،

وأما ما له من الأدوية النافعة، فمن ذلك قوله: من ضعف بصره بنزول ماء فيه فليجمع هذه الأجزاء المذكورة، وهى التي جمعها في قوله (سقم فك) فالسين منها سنبل، والقاف قرنفل، والميم محلب، والفاء فلفل، والكاف كحل.

ومن ذلك حشه لصاحب البلغم على هذه الجزاء، وهى التي جمعها بقوله (معز لفكر ملح، عطرون، زنجبيل، لبان، فلفل، كمون، رشاد، فيأخذها ويسحقها سحقًا ناعمًا، ويواظب على سفوف ذلك في أول كل يوم، فإنه يشفى بإذن الله تعالى.

الفصل الخامس

في بعض مناجاته السحرية. وأشعار كان يترنم بها في بعض الأحيان على حسب ورود التجليات على قلبه والأحوال

إعلم أنه ﷺ وعنا به كان إذا جنه الظلام، وخلا كل حبيب بحبيبه، افتتح مناجاة الحق تعالى، وتملق بين يديه بإنعامه وإكرامه.

(ومن مناجاته): إلهى أخفيت ذاتك فليس ترى، وأظهرت صفاتك للورى، وقلت: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ آية. سبحانك أين كنت قبل ذا.

ومنها: إلهى أعنا على فعل ما تحب وترضى، وإن فعلت بنا خلاف ما نرضى فأرضنا بالقضا.

ومنها: إلهى، لا جاهل بك إلا من أجهلته، ولا عارف بك إلا من عرفته، القلوب بين يديك، حققنى بأوصافى بمنك لديك. ومنها: إلهى، علمنا علمًا من لدنك، ولا تشهدنا ذلك إلا بك منك.

ومنها: إلهى سافر بأسماعنا عن سماع نطق الحوادث إلى سماع خطابك الأقداس وحديثك الأنفس، وبنظرنا عن السوى إلى شهودك يا عالم السر والنجوى، وبأرواحنا عن الأكوان إلى منازل العرفان، وبأوصافنا الفانية إلى شهود نعوتك التي ثمار قطوفها دانية.

ومنها: إلهى، خذنا منا عنا لنبقى بك لديك، وصف أسرارنا عن الأغيار، وحققنا بسواطع الأنوار، وكف عنا أكفًا تكفنا عنك، وهب لنا يدًا مؤيدة منك. ومنها: يا واحدًا قد ملأت الأكوان بكبريائك، واستغرقت يا أحد أعدادنا ذاتك، ظهر وجودك متنوعًا في خليقاتك، وهم شئون أسمائك وصفاتك. وغير ذلك من مناجاته ﷺ.

وأما الأشعار التي كان يترنم بها، فتارة كان يترنم بهذه القصيدة، وهي لابن الفارض رحمه الله تعالى:

أنتم فروضى ونفلى	أنتم حديثى وشغلى
يا قبلتى في صلاتى	إذا وقفت أصلى

وتـــارة:

تجـرد عـن مقـام الزهـد قلبـي وأنـت الله وحـدك في شـهودى
أأزهـد في سـواك ولـيس شـيء أراه سـواك يـا عـين الوجـود

وتـارة:

لقـد تـصافينا المحبـة بيننـا فأنـا ومـن أهـوى كـشيء واحـد
لا زلـت أقـرب منـه حتـى صـارلى سمعـى وقلبـى حيـث كنـت وسـاعدى
فـإذا رأيـت فـلا أرى إلا بـه وإذا نطقـت فـلا يـزال مـساعدى
إن شـئتُ شـاء ومـا أراد أريـده فلـى الهنـاء، لقـد بلغـت مقاصـدى

وتـارة:

النـار تـضرم في قلبـي وفـي كبـدى شـوقًا إلى نـور ذات الواحـد الأحـد
أمـن علـيّ بنـور الـذات منفـردًا حتـى أغيـب عـن التوحيـد بالأحـد

وتـارة:

هـذا الوجـود وإن تعـدد ظـاهرًا -وَحيـاتكم- مـا فيـه إلا أنتمـو

وتـارة:

مـن ذاق طعـم شـراب القـوم يدريـه ومـن دراه غـدا بـالروح يـشريه
ولـو تعـوض لرواحًـا وجـاد بهـا في كـل طرفـة عـين لا يـساويه
وذو الـصبابة لـو يسقى علىٰ عـدد الـ أنفـاس والكـون كأسًـا، لـيس يرويـه
وقطـرة منـه تكفـى الخلـق لـو طَعمـوا فيـشطحون علـى الأكـوان بالتيـه

وتـارة:

أتـا كنـت مكتوبًـا لـسرّ علمّـه وعـن فهمـه إدراك غـيرى قـاطع

ومـن يـشهد الأشـياء والحـق قبلـها　　يغيِّـب مـصنوعًا بمـن هـو صـانع

وتــارة:

توضـأ بمـاء الغيـب إن كنـت ذا سـر　　وإلا تـيمم بالـصعيد وبالـصحر

وقـدم إمامًـا كنـت أنـت إمامـه　　وصـلى صـلاة الفجـر في أول العـصر

فهـذى صـلاة العـارفين بـربهم　　فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

وتــارة:

قــم نحــو حمــاه وابــتهج　　وإلى ذاك المحيــا فعــج

ودع الأكــوان وقــم غــسقًا　　واصـدق في الـشوق وفـي اللـهَج

والــزم بــاب الأســتاذ تفــز　　وتكــون بــذلك خــلّ نجــى

وتــارة:

سمائنــا مــن بــه نهــدِ بنًــا　　لحــان ســلمى وشُــهد ذلــك

محمــد القطــب شمــس فــضل　　بنــوره عطــر المــسالك

وتــارة:

في الكــون لا آدمُ لا إبلــيسُ　　لا ملــك ســليمان لا بلقــيس

الكــون إشــارة وأنــت المعنــى　　يــا مــن هــو للقلــوب مغنــاطيس

وتــارة:

ألا كــل شــيء مــا خــلا الله باطــل　　وكــل نعــيم لا محالــة زائــل

وتــارة:

يــا رب جــوهر علــم لــو أبــوح بــه　　لقيــل لــي أنــت ممــن يعبــد الوثنــا

ولا ستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحق فو جهل فيفتننا

وتارة:

الله أكبر كل شيء هالك ... وهو الوجود ولبس ذاك ولا ذا

وتارة:

ودهشت بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال عني مخبرا

وله غير ذلك ﷺ من الترنمات الحالية، والمقاصد العالية.

الفصل السادس

(في بشائره لمحبيه ومريديه وأهل قرابته وناديه)

حدثني من أثق به من الفضلاء قال: حدثني الحاج حسن ولد بلول، تلميذ العارف بالله السيد أحمد بن إدريس، القاطن (بقرى) قال: سمعت سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ يقول: طرحت على صحيفة من قبل الحق ﷻ مكتوب فيها بقلم القدرة «سلام قولا من رب رحيم، إلى عبدى أحمد الطيب، قد غفرنا لك ولوالديك وأهل قرابتك». قال: قلت ظنى في ربى أكثر من هذا، قال: فجاءتنى أخرى فيها ما في الأولى وزيادة «ولأهل قرابتك أجمعين». قلت: ظنى في ربى أكثر من هذا، قال: فجاءتنى ثالثة متضمنة لما في الصحيفتين وزيادة «كل من عرف اسمك».

حدثني غير واحد أن الشيخ ﷺ قال لبنى عمه، أولاد حامد، وهم بعض فروع الجموعية- لما ناصروه على بعض أعدائه: أنتم حمايتي في الدنيا، وأنا حمايتكم في الدنيا والآخرة. وشاهد صحة قوله هذا ﷺ ما جاءنا عن جماعة مستفيضة لا يتواطنون على الكذب: أن هؤلاء الجماعة المذكورين ما من أحد منهم مات إلا ومات على حسن الخاتمة، ونطق بالشهادتين ولو كان عاصيًا، وأى فخر في الدنيا والآخرة أعظم من هذا، فهنيئًا لهم ثم هنيئًا لهم بذلك.

وقد روى عنه ﷺ أنه قال: إن الله تعالى قد شفعنى في جميع أرحامى وعصبتى وأمّنهم بى من النار والفزع الأكبر، حتى السباب، بكسر السين المهملة، وهم طائفة من ذرية عبد الله القرين، صنو الشيخ عجيب الكبير.

سئل ﷺ تخصيصه لهم بذلك، قال: لنا فيهم رحم.

وقد روينا عن غير واحد من الثقاة أن من دفن بينه وبين الشيخ عبد المحمود أبى شيبة الولى العركى المقبور بالنوفلاب، فإنه لا يعذب. وفى رواية: من العقبة إلى كررى، وفى رواية: من العقبة إلى بلاد الجموعية، والمراد بالعقبة هنا (عقبة قرى).

حدثني الحاج ولد دفع الله البحيرابى قال: سمعت شيخنا الفقيه الأمين ولد أم حقين غير ما مرة، يأمر أحبابه من أهل الشرق أن لا يدفنوا موتاهم إلا في الموضع المذكور الذي أكرم

به سيدى الشيخ ﷺ، ويذكر لهم حكايات وغرائب رآها كشفًا ومنامًا فيمن دفن فيه، من حيث الإكرام الإلهى والغفران، ودوام الرحمة والإحسان. وقد بلغنا أن العلامة الفقيه أحمد ولد كنان رحمه الله، كثيرًا ما يتمنى الدفن في ذلك الموضع.

حدثنا شيخنا رحمه الله قال: كنت إذا قدمت إلى زيارة الشيخ ﷺ في حياته فإنى أشم رائحته من كررى. قلت: وفى هذا إشارة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ آية على ما تضمنه ذلك الموضع من الإسعاد.

وسمعت أيضًا من بعض العباد أنه قال: قال سيدى الشيخ: ما من أحد له فينا محبة أو قرابة ومات إلا وأننى أسبقه إلى قبره وألقنه حجته.

ومن ذلك قوله: من زارنى قضيت حاجته، ومن تمسك بى حسنت عاقبته، ومن ذلك قوله: إن مبدأ سلسلتنا من العرش إلى ما شاء الله، وهى عجيب جدًا، طولها مائة ألف عام، وعرضها سبعون ألف عام، ولها لمعان كالبرق، ولا يراها من أهل الله إلا أهل التمكين منهم، فمن تمسك بها على صدق واعتقاد فإنه لا يشقى ولا يعذب بنار القيامة، فإذا سيق أحد من المتمسكين بها مثلا إلى النار فإنها تتحرك لذلك فيرد عن النار.

قلت: وقد جال فكرى مرة في شأن الطرائق الصوفية المشهورة بين الناس، فرأيت النبى ﷺ منامًا، وهو مستقبل القبلة يقول:

يـــا رب بالمـــصطفى بلـــغ مقاصـــدنا   واغفـر لنـا مـا مـضى يـا واسـع الكـرم

البيت المشهور من راتب سيدى الشيخ ﷺ فعلمت ما تحته، ولبعض أصحابنا السمانية رحمه الله تعالى:

طريقـــة قطـــب الأوليـــاء محمـــد   إمـام الهـدى السمان دانيـة الغـرس

عليـك بهـا مـا دمـت في هـذه الـدنا   ولازم بـصدق ذكـر أسمائهـا الخمـس

تمـــــسكي بالطيـــــــب   عنـــــدى أجـــــلُّ القـــــرب

طريقتـــــه هـــــو الـــــذي   يرقـــــى لأعلـــــى الرتـــــب

الباب الثامن

وفيـــه عشــرة فصــول

الفصل الأول

(وفي بيان رحلته إلى سنار والسبب الذي دعاه لذلك)

إعلم، جمعنا الله وإياك على محبة هذا القطب العظيم، والملاذ الفخيم، أنا قد روينا عمن أدركناهم من أهل الفضل والمكانة، والمعارف والإبانة، أن الشيخ ﷺ لما اشتهرت خوارقه في الأقطار، وقصدته من كل جانب ركبانًا ومشاة الأخيار، ونالت منه ما نالت من الأحوال العظام، والبركات الجسام، اشتاقت إلى زيارته رجال الدولة الفونجية، لاسيما أركانها أولاد محمد أبي لكيلك، خصوصًا منهم الشيخ ناصر؛ فمع ما عندهم من الأشواق العظيمة إلى ملاقة سيدى الشيخ، قدرّ الله تعالى أن أخاهم كتو ولد محمد أصابه داء الفالج، فعالجوه عند الأطباء والفقراء المشهورين الذين ببلادهم، فأعيا الجميع دواؤه، فلما عجزوا خطر ببالهم أنهم لو التجأوا إلى الله تعالى بسيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، واستندوا إليه لشفى أخوهم من هذا الداء، لأن ما للشيخ من الكرامات والخوارق محقق لديهم، فأرسلوا من عندهم أناسًا إلى سيدى الشيخ ﷺ، ليحضر عندهم لمداواة أخيهم، وأرسلوا مع الرسل ثمانين أوقية من الذهب السنارى، وكتبوا كتابًا يذكرون فيه محبتهم الأكيدة، وقرابتهم إليه، بأنهم من الجعليين عوضية عباسية، ومالهم غير حضرته من يعتقدونه أو يقصدونه، فقدم الشيخ ﷺ مع الرسل المذكورين.

حدثنى الفقيه غلام الله الركابى وكان من تلامذة سيدى الشيخ يوسف بن محمد الطريفى ﷺ قال: كنا مع شيخنا المذكور نازلين ضيوفًا عند الفقيه على ولد قرشى، تلميذ سيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره، فجاءه الرسول منه يخبره بقدومه عليه. فلما سمع بذلك شيخنا الشيخ يوسف قال لنا: إذا قرب الشيخ أحمد الطيب من الحلة خبرونى، فلما قرب منها أخبرناه كما أمر، فخرج لملاقاته ﷺ، فنزل سيدى الشيخ أحمد الطيب من فرسه وعانقه بمحبة وإجلال، وجلسا ساعة يتحدثان وحدهما، ثم إن شيخنا توجه إلى حَلة مصطفى ونزل عند تلميذه على ولد بلل الشيب، وتوجه الشيخ ﷺ إلى منزل الفقيه على ولد قرشى.

ثم سافر منه إلى سنار. ونزل (بالسالى) عند الفقيه عبد الله ولد الرواج، فاستبشر بقدومه استبشارًا عظيما، وتأدب معه أدبًا فخيمًا، وأمر من معه من التلامذة أن يأخذوا عليه الطريق، ونواه بمكانته وعظيم منزلته، ثم توجه إلى سنار، وسمع به أولاد محمد أبي لكيلك، فأتوه في موكب عظيم مشاة وركبانًا، وكبارًا وشبانًا، ولم يبق بالبلد أحد، حتى النساء خرجن للتبرك بطلعته المنيرة، والتحلى من أنواره التي هي أضوأ من شمس الظهيرة فلما أوصلوه المحل المعد له أمرهم بإحضار أخيهم كِتَوْ إليه. فأحضروه بين يديه، فنظر إليه نظرة واحدة فزال ما به في الحال، واهتزت المدينة فرحًا وامتلأت سرورًا وهناء وحبورًا، فكثر اعتقادهم فيه، وتأدبوا بين يديه وصاروا من خدمة نعليه، فطار بذلك صيته في النواحى والآفاق، وعمرت بحديث كراماته وخوارقه الأسواق، فأتته الهدايا من رجال الدولة ومن غيرهم بكثرة، وسنذكر البعض في الفصل الذي بعد هذا.

ثم إن كِتَوْ لما وجد الصحة والعافية ببركة هذا القطب الأجل، اعتقده اعتقادًا زائدًا، ولهج بمدحه ومحبته قائمًا وقاعدًا، وكذلك إخوانهم ومحبوهم وأتباعهم، وذلك لما رأوه من كراماته الظاهرة، وخوارقه الباهرة.

وفى كتر تلك الكرامة قد بدت ... كشمس الضحى والبدر عند تمامه
ولا عجب إذ زال ذاك بنظرة ... من الطيب القطب العلى مقامه
فكيف وذا ممن يسارع ربه ... له في مراضيه ونيل مرامه

وقد أقام الشيخ ﷺ بمنزل الشيخ ناصر أيامًا عديدة متجلا معظما مفخمًا، ولا زال الشيخ ناصر يدل الناس على اتباعه، ويأمر الأخيار بأخذ الطريقة عليه دون غيره، ويقول: هذا هو الولى الذي تضرب إليه أكباد الإبل.

وتوجه إليه الصادقون من أهل الفضل. وقد صار بيت أولاد محمد كله لا يحلف إلا ببركة الشيخ ﷺ، وقد استمرت محبتهم فيه إلى يومنا هذا. وكان الشيخ رجب ابن الشيخ إدريس له المحبة الكاملة التامة في سيدى الشيخ ﷺ، وكان يزوره في كل جمعية دعاه لها الحكام إلى الخرطوم، وذلك كله بسبب خرق العادة التي تقدم لك ذكرها. وفى مدة إقامته ﷺ بسنار زاره الشيخ أحمد المكاشفى تلميذ الشيخ عبد الباقى النيل رحمه الله تعالى، وكان بينهما ما ذكرناه في فصل (طلبه للشيخ المرشد) فراجعه هناك إن شئت.

وقد أخذ عليه الطريقة في تلك المدة الشيخ يعقوب بن على الدويحى، والمصرى ولد قنديل دفين (ولد نفودى)، وقد طلبا منه إحياء ميت فأحياه لهما، كما تقدم في فصل الكرامات، والسبب الذي دعاهما إلى أخذ الطريقة على سيدى الشيخ ﷺ ما حكاه الشيخ يعقوب المذكور، قال: كنت قبل أخذى للطريقة من الشيخ قدس سره، مالت نفسى إلى أخذها على بعض أشياخ الوقت، فاستخرت الله في بعض الليالى لذلك، فرأيت النبي ﷺ ومعه سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، وهو ﷺ يشير بيده الشريفة إلى سيدى الشيخ قدس سره، وهو يتلو هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ آية، فذهبت إليه أنا وأخى المصرى ولد قنديل، وأخذنا علية الطريق والحمد لله على ذلك.

وممن أخذ عنه ثمة العالم العلامة، الدراكة الفهامة، فخر الأماجد الشيخ أحمد ابن عيسى الأنصارى، مع أخذه على سيدى الشيخ عبد الرحمن البادلى العمرى، تلميذ سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره، وكان قد أخذ الطريقة عليه في صحن المسجد الحرام تجاه الكعبة المشرفة، كما قرأت ذلك في إجازته المؤرخة عام اثنين وتسعين من بعد المائة والألف، وذلك في عام حجه ﷺ.

وله إجازة أخرى من سيدى الأستاذ عبد الكريم نجل القطب سيدى الشيخ محمد السمان وخليفته، كما حدثنى بذلك بعض خواص أولاده. وكما أنه قد أخذ عليه أمر تلامذته بالأخذ عليه، وذلك كالفقيه محمد الأزرق بن الفقيه أحمد بن الفقيه حمد ولد المجذوب، وكذلك الشيخ محمد ولد على الركابى، والفقيه النخلى، والفقيه بدوى ولد أبى صفية وغيرهم.

ثم إنه ﷺ لما أخذ بخاطر أولاد محمد أبى لكيلك، أحب العود إلى بلاده فشق عليهم ذلك، وقالوا: إنا لا نستطيع أن تذهب منا؛ لأنا محتاجون إليك وتلامذتك وأبناء عمك، ولنا هنا أعداء، فرجاؤنا أن تكون لنا حماية في الدنيا والآخرة، فألحوا عليه في المقام معهم، وساعدهم على ذلك غيرهم من وزراء الدولة الفنجية، وخيروه بين أن يقيم معهم بسنار أو بطلحة عواد ولد بركوت المسلمى، فاختار الإقامة بالطلحة المذكورة.

الفصل الثاني

(في إقامته بالمحل المذكور وما جرى له في مدتها)

إعلم أن أولاد محمد أبى لكيلك لما علموا موافقة الشيخ ﷺ لهم في الإقامة بالمحل المذكور، جمعوا قضاة الدولة وأركانها وعلماءها، وأهدوا إليه أطيانًا بحرية وبرية بمحضر ذلك الجمع، منها الطلحة المذكورة وما والاها، والترس المشهور اليوم بالكيعان، وغير ذلك. وكتبوا له وثيقة بمضمون ذلك عليها أختامهم وأختام كبراء رجال الدولة، فأخذ منهم تلك الكتابة جبرًا لخواطرهم، ثم انفرد بها ومزقها وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آية.

هو العارف المعروف بالزهد والتقى	وما له في كل الرجال مثيل
رمى لجميع الخلق عن خلف ظهره	فما له من غير الإله وكيل

وقد اجتهد أولاده من بعده في البحث عن تلك الكتابة فلم يعثروا بها، وكأنه لم يبلغهم تمزيقها، وتفرقت تلك الأطيان بالناس ولم يكن لهم شيء.

وقد أقام ﷺ بالطلحة المذكورة سبعًا من السنين، وأتته الناس من كل جانب ومكان، كأنهم قد دعوا من الرمس إلى دار القضاء والامتحان، وملأ ﷺ في مدة إقامته هذه كل القلوب مسرة، والنفوش هداية، وتغنت به طيور الإرشاد على منابر رياض السعد والإمداد، فصارت الخلق لا تلهج إلا بذكراه، والعيون لا تنظر إلى سواه.

وفي أيام إقامته ثمة قد زار السادة العركيين نفعنا الله بهم، وكان ذلك في عهد خليفتهم البحر الزاخر بالأسرار، والبدر الظاهر بالأنوار، سيدى الشيخ يوسف بن الشيخ محمد بن عبد الله الطريفى رضى الله عن الجميع ونفعنا بهم، وقدم لزيارتهم في نحو خمسة وعشرين عَلمًا، فتلقاها الشيخ يوسف في محفل عظيم، وخلفه شاعره ولد إبى مروة، وهو يغريه في شعره على مصادمة الشيخ بالحال، ويحرضه على ذلك تحريضًا. فلما رأى سيدى الشيخ يوسف طلعة الشيخ ﷺ، خلع القناع من رأسه، والنعلين من من رجليه، ولزم الأدب معه إلى أن تصافحا، فقيل له في ذلك، قال: كان في النفس منه شيء، فلما وقع بصرى عليه رأيت النبي ﷺ يمشى أمامه، وقال لي ﷺ: لئن تحرك خاطرك عليه بشيء لأمحونَّ أسمك

من ديوان الأولياء. قلت: وفي هذا أقوى دليل على كمال سيدى الشيخ يوسف ﷺ. وقد ظهر لي في هذا له أربع كرامات، الأولى رؤيته للنبي ﷺ يقظة. والثانية معرفته لمقام الشيخ وإفشاؤه له. والثالثة سماعه لخطابه ﷺ. والرابعة إثبات اسمه في ديوان الأولياء.

ثم أنه قد أنزل الشيخ عنده وبالغ في إكرامه والثناء عليه، وكان وقتئذ مع سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ صاحبه الحاج أحمد بن محمد البقارى مسكنًا، الشريف نسلبًا، وكان الشيخ يوسف ﷺ يكثر من النظر إليه مستحسنًا لحاله، غابطًا لكماله. ثم إن الشيخ استأذن من الشيخ يوسف أن يزور قبب الصالحين، من آبائه، فأذن له وكان معه إذذاك الفقيه أحمد ولد البتل الجموعي، تلميذ الشيخ يوسف ﷺ المذكور، يرشده بمعرفة أهل القبب. حكى الفقيه المذكور أن الشيخ ﷺ كلما أراد الدخول على قبة يرجع بورائه ويذهب عنها،

فقلت له: لم لم تدخل يا سيدى؟ فقال: إني كلما أردت أن أدخل قبة فإن صاحبها يخرج منها ويمشي إلى تلك القبة، يعنى بذلك قبة سيدى الشيخ دفع الله ﷺ، وهكذا إلى أن وصل إلى قبة الشيخ دفع الله فخلع نعليه ﷺ تأدبًا، قال لي الخليفة أحمد ولد الناجلى خليفة الشيخ دفع الله، قال: حدثني جدى- ولا أدرى جده هذا هل هو من جهة أبيه أو أمه- قال: كنت ممن حضر يومئذ فسألت سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ في خلعه لنعليه عند سيدى الشيخ دفع الله دون غيره، فقال: إنه مستمد من اسمه تعالى الحي القيوم فلذلك تأدبت معه.

قلت: والشاهد على ذلك استمرار مدد سيدى الشيخ دفع الله إلى يومنا هذا دون غيره.

وكانت زيارة سيدى الشيخ ﷺ للسادة العركيين لأمرين:

(أحدهما) صلة رحم الطريقة الصوفية المحمدية.

(والثاني) صلة القرابة الرحمية.

أما قرابة الطريقة فظاهرة، حيث أن مستمد الجميع القطب الجامع سيدى الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ، وأما القرابة الرحمية فإيضاحها أن الفقيه دفع الله ولد مقبل لما أتى من (فرك) وهو موضع معروف بالجهة الغربية ومعه بعض أهله، نزل بالجميعاب وتزوج بهدية بنت عاطف الجودابية الجميعابية الجموعية، يلتقى نسبها مع الشيخ ﷺ في منصور ولد جموع ولد غانم، فهذا هو رحم القرابة الذي ذكرناه؛ لأن هدية المذكورة قد ولدت للفقيه دفع الله ولد مقبل أولاده الخمسة العدول (بقبيطل دبن) من بلاد الجميعاب، ولهم حفير إلى يومنا هذا هناك يسمى بلوك، والخمسة العدول المذكورون هم: شيخ الطريقة وقطب الحقيقة،

سيدى الشيخ عبد الله العركى تلميذ الشيخ حبيب الله العجمى، وأخوة الشيخ محمد أبو إدريس والد الشيخ دفع الله. وعمر المجذوب، وحمد النيل، وأبو عائشة، فهؤلاء هم الخمسة العدول. وسبب تسميتهم بالعدول؛ لأنهم قد نشأوا نشأة مباركة، وهي على الطاعة والعبادة وطهارة النفس من الرذائل، وسلوك طريق الأولياء الأكابر.

أما الشيخ عبد الله المذكور، فقد طلب العلم بنورى عند الشيخ عبد الرحمن ولد جابر، وأقام معه سبع سنين، وفيها قد حصّل وتنبل وتفوق، وهو شيخ طريقهم وممد الجميع، وقد حج أربعًا وعشرين حجة ماشيًا، ولحق الشيخ تاج الدين البهارى بالبصرة ووجده قد مات قبله، وأنه وضع له أمانة من السر طواها في طاقية وأودعها خليفته الشيخ حبيب الله العجمى، فلما جاء الشيخ عبد الله إليه ألبسه تلك الطاقية، فانصبت في قلبه علوم الشيخ تاج الدين وأسراره، حتى وأنه قد فضل على غيره في الكمالات والإمدادات.

قلت: وقد رأيت في عام زيارتى للسادة العركيين. وهو سنة ألف ومائتين وتسعين عند الخليفة الشيخ محمد ولد يونس طاقية، وذكر لي أنها طاقية الشيخ تاج الدين البهارى التي أودعها عند خليفته لما توفى، وأمره أن يعطيها للشيخ عبد الله العركى، فتبركت بها، ولا أدرى الآن هل هي موجودة أم فقدت. وقد ولد الشيخ عبد الله المذكور الشيخ عبد الرحيم المجذوب، المشهور ببياع المطر، ونسله قليل.

وأما الشيخ محمد أبو إدريس والد الشيخ دفع ﷺ، فقد ورث أخاه الشيخ عبد الله العركى في جميع أحواله، وانتقلت منه تلك الوراثة السرية إلى ولده القطب الفائق، والبحر الزاخر الدافق، سيدى الشيخ دفع الله ﷺ.

وأما حمد النيل: فهو والد أبى عاقلة الكشيف، والد الشيخ عبد الله الطريفى، والد الشيخ محمد المدفون بالمسحورة من الحجاز، بقرب الشيخ عبد الرحيم البرعى، رحم الله الجميع، والشيخ محمد المذكور هو والد الشيخ يوسف ﷺ. وأما عمر المجذوب فلم يعقب، وكذلك أبو عائشة، وقيل قد ولد بنتًا ولم يثبت.

وكان الفقيه دفع الله ولد مقبل، فيه بداية أمره هو وأولاده كأهل البادية، رحّالة يقيمون ويظعنون، وقد صحبوا شيخ وقته وأوانه، أحد الأقطاب سيدى الشيخ إدريس بن محمد الأرباب، وبالغوا في محبته، وكذلك هو في إكرامهم، حتى وأن محمدًا ولد الفقيه المذكور قد سمى ولده إدريس عليه تبركًا باسمه، وهو الذي كنى به. ثم إنهم في بعض السنين

نزلو اتجاه الهلالية بما عندهم من المواشي يرتادون الكلا، فحصل بينهم وبين العبد لاب شيء، وقد مات أبوهم هناك ودفن بالهلالية، وقبره ظاهر يزار، ثم إنهم استأذنوا الشيخ إدريس في موضع يقيمون فيه، فأقامهم بأبي حراز، ولا زالوا على غاية المحبة والاتصال بسيدي الشيخ إدريس، حتى وأنه قد تبنى الشيخ دفع الله ولد أبي إدريس وأمده بأسراره العظيمة. وخلع عليه خلع فنه الجسيمة. وكان الشيخ دفع الله لا يترك زيارة الشيخ إدريس في عام من الأعوام، فيذهب إلى الزيارة بالشرق ويرجع بالغرب، وينزل عند تلامذته أولاد الترابي؛ الشيخ حمد وأخيه الشيخ ننه، ثم يتوجه منهم إلى محله، وهكذا دأبه.

ولما كانت وفاة سيدي الشيخ إدريس، صار الناس يذهبون إلى سيدي الشيخ دفع الله بأبي حراز يعزونه فيه، كما يذهبون إلى الخليفة محمد ولد الشيخ إدريس، وذلك لما بينهما من المحبة الخالية عن الأغراض، المنزهة عن أن تشاب بصدود أو إعراض، ولعمري إن هذه البنوة الروحية المعنوية، أقرب وآكد من البنوة الحسية، قال العارف:

نسب أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب من أبَوَيْ

رحم الله تلك الأرواح الطاهرة، ونفعنا بهم وبمحبتهم في الدنيا والآخرة إنه قريب مجيب فلنرجع إلى ما نحن بصدده: ثم إن سيدي الشيخ أحمد الطيب ﷺ، بعد أن قضى زيارة أهل القبب، رجع إلى منزله عند العارف سيدي الشيخ يوسف قدس سره، ثم إن كثيرًا من أولاد الشيخ دفع الله وغيرهم قد أخذوا عليه الطريق، واعتقدوه اعتقادًا زائدًا وانتفعوا به، وقد رأيت عام زيارتي للسادة العركيين رجلا من ذرية سيدي الشيخ دفع الله، يقال له أبو عاقلة، فدنا إلي وقال لي: أنا من تلامذة جدك، وإن فضل جدك على الأولياء كفضل الشمس على سائر الكواكب، وكان ذلك بين قومه، فقلت له: شأن المريد الصادق المستغرق في محبة شيخه أن يقول ذلك.

ثم إن الشيخ قد ودّع الشيخ يوسف، وأراد أن يسافر إلى الطلحة التي سماها بأم مرح، فعند ذلك جاء جماعة من كبار العركيين وشكروه على زيارته لهم، وقالوا: نحن نحب أن نزورك في محلك مكافأة لك على هذا الصنع الجميل.

حدثني الرجل الصالح الشيخ محمد ولد طه السماني القاطن أمام المسلمية بولد عبد العزيز المدفون بالمحل المذكور رحمه الله تعالى، قال: حدثني الفقيه محمد ولد رحمة، قال: لما زار سيدي الشيخ ﷺ أبا حراز، رأينا منه خوارق فداخلتنا غبطة من جهته، فاستأذناه

عند رجوعه باللحوق به، فأذن لنا وعين وقتًا معلومًا نلحقه فيه، فأخلفنا الوعد ولحقناه، وذلك منا اختبار له لنرى حاله، فلما رآنا دعا كل واحد منا باسمه واسم أبيه وجده مكاشفة، وكان قبل ذلك لا يعرف منا أحدًا فضلا عن أبيه وجده ثم أمر بإنزالنا- وكنا نحوًا من ثمانين رجلا من مشاهير الركيين- ثم أمر مناديًا ينادي بأعلى صوته في القرية التي هو بها: أن لا يوقد أحد في هذا اليوم نار الطعام، قال: فما مكثنا قليلا إلا وقد بعث لكل واحد منا إناء مملوء عسلا، وإناء تمرًا. فلما انتصف النهار جلس على باب خلوته التي هو بها وأخرج لكل واحد منهم إناء مملوءًا طعامًا وعليه خروف مطبوخ، فأكلنا وتعجبنا من تصريفه وخوارقه، وعلمنا أنه واحد وقته ونسيج وحده، ثم طلبنا منه إعطاء الطريق، فأعطانا إليه والحمد لله على ذلك.

قلت: ولما كثرت الخوارق والكرامات من سيدى الشيخ ﷺ، سمع الناس بذلك وأتوه من جميع الجهات للانتظام في سلك طريقته، والتبرك بآثاره والتملى برؤية طلعته. فعند ذلك شمّر أرباب الحسد والأذى أذيالهم في نقل الأذى بينه وبين سيدى الشيخ يوسف، وأذاعوا كلمات شهيرة معارضة لحالة الولاية، وذلك كله من المردة المتعصبين والمريدين الجاهلين، وأهل الغفلة عن الله والأغراض، الذين شغلهم الله بالتلذذ بالوقيعة في الأعراض.

وقد قيل: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله، فنقشوا تلك الخرافات والأباطيل في صدور السفلة من الناس، ولا عجب فقبلهما قد أشاعوا بين الشيخ حسن ولد حسونة والفقيه عبد الماجد ولد حمد الغبشاوى، ما تأباه قواعد الدين، وتكذبه حال الأولياء العارفين، وكذلك ما نقلوه بين الفقيه عبد الله الغبشاوى والشيخ عبد الله الحلنقى. وكذلك بين الشيخ صالح ولد بان النقا والفقيه محمد ولد عبد الماجد وما بين الشيخ فرح ولد تكتوك البطحانى، والشيخ عبد القادر ولد الشيخ هجو، وما بين أولاد الشيخ محمد ولد عبد الصادق، الشيخ على، والشيخ نور الدين أبى شملة، والشيخ أبى عاقلة الكشيف، في شأن تلميذهم سلوكه وغير ذلك.

وقد تتبعنا جميع ما هو متناول بين العامة في حق هؤلاء المشايخ، فوجدنا أكثره غير صحيح، بل لو صح العشر منه لكان كثيرًا في اعتقادى، وما حملهم على ذلك إلا التعصب مع الجهل بالشريعة المحمدية، وبأحوال أهل العرفان من السادة الصوفية، فلا ينبغى لعاقل أن يصغى لتلك الأقاويل المختلقة الباطلة، التي تؤدى إلى تنقيص الأولياء، والقدح في مراتب الأولياء الأبرياء، فإن ذلك مما يسود الوجه يوم القيامة والعياذ بالله تعالى.

وبالجملة أن هو مشاع ومنقول بين سيدى الشيخ يوسف وسيدى الشيخ أحمد الطيب، فإنه وإن كان البعض منه قد يكون صحيحًا فإن الله قد عصم أسماعهما وخواطرهما عن السماع في بعضهم. وما زالا رضى الله عنهما على حالة الوداد والمحبة والاتحاد، إلى أن توفيا رحمهما الله الرحمة الواسعة، ونفعنا بهما آمين.

سلام عليهم كلما لاح بارق وفاح نسيم السعد في كل أزمان

فيوسفنا مع طيّب الأصل نعم ما له قد أنيلا من وصال وعرفان

وليان حازا للفضائل كلها وفازا بحفظ من حسود وشيطان

هما حصننا في كل خطب يهمنا بهم نرتجى للوصل من خير رضوان

يحكى أن الشيخ ﷺ في مدة إقامته بأم مرح الصعيدية، إنقطع المطر عن قطعة أرض يزرع بها خدامه، فأمرهم بقلع نالة فيها، فجرى من تحتها نهر حتى ملأ الأرض، فزرعت وأخصبت خصْبًا عجيبًا.

ثم إن سيدى الشيخ لما طالت إقامته بأم مرح الصعيدية، اشتاق إلى أهله الذين بالسافل اشتياقًا شديدًا، فجاءوه وتعلقوا بأذياله، وأسلبوا العبرات بين يديه، وشكوا له خراب البلد والنهب الذي وقع فيه وغيره، وطلبوا منه أن يمشى معهم، لأنهم متحققون بقدومه معهم ووصوله للبلاد يواصلها السعد والبركات، وتنهل عليها سحائب الخيرات، فأجابهم إلى طلبهم فكادوا أن يطيروا فرحًا، فاستأذن النبي ﷺ في العود إلى وطنه القديم، ومحل آبائه الفخيم، فأذنه. ثم طلب أولادَ محمد أبى لكيلك وعرفهم أنه يرغب العودة إلى بلاده، وأن إقامته بالصعيد مدة سبع سنوات مع القدر الإلهى إنما كانت بسببكم ونظرًا لخاطركم، فانجبر خاطرهم بكلامه، إلا أنهم حزنوا حزنًا شديدًا لفراقه، فأعطوه هدايا كثيرة، وهو ﷺ لم يلتفت إلى ذلك. كما هي عادته، ولا زال الشيخ ناصر قرير العين به مسرورًا بنسبته له ومحبته، لا هجًا بذكره في كل الأوقات، معولا عليه في جميع الحالات.

الفصل الثامن

(في رحلته من أم مرح الجديدة إلى أم مرح القديمة)

إعلم أن الشيخ ﷺ لما أذن له النبي ﷺ بالرجوع إلى محل آبائه، لم يلبث أو رجع إلى بلاده مع المذكورين الذين أتوا إليه شفقة عليهم ورحمة بهم، فاستوطن بلاده، وزالت بمجرد إقامته فيها الظلمات والهموم، والكروب والغموم، وطابت بعد خبثها بالنهب والسلب والقتل، فانقادت إليه أهل العصيان والطغيان، فأرشدهم ونزع من قلوبهم وسوسة الشيطان. فأتوه خاشعين خاضعين سامعين لأقواله، لا يجتهدون إلا في مرضاته، ثم أتاه المريدون من كل جانب ومكان، فأخذوا عنه الطريق، وشربوا من كؤوس المعارف والتحقيق؛ وعمرت البلاد وأضاء كوكب الإسعاد.

وأما أم مرح الجديدة للصعيدية فلم يأذن أحدًا من أولاده أو أقاربه بالرجوع إليها، خوفًا أن يملكوا أطيانها التي وهبتها له الملوك، وهو قد عاهد الله أن لا يشغل نفسه بغيره، أو يتصرف في ملكه تعالى بقول عبد من عباده، لأن المعطى والمانع هو الله، وقد محيت تلك الكتابة ومزقت، ولعل له ملحظًا آخر لم نطلع عليه، وهذا ما وصل الفكر إليه، وإلا فالعارفون أنظارهم وراء طور العقل، رزقنا الله حبهم والتسليم لهم. وما زال موضعه بأم مرح الصعيدية معروفا، محترمًا بين الأفاضل، يتبرك به الأكابر والأسافل، إلى أن اندرست أعلامه. حدثنى الفقيه العالم أحمد ولد عوض الله المسلمى قال: رأيت سيدى الشيخ محمد التوم ولد بان النقا ﷺ لما جاء للعزاء في الشيخ أحمد الريح قد خلع نعليه، وكذلك تلامذته من بعده ومشوا حفاة، وذلك عندما قاربوا الدخول في حلته أم مرح الصعيدية، وما رأيت أحدًا منهم راكبًا مطلقًا، والكل على أدب. وكأن سيدى الشيخ أحمد الطيب ينظر إليهم بعينه، وما زالوا على ذلك إلى أن جاوزوا القرية بنحو ميلين أو أكثر.

قلت: وقد بلغنى بعد حلول الحكومة المصرية بالسودان سنة ١٣١٦هـ أن محل سيدى الشيخ ﷺ الذي كان مقيما فيه بأم مرح الصعيدية بعد أن كان منسيًا غير معلوم لأحد، قد بينه للناس وشهره وأظهره وجعله مزارًا كعادته السابقة، ابن بنت الهمام الشريف الفاضل الكامل الظريف شريف النسبتين، الشريف يوسف ابن المرشد الذي هو بكل كماله مرتدى؛ الشريف محمد الأمين الهندى، فجزاه الله خيرًا، وأطال له عمرًا، ورفع له بالخيرات ذكرًا، إنه جواد كريم إلا أنى لم أعرف العام الذي أظهر فيه هذا الهمام للناس ذلك المزار وبينه لهم، فمن عنده فيه علم فليلحقه بموضعه من هذا الكتاب.

الفصل الرابع

(في مسائل نافعة إن شاء الله تعالى)

فإن قلت: ما الذي يكتفى به المريد في معرفة التوحيد؟ فالجواب ما حكى عن النبي ﷺ: «ما خطر ببالك فهو هالك، والله ﷻ بخلاف ذلك» ونصه كما في «المورد الرحماني والمشرب الأحلى للظمآن» للشيخ أحمد الشهير بالطاهر على أرجوزة الشيخ أحمد بن شرقاوي «قال بعضهم: صحبت أربعمائة صوفي، وسألتهم عن أربع مسائل فلم يجبني فيهم واحد، فاغتممت لذلك، فرأيت النبي ﷺ فسألني عن حالي؛ فأخبرته بذلك، فقال لي: سل عن مسائلك، فقلت له: ما حقيقة التوحيد؟ وما حد العقل؟ وما حد التصوف؟ وما حقيقة الفقير؟ فقال ﷺ: (أما حقيقة التوحيد) فهي: ما خطر ببالك فهو هالك، والله ﷻ بخلاف ذلك. (وأما حد العقل): فأدناه ترك الدنيا، وأعلاه ترك التفكر في ذات الله ﷻ. (وأما حد التصوف): فترك الدعاوى وكتمان المعاني، وأما حقيقة الفقير، فهي: أن لا تملك شيئًا، ولا يملكك شيء، وأنت راض عن الله تعالى في الحالتين».

قال الإمام الشعراني ﷺ في المبحث الرابع في وجوب اعتقاد أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق، وأنها ليست معلومة في الدنيا لأحد:

«خاتمة؛ كان الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني رحمه الله يقول: جميع ما قاله المتكلمون في التوحيد قد جمعه أهل الحق في كلمتين. (الأولى): اعتقاد أن كل ما تصور في الأوهام فالله بخلافه.

(الثانية): اعتقاد أن ذاته تعالى ليست مشبهة بالذوات ولا معطلة عن الصفات، وقد أكد ذلك تعالى بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ آية» اهـ.

فإن قلت: هل يجوز للمريد أن يذكر بلا إله إلا الله مفردة بدون محمد رسول الله؟ الجواب ما قاله العلامة الشيخ أحمد الصاوي في شرحه على خريدة شيخه أبي البركات الشيخ أحمد الدردير ﷺ، ونصه.

بعد أن ذكر فضيلة الذكر وأنواعه قال: وأسرعه إجابة لا إله إلا الله مفردة عن محمد رسول الله على التحقيق، فيما عدا الختم، فإذا أراد الختم ختم بها، كما في بعض طرق

الشاذلية أنه يذكرها على رأس كل مائة، هذا إذا ذكر وحده، وأما إذا ذكر مع جماعة فلا يذكرها إلا عند الختم، وبهذا درج أرباب الطرق المحمدية على الاختصار عليها، فإذا أكمل السالك فالأفضل أن يضم معها محمد رسول الله اهـ كلامه.

فإن قلت: ما معنى قولهم الطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلق؟.

فالجواب ما قاله نجم الدين المغربى: في السير لا في الاعتقاد. فإن اعتقاد جميع الأولياء موافق لاعتقاد أهل السنة والجماعة.

فإن قلت: ما معنى قولهم ما اتخذ الله وليًا جاهلا، ولو اتخذه لعلمه؟

فالجواب: جاهلا بالله وصفاته، إذ لو اتخذه لعلمه ذلك. وأما الإحاطة بعلم الفروع للولى فليست بشرط في ولايته، بخلاف ما تقدم.

فإن قلت: ما الفرق بين الشريعة، والطريقة، والحقيقة؟.

فالجواب: ما روى عن النبي ﷺ: «الشريعة مقالى؛ والطريقة أفعالى، والحقيقة أحوالى».

المعنى: أي حال قلبه مع الله تعالى.

وللشيخ ﷺ عبارات شتى في ذلك، ولكنها راجعة إلى ما ذكر عند من له استبصار.

قال في «البراهين الكسبيَّة، والأسرار الوهبية الغيبية». الشريعة ما ورد به التكليف، والحقيقة ما حصل به التعريف فالشريعة مؤيدة بالحقيقة والحقيقة مقيدة بالشريعة. فالشريعة وجود الأفعال، والقيام بشروط العلم بواسطة الرسل. والحقيقة شهود الأحوال بالله «والاستسلام لغبات الحكم بتقديره السابق في القدم، بواسطة الفضل والكرم، إذ الأمر عندهم أمران: أمر إيجادى، وأمر إيجابى.

(فالإجادى) هو الذي بلا واسطة، وهو لا يخالف منه ما من تأثيرا فعل ولا تفعل. والطريقة لها ظاهر وباطن. فالباطن عين الظاهر، والظاهر عين الباطن. فظاهرها الشريعة، وباطنها الحقيقة. فبطون الحقيقة في الشريعة كبطون الزيد في لبنه، فبدون مخضه لا يظفر بذبده، فكل شريعة لا حقيقة لها عاطلة، وكل حقيقه لا شريعة لها باطلة.

فإن قال قائل: إني قد وصلت إلى الولاية والقرب إلى حالة أسقطت عنى الصلاة مثلا، أو أحلت لي الخمر، فهل لقوله هذا أصل أولا؟.

فالجواب: أنه لا أصل لمثل هذا في الشرع المحمدى مطلقًا، بل يجب قتل من يعتقد مثل هذا، فقتله أفضل من قتل مائة كافر، لأن ضرره أكثر، قاله في «مطية السالك إلى مالك الممالك» وفيها قيل للجنيد: إن جماعة يزعمون أنهم يصلون إلى حالة يسقط عنهم التكليف بها، قال: وصلوا ولكن إلى سقر. وقال في كلام آخر: من يقول بالإباحة والسرقة والزنا عندنا أهون حالا ممن يقول بهذه المقالة، ولقد صدق ﷺ في قوله هذا. فإن الزانى والسارق عاص بزناه وبسرقته ولا يصل إلى حد الكفر، وأما القائل بسقوط التكليف المعتقد له، فقد أنسل من الدين كانسلال الشعرة من العجين اهـ.

قلت: وقد كثرت دعاوى المتشبهين بأهل الجذب والحال وتركوا الصلاة، وأوهموا بعض الناس بأنهم يصلون في مواضع أخرى، وأنهم يباح لهم ذلك، ويريدون بذلك عرض الحياة الدنيا. ولا يخفى حالهم على من له أدنى بصيرة ونظر بنور الإيمان، أو توصل بأدلة العرفان.

فإن قلت: إنا قدر رأينا جماعة من المشايخ ينسبون إلى الطريق، ولهم آداب منفردين بها وحدهم، كخلع العمائم عند رؤية من يريدون تعظيمه، والأدب معه من مشايخهم وغيرهم، وخلع النعلين والطاقية، وشد الوسط والجثو على ركب أرجلهم، وغير ذلك مما هو داخل في هذا المعنى، هل له أصل يعذرون به أم لا؟

الجواب: نعم إن لهم أصلاً يعذرون به.

قال الإمام الشعرانى في طالعة طبقاته، من بعد كلام: «ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها، أعطاه الله هناك قوة استنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات، وآدابًا ومحرمات ومكروهات، وخلاف الأول، نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئًا لم تصرح الشريعة بوجوبه أولى من ايجاب ولى الله تعالى حكما في الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه. كما صرح بذلك اليافعى وغيره».

قال شيخ بن محمد الجفرى العلوى في كتابه «البراهين الكسبية»: كأن الظن بهم أنهم ما اختاروا هذه الهيئة إلا لكونها في زمانهم أنفع للمريدين، فيما هو المقصود منه من التخلق والتأدب بآدابه، وكل ما يكون وسيلة للمطلوب فهو مطلوب، وإن لم يكن واردًا بخصوصه عن رسول الله ﷺ، وقد يدخل في عموم قوله ﷺ: «من سن سنة حسنة» حيث حصل به ما كان حسنًا وإلا كان حدثًا، فقد قررته السنة القولية ولم يرد في الفعل، (وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرىء مانوى).

فإن قلت: هل الكشف والطيران وشبههما تختص بالأولياء؟

الجواب: أنها لا تختص بالأولياء، لكن بين الأولياء وغيرهم فرق ظاهر؛ فالأولياء يكون لهم ذلك بأسباب استقامتهم باتباع الشرع واتيان أوامره، واجتناب نواهيه، مع شدة الاجتهاد والخلوة والذكر والتبليغ، ومجانبة الأهوية النفسية ودواعيها، فإذا فنوا عن ذلك كشف لهم الحجاب الحسي والاطلاع على عوالم الله، فيدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه، وكذا يدركون الوقائع قبل وقوعها، والعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يخبرون عن شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه، بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه إذا هاجمهم، والصحابة ﷺ كانوا على مثل هذه الحالة. وأما ما يقع من النصارى والسحرة وغيرهم من المرتاضين، فقد يحصل بأسباب الجوع والخلوة، وإن لم تكن هناك استقامة؛ ومثالة أن المرآة إذا كانت محدّبة أو مقعّرة وحوذى بها جهة المرئى فإنه يتشكل فيها معوجًا غير صورته، وإن كانت مسطحة تشكل فيها المرئى صحيحًا. فاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال.

قال الجنيد ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير في الهواء. فلا تلتفتوا إليه، فإن الشيطان يطير من المشرق إلى المغرب ويمشى على الماء، ولكن انظروا في اتباعه للسنة والكتاب، فإن الشيطان لا يقدر على ذلك أبدًا».

فإن قلت: إن ما يتكلم به الدراويش في حلق أذكارهم من اللغة العجمية، هل له أصل أم لا؟

الجواب: أن له أصلا قال الإمام الشعراني في ترجمة سيدى القطب إبراهيم الدسوقى ﷺ: «وكان ﷺ يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش» اهـ.

والصادق لا يخلو من موافقة لتلك اللغات، قلت: وقد يتكلم السالك الصادق باللغات الملكية سماء سماء، وبلغات صوفية الملائكة وأهل الطوق الأخضر، الذين هم فوق العرش، وقد يحيط بمعرفة الملأ الأعلى بألف ألف ألف ألف ألف ألف لغة لكن ذلك عند غلبة الواردات عليه، وقد تخالط روحانيته روحانية الأنبياء فيتكلم بلسان كل نبى اجتمعت به روحانيته، وبألسنة أقوامهم على اختلاف طبقاتهم وازمانهم.

الفصل الخامس

في بيان الأضرين للناس في دينهم، الصارفين لهم بأقوالهم وأخلاقهم عن إقبالهم على الله وهديه، وهما متفقه غافل، ومتصوف جاهل

اعلم أن المتفقه الغافل هو أضرّ عباد الله تعالى في أوامر الله ونواهيه قال الجنيد قدس سره: الغفلة أشد من دخول النار، وعلامة هذا صرف نيته وإقباله عم طريق الآخرة، كالزهد والقناعه والتوكل والصبر وغير ذلك، وإعجابه بما عنده من الألفاظ العلمية، معتمدًا على الأحاديث الواردة في فضل العلم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «العالم في قومه كالنبي في أمته»، أو قال: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته». وقوله: «العلماء ورثة الأنبياء» وقوله: «علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل».

والعلماء المشار إليهم بهذا الحديث إنماهم العلماء بالله الذين علمهم في قلوبهم، لا من يكون علمه في لسانه؛ مثل علماء هذا الزمان، أما هؤلاء فعلمهم حجة عليهم لكونه في ألسنتهم فقط، قاصدين بذلك زخرف الدنيا لحبهم إياها، وجمعهم لها، وتكالبهم عليها، فهم بهذه الواسطة مبدلون مغيرون.

وقد قال ﷺ: «بُعدًا بُعدًا، سحقًا سحقًا»، أي للمبدلين المغيرين: وقال ﷺ: «العلم علمان؛ علم اللسّان فذلك حجة على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع» وكل عالم لم يكن علمه في قلبه فهو عالم اللسّان، فمن علم من حالة الجنوح لحب الدنيا من زاعيمى العلم فهو قرين الشيطان ووليه، وتولاه الشيطان بواسطة ذلك، فلا يجوز السلام عليه ولا رد السلام، ولا محبته ولا الجلوس معه، ولا التخلق بأخلاقه، لأن أخلاقه شيطانية؛ فإن الشيطان محب للدنيا ومدع للعلم، كذلك كل من اتصف بهذا الوصف من زاعمى العلم فهو قرين الشيطان ووليه، وتولاه الشيطان بواسطة ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ آية، وقال: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ آية، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ آية. وقال ﷺ: «جليس القوم منهم». وقال: «من أحب قومًا حشر معهم». وعدم السلام على من تخلق بهذه الأخلاق ردع وزجر له ولأمثاله، ومن قدر على ذلك ولم يفعله أو يقله فقد أعان على هدم الإسلام وظلم نفسه.

قال تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ آية. وقال: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ آية، اهـ من «الرسالة الميمونية، في توجيد الجرومية» للشيخ العارف بالله تعالى علي بن ميمون الإدريس الحسني المغربي نفعنا الله تعالى به.

قال سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي، في «شرح الحديقة الندية على الطريقة المحمدية» بعد كلام على العلم النافع: وذكر أنه هو علم الشريعة المحمدية قولا وفعلا، مع الإخلاص والمراقبة لله تعالى، بحيث تقع في القلب الخشية من الله تعالى، ويتربى فيه الخشوع والخضوع، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ آية. فيستغني به صاحبه عن جميع الدنيا وأهلها، والآخرة وأهلها، ولا يصير له احتياج إلا إلى الله تعالى، ولا افتقار إلا إليه في جميع أموره، لا العلم المضر الذي صاحبه كلما ازداد منه ازداد احتياجًا إلى الدنيا وإلى أهلها، وإلى الآخرة وإلى أهلها، ونسي الله تعالى، وتربى في قلبه الكبر والعجب، والحسد والجور، والبغض والأمل، فإنه العلم الذي تعوذ منه النبي ﷺ بقوله: «اللهم إني عوذ بك من علم لا ينفع»، وإن كان ظاهره بحثًا وتكلمًا في أحكام الله تعالى، وفي تقرير شعائر الإسلام وعقائد الإيمان، فإن الباعث على بيان ذلك كله، أمر الدنيا من حب الرئاسة، وتحصيل شهوات النفوس وغير ذلك.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم اللسان، فقالوا: وكيف يكون منافقًا عليما؟ قال: عليم اللسان، جاهل القلب والعلم اهـ.

قلت: وحيث كان حاله على مثل هذا الوصف، فإنه لا ينفع جليسًا ولا متعلمًا، بل يربي في قلوبهم كل ما يبعدهم عن الله تعالى، مع ما يوقعه في قلوبهم من الغرور بتسمية العلماء، فيأخذون في الاستراحات والترفهات، ويستعظمون أنفسهم ويستحقرون الناس، ويصيرون تبعًا للرجيم الخناس، فتسوء منهم الأخلاق، وينشأ منهم سوء الظن بالخلاق، وكذا بكافة العباد والعُباد، فيقعون في شباك الغيبة ومهامه الفساد، لإصغائهم إلى ما يلقيه إليهم الشيطان الرجيم، بقوله: «افعلوا ما شئتم إن الله غفور رحيم»، وإنه حليم، حاشا أن يطالبني بحقه الكريم، وأمثال ذلك، حتى يدخلهم بحيّله دائرة الجحيم. فإذا شرع أحدهم في عمل صالح، أو صحبة عارف، ثبطه عن ذلك ويعميه عن طريق الإحسان والإقبال على الرحمن، وينقله من مقام أحسن الأخلاق، إلى البخل وضيق الصدر؛ وإذا ابتلى مثلا بحب امرأة وأراد نكاحها من غير ولي ولا شهود قال له: تزوج بها واقض مرادك، فإنه صحيح على مذهب داود، وللشافعي بغير ولي على مذهب أبي حنيفة، ومذهبهم مشيد بالكتاب

والسنة المنيفة. فإذا طالبته بالنفقة والكسوة الشرعية، قال له: احلف لها أنك ستعطيها، ويجوز الحلف للزوجة لتمسى راضية، فإذا دعته إلى قاض قال له: أنكر أنها زوجتك، وفي الحقيقة على مذهبك لا زواج. ولم يزل سائرًا به في أسارير تلك القفار، سالكا به نهج تلك الفجاج، حتى يتحصل له على ذلك الاندماج، فيكمل له تمام الاعوجاج، ويتركه في المهاوى معكوسًا غاويًا اهـ.

وهذا كله من ظلمة الباطن ورد العلم له، حيث إنه لم يقم بشرائطه، ولم يعمل بعمله؛ وما ارتكبه من التأويلات والرخص، والإفتاء بغير الحق. وبهذا قد التبس عليه الأمر في أموره، كمغويه إبليس لعنه الله، فإن الحق تعالى قد قال له: لا تعبد غيرى من شريف وخسيس، ثم أمره بالسجود لآدم ﷺ، فالتبس الأمر عليه من أنه إذا سجد له كان عابدًا لغير الله تعالى، فامتنع من السجود لحكمة اقتضتها إرادة الله تعالى، فطرد ولعن إلى يوم الدين.

ذكر النجم الغرى في «حسن التنبيه»: أن من أخلاق اليهود والنصارى الأخذ بالرأى مع وجود النص والقياس الفاسد، والافتاء بذلك.

روى البزار بإسناد حسنه ابن القطان، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يزل أمر بنى إسرائيل معتدلا حتى بدافيهم أبناء سبايا الأمم فأفتوا بالرأى فضلوا وأضلوا». ورواه ابن ماجة: «لم يزل أمر بنى إسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون وأبناء سبايا الأمم التي كانت بنو إسرائيل تسبيها، فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا».

وروى البزار ورجاله رجال الصحيح في الكبير عن عوف بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فتنة على أمتى قوم يقيسون أمور برأيهم، فيحلون الحرام ويحرمون الحلال». اهـ.

وكل من اقتدى الناس به وصرفهم عن صريح السنة الكتاب فهو ملحق بهؤلاء الملاعين. فينبغى للعالم أن لا يقطع طريق العلم فيقع في مهاوى التلف، وكما أضل الله بذلك الجاهل نفسه يضل به قومه وقومًا آخرين، أعاذنا الله من ذلك.

وأما المتصوف الجاهل، أي بأوامر الله ونواهيه، فإنه ضال مضل مهلك لنفسه ولغيره، فإن حركاته وسكناته يأخذها من أهوية نفسه ودعاويه، ولا يشعر بذلك، فيجعل الحلال حرامًا والحرام بالعكس؛ ويبدل ويغير حسب واردات النفس والشيطان على قلبه، فهو السم

الناقع لكل من اعتقده أو جالسه وأخذ عنه شيئًا من أمور الدين، فمن أين له أن يصدر نفسه لأخذ شيء من الدين مع جفائه له، وعدم مجالسته لأهله والتسليم لهم في أمر العلم، وغاية ما يلذ له الركوض إلى ميدان الغفلة، والتمسك هو ومن تبعه بالعوائد الشنيعة ونبذ الحق وأهله، وتبديل السنن بالبدع، ويتأدب بآداب الشيطان ويتخلق بأخلاقه، فإذا فعل ذلك دعا له الشيطان الناس فأجابوه من كل حدب، وتركه بينهم يقودهم إلى أدوية الفجور؛ ويبعث فيهم روح الغرور، ويسمى لهم المعصية طاعة، ويفعلها معهم جماعة، ويعلمهم معالم الخطأ، والناس أهدى إلى القبيح من القطا، وربما اكتفى هو عن شيخ ولو أخذ عنه بالاسم فقط، متسربلا بجلباب الجهل والشطط، نشوان بالكبر والعجب والرئاسة، والحال أنه لم يفرق بين باب الطهارة والنجاسة، أو يكتفي بالدوران في القرى والبلدان، ناشرًا علم التلبيس والطغيان سائرًا معه أعوان النفس والشيطان، ينهب أموال الخلق بسيف الحياء، ممتلئًا بالشح والبخل وقلة الحياء، لا يفرق بين السنة والفرض، ولا يعرف الطول من العرض، شاكا في قسمة الله، بائعًا دينه بدنياه، فإذا سمع شيئًا من العلم الشرعي تغير باطنه إن كان له منزلة عند الناس، ويصعب عليه الجلوس مع العلماء. وإذا رأى ترنمًا بالأشعار والذكر الملحون، غرق في بحر الجهل والاغترار، لا سيما إن ضربت الدفوف والمزامير وغيرها من الأوتار. وقال الإمام المقدسي مبتدئًا بمن تزيى بزى العارفين من المتصوفة المبتدعة الجهال:

ذهب الرجال وجال مثل مجالهم	زُمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم	ساروا، ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعًا وتقشفوا	كتقشف الأبطال والأبدال
قطعوا طريق السالكين وأظلموا	سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى	وحَشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رسوله	همزوك، همز المنكر المتغالي
ويقول قلبي قال لي عن خاطري	عن سر سري عن صفا أحْوالي
عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي	عن جلوتي عن شاهدي عن حالي
عن صفو وقتي، عن حقيقة حكمتي	عن ذات ذاتي، عن صفات فعالي

دعـــواه إن حققتهـــا ألفيتهـــا ألقـــاب زور لفقـــت بمحـــال
تركـو الـشرائع والحقـائق واقتـدوا بطرائـــق الجهـــال والـــضُّلال
جعلـوا المِـرَا فتحًـا، وألفـاظ الخطـا شـــطحًا، وصـــالوا صـــولة الإدلال
وترصـدوا كــل الحــرام تخادعًــا كتخـــادع المتلـــصص المحتـــال
فاحـــذرهمُ واحفـــظ مـــودة ســـادة قـــاموا بـــذكر الله في الآصـــال
القـــانتين المخبـــتين لـــربهم النـــاطقين بأصـــدق الأقـــوال
التـــاركين حظـــوظهم ونفوســـهم المـــؤثرين بخـــالص الأمـــوال
مـــا شـــانهم في شـــأنهم كـــذب ولا عمـــل لقـــصد ريًـــا ولا لجـــدال
عملـوا بمـا علمـوا وجـادوا بالـذى وجـدوا، ومـا بخلـوا بفـضل نـوال
وإذا بـــدا ليـــل سمعـــت أنيـــنهم وحنيـــنهم بتـــضرع وســـؤال
وعيـونهم تجـرى بفـيض دمـوعهم مثـــل انهمـــال الوابـــل الهطـــال
متفـــاوتين بقـــربهم وبحـــبهم كتفـــاوت العمـــال في الأعمـــال
في الليـــل رهبـــان لخدمـــة ربهـــم وتخـــالهم في الجـــود كالأبطـــال
تـــاهوا علـــى كـــل الملـــوك وإنهـــم لهـــم الملـــوك بعـــزة الإقبـــال
ولـــرُبَّ أشـــعث حقرتـــه دلوقـــه ولـــدى المليـــك هـــو العزيـــز الغـــالى
خمـص البطـون لمـا بهـم مـن فاقـة شـــعث الـــرءس لروعـــة الأهـــوال
لم تخـل أرض منهمـو قـد حُكمـوا ذات الـــيمين بهـــا وذات شمـــال

الفصل السادس

في محبة أولياء الله تعالى، والنفع بصحبتهم وزيارة قبورهم

ذكر النجم في كتابه «حسن التنبيه في التشبيه» أن الصالحين ينبغي للعبد محبتهم وصحبتهم، وزيارتهم والتبرك بهم.

وقد قال شاه الكرماني ﷺ: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله تعالى، فإذا أحب أولياء الله تعالى فقد أحب الله، وإذا أحب الله تعالى فقد أحبه الله تعالى.

وقال أبو عثمان الخيري: من صحب أولياء الله تعالى وفق إلى الوصول إلى طريق الله تعالى.

وقال يحيى بن معاذ ﷺ: من صحب الأولياء بصدق ألهاه ذلك عن أهله وماله وجميع الأشغال، فإذا صح ذلك معهم ترقى إلى مقام الأشتغال بالله، فاشتغل به عما سواه، وإن لم يصح له هذا المقام مع الأولياء، لا يشم رائحة الاشتغال بالله أبدًا.

وذكر سيدى محمد بن عراقى ﷺ في كتابه المسمى «بالسفينة العراقية المشحونة بنفائس الآى القرآنية، الجارية بالأنفاس النبوية» عن الفقيه الأجل محمد بن الحسين البجلى: أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام، قال: فقلت يا سيدى يا رسول الله: أي الأعمال أفضل؟ فقال: (وقوفك بين يدى ولى من أولياء الله تعالى كحلب شاة أو شيء ببيضة خير لك من أن تعبد الله حتى تتقطع إربًا إربًا. فقلت له يا سيدى: حيًا كان أو ميتًا؟ فقال: حيًا كان أو ميتًا، لعمرى ما المذهب إلا مذهب الصوفية)، وما الناس إلا هم.

ما القوم سوى قوم عرفوك وغيرهمو همج همج

ولله در سيدى ذي النون المصرى حيث قال:

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحنّ إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وقال سيدى أبو مدين ﷺ:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

فأصـحبهم وتـأدب في مجالـسهم وخـل حظـك مهمـا قـدموك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائمًا معهم وأعلم بـأن الرضا يخص من حضرا

إلى أن قال:

قـوم كـرام الـسجايا حيثمـا جلـسوا يبقـى المكـان علـى آثـارهم عطـرا
يهـدى التـصوف مـن أخلاقهـم طرَفـا حـسن التـآلف مـنهم راقنـى نظـرا
هـم أهـل ودى وأحبـابى الـذين همـو ممـن يجـر ذيـول العـز مفتخـرا

قلـت:

ولـولاهمُ مـا كـان رَوْح إلى العـلا يـروح ويغـدو في زهـور حـدائق
ويأخـذ مـن علـم الغيـوب جـواهرًا فيالـه مـن سـر وحـسن حقـائق
تمسك بهـم مـا دمـت حيًـا وإن تمـت فأوص بهم من في الهدى خير صادق

وذكر الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ﷺ: أن سبب فتحه ومنة الله تعالى عليه، كانت بمحاماته عن فقراء الصوفية، ومدافعته عنه، وانتصاره لهم، كما قال في كتابه «روح القدس»: لم أزل أبدًا الحمد لله أجاهد الفقهاء في حق الفقراء السادة حق الجهاد، وأذبُّ عنهم وأحمى. وبهذا فتح لي. ومن تعرض لذمهم والأخذ فيهم على التعيين، وحمل من لم يعاشر على من عاشر، فإنه لاخفاء بجهله ولا يفلح أبدًا.

وأما زيارة قبورهم فقد عدها الغزالى في الإحياء في المندوبات، وأجاز الرحلة لها في آداب السفر، واعتمده صاحب المدخل وغيره، وهو مذهب الجمهور، وقول ابن العزى: لا يزار قبر ينتفع به إلا قبره ﷺ ضعيف. وكذا قول غيره: قصْدُ الانتفاع بالميت بدعة. وفى سينية ابن باديس:

ولا تـسمعن مـن قاصـر النفـع فـيهم علـى مـن يكـن حيًـا فـذاك مـن الطلـس
فـإنِ شـهود النفـع ينفـى مقالـه ولا سيما والقـوم نـصوا علـى العكـس

على أن زيارتهم أحياء وأمواتًا من معنى زيارته ﷺ، كما أشار له الشيخ أبو المحاسن في جواب له حيث قال: إذ كل خير وبركة قلّت أو جلّت منه وصلت، وبطلعته ظهرت

وحصلت وهم صورُ تفاصيله ﷺ، ومظاهر تعيناته، وهو الجامع لما افترق منها فيهم، وكلٌّ سابح في نوره، ومستمد من بحوره، ولا مذكور في الحقيقة سواه، اهـ.

قال العلامة ابن زكريا في شرح «النصيحة»: وباستحضار كون زيارتهم مواصلة للنبي ﷺ حقيقة تكمل أحوال الزائرين، وتحصل آمال الطالبين، فلازم زيارتهم وذكرهم ومحبتهم، يفتح لك الباب ويرفع عن قلبك الحجاب. فإن من شيمهم الفاضلة، وأخلاقهم الكريمة، أن يقبلوا من قصدهم، ولا يخيبوا من التجأ إليهم وأحبهم اهـ.

وقال الشيخ زروق في شرح «المباحث»: وقد ظهرت بركاتها على خلق كثير في أمور شتى، لو اشتغلنا بها لا ستدعت أسفارًا عديدة، ووقع لنا منها عزيز.

وقد نظم فيها الشيخ أبو إسحاق إبراهيم التازى نزيل وهران، أحد المشاهير المسلم لهم العلم والعمل في وقته، قصيدة قال فيها:

زيارة أرباب التقى مرهم يبرى ... ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث في القلب الخلي إرادة ... وتشرح صدرًا ضاق من سَعة الوزر
وتنصر مظلومًا وترفع خاملا ... وتكسب معدومًا وتجبر ذا كسر
وتبسط مقبوضًا وتضحك باكيًا ... وترفُد بالبذال الجزيل وبالأجر
عليك بها فالقوم باحوا بسرها ... ووأصوا بها يا صاح في السر والجهر
فكم خلصت من لجة الإثم فاتكًا ... فألقته في بحر الإنابة والبر
وكم من بعيد قربته بجذبة ... ففاجأه الفتح المبين من البر
وكم من مريد أظفرته بمرشد ... خبير بصير بالبلاء وما يبرى
فألقت عليه حلة يمنية ... مطرزة بالفتح واليمن والنصر
فزر وتأدب بعد تصحيح نية ... تأدب مملوك مع المالك الحر
ولا فرق في أحكامها بين سالك ... مرب ومجذوب وحي وذى قبر
وذى الزهد والعباد فالكل منعم ... عليهم، ولكن ليست الشمس كالبدر

الفصل السابع

في بيان أوصافه وأخلاقه ووفاته
وفيما جرى بعدها في أمر الخلافة

وأما أوصافه: فقد كان ﷺ جميل الصورة، طويل القامة، أصفر اللون، أبلج الوجنتين، باين العنق، ضخم العظام، مفلج الأسنان، واسع الصدر، أقنى الأنف، مدور الوجه، كأنه قنديل من نور، كحيل الطرف، لحيته ما بين الخفة والكثافة، وكان ﷺ يخضبها بالحناء، طويل الزندين والقدمين والأصابع، على هامته أثر أصابع رسول الله ﷺ يراها كل من رآه.

فيا عجبًا أني أحاول وصفه وقد فنيت فيه القراطيس والصحف

طيب الرائحة، وكانت رائحته كما أخبرني بعض أولاده وتلامذته أنها تشم من نحو كذا ميلاً، وأخبرني تلميذه العارف بالله تعالى سيدي الشيخ القرشي بن الزين ﷺ أنه كان يشم رائحته إذا قدم لزيارته من كرري، وهي قرية من نحو ساعتين ونصف من موضعه وأزْيد.

أقول: وهذا لا يحكم به لأنه من طريق البصيرة، قلت: ولقد شممت نعله التي كان يلبسها ﷺ قريبًا من أربعين سنة من وفاته، فإذا هي المسك الأذفر. وغايته أنه ﷺ خلق من شيئين: حسن وطيب.

يلوح على الأبصار كالبدر بهجة وكل كمال في علاه رهين
كأن محياه سماء محاسن بها البدر يجلو والنجوم تزين
وما هو إلا مرتع الصفو نزهة على دفع أحزان الفؤاد يعين
وليٌّ تحلّى بالطلاوة والبها أمير على سر الإله أمين

وأما أخلاقه ﷺ، فهي كما ذكرنا عن الشيخ محمد المجذوب ولد قمر الدين ﷺ في فصل الثناء، أنها كأخلاق رسول الله ﷺ.

وأما وفاته ﷺ اوعنا به، فقد كانت في ليلة الإثنين لسبع وعشرين خلت من رجب عام تسع وثلاثين بعد المائتين والألف، والحق تعالى متجل باسمه (وكيل)، وله يومئذ من العمر أربع وثمانون سنة، وارتجت لموته الأرض، ورأى الحاضرون نورًا عظيمًا بدا من سرته عند

خروج السر الإلهى صاعدًا إلى الجو، وانتقل عند ذلك لونه ﷺ من الصفرة إلى البياض، حتى أنه صار كالبدر عند تمامه بياضًا وحسنًا، ولما وضع على المغتسل دخل تحت مغسله رجل من تلامذته، متعرضًا لنزول شيء عليه من ماء غسله، فما خرج إلا وقد لاحت عليه الأنوار، وامتلأ فؤاده من المحبة والأسرار.

قلت: ولقد شاهدنا هذا الرجل ورأينا له من الخوارق والعجائب، والتوفيق والهيام، والاجتهاد في الله ما يحير الأفهام. وكفن ﷺ في خمسة أثواب بيض، وأم الناس في الصلاة عليه ولده العارف بالله تعالى سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى ﷺ، ودفن على ساحل بحر النيل (بأم مرح) في قبره المعروف، الذي هو باطنه روضه من رياض الجنة. وقد حزن الناس عليه حزنًا شديدًا، وبكته الجهات أحرارًا وعبيدًا، وغربن بوفاته شمس الطريقة بعد الإشراق، وكسف قمر الحقيقة بالمحاق، وبقيت الطريقة اسمًا وحكايات، بعد ما كانت ذوقًا ووصلا ونفحات. وقد رثاه العلماء والصالحون بقصائد جمة، ولم أعثر بواحدة منها لطول الزمان، إلا بمرثية للعالم الفاضل، الفقيه إبراهيم ابن الشيخ عبد الدافع، المفتى الحميدانى في تاريخ السودان، وهى طويلة مطلعها:

عـرج بركبـك حـادى الأظعـان ... واحطـط رحالـك مبتغـى العرفـان

عند الهضاب بسوح شمس معارف الـ ... أسـرار قطـب معـالم الأديـان

شيخ السلوك مكمل السر الذي ... قطـع الزمـان مراقـب الديان

هـو بحـر غيـب بـالغيوب مكاشف ... هـو بـدر تم ضـاء في البلـدان

هـو بالتواضـع والخـشوع مميـز ... هـو لا يـرى نَفْسًا علـى إنـسان

هـو زاهـد الـدنيا وحاسم حبهـا ... هـو روح جـسم عـوالم الأزمـان

هـو آيـة كـبرى وشـيخ معـارف ... وعـوارف فاقـت بحـسن معـان

هـو أحمـد الفعـل الإمـام المرتـضى ... هـو طيـب أعطـى رضـى الـرحمن

مـا شـام طـرف في الزمـان كمثلـه ... في سـائر الأقطـار والـسودان

هـو وارث القطـب الـشهير محمـد ... كنـز الهدايـة شـيخه الـسمان

لـولاه ماطـاب الزمـان لـسالك ... كـلا ولا شـربت شَـمُول دنـان

قال مؤلفه: ولنا فيه من المراثى هذه الأبيات نفعنا الله به:

إنــي لأعلــم والعلــيم نبيــل أن الحيــاة ولــو حرصــت تــزول
مـا كنـت أحسب قبل موت إمامنـا قطـب الزمـان ومـن هـو المـأمول
أن النهــار يكــون لــيلاً ألــيَلاً والـدمع مـن عـين الزمـان يـسيل
كادتــا تميــد الأرض عنــد مــصابه والـشمس تكـشف والجبـال تميـل
آه علــى فــرد الزمــان ومــن لــه قــدر وبــاع في العلــوم طويــل
الطيـب الـشيخ الـذي وسـع الـورى رشــدًا وعلمــا دونــه التأويــل
هيهــات لم يــأت الزمــان بمثلــه ومثالــه في الــصالحين قليــل
في لحظــة يــسع الألــوف إفاضــة في لمحــة منــه يــرى التكميــل
فـالكون كـل تحـت أخمـص رجلـه والحكـم وهـو لـه كـذا التبـديل
يـا طيـب الأحـوال يـا مـن ذكـره فكأنــه بــين الأنــام شمــول
لا تنــسنى عنــد اللقــاء لبــارىء أعطـاك مهمـا رمـت يـا مقبـول

وبعد تسويدى لهذه المرثية، وقفت على قصيدة رثاه بها بعض الفضلاء وهى:

تَبـا لطـرف عليـك اليـوم مـا حزنـا ومقلــة دمعهــا مــا ســال مقترنــا
جرّعتنـا كـأس حـزن طالمـا احترقـت بـه القلـوب، وأضـنى الـروح والبـدنا
أركـان ديـن الهـدى كـادت بمـوتكم تهـد حزنًـا، ويفـشى أمرهـا علنـا
مـن للـسوى غيركـم في الله يرشـدهم ويرتقــون بــه في الخــير كــل منــى
قــد قمــت حقًــا بأعبــاء الولايــة إذ أرشدت من يبتغـى العرفـان والـسننا
قـد كنـت نزهـة أسمـاع وبحـر نـدى وبــدر تم، لــه بــين الأنــام ســنا
ســلافكم قــد ســرت في كـل متـصف بحــبكم. أو مريــد فــارق الوســنا

كأنـك المسك خلقًـا، والسماك عـلا | والبحـر علمًـا، وأمطـار السما مننـا
قـد كنـت بـالخير مـصحوبًا ومتـزرًا | بـالجود والفخـر مـن بـين الـورى زمنـا
فأنـت قطـب سـقي مـن خمـر خالقـه | كأسًـا طهـورًا، بـه قـد نلـت كـل هنـا
وكـــل فـــرد فريـــد في معارفـــه | وكـــل قطـــب لألـــواح الـسماء رنـــا
إرشـاده منـك يـا فـرد الجلالـة يـا | مـن قـد أزلـت مـن الأيـام كـل عنـا
فكـل وصـف جميـل أنـت مالكـه | وكـل نـاء عزيـز منـك وهـو دنـا
لهفـي عليـك أيـا شـيخ الطريقـة يـا | مـن كنـت للعـالم الأرضـي كنـز غنـي
لهفـي عليـك أيـا نجـل البـشير أيـا | صدر الأئمـة يـا مـن حـزت خيرثنـا
يـا طيبًـا طابـت الـدنيا بطيبكمـو | يا من بـك الـدهر مـن سـوء الـردى أمنـا
سـقى المهـيمن قـبرًا ضـم أعظمكـم | مـن غيـث رضـوانه سَـقيًا بغـير ونـي

ولمؤلفه حماه الله وأرضاه، وأطار إلى النسر الطائر مجده وعلاه، هذه المرثية:

دمعـي علـى الخـد فيّـاض وهتّـان | وفـي حـشائي مـن الأحـزان نـيران
بفقـد قطـب شـريف مالـه مثـل | للـدين حـرز وللإسـلام أركـان
قـد خانني الـدهر فيـه وهـو بهجتـه | والـدهر وهـو كمـا قـد قيـل خـوان
وصـاح داعـي النـوى في يـوم فرقتـه | وأحرقـت بـدموع الحـزن أجفـان
مـصابه دهـشت منـه العقـول ومـن | مـصابه القطـر أضـحى وهـو حـيران
يُمـسي ويـصبح في شـجو وفي قلـق | وفـي كـروب ودمـع وهـو غُـدران
سلوا الدجى هل لطـرف السالكين منا | م فيـه أو مـن لـه للحـق إذعـان
لهفـي علـى مـن لـه في كـل جارحـة | لله سـعي وفـي الأعـضاء إيمـان
لهفـي علـى موسـم الأربـاح خـير فتـى | في سـلكه انتظمـت قـوم وفتيـان

لهفى على خير فياض لساحته ... تأوى الوفود وأيتام وضيفان

لهفى على العروة الوثقى الذي ابتهجت ... بنور طلعته سهل وأحزان

لهفى على خير بحر قد حوى دررًا ... وجوهرًا ما له شبه وأثمان

لهفى على جانب الأقوام من بُعدٍ ... بسر شوق به للخير وجدان

لهفى على شمس أنوار الولاية من ... من دون منصبه شمس وكيوان[1]

لهفى على بدر أسرار الشريعة من ... أزال ظلمة جهل وهو عِصيان[2]

لهفى على فقد مصباح الزمان ومن ... مماته لخراب الدهر عنوان

لهفى على فقد أستاذ علا مثلا ... له على زحل في العز بنيان

لهفى على المقصد المقصود أكرم من ... لله قد أمه عرب وعجمان

لهفى على كعبة الزوار طيبنا ... غوث الزمان إذا ما ضاق لهفان

لهفى على واحد الأيام جوهرها ... من بحره هو بالاسرار ملآن

آه على شيخ أشياخ الطريقة مَنْ ... مِن كأس خمرته ذا الكون نشوان

آه على من له عز ومرتبة ... عليا ومن بين أهل الله سلطان

آه على درة البحر المحيط ومن ... أحاط علمًا بعلم وهو عرفان

من بعده مَنْ لعلم الغيب ينشره؟ ... مِن بعده، من له ذوق وإحسان

من بعده من لتنوير القلوب ومن ... يسقى لمن هو في الأصحاب عطشان

من بعده من لطرق القوم نقصده ... ومن له ينتمى عجم وعربان

من بعده من به تحيا النفوس ومن ... على القلوب كغيث وهو هتان

من بعده من يلوذ السالكون به ... ومن يزول به رجس وأدران

من بعده من لجمع الجمع يوضحه ... وللمعارف والأسرار ديوان

١- كيوان: هو نجم المشترى أو زحل.

٢- قوله وهو عصيان: تفسير للجهل.

من بعده من له لحظ تهيم به ... كل النفوس وعلم وهو إيقان

أفديه من كامل عزت مداركه ... ومرشد ماله في الرشد إخوان

أفديه من زاهد ما مال قط إلى ... مال وفيه على الزهاد رجحان

أفديه من فائض لولا إفاضته ... لا الناس ناس ولا الأزمان أزمان

أفديه من فاضل تنمو محاسنه ... وقطب فيض له الأقطاب أعوان

زور الولاية في لألاء عزته ... يذيعه منه أخلاق وعرفان

حدث عن البحر أو عن غمر نائله ... وعن نداه إذا ما احتاج إنسان

فإن تفاخر أبطال الولاية في ... مضمار سبق وللأبطال ميدان

فطيب القوم فرد لا نظير له ... ما شئت فيه فقل والرشد برهان

من ذا يماثله من ذا يفاخره ... من ذا له مثله في الغيب إمعان

من ذا له مثله سر فسر به ... شام حجاز وريف ثم سودان

ذاك الذي لم يزل في الله مبتهلا ... ودمعه هو في الأسحار طوفان

ذاك الذي لم يمل يومًا إلى أحد ... سوى الإله ولا ما فيه خسران

يرعى الذمام ويولى الفضل مبتدرًا ... ويمنح النصح من أغواه شيطان

له المفاخر عقد وهو لابسه ... له المعارف والأسرار تيجان

له من المصطفى خير الورى مدد ... فما الفرات وسيحان وجيحان

له تلامذة لله درهم ... بخدمة الله في الأظلام رهبان

له السعادات أضحت وهي عاكفة ... لبه من الله إجلال ورضوان

له السيادات والتبجيل من قِدم ... له فؤاد بسر السر ريان

له الكرامات بين الناس ظاهرة ... له لأحوال أهل الحال ميزان

له عجائب أوصاف سمت عجبًا ... له من العلم ياقوت ومرجان

نا بهجة الوقت ذا للدهر وهو غنى ... ذا للمريدين حرز أينما كانوا

ذا روضة الفضل ذا عين العناية ذا ... من في السماء وفى الغبرا له شان

تبارك الله ما أحلاه من رجل ... في النفس شُهد وللأرواح رحان

تبارك الله ما أعلاه من علم ... كأنه هو بين الناس ثهلان[1]

وهو الأصيل النبيل المعتلى شرفًا ... وفى محبته كما هام إنسان

وهو الجدير بأن يعزى الكمال له ... وهو الدنان وخمر الكأس والحان

وهو المراد من الدنيا ولذتها ... وهو الذي كله يمن وإيمان

وهو الذي في علوم الشرع كان له ... باع طويل وتحقيق وإتقان

شاف مفيد له الأنبياء شاهدة ... خرت لآياته في الأرض أذقان

فكم له بين أهل الأرض من منن ... وكم به شفيت روح وأبدان

وكم لأسلافه بين الورى شرف ... عن شأوهم قصرت في المدح همدان

وكم له من كشوفات مباركة ... وكم روى منه في الأسرار ظمآن

وكم له انقاد من في الأرض من ملك ... وكم له دان أبطال وفرسان

وكم به قد جفا قوم ديارهم ... وكم له ينتمى إنس كذا جان

وكم تصرف في قوم بمكرهم ... وكم به قد محى ظلم وعدوان

ذا الكامل الفرد ذا قطب الولاية ذا ... سر العناية من بالفيض منان

ذا الألمعى الذي تاه الوجود به ... وفى هواه استوى سر وإعلان

ذا النور محضًا وذا الغوث الشهير وذا ... من للضعيف وللمنبوذ معوان

ذا واحد الأمر هذا من له امتثلت ... من أجل سطوته في الناس شجعان

١- اسم جبل.

ذا أحمد الفعل وابن الطيبين وذا — من في حدائقه زهر وريحان
كنز مطلسم لم تحصر عجائبه — إلا لقوم صفوا والسر قد صانوا
فالصالحون لسيه في كل معرفة — من العارف والإرشاد غلمان
أغر كالشمس لا تخفى مكانته — إلا على من بداء المقت عميان
بحر بسيط مديد وافر مددًا — في حافتيه لأهل الشرب كيزان
ينبيك عن كل شيء قد مضى قدمًا — وعن رمزز بها الشبلى هيمان
رؤياه تذهب ما في النفس من غمم — وكم بها جليت أسوا وأحزان
حامى الحمى من له الجاه العريض ومن — يسعى إليه مشاة ثم ركبان
أكرم به من إمام وهو ذو كرم — ما قابل الوفد إلا وهو جذلان
من نسل فاطمة الزهراء ذو شرف — وسادة ما لهم في المجد أقران
أيضًا ومن نسل عباس فياله من — قطب به شرفت ولد وخلان
قوت النفوس ويا قوت المعارف من صاد — لعزه خضعت بيض وسودان
القلوب بلحظ منه أدهشها — وكم بلحظته قد فاز أخدان
فالكون قد صار فيه وهو ذو وله — وكيف لا وهو بالرحمن ولهان
تهدى محبته تسقى مودته — تسبى خلائقه من فيه إيمان
روض تضمن أسرارًا ومعرفة — كم أثمرت منه للطلاب أغصان
غوث النهى حرزنا من كل داهية — وعندما الكرب للمكروب يقظان
قاف الإحاطة ميمون النقية من — به لقد عمرت بالخير أوطان
وكم أغاث أناسٌ عند شدتهم — وكم به فاز أشياخ وشبان
فكالحيا وهو قد أحيى الإله به — قومًا فبالرشد بين الناس قد زانوا
جماله يدهش الأبصار إن نظرت — إليه والقلب يضحى وهو سكران

يـا مـن يحـالو بالأشـعار غابتـه أقـصر فمـا لـك في هـذا العـلا شـان
إن طـال نـوحى عليـه أو بكـاى لـه فمثلـه عنـه مـا للـنفس سـلوان
بـشر محبيـه في الـدنيا ويـوم غـد فكلـهم في جنـان الخلـد سـكان
لقـد روى قولنـا هـذا أئمتنـا عنـه وللأوليـا بالـصدق إمعـان
منـى الـسلام علـى قـبر يفـوح شـذى قـد حـل فيـه مـن الأقطـاب سلطان
منـى الـسلام علـى قـبر بمـرّح قـد أمتـه بالـشوق أخيـار وأعيـان
منـى الـسلام علـى قـبر لـصاحبه في جنـة الخلـد أحـوار وولـدان
منـى الـسلام علـى قـبر بـه سـعدت أهـل وصـحب وأولاد وجـيران
منـى الـسلام علـى قـبر حـوى عجبـا بـه لقـد عمـرت بالهـدى أكـوان
حـوى إمامًـا عظيمـا مـا لـه مثـل قـد أيدتـه أحاديـث وقـرآن
حـوى مـن القـوم أسـتاذًا أخـا ثقـة في القـبر ذاك لـه عـين وآذان
وهـو الـذي قـبره بـين القبـور لـه مـن جنـة الخلـد والفـردوس ريحـان
وهـو الـذي دائمًـا في الحـضرتين ولم يحجبـه سـتر ولا قـبر وأكفـان
ومـن بـه شـدة يومًـا إليـه دعـا يـأتى بـسرع فمـا بـاز وعُقبـان
لله در الـذي قـد أمّ زورتـه يعمـه منـه تهـذيب وغفـران
لله در الألى في سـلكه انتظمـوا وفـى سـرائرهم وجـد وأشـجان
منـى الـسلام علـى المختـار مـن مـضر ومـن بـه قـد عـلا في الفـضل عـدنان
وآلـه وكـذا الأصـحاب مـا تليـت دمعـى علـى الخـد فيـاض وهتـان
أو مـا حمـام علـى غـصن البّشام شـذا أو مـا تـرنح مـن ريـح الـصبابان

وأما ما جرى بعد وفاته في أمر الخلافة:-

فاعلم أن الشيخ ﷺ وعنا به، لم يشر إلى أحد من أولاده بالخلافة بعده، وإنما اكتفى باختيار الله تعالى في ذلك، إلا أن التلامذة والناس قد رغبوا بعد دفنه أن يكون من أولاده خليفة، ثم إنهم افترقوا في ذلك على طائفتين، فطائفة اختارت سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى ﷺ؛ وذلك لتقديم الشيخ له في مدة حياته في الأعياد وغيره، ولتقدمه في السن، ولما له من العلم وغير ذلك.

والطائفة الأخرى اختارت الوالد سيدى الشيخ نور الدائم ﷺ: وذلك لقول سيدى الشيخ ﷺ لتلميذه الحاج عبد الوهاب البحيرابى: «البركة فيه وفى ذريته»، كما تقدم ذلك، وأيضًا لما عليه من الورع والعفة والاستقامة، ولشبه أخلاقه بأخلاق والده، وصفته بصفته، ولكون والدته من أجل نساء الشيخ ﷺ، وحيث إنه توفى في بيتها، ولها القيام بأمره حيًا وميتًا، وبيتها مأوى الضيوف والتلامذة والمساكين والأرامل.

فممن اختار خلافة سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ الشيخ محمد ولد مكى. والشيخ الأمين ولد أم حقين، وكافة السروراب والصوّاب إلا القليل منهم. وممن اختار خلافة الوالد سيدى الشيخ نور الدائم ﷺ، الشريف أحمد ولد موسى السواكنى، والشيخ محمد ولد فضل الله الصبحى، وغيرهما من التلامذة وكافة الجميعاب، واستمر ذلك الخلاف من وفاة سيدى الشيخ ﷺ إلى أن حضر العارف بالله تعالى الشيخ أحمد البصير بن عبد الرزاق الحلاوى، ﷺ لبناء القبة، عام خمس وأربعين بعد المائتين والألف فقدّم سيدى الشيخ نور الدائم وصلى خلفه، وذلك بحضور كثير من التلامذة، كالشيخ القرشى بن الزين، والشيخ محمد الصليحابى، والشيخ النعيم ولد مضوى الترابى، والشيخ محمد ولد مكى، والشيخ الأمين ولد أم حقين.

أخبرنى شيخنا ﷺ قال: لما قدّم سيدى الشيخ أحمد البصير سيدى الشيخ نور الدائم وصلى خلفه، كثر القيل والقال، وهجر سيدى الشيخ إبراهيم الشيخ أحمد البصير، سألت الشيخ أحد البصير عن سبب تقديمه للشيخ نور الدائم على أخيه؟ فقال لي: سألت رسول الله ﷺ عن الخليفة من هو منهما؟ فقال ﷺ: نور الدائم، وأما إبراهيم فلا تغضبوه. قال فقلت له: هذا هو عين الغضب. فقال: الذي فهمتهمن كلامه ﷺ أن إبراهيم أطول عمرًا من نور الدائم. قلت: هذا من صريح الكشف منه والاطلاع على الغيب، فإن سيدى الشيخ إبراهيم عاش بعد الوالد بنحو سنة. ثم إن الشيخ أحمد البصير استمر على الصلاة خلف الوالد إلى أن فرغ من بناء القبة، وعلى تأييده والاعتناء به هو وأتباعه وقبيلته الحلاوين،

وكثير من تلامذة الشيخ ﷺ. وأما الشيخ محمد التوم ولد بان النقا ﷺ، فإنه لما وصل بلاد الحلاوين قادمًا لزيارة الشيخ ﷺ والعزاء، سمع الخلاف فرجع ولم يسمع منه شيء في ذلك، بل كان كل من اجتمع به من أولاد الشيخ ﷺ فإنه ينزله منزلة والده، ويكون معه بمنزلة المزيدين، وذلك إلى أن قضى نحبه.

قلت: ومع ما ذكرنا فإن الوالد ﷺ كان يكثر الأدب مع أخيه سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى والمراعاة له: وكذلك الشيخ إبراهيم فإنه كان يراعيه ويعتنى به، وربما غضب بغضبه ورضى برضاه. وهكذا إلى أن توفيا طيّبيْن طاهرين خاشعين لله تعالى، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ آية.

الفصل الثامن

(فيما قاله فيه ﷺ بعض أهل بيته من المدائح)

فمن ذلك قصيدة العبد الفقير، مؤلف هذه المناقب وهى هذه:

في ذكـر ليلـى مـدى الأبكـار والأصُـل ... قلبـي وفـي حبهـا كـالوالع الثمـل
قد همت وجدًا بها مـن حينمـا نظـرت ... عينـي لهـا بفـؤاد بـالغرام ملـي
عاهـدتها بعهـود غـير كاذبـة ... بـأن أهـيم بهـا في السـهل والجبـل
وأن أدع قـول عـذال لنـا عـذلوا ... في حبهـا الأعـذب الأحلـى مـن العسـل
يـا عـاذلين لنـا في حبهـا سـفهًا ... دعـوا المـلام فحبـي غـير منتقـل
أتعـذلون لـصب كلمـا عـذلنْ ... يـزداد شـوقًا علـى أيامـه الأول
ولم يـزل كلمـا بـين الـورى ذكـرت ... ليلـى يلاعـب للغـزلان بـالغزل
والـدمع صـار دمًـا مـن بعـد رقتـه ... والجـسم منـه بـسقم العاشـقين بلـى
لا زال ينـدب في أحيانـه أبـدًا ... علـى الحمـى وعلـى الأطـلال والطلـل
قـد أقسم اليـوم عـن جـزم ومعرفـة ... عـن الحمـى وهـوى ليلـى فلـم يحـل
أم كيـف لا وهـو مـن داء الغـرام غـدا ... أصـم أذن فلـم يـسمع ولم يقـل
يـزداد شـوقًا مـدى أنفاسـه صـعدت ... كالأصـفيا الأذكيـا في طيـب النـزل
نجـل البـشير إمـام القـوم مـن وطئـت ... أقـدام مفخـره الـسامى علـى زحـل
مـن أيـد المـنهج الأسمـى بـه وبـه ... قد فاح نـشر الهـدى في السهل والجبـل
قـرين كـل كمـال منـه قـد عجـزت ... أهـل الكمـال ومـن في الأرض مـن بـدل
غـوث مغيـث وأسـتاذ عـلا رتبًـا ... حـبر فريـد مـلاذ للعلـوم ولى
حكـى الشموس ظهـورًا عنـد طلعتهـا ... والـروض خلقًـا وجـودًا ديمـة الهطـل

أعطى من القرب والعرفان منزلة ... من رام شأو مداءها قط لم يصل
هل في زمانه أو أيامه سمعت ... أذناك مثله قطبًا فائق المثل
أفخر به وله الفخر الذي وردت ... لنا أحاديثه من سادة أول
واسلك به منهج الأقوام مجتهدًا ... ودع سواه إذا مارمت كل على
ذا حضرة القدس ذا خمر الدنان وذا ... ساقى المدام وذا ذو المنزل الجلل
لأجل ذا صار في أيامه ملكا ... له التصرف بالأسرار في الدول
يا عارفًا دهره يكفيك معرفة ... وإن جهلت الذي قد قلته فسل
له يد وردت بحر الغنى وروت ... له طريق خلا عن وصمة الخلل
أفشت طريقته معنى حقيقته ... أفشى كشمس الضحى بالفضل وهو جلى
أيامه كانت العشاق تحسبها ... خلدًا لما شاهدت من روضها الخضل
يود كل امرى في الأرض يقصده ... وكل حبر على علم على عمل
له خوارق عادات علت وغلت ... بين البرية من حاف ومنتعل
دان الزمان له حبًا فألبسه ... من التقى أزين الأثواب والحلل
دان الزمان له طرًا فأسكره ... من خمرة الحب سكرًا عز في المثل
كم من عزيز أتاه خاضعًا شغفًا ... وكم رئيس وكم شهم وكم بطل
قد استوى في هواه الناس كلهم ... وكيف لا وهو قطب وارث الرسل
صفا صفا التبر بين الناس منهجه ... وقد بدا فضله كالصبح للقل
فكم له من كرامات إذا ذكرت ... تشفى العليل وتهدى كل ذي جدل
له كئوس من الأسرار شاربها ... لا يزال يبدى من الأسرار كل على
الله أكبر ذا القطب الشهير وذا ... مَن مِن علوم البقاء اكتال بالجمل
الله أكبر ذا الطود المنيع ذرى ... ذا ابن الوصى وصنو السيد البجلى

مـن آل بيـت شـريف فالكتـاب لقـد أبـدى لنـا مـا لهـم مـن أكمـل النـزل
شـيخ أديـب أريـب عـالم عَلـم حـامى الحمـى كامـل في المجـد مـن أزل
قـد ماثـل الـدر والـياقوت منطقـهُ والمسك رائحـة إن مـر في السبل
محطـة الحـق ديـوان الحقـائق مـرآ ة الجمـال سـليم القلـب مـن زغـل
فكـالهلال لـه ترنـو العيـون هـوى وكالـدواء لـذى الأسـقام والعلـل
مالجـة البحـر تـشبيها إذا التطمـت علومـه ولهـا فاشـتاق كـل ولى
عيـد الفيـوض وسـلطان المعـارف مـن أمـات في الله أقوامًـا بـلا أسـل
أنـار أفـق الـدياجى نـور طلعتـه أنـسى لمـا قبلـه مـن كـل مكتمـل
كنـز الغنـى حليـة الأيـام أوحـدها رب الفتوحـات خـالى النفس مـن زلـل
يمـم لـساحته إن كنـت ذا ضـجر وقـف علـى بابـه حبًّـا عـسى تنـل
واسـأله ماشـئت فالآيـات ظـاهرة فكـم وكـم فـاز منـه النـاس بالأمـل
وكيف لا وهـو مـن نـور ابـن آمنـة الـ مختـار أفـضل خلـق الله في الأزل
صـلى عليـه إلـه العـرش مـا ظهـرت شمـس ومـا أمـه ركـب علـى عجـل
وآلـه الغـر والأصـحاب كلـهم مـن أظهـروا دينـه الـسامى علـى الملـل
مـا جفـن صـب بكـى شـوقًا بمدحتـه أو مـا محـب غرامًـا زاد في الميـل
أو قال محمود في نـادى الهـوى يهـوى في ذكـر ليلـى مـدى الأبكـار والأصـل

ولنا غير ذلك من المدائح العديدة البديعة الحميدة، وهى مثبتة بدواوين الأمداح «العطير، في مدح النذير البشير»، و«نفخ الروح، في جسم الفتوح» و«الروض البهيج»، و«ديوان التصوف» وغيرها، وإنما أردنا تطريز هذه المناقب بشيء من مدائحه، ولنرجع إلى ما نحن فيه.

فمن مدائح أهل بيته فيه، قصيدة العالم العامل، الناسك الكامل، العارف الراجح، الشيخ قريب الله ابن سيدى الشيخ أبى صالح وهى هذه:

تجلى مفيض الفيض وانقشع الوهم ... عن القلب إحسانًا وفاجأه الفهم

عن الله وانهلت عليه فيوضه ... فأصبح مسرورًا ومغرمه غنم

بغوث الورى المخطوب من حضرة العلا ... ونائب خير الخلق من غيثه يهمو

هو الطيب المجذوب في الأرض والسما ... وساق الورى صافي السلافة لا الكرم

وأحمد من قد أم بالصدق ربه ... منيبًا بأشواق ينابيعها تنمو

ومن ترك الأكوان طرًا لأجله ... وليس له شغل سواه ولا هم

وطابت به الأيام شرقًا ومغربًا ... ودارت حمياه وهامت بها القوم

ومن بعده الأستاذ قد قام داعيًا ... إلى الله في جهد ويقدمه العلم

هو الوارث المحمود محمودًا الذي ... هدى أنفسًا كان الطريق لها الجرم

أبر حفيد قد قفى إثر جده ... على الحق والباقون حظهم النوم

هو الكيّس الداعي لحضرة ربه ... هو العارف المقدام والبطل الشهم

أضاءت به الأكوان من بعد ظلمة ... وصار له القدر المعظم والحكم

زكي حماه الله من كل ريبة ... وما فيه من عيب يشين ولا وصم

ولكن أهل البغي غلف قلوبهم ... وأعينهم عمي وآذانهم صم

قلوه ولم يدروا بأن قلاءه ... غلو وخيم في عواقبه السم

وكان عليهم صابرًا كل وقته ... ومن شأنه الصبر الجميل كذا الحلم

كفاه بأن الله ناصره كفى ... ومن ينصرنه الله ما ضره الظلم

أيا سيدًا ساد الورى جد بنظرة ... على عبدكم كيما يضيء له نجم

وقل يا قريب الله أنت مقرب ... لدى الله والمختار فابشر بما تسمو

عليكم من الله الرضا كل لمحة ... يعمم أولادًا وصحبًا لهم رحم

وبعد صلاة الله ثم سلامه ... على المصطفى والآل من ذكرهم غنم

وحمـدًا لك اللهـم في كـل طـرفة وختمى بالحمـد الجميل هـو الختـم

ومن ذلك قصيدة ولدنا عبد القادر الجيلى وهى هذه:

حيتـك غاديـة الحيـا مـن معهـد جـوْدًا يـروح بـه الغمـام ويغتـدى
وتـضوعت حـصبا ثـراك وأشـرقت بجـواهر الأسـرار لا بالعسـجد
لله مغنـى كـم نحـن لوصـله أهـل الغـرام بمـدمع وتـودد
بزغـت شمـوس الهـدى في عرصـاته فبـدت محاسـنه لكـل موحـد
ضـربت عليـه مـن الجـلال سـرادق ومـن المهابـة والعـلا والسـؤدد
لا غـرو إن زارتـه أمـلاك السـما واشـتاق رؤيتـه المنيـب المهتـدى
فهـو المقـدس سـاكنًا بـل تربـة شـرفت بآثـار الكـرام السـجد
كـم لـي إليـه صـبابة ومـدامع تجـرى علـى مـر الأصـائل والغـد
مـا أومـض الـبرق الـشمالى عـشية إلا وشـوقنى لـذاك المـشهد
مـن لـي بـأن أصـل الـسرى بعـذافر يطـوى المهامـه فدفـدًا في فدفـد
وأحـط رحلـى عنـد نخبـة هاشـم شـيخ المعـارف والحقـائق أحمـد
الطيـب القطـب الـذي نـارت بـه كـل الـبلاد مغيرهـا والمنجـد
الكامـل الغـوث الأجـل المنتقـى الزاهـد الـورع الإمـام الأوحـد
الـصائم الجـافى المـضاجع جنبـه في الله ذي الكـرم العـريض الأتلـد
إنـسان عـين الأوليـاء وتـاجهم وممـد جمعهـم وروضـهم النـدى
فلكـم أمـدّ وكـم أغـاث وكـم هـدى قومًـا إلى نهـج الـصواب الأرشـد
دعنـى أشـنف مـسمعيك بلؤلـؤ مـن مـدح حـضرته الـشهى المـورد
فـرع نمتـه جحـاجح قرشـية فـسما وطـاب لطيـب ذاك المحتـد

بكماله وجلاله قد بشرت ... أهل الهدى والكشف قبل المولد
وحديث سؤدده وسامي فخره ... يروى لنا من سيد عن سيد
وُلعت بنشر بديع حسن صفاته ... أهل الولا نصحًا لمن به يقتدي
فالزمه إن رمت الوصول لحضرة الـ ... رحمن أو نزلا بأشرف مقعد
إن الذي يرجو الكمال بغيره ... كالمستضيء مع ذكا بالفرقد
أو كالذى يستبدل الكافور والـ ... ـمسك الشذى جهالة بالحرمد
لم لا وذا الحامي لهذا القطر من ... نوب الزمان وخطبه المتشدد
فله على السودان أكبر منة ... شملت كرامتها لأحمر أسود
قد قال مجذوب الحضائر معلنًا ... بحديثها أعظم به من مسند
حكمت رجال الحضرة العليا علـ ... ـى السودان بالتدمير دون تردد
من حلفة حكمًا عليه تضافروا ... يجرى إلى أقصى جبال الأعبد
فأبى وقام ينقض ما قد أبرموا ... نجل البشير فيا له من منجد
الطيب القطب المقلد للورى ... بقلائد الإنعام لابزبرجد
فتنازعوا واشتد حتى أنهم ... ردوه للرءوف الرحيم محمد
فعليه من رب العباد صلاته ... وسلامه النامي الزكي السرمدي
فقضى ووافق قول أستاذ الورى ... الطيب الفرد الهمام الأصيد
فتحققت أهل الحضائر أنه ... أعلى وأكمل عارف ومؤيد
فلتفخر السودان بالغوث الذي ... لولاه عاجلها الردى بتعمد
لولاه ما كانت وما عرفت وما ... رفع الجميع من الحضيض الأوهد
أكرم بها من آية في طيها ... نعم وأسرار علت لم تعدد
قلدت يا زين المآثر قطرنا ... مننا وفضلا ظاهرًا لم يجحد

أرشدته وحميته وهديته   مذ جاء طالعكم بسعد أسعد

فلكم أتاك من البداوة جاهل   في عمره ما خط حرفًا باليد

فسقية القرآن منك بنظرة   ألحقته فيها بأكمل مرشد

أدخلت أهل الصدق حضرات الرضا   وأزلت عنهم كل وصف مبعد

فجنوا ثمار الفتح ثمَ وأصبحوا   سكرى بكأس من قديم الصرخد

تيار فيضك زاخر متلاطم   أنعم ببحر بالمعارف مزبد

يا سيدًا أحرزت كل فضيلة   وجمعت أشتات العلا والأحمدُ

إرشادكم للخلق دل على الذي   أو تيتموه من التراث الأحمدى

ما ضركم إنكار جاحد فضلكم   أترى لضوء الشمس عين الأرمد

عمت فيوضكم الأنام جميعهم   وفشت بسهل في البلاد وقردد

فلك التلامذة الألى أسرارهم   سحت كوسمى الغمام المرعد

دلوا على الله العباد وأيقظوا   من نور غفلات الحجا للرقد

كحسيبهم وبصيرهم وأمينهم   والتوأم العلم الرفيع محمد

وخلاصة الأمجاد وارثك الذي   أروى بكأس السر كل فتى صدى

محمود قطب العصر بل وضيائه   وأمانه من كل خطب أنكد

فلكم هدى ودعا وأرشد للورى   والآن قلبًا قاسيًا كالجلمد

حبر لأعلام الطريقة رافع   وإمام حق بالفضائل مرتدى

وسواهمو من سادة بكمالهم   كم صادح بين الورى ومغرد

خصصت يا قطب الهدى بخصائص   معشارها في غيركم لم يوجد

منها النجاة لكل عبد سالك   لطريقك العالى بيوم الموعد

وحديث من قد قال أول ضربة   في حفر أي ضريح ميت ملحد

ذا قـــبر طيّبـــك المعظـــم أحمـــد إكـــرام صـــاحبه روى بتأكـــد
إرشـــادكم لم ينقطـــع كـــسواكموا بـــالموت يـــا كنـــز الفقـــير المجتـــدى
هـــذا وكـــم لـــك مـــن خـــصائص جمـــة كـــالقطر لا تحـــصى بـــنظم معـــدد
يـــا ســـيدى نقـــد القـــريض ومـــدحكم وكمـــالكم وفخـــاركم لم ينفـــد
فـــاعطف علـــى الجيلـــى منـــك برحمـــة وتولـــه دنيـــا وأخـــرى وامـــدد
إنـــي جعلتـــك يـــا إمـــامى عـــدة بـــل جنـــة مـــن جـــوْر دهـــر معتـــدى
فـــامنع حمـــاى وجـــد علـــىّ بـــشربة مـــن سلـــسبيل النـــور وارشـــد واســـعد
ســـحت علـــى جـــدث حـــواك غمـــائم تهمـــى بموصـــول الرضـــا المتجـــدد
مـــا عطـــر الآفـــاق نـــشر ثنـــائكم أو غـــن طـــير فـــوق غـــصن أملـــد
أو أنـــشدت في محفـــل أو جحفـــل حيتـــك غاديـــة الحيـــا مـــن معهـــد

الفصل التاسع

في بيان تلامذته الذين انتفعوا منه
ببلاد السودان خاصة دون غيرها من البلدان

● منهم صاحب الكرامات العجيبة، والمكاشفات الغريبة، العارف بالله سيدى الشيخ (يعقوب بن أحمد الصليحابى الأنصارى)، كان ﷺ من العلماء المحققين، والمشايخ المرشدين، وقد خدم الشيخ ﷺ بعد أن أخذ عليه الطريقة ست عشرة سنة بصدق واجتهاد، فأفاض عليه من بركاته، وكساه من حلل كمالاته، وأمره بالتوجه إلى (قدبى) من بلاد الحبشة، والإقامة بها لإرشاد المريدين، ونفع الطالبين، فأقام بها وأتته الناس من كل الجهات، وأخذوا عنه وانتفعوا به نفعًا تامًا. وكان ﷺ كثير الاجتماع بالخضر عليه السلام، وربما شوهد بالعين الظاهرة جالسًا معه.

ومن كراماته ﷺ، ما أخبرنى به الفقيه العلامة محمد ولد التهامى الباسطابى، وكذلك الرجل الصالح الشيخ محمد الصليحابى دفين (جواده) رحمه الله، قال: كان للشيخ يعقوب ﷺ تلميذ وله ست بنات، فشكى له يومًا عدم الولد الذكر، فأمره أن يحضر عنده بعد صلاة الصبح من يوم الجمعة واحدة من بناته، فأحضر من اختارها منهن في الوقت المذكور، فمرّ يده عليها تاليًا لقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ آية، فقلبت ذكرًا كاملا من حينها. قال: وقد عاش نحوًا من خمس وخمسين عامًا، وخلف بعده ولدًا يدعى ولد أبى ورق، وهذه الكرامة مشهورة في بلاده أوضح من نار على علم، ولولا وقوفى على صحتها لما سطرتها هنا، وأمثال ذلك من مناقب العارفين كثير. قال العارف بالله تعالى الشيخ عبد الكريم الجيلى قدس سره:

وأقلب أعيان الجبال وإن أفل لها ذهبًا كونى فهن فواقع

وقلب الأعيان من جملة كرامات الأولياء المشهورة، فلا يعترضها إلا غبى جاهل. وقد انتفع به ﷺ طريقة وتربية جماعة، كالشيخ ثور المتن ابن الشيخ يا قوت، وولده الشيخ شعيب وغيرهما، وتربى منه الشيخ محمد الصليحابى. وأخذ عنه سرّ سورة الكوثر الشريف بله ولد رحمة الله الحسنى رحمه الله، وجميع ما حصل له من البركات والكرامات وخوارق العادات فهو من بركة الشيخ يعقوب ﷺ.

توفى المترجم المذكور بقدبى، ودفن بها وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم قطب المعارف، وإكسير العوارف، سيدى الشيخ (حسيب ابن إمام الكوباوى)، ثم المغربى. كان ﷺ من جهابذة العلماء، وأئمة الحكماء، فريدًا في وقته، وحيدًا في نعته، نظم مختصر الشيخ خليل رحمه الله نظما بديعًا، وله تآليف في التصوف وغيره، وهى تشهد بكماله، وقد شاهدت البعض منها. وكان ﷺ كثير العزلة والعبادة، وكانت سبحته- التي يذكر الله تعالى بها- سبعين ألفًا. وما سمع أن أحدًا بلغ مبلغه في وقته في الزهد والعبادة والتصريف والخوارق، وقد دلته على الشيخ ﷺ وصحبته مقالة الحية الجنية التي تقدم ذكرها في فصل الكرامات. وعند ما رآه الشيخ ﷺ ساعة قدومه ومقابلته له ملكه ألفين وخمسمائة من الجن يخدمونه، وصحب الشيخ ﷺ بالملازمة بعد أخذه عليه للطريقة تسعة أيام، فبلغ فيها قصده، وعلا بها مجده، ثم استأذنه بالحج وزيارة النبي ﷺ فأذن له، وسافر من عنده كأنه البحر الزاخر، والسحاب الماطر، فأقام ﷺ أولا بالدامر، ثم ارتحل إلى سواكن وأقام أيامًا.

حدثنى عمر كشنة في عام حجنا قال: كان الشيخ حسيب ﷺ هنا معنا بسواكن، فصرع الجان أحد أولادنا. فبادرت إليه به، فوقع على ذلك الولد وخنقه بيده، ثم أمرنا بحمله إلى محلنا، وزال عنه الصرع من حينه، واستمر معافى إلى أن مات. وأخبرنى بعض أعيان سواكن فقال لي: ما رأيت أحدًا لا يبالى بالأمر المعروف والنهى عن المنكر من سلطان ولا ظالم كالشيخ حسيب ﷺ، ثم من بعد إقامته بسواكن توجه إلى مكة المشرفة وأقام بها، وانتفع به خلق في الطريق لا يحصون عددًا. وكان أهل مكة- شرفها الله- يكثرون الميل إليه جدًا، ويقدمونه على غيره من الصالحين الواردين عليهم، ويرون أنه في الكمالات فريدٌ وحيدٌ.

ومن كراماته ﷺ أنه كان له مريد غرق له صندوق بالبحر الملح، وكان فيه من الأموال عدد كبير، فوقع على قدمه يريد صندوقه، فأمره ﷺ بالدخول في محل خاص به، فدخل فوجد فيه صندوقه وهو يقطر ماء.

ومنها أنه كان يخرج من مثلث أبى حامد الغزالى ماشاء من دراهم ودنانير وغيرها، وربما أخرج منه جمرة النار عند الاحتياج إليها، كما أخبرنى بذلك تلميذه العارف بالله تعالى السيد الحسن الميرغنى قدس سره، وربما فعل نحو ذلك من غير وفق يعمله.

ومنها ما أخبرني به العالم الصادق الفقيه الدسوقى بن الخليفة محمد ولد الفقيه إدريس ولد دوليب القاطن (بخرسى)، قال: سمعت والدى يقول: كان عندنا سيدى الشيخ حسيب بن إمام ﷺ بخرسى، فقال: ألا ترون أني الآن جالس بينكم؟ قلت: نعم. فقال: ولكنى طائف بالسبع الأرضين، وكان ﷺ إمامًا في كل علم، لاسيما علم الحرف، فإنه فيه ثالث لأبى حامد الغزالى، وأحمد البونى رضى الله عنهما. ومما كان يترنم به من الشعر في بعض الأحيان هذه الأبيات، وهي لغيره، ويبدل منها منبئًا بحسيب:

حسيب فرّ عن أهل ومال ... يسيح من المكان إلى المكان

ليخمل ذكره ويعيش فردًا ... ويظفر في القيامة بالأمان

تلذذه التلاوة حيث ولى ... وذكر باللسان وبالجنان

وممن وصل به إلى الله تعالى وانتفع به ونفع الغير سيدى العارف بالله الشيخ أبو الحسن ابن الشيخ عبد الكريم ابن القطب سيدى الشيخ محمد السمان قدس سره، وانبلجت طريقته على يد المذكور، وليس لأولاده بالمدينة المنورة سند غيره في طريقتهم السمانية.

وممن أخذ على أولادة وانتفع الشريف أحمد ولد طه الحسنى، المقتول عند ثورة المهدية بمحله بالشرق، وهو بين رفاعة وأبى حراز. والعارف الربانى، والقطب الفردانى، سيدى السيد الحسن ابن الختم السيد محمد عثمان الميرغنى نفعنا الله به، كما شاهدت ذلك عيانًا في مناقبه، التي ألفها خليفة الخلفاء، الخليفة ابن إدريس ابن الخليفة النصيح، فراجعها إن شئت. وممن أخذ على السيد الحسن ﷺ الطريقة السمانية بسنده المذكور القاضى محمد ولد حتيك، والفقيه الحسن ولد الفقيه إبراهيم زهرا. والحاج ضياب العبد لابى المجذوب. وكان يصرح لكل أحد ويقول: أنا سمانى. وقد رأيته عام سبع وسبعين بعد المائة والألف بالحلاوين عند مجيئه للعارف الشيخ القرشى لمسجده، وطلب منه أن يأمر تلامذته بقراءة التوسل السمانى، فلما قرءوه أمرهم أن يكتبوه له فكتب، فأخذه ووضعه في جيبه حتى رجع بعد ذلك إلى منزلته. وممن أخذ على الشيخ حسيب وانتفع به الفقيه الصديق الأمين ابن الفقيه حمد ولد المجذوب، وولده العالم العلامة الصالح العابد الشيخ حسيب، والشيخ أحمد التكرورى المدنى، والشيخ عبد السلام الصعيدى نزيل (القورة) من أرض الريف، والشيخ عبد الغفار القاطن بجدة.

توفى الشيخ حسيب ﷺ بمكة مسمومًا، ودفن بالمعلاة، وقبره هناك معروف عند أحبابه.

● ومنهم صاحب الأحوال والشطحات، والتصريف والكمالات، سيدى الشيخ (محمد ولد على ولد غلام الله الركابى ﷺ). كان رحمه الله من تلامذة الشيخ أحمد ولد عيسى الأنصارى في العلم، ثم صحب الشيخ ﷺ في الطريقة بإشارة من شيخه المذكور، فكثر عليه الشطح والحال. وكثيرًا ما كان يقول بين يدى الشيخ ﷺ: أنا القطب، ولم ينكر عليه أحد من أقرانه. وكان ﷺ كثير العبادة، وربما دخل الخلوة الأربعينية بالقرظ دون غيره، وكان ﷺ عطابًا، فلا تجد أحدًا من الظلمة في عصره إلا وهو خائف من سطوته، وقد بطش بأقوام لا يحصون عددًا. وكان ﷺ يخبر بالأمر قبل وقوعه.

ومن كراماته ما أخبرنى به تلميذه العلامة الفقيه محمد ولد التهامى قال: كثيرًا ما كنت أراه إذا دخل بيتًا أو خرج منه لا يطلب بابه، بل يدخل ويخرج من أي محل شاء. ومنها ما أخبرنى به أحمد ابن الشيخ الحسن وغيره قالوا: كان للشيخ ﷺ تلميذ يقال له أحمد الصادق فمرض ومات، فلما أخبر به ذهب إليه وأمره بالقيام، وهو على حالة استغراق في جلال الحق تعالى وعظمته، فقام حالا لوقته وعاش زمنًا، وهذه الكرامة في بلاده أشهر من نار على علم، ومن مكاشفاته ﷺ ما أخبرنى بة أحمد ولد رملى الحامدانى قال:كان في عهد سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ رجل رأى منامًا أن النبي ﷺ قبّل عاتقه، فجاء إلى سيدى الشيخ فقبّل ذلك الموضع من غير أن يعلمه الرجل بذلك، ثم ذهب إلى الشرق فالتقى بالشيخ محمد ولد على رحمه الله، فلما وقع بصره عليه عدل إليه وقبّل ذلك الموضع كما كان من قبل الشيخ ﷺ.

ومنها ما أخبرنى به الحاج العباس ولد نصير السرورابى قال: حدثنا يومًا وهو ببلاد العطش بموت خاله أحمد ولد أبى يزيد حين مات وهو بواوسى، فما أتت علينا أيام قلائل إلا وقد جاءنا الخبر بوفاته في ذلك اليوم الذي أخبرنا فيه.

ومنها ما حدثنى به الشيخ أحمد ولد الشيخ حسن ولد محمد ولد جبور قال: حدثنى والدى أن الشيخ عيد ولد الرضى وصاحب طاقيتهم قد تعدى على امرأة تلميذة للشيخ، وأخذ جميع أموالها. فشكته على الشيخ. فأمره برد ما أخذه منها، فخشى من الشيخ ورد جميع ما أخذه منها إلا عبدًا واحدًا فامتنع من رده، فقال الشيخ: رده عليها وإلا أخذنا منك طاقية الملك وعزلناك من منصبك هذا، فأبى، فصاح الشيخ بأعلى صوته وقال: يا خورشيد باشا– وكان ذلك في أيام ولاية الباشا المذكور– إني قد عزلته، وحولت منصبه إلى شيخ أحمد ولد أبى جن فاعزله، فما أتت عليه ثلاثة أيام إلا وقد جاءت كتابة من الباشا المذكور بعزله،

وإقامة الشيخ أحمد ولد أبى جن، وقد استمرت في أولاده إلى يومنا هذا، وله ﷺ من الكرامات والمناقب ما يعجز الكتاب، ويأخذ بمجامع الألباب، وهى شهيرة فلا نطيل بتعدادها.

وقد أرشد ﷺ في الطريقة رجالاً لا يحصون عددًا؛ منهم الشريف بله ولد رحمة الله الحسنى ﷺ، وأولاد طه؛ الشيخ محمد، والفقيه النيل، والشيخ العربى ولد البكرى، والشيخ بله الأمى، والشيخ أحمد الصادق، والشيخ أحمد ولد مسكين، والشيخ عبد الوهاب ابن الشيخ إدريس الأبيضاوى، والشيخ أحمد الجمل، والشيخ الطيب ولده، والشيخ دفع الله ولد الشيخ الضو الركابى، أخو الشيخ الطيب راجل السوكى، والشيخ حسن ولد محمد ولد جبورابى، والفقيه إدريس ولد أبى عثمان المشهور بتعليم القرآن؛ والعالم العلامة الشيخ محمد التهامى الباسطابى، والشيخ الصديق ولد قدورة، والشيخ كرار، والشيخ دفع الله ولد البكرى، وغير هؤلاء مما لا يحصون عددًا.

توفى ﷺ بموضعه المسمى بـ(عدّ الطين) من القضارف، ودفن به، وقبر ظاهر يزار.

[نبذة] تتعلق ببعض أحوال تلميذه العارف بالله تعالى الشريف بله ولد رحمة الله الحسنى المتقدم ذكره آنفًا ﷺ

كان من أجل وأعظم تلامذة الشيخ محمد ولد على، وكان بعد ما أخذ الطريقة على شيخه المذكور قد دخل الخلوة مدة سبعة أشهر بجزيرة (أم سنط) أيام الصيف، ولا زال في الخلوة إلى أن طلع عليه البحر ونزل بسورة الكوثر، وقد ملك فيها ملوك الجان السبعة، وقد تصرف بهم في كل ما أراد، وظهر بالكرامات والخوارق بين أهل تلك البلاد، فما من خفى إلا وأظهره، وما من جبار إلا وقهره، قد ارتجفت من بأسه ملوك تلك الجهة، وكان مهابًا لا يُعصى ولا ترد له كلمة، ثم انتقل من موضعه بأم سنط إلى (قلى) من جبال إدريس، وهناك قد فعل العجب من التصرفات والتأثير الذي شاهدتة العيون وقرت به الألباب.

حدثنى ولده الشريف أحمد قال: كنت معه في مركب وكانت بيده سبحة فوقعت في البحر، فلما صلينا معه الصبح وجدناها أمامه.

وقال تلميذه الشريف جبارة: كنا مرة معه ونزل بواد فيه ثعبان عظيم مشهور بالضرر، لا يهاب من نزل بذلك الوادى، فيأتيه سواء كان ذلك ليلا أو نهارًا، فلما صلينا العصر مع

الشريف خرج الثعبان من جحره قاصدًا جهته، فلما رآه جمع أصابعه على كفه وأومأ إليه بسبابته فقطعت رأسه من حينها، وأخبرني العلامة الشيخ إبراهيم ولد زروق النافعابى قال: رأيت الشيخ إدريس ولد عدلان مع جلالة قدره يجلس على بابه إلى أن ينتصف النهار، فإذا دعاه يأتيه هرولة، ويجلس جلوس المريد مع أستاذه على الأرض من غير فراش، ولا يعتني به بتقديم طعام ولا شراب.

قال: رأيته يأمر القلل بالذهاب إلى البحر فتذهب وحدها من غير أن يحملها أحد وتأتي ملآنة ماء، ورأيت الطير لا يعلو على زرعه ولا يأكله، ورأيت مرة سبعة من القردة قد دخلت زرعه فماتت لوقتها ولم يبق منها ولا واحد.

حدثني الشريف محمد بن الشريف النور قال: رأيته لا يلتذ بذكر أحوال أو كرامات أحد من الأولياء، ويقول لجلسائه: ما عندنا أكثر مما عندهم، ولكن إن أحببتم أن تذكروا الأحوال العلية، والكرامات السنية، والأخلاق المحمدية، فعليكم بسيرة خاتمة الأقطاب المحمديين، وممد الأولياء الواصلين، سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فإنه الإمام الذي يقتدى بآدابه، ويتبرك العارفون بثرى أعتابه، فسيروا على منواله، وتمسكوا بأذياله، فإنه الإكسير الذي يقلب الأعيان، والغوث الذي لديه كل الأكابر كالغلمان اهـ.

وقد أرشد في الطريقة ما لا يحصون عددًا، توفى ﷺ بقلى من جبال إدريس، وقبره بها ظاهر يزار.

● ومنهم عَلم الأسرار، كوكب الأنوار، سمير الحضرة النبوية، ورب البصيرة النورية، (الشيخ أحمد البصير عبد الرزاق الحلاوى). كان ﷺ ضريرًا، وقد لقبه سيدى الشيخ ﷺ بعد الفتح بالبصير، فاشتهر به دون غيره، وكان من أجل تلامذة الشيخ ﷺ ومحبوبًا لديه. وكان الشيخ قدس سره لا يفرش لأحد من تلامذته أمامه بساطًا يجلس عليه إلا له أو لولده سيدى الشيخ مطيع ﷺ، ويقول رأيت النبي ﷺ في الحضرة يفرش لهما. وكان الشيخ أحمد البصير كثير الاجتماع بالنبى ﷺ، ويشاوره في جميع أموره، ولم يحجب عنه في وقت من الأوقات، وكان كثير الاجتهاد والعبادة، لا يطيب له نوم ولا أكل، وكان ورده في كل ليلة سبعين ألفًا في الهيللة، ما عدا ورده من القرآن والنفل والصلاة على النبي ﷺ.

حدثني العلامة الفاضل الفقيه محمد ولد زروق رحمه الله قال: رأيت سبابته قد زال منها اللحم من كثرة إمرار السبحة عليها وبدا بياض عظمها.

قلت: وقد رأيت في إجازة القطب الجامع سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ التي كتبها للمذكور أنه يقول فيها في حقه: إنه لا يبْغضه إلا شقى ولا يحبه إلا سعيد.

ومن كراماته: ما أخبرنى به شيخنا رحمه الله تعالى، قال: كنت جالسًا يومًا بمجلس الأستاذ الأكبر سيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره، فسمعته يقول لرجل من تلامذته: إذهب يا فلان إلى الفلانيين من الجمعياب، وقل لهم يأتوا إلى الشيخ أحمد البصير ليضمنهم، فإنى سمعت النبي ﷺ قد أذن له في ذلك، قال: ولم يكن البصير وقتئذ بالمجلس إلا أنه حاضر بالبلد.

ومن كراماته ﷺ أنه رأى الحق جل وعلا تسعًا وتسعين مرة، وقد قيل زاد على ذلك، ورأيت له كلامًا وهو أنه قال: صليت مرة ركعتى الضحى ثم أخذتنى سنة من النوم، فخرجت روحى من جسدى، فوقفت بين يدى خالقها وبارئها وتأدبت وخضعت، وقالت: إلهى إن الناس قد أنكروا علينا في الكرير- أي ذكر الله بالصدر والحلق-، قال: فقال لي الحق تعالى: من أنكرك فقد أنكرنى، أي من أنكر ما أنت عليه فقد أنكرنى، وأخبره رسول الله ﷺ بأنه يرشد من التلامذة على عدد (بنى) والمقربون منهم اثنا عشر.

وممن أخذ عنه وانتفع به شيخ الطريقة العارف بالله تعالى الشيخ الحسين ولد صباحى راجل شبونة[1]، والشيخ محمد ولد ملك الدار العروابى، والفقيه أبو سبيب البريابى، والشيخ محمد ولد الجبارة، والفقيه أحمد البكاى، والفقيه أحمد ولد برى وغير ذلك.

توفى ﷺ عام سبع وأربعين من بعد المائتين والألف بالحلاوين، وقبره عليه قبة وهو ظاهر يزار.

[نبذة] تتعلق بتلميذه المرشد العارف الشيخ الحسين الحسين ولد صباحى المحسى المعروف براجل شبونة

كان رحمه الله تعالى قد أخذ الطريقة على الشيخ أحمد البصير بالثمد، موضع الدحالات، عند قدومه للكواهلة لإيقاع الصلح بينهم وبين الحلاوين بترك الحرب بينهم، وذلك عام أربع وأربعين بعد المائتين والألف، فأعطاه الطريقة وأدخله الخلوة الأربعينية بالمحل المذكور، ثم إن

١- شبونة: اسم بلدة.

الشيخ أحمد البصير سافر في ذلك العام إلى بناء قبة أستاذه القطب الأعظم سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ. ومن بعد مجيئه أجاره في الطريقة، ثم بعد وفاة الشيخ أحمد قد انتقل الشيخ الحسين إلى الصعيد ونزل بشبونة التي قبره الآن بها، وصحب الشيخ محمد التوم ولد بان النقا صحبة محبة ووداد لا طريقة، وكانا في المحبه والاتحاد كالرجل الواحد. وكان الشيخ محمد التوم يجله إجلالا عظيما، ولم يؤثر عليه أحدًا من تلامذته ولا من أهله. وقد سلك الشيخ الحسين مع الشيخ محمد التوم طريقًا في الصحبة ما سلكه غيره.

قال شيخنا: سألته بعد وفاة الشيخ محمد التوم، وقلت: هل تحب أن تصحب أحدًا بعده؟ قال فقال لي: لا أستطيع صحبة أحد بعده. وكان رحمه الله قد بلغ من مجاهدة النفس وسلامة الصدر، وطهارة الباطن، وتزكية النفس الغاية القصوى، وما يظن من رآه أنه ممن تكتب عليه خطيئة.

حدثني تلميذه وملازمه سليمان ولد خالد وغيره من تلامذته: أنه كان يمكث الشهر لا يشرب الماء، ولا يأكل الطعام إلا قليلا. وكان لا يتأذى بكلام المؤذين له، وإذا ضاق صدره من أمر رفعه إلى سيدى الشيخ محمد التوم ويقول: لا طاقة لنا به وكان الشيخ محمد التوم ﷺ يزورة في محله، وذلك بعد زيارته لجده الشيخ بان النقا، ولا زال على ذلك إلى أن توفي. وكان إذا عرض أمر منعه من زيارة جدة المذكور أرسل نائبًا بدلة للزيارة، ويؤكد عليه بعد زيارته للشيخ بان النقا بزيارة الشيخ الحسين، وإذا رجع النائب ولم يزر المذكور، فإنه يرده ثانيًا لزيارته ولو وصل بعقبه.

وله كرامات شتى، وبركات عمت الآفاق. وقد أخذ عنه الجم الغفير من الفضلاء، وخلف في الطريقة نحو مائة خليفة، وكلهم كانوا على نور من ربهم، وذكر وشكر وتنوير حال. وما بايعه أحد في الطريق إلا وانتفع به لصفاء باطنه. وكان إرشاده عامًا تامًا، وكانت له تلامذة كثيرون جدًا، كادوا أن يقاربوا تلامذة الشيخ محمد التوم في الكثرة. ولما كان آخر عمره قدم إلى الحلاوين هو وتلامذته، وبنى على شيخه الشيخ أحمد البصير قبه جميلة، وهي باقية إلى يومنا هذا، وكان قد أعانة على بنائها شيخنا، فأتمها على أحسن حال، وأرخ بناءها بعض الناس بقوله:

في كـبٍّ حجّـتهم في عـامِ حُلـم قـضَت بنيّـةٌ وبهـا شـيخ الـورىٰ قـبرا[1]

١- أي في ٢٣ من ذى الحجة في عام ١٢٧٨هـ بنيت قبة الشيخ البصير.

ومن بعد بنائها قد رجع إلى محله وتوفى به، وذلك سنة ألف ومائتين وتسع وتسعين، وقبره ظاهر بتلك الجهة بزار.

ومنهم واحد العصر والزمان، وإمام وقته في السر والإعلان أديب الأدباء، وسلالة الصالحين النجباء، أحد الأعلام المشار إليهم بالاطلاع في عالم الغيب، والمتصرف في البعيد منه والقريب. شيخ الطريقة، ولسان الحقيقة، من بلغ صيته المشرق والمغرب، وعلا على الشعرى منه القدر والمنصب، صاحب المكاشفات الملكوتية، والمحاضرات القدسية، والأسرار اللدنية، والهمة العرشية، البالغ من الكمالات غايتها، ومن الفضائل نهايتها، من لا يحاذى في وقته بإنسان، ولم يجاره فارس من فرسان الطريقة في ميدان. أبو الفيض، شيخنا العارف بالله تعالى (الشيخ محمد التوم، ابن الشيخ بان النقاء، ابن الشيخ هجو الأجمر، ابن الشيخ عبد القادر، ابن الشيخ هجو ولد حماد)، الحسيب النسيب.

كان ﷺ طودًا في العلوم، وقد أخذ الطريقة البهارية القادرية في ابتداء أمره على أبيه، ثم على خاله الشيخ مضوى ولد مرزوق، واجتهد اجتهادًا كثيرًا، فلم يجد مطلبه على حسب علو همته، فجذبته عنايته السابقة بتعلق قلبه بلسان الوقت وإمامه، القطب الأعظم، سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فاشتاق إلى الوصول إليه، والمثول بين يديه، اشتياق الروض إلى الطل، والمهجور إلى الوصل، وأكثر من زيارة من في قربه من تلامذة سيدى الشيخ ﷺ. كالشيخ يعقوب ولد على الدويحى، والشيخ محمد ولد على الركابى وغيرهم. واستغرق في محبة الشيخ استغراقًا، بحيث أنه كاد أن يترك الطعام والشرب من تأثير محبته في باطنه. ثم سافر إليه لأخذ الطريقة ومعه جماعة، فلما قرب أخبر الشيخ ﷺ تلامذته بقدومه عليه بقوله: الآن سيقدم عليكم أديب الأدباء. فلما وصل وبايعه سيدى الشيخ ﷺ في الطريق، قال له كما أخبرنى بذلك الشيخ محمد التوم المذكور: أنت تلميذى من وقت ما كنت في بطن أمك. ثم إنه من بعد أخذه الطريقة اشتغل بخدمة الشيخ ﷺ، تارة يسقى الماء، وتارة يحتطب، وأمره بخدمة جدتنا فاطمة بنت عبد الجبار، فكانت خدمته جميعها في بيتها، وكان يهدى لها الهدايا الفاخرة، ولا زال على ذلك إلى أن توفي. وقد حزنت عليه حزنًا شديدًا، وذلك لشدة نفعه لها ومحبتها له، وكذلك أولادها، وجعلوا له مأتمًا جمع جميع أهل البلاد، وذبحوا الذبائح الكثيرة صدقة له. وبكى عليه الناس كلهم، وأتتهم القبائل من كل جهة يعزونهم فيه ﷺ.

وكان عند مجيئه للشيخ ﷺ مؤذى أذى شديدًا، من جهة إخوانه أولاد بهاء الدين،

وذكر له ما كان منهم وأذيتهم له بالأحوال، وإخراجهم له من موضع أبيه، وذكر له من أحوالهم ما يخالف الشرع. فقال: إن الطريقة واصلة لا يضركم ذلك، وستجد منا راحة إن شاء الله تعالى، وتكون بركتهم وملجأ لهم الجميع. وكان الشيخ محمد التوم ﷺ ليس عنده أخ شقيق، إنما عنده شقيقة، وكان في غاية الضعف بينهم، وكان لا يسمى بين إخوانه وبنى عمه إلا (شيخ بى إيدو) أي شيخ بيده، يستهزءون به كلما جلسوا.

وفى قصيدته التي مطلعها: (مقام الوصل بلغوه الرجال)، ما يفيد السامع من أذيتهم له، وضيق صدره منهم علمًا كبيرًا بحالهم معه ولما أكثروا من أذيته انتقل من موضع أبيه المعروف (بولد سعد) واستجار امرأة من الفونج، يقال لها عالية بنت الملك بادى الجحمان، واستوطن المحل المذكور، فبزغت فيه شموس إرشاده، وهطلت سحائب إمداده، ولا زال به إلى أن توفى ودفن به. ولنرجع إلى ما نحن فيه.

فلما أخذ الطريقة كما ذكرناه آنفًا، لازم الخدمة بصدق القلب والإخلاص، وأمره الشيخ ﷺ بترك الخدمة، وذلك بعد سبعة من الأيام، وقال له: أنت لست محتاجًا إلى نفس الطريقة والتلقين، إنما احتياجك إلى قطع عقبات النفوس، وقد طويت لك في هذه الأيام السبعة مسافة عقبات النفوس السبعة: الأمارة، واللوامة، والملهمة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، والكاملة، ووهبت لك مقام جدك الشيخ موسى ولد يعقوب- وكان ﷺ من الأفراد، وملكتك أرض الصعيد، وفتحت لك ما كان مغلقًا عنك.

حدثنى الشيخ عبد القادر ولد بان النقا رحمه الله تعالى، عمن حضر ذلك الكلام من تلامذة سيدى الشيخ ﷺ قال: فقال له إن الصعيد فيه الشيخ محمد ولد على، فسكت سيدى الشيخ، فأعاد عليه الشيخ محمد التوم رحمه الله تلك الكلمة، فقال له: حتى على الشيخ محمد ولد على: قلت: وشاهد هذا أنه لما أراد الله إشراق شمس سيدى الشيخ محمد التوم، توفى الشيخ محمد ولد على، فذهبت تلامذته إلى الشيخ محمد التوم وأخذوا عليه الطريق، كالشريف عبد الحي، والشيخ على ولد جريو وغيرهما. وصار الشيخ منفردًا بالإرشاد في أرض الصعيد والتصرف، فلنرجع إلى ما نحن بصدده. فمن بعد خدمته وإفاضته عليه بما ذكر، كتب له الإجازة في الطريقة السمانية، وأمره بالرجوع إلى بلده. فاستأذنه أن يذكر في الحلَق كعادة ذكر آبائه، فأذنه وقال له: كل ما كان لله أذنتك فيه، فإن الطريق إلى الله واحد. فرجع واجتهد في الطريقة اجتهادًا كثيرًا. واجتمع بعد رجوعه بالشيخ تاج الدين أبى كلوة، وكان من أقاربه، فلامه في أخذه الطريقة على القطب الأعظم سيدى الشيخ أحمد

الطيب ﷺ، وكان الشيخ محمد التوم قد جاء للمذكور متأدبًا كاشفًا رأسه خالعًا نعليه متحزمًا بثوبه.

أخبرنى من أثق به من اليعقوبات وغيرهم، قالوا: فلما سمع الشيخ منه ذلك اللوم والعتاب لبس نعليه أمامه وتقنع وحل الحزامة منه وقال له: كنا نظن أن قصدكم من سلوك طريق أهل الله وجه الله تعالى. وأن مقصودكم هو لا غيره من الحظوظ النفسية، فلما علمنا منكم ذلك صرمنا حبلكم، وقطعنا فيه وصلكم. وأما من حيث القطب الذي لمتنى في أخذ طريقه: فإنك لو علمت ما عنده لما لمتنى، ولكن من لم يذق العسل لا يعرف حلاوته:

دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى ... فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

وأنشد لسان حاله قائلا:

أيها العاذلون عذلى دعوه ... فأنا من بحبهم سلبوه
لا تلوموا فليس يجدى ملامى ... إذ فؤادى من قبضتى أخذوه
كيف يسلو قلب المعانى معانى ... ومعانى من بالهوى فتنوه
لولب القلب ما لسواه خلى ... مذ إليهم بهم لهم جذبوه
كل من نال بالملام فهذا لم يحل سلوه ... من شراب الغرام ما ذاقوه
لم يحل سلوه وإن هم سلوه ... فسلوه عن حاله أنصفوه
كل مرّ منهم حلو وعذب ... ذاك عذب إن لم يكونوا قلوه
أو بعد العيان والذوق سلوى ... لمحب إليهم قد دعوه
لا وحق الهوى وطيب التدانى ... وزفير الفؤاد إذ قربوه
ما يلى ثوب من بلى بالغرام ... من بلى إذ جمالهم أشهدوه
هكذا الحب فاقتد برجال ... صدقوا الله في الذي عاهدوه

ومن كمال صدقه في شيخه، أن كل عدو له من أهله وغيرهم ما مات حتى وضعه تحت قدمه، والجميع قد احتاجوا إليه من بعد نفورهم عنه، وكراهتهم له، إلى أن صاروا لا

يُنسبون إلا إليه، مع كثرة آبائهم وولايتهم، وعظمتهم عند الله تعالى، وذلك بسبب صدقه، والتفات الشيخ إليه، قال الشيخ محمد النور ولد عربى رحمه الله تعالى: ما رأيت سيدى الشيخ ﷺ ينسب لأحد منه عليه إلا لسيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، وكنت ملازمًا للاجازات وكتابتها، فما رأيت إجازة صدرت منه عليها ختمه إلا وهى بسند سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، قال: ونحن على ذلك، ومن شذ عن ذلك فقد انقطع عنه المدد من حيث لا يدرى. وخان إمامه المذكور، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ آية.

حدثنى الشيخ عبد القادر ولد بان النقا رحمه الله تعالى- وكان من الوارثين لحال الشيخ، ومن المقربين عنده، والمبجلين لديه- قال: جاء رجل من اليعقوباب فقال للشيخ: أعطى طريقة جدى الشيخ بان النقا الضرير أبى يعقوب، فقال له: ابعثه لي من قبره حتى أبايعه، وأعطيك بعد ذلك طريقه، ثم قال: ليس عندى طريقة أعطيها لأحد، إلا طريقة القطب الأعظم، سيدى الشيخ أحمد الطيب، ﷺ.

صادق ما خان عهدًا أبدا	ولذا للقصد كلا وجدا
ما لهته النفس حتى قال ما	فيه حال موجب سوء الردى

فلنرجع إلى ما نحن فيه فنقول: ثم إنه بعد أن أذنه سيدى الشيخ ﷺ بالرجوع إلى الصعيد رجع واجتهد في الطريق اجتهادًا كثيرًا، فانهل عليه من سمائها فيض غزيز، وانقاد إليه الناس ملوكًا وأحرارًا، وعبيدًا وأخيارًا، وسعداء وأبرارًا، وأشياخًا وشبانًا، وعربانًا وعجمانًا. وكان ﷺ محبوبًا عند الكافة، وجيهًا في الدنيا والآخرة، وكان قد أثنى عليه الصالحون والأخيار كثيرًا. فمن ذلك قول شيخنا في حقه: إنه وضع قدمه على قدمه أبى القاسم الجنيد.

حدثنى الفقيه المكى ولد مساعد، صنو الخليفة الماحى ولد الجبارة، قال: سمعت سيدى السيد الحسن الميرغنى ﷺ يقول: ما بقى من الأولياء المرشدين في يومنا هذا إلا اثنان: والدنا السيد محمد عثمان بمكة، والشيخ محمد التوم ببلاد السودان.

ومن أدبه ﷺ وتواضعه أنه لا يرى نفسه فوق أحد من الخلق، بل يراها دون كل شخص؛ ولذا أعطاه الله تعالى من الرفعة والمكانة والشرف ما لم يعطه لأحد في بلادنا.

وقد جاء في الخبر عنه ﷺ: «من تواضع لله رفعه» الخ. وقد دفن المترجم نفسه في أرض

الخمول، وما أحب الوصول حتى أحبه الوصول، وما تكنى بكنية زور، ولا تمشى في طريق الغرور.

فياليت أنى قد رأيته ساعة	وشاهدته حتى ولو لمح ناظرى
ثوى في فؤادى حبه فأنا به	ألوذ دوامًا في العشا والبواكر
فما خان عهدًا في الطريق ولا ولا	يميل لنفس أو حديث الخواطر
فمن كان من أهل الطريقة ماشيًا	على نهجه فليبشرن بالبشائر

ومن تواضعه وكمال محبته، أنه كان إذا قدم عليه إنسان، وأعلمه أنه من جهة سيدى الشيخ، فإنه ينزل من فراشه، ويتأدب معه أدبًا، كأنه بين يدى الشيخ ﷺ. حدثنى تلميذه الشيخ على ولد شرف الدين الحلاوى قال: جاءه رجل يقال له طلحة الفلاتى، وأنا بين يديه، فقال له: إني كنت سابقًا أخذت الطريقة على سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، واليوم أحب أن أجددها عليك، فانقبض الشيخ من كلامه وقال له: لا طريقة لك عندنا، بعد أن أخذتها على القطب الأعظم، ولكن أخوة ووداد، فأنت أخى وأنا أخوك. وكان عند نزول سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى بسنار وسماعه به، أمر بطعام فصنع، وحمله من محله على رأسه إلى أن وصل به سنار، ولم يكن أحد يساعده فيه، وقال لتلامذته: لكل منا ومنكم أدبه مع شيخه.

حدثنى سيدى الشيخ أبو صالح بن القطب سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، قال: كنت يومئذ مع الشيخ إبراهيم، فلما وضع الشيخ محمد التوم الطعام بين يديه، تعجب من ذلك جميع أكابر سنار، وشهدوا بفضله وكماله، وملكه لنفسه، وصدق محبته قال: فلما رأيت حاله طلبت منه إعطاء الطريق، فأعطانى إياه، ثم قال لي: كذلك أنت اعطنى الطريقة، فقلت له: لم ذلك! فقال: ليخف عنى وعنك أثقاله. فأعطيته إياه، كما أخذته أولا منه، ثم طلب الشيخ إبراهيم غسل ثيابه في ذلك اليوم، فأخذها الشيخ محمد التوم وأمرنى أن أذهب معه إلى البحر. فصار هو يغسل، وأنا أصب له الماء، إلى أن فرغ منها، وكان الوقت صيفًا فأثر الحر فيه تأثيرًا شديدًا، ولم أره تأثر منه ولا تأذى، بل في غاية الفرح والسرور اهـ.

ومن شدة محبته، وصدق نيته، أنه لما توفى والدنا سيدى الأستاذ نور الدائم، أرسلت إليه رسالة بوفاته، فبكى عليه كثيرًا وحزن حزنًا شديدًا، ثم أمر بتلك الرسالة فخيطت في

وسادته التي ينام عليها، ولا زال حافظًا لها إلى أن مات، رحمه الله تعالى، ثم رأيتها عند خليفته من بعده، وكان يجلهًا ويصونها، ولا أدرى هل هي الآن موجودة أم أخذتها يد الضياع.

ومن كراماته ﷺ ما أخبرني به أحمد ولد الشيخ الرازقي قال: سافرت في بعض السنين وضللت عن الطريق، وكان المحل مخوفًا، فاستعنت بسيدى الشيخ ﷺ. فرأيته يمشى أمامي وعليه قميص، وما زال ماشيًا أمامي إلى أن أوصلني بيوتًا فيها بعض من الناس، فانصرف عني.

ومنها ما حدثني به الفاضل الكامل الشيخ عبد القادر ولد بان النقا، رحمه الله تعالى، عند اجتماعه بنا في الأبيض عهد المهدية قال: كان رجل من تلامذة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ مقيما بموضع، فمر الشيخ عوض الجيد الخالدى رحمه الله تعالى على ذلك الموضع، ونزل بقرب الرجل المذكور، فلما رأى جمال الرجل ونورانيته غبطه ونوى على مصادمته بالحال، فهيأ الله له (كلبيده)، وهى معروفة بين أهالى الصعيد، فرمى بها ذلك الرجل، فتلقاها سيدى الشيخ محمد التوم برجله، وصرفها عن الرجل قبل أن تصل إليه، فصار الشيخ عوض الجيد يتعجب من همة الشيخ وما صنعه، ويقول: لله درك يا توم، وكان المجلس غاصًا بالناس، فتعجب الجمع من كلامه الذي قاله من غير مناسبة، ثم قال: من لم يترك له أبوه أخًا مثل الشيخ محمد التوم لعبت به الرجال، فصار أهل المجلس يسأل بعضهم بعضًا عن معنى هذا الكلام فلم يعرفوه حتى أخبرهم به تلميذ سيدى الشيخ أحمد الطيب المذكور.

ومنها ما أخبرني به العالم الفقيه إبراهيم ولد زروق رحمه الله، وكان من تلامذته في الطريق، قال: توجهنا إلى الحج وزيارة النبى ﷺ عام تسع وخمسين من بعد المائتين والألف، وكان الشيخ يومئذ على قيد الحياة، قال فرأيته يوم وقوفنا بعرفات، وهو واقف معنا، وعلى عاتقه قربة مملوءة ماء، وهو يسقى الناس منها، فلما دنوت منه أعطانى كوزًا فيه ماء فشربت منه، وأردت أن أقبّل يده فحجب عنى ﷺ. ومنها ما هو أشهر من أن يذكر. وهو أن رجلا اتهم ببلاد الغرب بقتل شخص، فحبس في سجن ملك تلك البلدة، فاستغاث بسيدى الشيخ محمد التوم ﷺ. وذلك في ليلة عيد فلما تجمعت الناس، وارتفعت الشمس خطفه بقيوده ووضعه في حلقته والناس ينظرون؛ والأصح في هذه الرواية أن الشيخ خطفه ليلا وأمر من معه من الفقراء بكتمان أمره.

ومنها ما أخبرنى به الرجل الكامل الفقيه أحمد ولد الفقيه عمر بن الفقيه أحمد ولد بقادى رحمه الله، قال: إن رجلا من بنى عمنا أولاد بقادى لغز الشيخ ﷺ بكلمة علمية، فمن ذلك اليوم مارئى أنه صلى وقتًا من الأوقات، وسلب منه العلم والقرآن.

ومنها أن الفقيه أحمد ولد سوميت- أحد علماء سنار- لما أنكر عليه جُن لوقته، حتى أخذه أهله وراحوا به إلى الشيخ فأقيم مدة مقيدًا ثم شفى، وأخذ عليه الطريق وصار فيه من الصادقين المحبين.

ومنها ما حكاه الفقيه سليمان ولد أبى شمال قال: كنت مقيما ببعض السنين بشبونة مدرسًا فيها للقرآن، فرأيت درويشًا من دراويش الشيخ، فأسمعته ما أعضبه من كلمات الإنكار، فلما جن الليل ونمت، رأيت الشيخ محمد التوم واقفًا أمامى وبيده عكاز. فضرب به الأرض وقال: ألك تصريف في بلادنا! فقلت: ليس لى فيها شئ. فقال؛ إذا طلعت النجمة- يعنى التي تخرج قرب الفجر- وانت بمحلك هذا يكون طلوع روحك معها، قال: فانتبهت مذعورًا خائفًا لا أشك في وقوع ذلك، لما تحققته من حال الشيخ ﷺ، فأسررت بهذا الكلام إلى بعض تلامذتى، وقلت لهم الحقوا بى فإنه لا إقامة لى بعد هذا بهذا المكان. قال: فمشيت وحدى خوفًا من وعيده؛ فلما طلعت النجمة خرجت إلى بلاد أخرى، وما عدت إلى ذلك الموضع إلى يومنا هذا، خوفًا من سطوة الشيخ وبطشه اهـ.

قلت: والذى أقول به إن كرامات الشيخ لو كتبت لملأت مجلدين ضخمين، وفيما ذكر كفاية لأولى البصائر.

وقد أثنى عليه ﷺ نظما ونثرًا خلائق لا يحصون عددًا. فمن ذلك قصيدة الفقيه عبد الله ولد الفقيه محمد على العباسى، التي امتدحه بها على سور القرآن، وهى قصيدة لطيفة المعنى- منها:

قمر كساه الله نور جماله ... وخبا له الرحمن خبية مكرم

وأسح ماء المزن في أسحاره ... سح الغديق الناشى نحو المشأم

قبب الحديد حصونه وفنونه ... نزرى مجادلة الحديد الدّ خصم

وليَومُ حشر السالكين بسوحه ... يوم امتحان ويم عيد المسلم

كم أم صف القوم عند وفودهم ... فى جُمْعَةٍ أوداجها الليل العمى

تـــرك النفـــاق منـــافقون بوعظـــه إذ بـــان غـــبن في تغـــابنهم شـــم
بـــت الطـــلاق لهـــذه الـــدنيا كمـــا آل عـــن الأخـــرى بتحـــريم حمـــى
فلـــذا حـــوى الملـــك المخـــصص فيهمـــا وأنيـــل ســـر النـــون والقلـــم الـــسمى

إلى أن قال:

لـــولاك قـــد عـــبس الزمـــان وكـــوّرت شمـــس الفـــلاح فـــلا فـــلاح لآدمـــى

إلى أن قال:

فـــى الله مـــا ألهـــاكم الغـــير الـــسوى والعـــصر عـــصرك فـــاعطنى أو أحـــرم
ويـــل لكـــل الباغـــضين لكـــم كمـــا صبت علـى الفيـل الحصاة وكـم رمـى

إلى أن قال:

والـــدين ديـــن الله أنـــت وليـــه والكـوثر الـصافى سـقاية مـن ظمـى

إلى أن قال:

قـــد جـــاء نـــصر الله والفـــتح الـــذى عـــم الـــبلاد فـــصيحها والأعجـــم
تبـــت يـــدا أخناســـكم تبًـــا لأن واليـــت بـــالإخلاص ذكـــر الـــدائم
ولكـــم مـــدى فلـــق الـــصباح مواهـــب يـــا واهبًـــا للنـــاس هـــب للنـــاظم

وقد أرسل إليه من رفاعة بعض محبيه، وهو الفاضل الأديب الشيخ بابكر بدرى قصيدة امتدحه بها وهى هذه:

نـــار الـــدجى وتبلجـــت أغـــساقه وزهـت تطـول علـى الـضحى أعناقـه
والكـــون زان وأســـفرت أرجـــاؤه وتهطلـــت للمـــستقى أوداقـــه
ربـــت الجـــزور وأينعـــت ثمراتهـــا والزهـــر راق وظللـــت أوراقـــه
مـن عهـد مـا بـرز الـذي مـن أجلـه حـــاز الولايـــة في الـــورى ســـباقه

وتدلت الأغصان تحمل أنعمًا ... ودنت فيجني ما يشا مشتاقه

لم لا، وبدر (التوم) منذ تمامه ... ما كان من نقص عراه محاقه

كلا ولا عرض الخسوف بموته ... بل لا يزال على المدى إشراقه

أمحمد فلأنتم باب التقى ... للداخلين بغيركم إغلاقه

كل الأنام ببركم متيمن ... وبذكرهم يحلو الحديث سياقه

إن كان من كرم أنى وكرامة ... فالشيخ كم عمرت بذا أسواقه

فالجود بالمشهود والمكنون قد ... شهدت به لأولى النهى آفاقه

ومن الكرامات الخوارق أنه ... لم يستفزه عن الهدى إحراقه

مستمسك متمذهب متنسك ... لم يخط عن نهج الهدى إنساقه

ولأرنب ذبحوا بمدينة صائد ... أحيي ومن بعد الشرى إطلاقه

وكذا ابن كنان بدت له ألسن ... من فيه إذ يبدو لها مصداقه

فالشيخ ابن الشيخ جده فاضل ... متسلسل في الكاملين لحاقه

كل بنو يعقوب شمس هداية ... لكنه خضعت إليه رفاقه

هل ضامر ومضمر من أجله ... متساويان إذا أريد سباقه

يا درة زان المهاد بضمها ... ومفاخرًا بدر السماء نطاقه

كم كاسد في العاجلات وآجل ... بك صار من سجن الكسود نفاقه

ومكبل بالمعضلات يؤمكم ... متحلحل قبل الوصول وثاقه

هذا أبو بكر ببابك عاكف ... يرجو إلى خير الأمور مساقه

يشكو إليكم ضر نشر مسه ... متجرعًا ما لا يطاق مذاقه

فقد الحسين وأخته في عامهم ... ومن التجارة عطلت أرزاقه

مع أنني في المقتدين حبيبكم ... وابن العقيدة لا يليق محاقه

وخــدمت تابوتًــا تــضمن قــبركم وغبطــت مــن كحلــت بكــم آماقــه
ثـم الـصلاة مـع الـسلام علـى الـذي وســع الخليقــة مــشفقًا أخلاقــه
وعلـى صـحابته الكـرام أولى النهـى مــا صــيغ للممــدوح شمــر ســاقه
بــصلاحه كـــل المريـــد مـــؤرخ وبـــه الـــبلا للملتجـــى إرتاقـــه

ولنا فيه من قصيدة:

فالاســـم تـــوأم والحقيقـــة أنـــه فـــرد بـــنص شـــهادة الألبـــاب
خمــر وخمــار بــه قــد أســكرت أمــم وفــازت بعــد نيــل شــراب

وقد أرشد ﷺ في الطريقة رجالا لا يحصون عددًا، منهم الشيخ محمد النور ولد عربى والشيخ طلحة بن حسين الفلاتى، والشيخ عبد القادر ولد بان النقا المكنى بأبى الحسنى، ومنهم الشيخ برير الجعلى دفين شبشه، والشيخ خوجلى ولد أحمد الكاهلى، والشيخ الباقر بن النور الوالى، والشيخ عبد الله ولد الشيخ يعقوب الدويحى، والشيخ عبد الحى شيخ الشريف العبيد القاطن (بأبى رخم)، وقد سألته رحمه الله وقت نزولى عنده، حين أتينا من زيارة سيدى الشيخ محمد التوم، سنة تسع وثمانين من بعد المائتين والألف، وقلت له: هل اجتمعت بسيدى الشيخ محمد التوم ﷺ؟ فقال: ما اجتمعت به في عمرى قط، لأن شيخنا الشريف عبد الحى كان إذا سافر لزيارة سيدى الشيخ محمد التوم يخلفنى في المسجد، ولذلك ما أمكننى رؤيته ﷺ.

ومن تلامذته أيضًا الشيخ على ولد جريو، والشيخ المصطفى ولد محمد الركابى، والشيخ بان النقا ولد حجر، والشيخ بساطى المشهور، والشيخ زهوده الأمى الرفاعى، والشيخ عوض البرارى العقلى، والشيخ محمد ولد سعد الجعلى، والشيخ منوفلى ولد الشيخ عبد الرحمن البريابى، والشيخ البله ولد أحمد نزيل الرهد، والشيخ مضوى ولد شابلى، والشيخ البخارى ولد عبد الله، والشيخ المهدى ولد الطيب ولد عبد اللطيف، صنو سيدى الشيخ أحمد الطيب، وسيدى الشيخ أو صالح بن القطب المذكور، والشريف الحسين ابن الشريف مصطفى، والمقدم موسى ولد الحاج، والمقدم محمد ولد الأب، والفقيه على الشايقى المشهور بتعليم القرآن، والفقيه موسى ولد نوه الحميدانى القاطن بعبود، والشيخ حامد ولد جلال

الدين، وخليفته الشيخ عبد القادر ولد الخضر، وخليفته أيضًا الشيخ هجو ولد عبد القادر، وأخوه الشيخ شرف الدين ولد بان النقا، وغير ذلك من الخلفاء والمشايخ. وبالجملة إن خلفاءه في الطريقة هم مشايخ الإسلام، وبدور الأنام، وما من أحد منهم إلا وله كرامات كثيرة، وأحوال شهيرة، وهم يبلغون تقريبًا ثلاثمائة خليفة، وقد زرته ﷺ بعد وفاته عام تسعين من بعد المائتين والألف في يوم عيد. فرأيت حلقة ذكره معطرة بالأسرار، لائحة على أهلها الأنوار، وما ذلك إلا لكثرة مدده وفيوضاته، وخيراته وبركاته.

وقـل مـا شـئت فيـه مـن مـديح تجـده فـوق مـا نطـق المـديح

توفى ﷺ عند ظهر الأحد لستة أيام خلت من شهر ذي القعدة الحرام عام ثمانية وستين بعد المائتين والألف، وله من العمر ثلاث وثمانون سنة، ودفن بمحله من الفجر، وبنى على قبره خليفته الشيخ عبد القادر ولد الخضر قبة، ولا زال الناس يترددون إلى زيارته كما في حياته ﷺ ثم إن تلك القبة قد جددها بالبناء خليفته الثالث، المبارك ظاهره، المصلوح باطنه، الشيخ هجو ولد عبد القادر الماصع، بناء محكمًا. بلغه الله في الدارين أمله، وأحسن بالصالحات علمه، وهو نعم الخليفة.

ورث الأكـابر واعتنـى بطـريقهم لا شـك يبلـغ في العـلا مـا رامـه

● ومنهم رب المزايا الظاهرة، والآيات الباهرة، والكرامات الخارقة، والأنوار الشارقة، والفيوضات المتواترة، والأسرار الباهرة، قطب السالكين، وبحر المسترشدين، واحد العصر والأوان، وفريد الدهر والزمان، سيدى وأستاذى الشيخ القرشى بن الزين بن الفقيه على البزعى.

كان ﷺ رضاعه من سيدى الشيخ أحمد البصير وفطامه على يد القطب الأكبر سيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره، وفى إجازته عن الشيخ أحمد البصير رحمه الله ما صورته: هذه الإجازة من الحق تبارك وتعالى، على لسان نبيه محمد ﷺ.

وكان ﷺ قد اجتهد في الطريقة اجتهادًا ما سمع لغيره، وكثرًا ما كان يدخل الخلوة الاربعينية، وربما اكتفى فيها بثلاث لقيمات فقط، كما أخبرنى بذلك عن نفسه.

وكان ﷺ كثير الاجتماع بالخضر عليه السلام، وربما غلب عليه الحال وقال له: خذ عنى الطريق.

وكان ورده في كل ليلة من الهيللة سبعين ألفًا، ومن القرآن خمسة أجزاء، وربما صلى بالثلث منه تهجدًا، وكثيراً ما كان يصلى بين المغرب والعشاء بالسُّبع من القرآن، وله ﷺ في الصلاة على النبي ﷺ وغيرها من الأوراد ما يقارب ما ذكرناه مقدارًا، وأحواله في العبادات والطاعات لا تحصرها الأقلام، ولا تدركها الأفهام.

وقد غلبت عليه في آخر عمره المشاهدة والأفنية، والتخلق بأخلاق شيخه سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، وكان لا يجلس ولا يقوم إلا بذكر الشيخ ﷺ.

وأخبرنى رحمه الله أنه لم ير مطلقًا عيبًا في من ينسب إلى سيدى الشيخ ﷺ وإن أساء، بل ولو أحد جاء من السافل فإنه لا يرى عليه اعوجاجًا أبدًا. فقلت له قولك هذا شبيه بقول قيس ليلى حيث قال:

أحـــب لحبهـــا الـــسودان حتـــى حببـــت لحبهـــا ســـود الكـــلاب

قال: وهو لسان حالى اليوم. وكان إذا نقل إليه كلام من أحد من أولاد الشيخ ﷺ، يريد به الأذى وتفرقة القلوب، فإنه يتغير على الناقل ويغضب، وربما دعا عليه بشر فأهلكه، وما رأيت أحدًا يراعى أبناء مشايخه مثله.

وكان ﷺ نورانى الطلعة، كأنه القمر عند تمامه، طيب الرائحة، كأنه الروض عند ابتسامه، وله التصريف فيمن يشاء، من عزل وتولية وغير ذلك. وكم رأينا له من عجائب وبركات وخوارق عادات، وهو بلا شك أمين مشايخه على أسرارهم، ووارث معارفهم وأنوارهم.

وقد بلغ ﷺ في الولاية مبلغًا دونه الأفكار، ووصل إلى محل لم تصل إليه ألسن الأشعار. حدثنى الحاج عبد الله بن الحاج عبد الحفيظ الأحمدى الدفارى، وكان من أهل المعرفة والذوق، قال: سألت شيخنا الشيخ إبراهيم الرشيد، وهو يومئذ بمكة عن مقاق الشيخ القرشى ﷺ، فقال لي: هو قطب الشمال، وكثيرًا ما كنت أسمع منه كلامًا تفهم منه سلطنته على أهل زمانه، وكان كثير الصمت، متجنبًا عن الدعوى وعبارات الوهم.

وقد ظهرت على يده كرامات شتى: منها ما رأيته بعينى: وهو أنه أتى إليه بصبى من الحلاوين يقال له عبد الرحيم ولد خوجلى، وكان مقعدًا منذ أعوام، فوضعته أمه بين يديه بعد صلاة المغرب، فلما أراد الوقوف بعدها لصلاة النفل كعادته، أقسمت عليه أم الولد بالله

تعالى أن لا يصلى حتى يعافى ابنها، ومسكت على قدميه فضاق عند ذلك صدره، ثم أخذ سبحته بيده وضرب بها ذلك الصبى فوقف في الحال، كأنما نشط من عقال، ثم هرول إلى أن دخل الجامع، واستمر به الشفاء إلى أن توفى بعد مدة، وهذه الواقعة شاهدها معى نحو ستين أو خمسين شخصًا.

ومنها ما أخبرنى به بعض تلامذته قال: كنت معه بالبحر الأبيض زمن زواجه بابنه الشيخ أحمد البصير هناك، فتكلمت معه يومًا في كرامات الأولياء، وخوارق الأصفياء، فسكت عن التكلم معى، ثم قال لي: يا فلان، قم على قدميك وانظر إلى بيتنا الذي بالحلاوين هل تم بناؤه أم لا؟ قال: وكان هذا البيت تركناه يبنون فيه، فلما وقفت قائمًا كما أمرنى، رأيت ذلك البيت بعينى وبه نقص لم يكمل بناؤه، وأخبرته بذلك فقال نعم، وكانت المسافة التي بين الحلاوين والبحر الأبيض نحوًا من يومين.

ومنها ما أخبرنى به تلميذه الشيخ أحمد إبراهيم رحمه الله تعالى قال: كنت معه بكر دفان، فلما قرب أوان العيد دخل الخلوة كعادته، وكان يومئذ ليس عنده قميص يلبسه، وكان يخرج من خلوته يوم العيد، فعظم علينا ذلك، فلما خرج من الخلوة في يوم العيد رأينا عليه قميصًا جميلا فتعجبنا منه، ثم سألناه عنه، فقال: بعثه إلى سيدى أبو العباس المرسى ﷺ.

ومنها ما حدثنى به بعض الأصدقاء من تلامذته ومن أثق به منهم قال طلبنى الشيخ ليلا حين كنت مقيمًا معه، فلما حضرت بين يديه وجدت عنده رجلا مقيدًا، فأمرنى أن أذهب به إلى شجرة بقربه، وأن أفك عنه القيد، وكان هو ﷺ معنا، فسألته عن الرجل، فقال لي: هذا أمر مكتوم، ثم سألت الرجل المذكور خفية فقال: الأولياء يفعلون، فعلمت أنه مخطوف من بلاد بعيدة، بشاهد أن لسانه خلاف الألسن المعلومة لدينا، ثم إنه ﷺ أمره بالذهاب، فحجب عنا ولم ندر أين توجه.

ومنها حكاية الأرانيط المشهورة، وتصرفه فيهم حتى أنهم هلكوا جميعًا، ومنها أنه مرض مرضًا أشرف فيه على الهلاك، فوقع في خاطرى أن أسأله أن يسأل الله التأخير والفسحة في الأجل، فدخلت عليه ومعى الشيخ الخضر، وتكلمت معه في ذلك، وذكرت له صغر أولاده واحتياج المريدين إليه، فقال: كم ترغبون؟ فقلت: نرغب عشرين سنة. قال: لا أطيق ذلك، فالآخرة خير وأبقى. قلنا تكفينا عشرة من السنين. قال: أرضيتم بها؟ قلنا: نعم. فأمرنا بأذكار كثيرة وأعطانا لها أعدادًا تكاد تستغرق النهار من أوله، وكان ذلك بعد صلاة العصر، وقال لنا: إن لم تفرغوا من هذه الأعداد قبل الغروب فلا حياة لنا، فمنا من

عنده على شفقة، وفرقنا تلك الأعداد قبل الغروب فلا حياة لنا، فقمنا من عنده على شفقة، وفرقنا تلك الأعداد على المريدين، وكانوا كثيرين جدًا، إلا أن الغالب عليهم الحزن في تلك الساعة وذهول العقل، فاشتغلت أنا ومعى منهم جماعة، فلما دنا غروب الشمس ورأيت عجز الهمم عن إيفاء تلك الأعداد، دخلت عليه وقلت له: قد تمت تلك الأعداد. وذلك لما في حياته من النفع العام في الدين وإصلاح المسلمين: فسكت طويلا ثم سمعته يقول: أبا يزيد أبا يزيد ثلاث مرات، ثم نادانى باسمى وقال: قد حصلت الإجابة اذهب إلى محلك، فذهبت من وقتى، فأصبح ﷺ بعد انتظار وفاته على أتم حاله من الصحة والعافية، إلا أنه كان في تلك السنين التي طلبناها منه كثير الأمراض فقيل له في ذلك، فقال: لعدم تمام الأوراد.

قلت لا يعترض على هذا معترض بأن الآيات القرآنية صريحة في عدم الزيادة في الأجل بالتأخير، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ آية، فإن ذلك ما لم تكن ثم أسباب إن أتى بها يكون التأخير كهذه القصة، وقد جاء في الحديث: إن الصدقة تزيد في العمر. وبالجملة فإن من طالع الفتوحات المكية، والطبقات الشعرانية، عرف صحة هذا. وكراماته ﷺ لا تحصى، ومناقبه لا تستقصى، وقد أرشد ﷺ في الطريقة والقرآن أممًا، وجميع المساجد التي ببلاد الحلاوين بل وغيرها تنسب إليه.

وأما تلاميذه في الطريقة فكثيرون جدًا، وخلف خلفاء كثيرين: منهم الشيخ أحمد الكوقلى، والشيخ الخضر ولد أبى لكيلك، والفقية عبد المولى بن الطريف المغاويرى إلا أن المشهور عند أولاده وأهل تلك الجهة انتسابه للطريقة الختمية، والفقيه بخيت ولد نعيم الصلحى، والشيخ أحمد ولد الشيخ أبى صالح الطيبى، والفقيه محمد ولد المادح الشهير بالقلع الجموعى، وأولاد الفقيه محمد ولد كوك؛ أحمد وإخوانه، والشريف الأبيض الحسنى الحنفى نزيل رفاعة، والعلامة مورى أحمد الشنجيطى، مع شهرته بالطريقة القادرية والشاذلية، وبعد أخذه عن الشيخ زارنا في موضعنا ومدحنا بقصيدة مطلعها:

ســلام لــه ريــا الكبــا والقرنفــل	لوجــه كبــدر الــتم أو كالــسجنجل
وكــالخمر ممزوجًــا بمــاء ســحابة	بــروح ويغــدو مــع جنــوب وشمــال
إلى عابــد المحمـــود يــوفى بحقــه	جميعًــا ويعطــى حــق مقــداره للعلــى
ويخـــبر أنـــا زائـــروه ولـــو علـــى	حفــا ركــب الأيــدى وأطــراف أرجــل

وممن أخذ عنه أيضًا: الشيخ أحمد ولد محمد ولد إبراهيم، والشيخ إبراهيم ولد أحمد ولد عالم، والشيخ البشير بن الحاج عبد الله الكنانى- إلا أنه حدث بينه وبين بعض أولاد الشيخ القرشى شيء فنسب نفسه لغيره، لكن أصول الطريقة لا تقبل ذلك- والرجل الصالح الفقيه أحمد ولد حمادّ القاطن بالكبر، كما أخبرنى بذلك عن نفسه، والفقيه عثمان ولد بَلَلّ الحلاوى، وله قصائد شتى يمدح بها شيخه المترجم، والشيخ محمد ولد عمر صاحب المسجد الذي بأبى جلفة، والحسن المجذوب بن الحاج أحمد الخضر، والعلامة الورع الشيخ محمد ولد الخبير، وأخوه الفاضل الحاج محمد ولد العالم الألمعى والفاضل اللوذعى الشيخ عبد الله، والخليفة مدثر ابن الحاج أحمد ولد سنهورى، والعالم سالم البزعى وولده، وخليفته الشيخ عبد الرحمن، والفاضل الصالح الشيخ البشير بن سيدى الشيخ نور الدائم، والشيخ محمد شريف، وأخوه الشيخ عبد المجيد- إلا أنهما بعد أخذهما وإجازته لهما قد رجعًا إلى نسبتهم في الطريق لأبيهم سيدى الأستاذ نور الدائم ﷺ- والشيخ عبد الجبار، وبعض أولاد سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، والعبد الفقير مؤلف هذا الكتاب، وكذلك الفقيه محمد النور وعثمان أخوه أولاد الفقيه أحمد ولد الفقيه السيد ولد حماد. وقد امتدحه الفقيه عثمان بقصيدة لطيفة مطلعها:

ألمع برق بدا في أجمل الحلل ... أم ضوء شمس أضا في السهل والجبل

أم ليلة القدر وافت في وقائعها ... دجنة فأضاء النور للمقل

أم حضرة الذات جلت عن مشابهة ... أفاضت النور والأسرار بالجمل

لمن ثوى في سنام المجد مرتقيًا ... أعلى المقامات بالأذكار والعمل

طود منيف وغوث نستغيث به ... دنيا وأخرى إذا ضاقت عرى الحيل

له الكرامات والأحوال ظاهرة ... ينسيك ما قد مضى من سادة أول

إلى أن قال:

قطب الدوائر لا يعلوه ذو شرف ... فالصالحون له كالأرض من زحل

إلى أن قال:

يا صاح شمر ولازم قطبنا القرشى ... محيى موات قلوب من عمى الجهل

وانــدب لــساحته إن كنــت في ضــجر كئيــب قلــب تَعُــد وأنــت في جــذل
مــــن أمّ ســـــاحته في نيـــل مأربـــه يـؤوب ذا ظفـر في الخـصب والمحـل

إلى أن قال:

مـــاذا أقـــول وفيـــه كـــل منقبـــة خـصوا بهـا مـن ثـووا في رتبـة الحمـل
يــا ســيد العلمــاء يــا ملجــأ الغربــا ويــا مــلاذ أولى التقــصير والوجــل
ارحــم عبيــدك عثمانًــا بجــائزة مـن سـر سـركمو يـا واهـب الجمـل
فأنت عـزى وكنـزى حيـث كنـت متـى أرى النــوال بكـم كالعــارض الهطـل
وعـم إخواننــا بــالفيض يــا ســندى وارم العــداة بــسهم الهــم والنكــل
أحيــي الــبلاد إلهــي دائمًــا أبــدا بقطبنــا مــن ثــوى في أفخــر النــزل
نجـاه مـن سـاد كـل الرسـل قاطبـة وفــاز بــالقرب كالقوســين في المثــل
صــلى عليـــه إلهـــي دائمًـــا أبـــدا الآل والـصحب مـن سـادوا لكـل ولى
وتـابعيهم مـدى مـا قـال منـشدها ألـمع بــرق بــدا في أجمــل الحلــل

ولنا فيه من قصيدة في مدحه ﷺ:

عتبـت علـى مـن لـيس تبـصر عينـه بحـــب لأســـتاذ عظـــيم علـــى نـــور
غـــدا آيـــة بـــين الأنـــام ورحمـــة فعمـــت بإحـــسان وخـــير ســـرور
وروضـي بأزهارهـا الفـضائل مـشرق فطلعتـــه الزهـــراء حكـــت لبـــدور
هـو القرشـي يالـه مـن فتـى بـه انـ ـــجلت كُـــرب شـــتى وكـــل شـــرور
فـزره تجـد مـا رمتـه مـن مقاصـد وفـــيض وإرشـــاد وحـــسن حبـــور

توفى ﷺ ظهر الجمعة، لخمس وعشرين يومًا مضت من رجب الحرام سنة ألف ومائتين وخمسة وتسعين، وله من العمر ست وثمانون سنة، ودفن ضحوة السبت، وصلى عليه مؤلف هذه المناقب رحمه الله الرحمة الواسعة.

ومن تلامذته ﷺ خاتمة عصره فضلا ونبلا السيد محمد أحمد المهدى بن عبد الله.

وهذه نبذة تتعلق بأخباره:

ولد رحمه الله تعالى بلبب، إحدى جزائر الأشراف بد نقلة، وهو ينسب إلى الإمام الحسن بن على ﷺ وإلى الحسين. وأمّه من بني العباس، وجده الأعلى حاج شريف، وهو شهير بالولاية، وسمعت من أولاده أنهم ينسبونه في الطريق إلى سيدى عبد السلام بن مشيش.

ومن بعد ولادته قد ارتحل به والده وتوطن بكررى، وله إخوان، وتوفى والدة ثمة.

وقد نشأ المذكور نشأة مباركة على العبادة والصيانة والصدق والأمانة والتعفف عن كل ما يوجب قدحًا في المروءة.

وقد قرأ القرآن العظيم والعلم على مشايخ الوقت، وتنبل وتفوق وحاز قصب السبق في مضمار المعارف والعوارف، ثم اقتفى أثر السادة الصوفية بمطالعة كتبهم والتخلق بأخلاقهم والتأدب بآدابهم.

واجتمع في ذلك الوقت بالأستاذ محمد شريف بن سيدى الأستاذ نور الدائم، فأخذ الطريقة عليه، وبذل جهده في خدمته ومحبته، وصار علمًا بين أقرانه في الزهد والعفاف، والاستقامة على الشريعة، التنوير بأنوار الحقيقة. وظهرت له كرامات: حدثنى شيخه قال: حدثنى المقدم طلحة المحمدى– وهو أحد تلامذته حاكيًا عنه– قال: كنت معه جالسًا في موضع يتعبد فيه. فلما حرّ النهار رأيت الطير وهو يظله. وسار في الطريقة سيرًا لم يسمع لغيره، وقد ذبح نفسه بمدية المخالفة لها، وكان يحمل على رأسه العجين إذا قدم لشيخه نحو اليوم، ويمشى حافيًا، ويهدى له الهدايا الواسعة الكثيرة التي لم تسهل من مريد غيره. وقد أخبرنى هو عن نفسه قال: كنت إذا زرت سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ فإنى أطرح نفسى على عتبة قبته، وأكلم الناس أن يطئوا على ظهرى عند مرورهم إلى زيارته وقاية للعتبة، وذلك من ضحوة اليوم إلى الظهر، وغير ذلك من عجائبه التواضعية والانكسارية، وسلامة نفسه من النزعات الشيطانية. ولم يزل مع شيخه على حالة الوفاء والصفاء إلى أن تم نحو أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وكان شيخه قد أجازه في تلك السنين في الطريق واشتهر فيها، وأخذ عليه الجم الغفير. وكانت تلامذته تبلغ العدد الكبير من الأعداد، وله خلفاء كثيرون جدًا.

ثم إنه بعد تلك المدة المذكورة قد أحبت نفسه الانتقال إلى صحبة عارف وقته ليكمل له

المقصود، وهو العارف الربانى شيخنا الشيخ القرشى بن الزين ﷺ، فانتقل إليه هو وتلامذته، وأخذ عليه الطريق لكن بإذن من سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ. هكذا حدثنى شيخنا مشافهة، وقد لازمه ملازمة الشبلى للجنيد، ونال من بركاته وفيض بجره المديد، فأجازه الشيخ في جميع ما أجازه به الأستاذ الأكبر. ثم رجع إلى محله بجزيرة أبا، إلا أنه لم يزل يزاوره إلى أن مات شيخه المذكور ولم يحضر وفاته، وقد حضرها مؤلف هذه المناقب، وكانت لخمس وعشرين من شهر رجب الحرام ظهر الجمعة، وصلى عليه ضحوة السبت مؤلف هذا الكتاب. وكان الزمن قحطًا لعدم الأمطار، فتعلق الناس بأذيالنا وسألونا أن ندعو الله تعالى لهم أن يغيثهم بنزول الأمطار، فتوسلت بالشيخ المذكور وهو على السرير قبل الدفن فما لبثنا قليلا بعد الدفن إلا وقد نزلت وعمت الأرض، وبدل الجدب بالخصب، وهى السنة المشهورة بين الناس بالبعوضة (سنة ١٢٩٥). ثم أن المهدى لما بلغته وفاة أستاذه حضر إلى العزاء ورجع إلى موضعه، ثم أنى واشتغل ببناء قبة على قبر شيخه المذكور، فبناها في أيسر مدة، ثم رجع إلى موضعه بأبا، ودخل الخلوة بها، وذلك في عام ثمان وتسعين من بعد المائتين والألف، ومن بعد خروجه منها قد ادعى المهدية، ونشر المناشير في الأرض بدعواه ولم يبال في ذلك. وما حدث منه بعد ذلك فلا نطيل بذكره، فنحن والناس فيه سيان، وإنه مع ملكه ورفيع درجته وفوقيته، لم يجنح عما عليه من التواضع والانكسار، ومراعاة أهل الفضل، وتعظيم أهل الشرف، والكرم الواسع، والقلب الخاشع، والأدب؛ لاسيما مع أبناء مشايخه.

وقد كان حين دعا مؤلف هذه المناقب للقدوم عليه. والإقامة معه، يحمل له الطعام على رأسه المرة بعد المرة على رؤوس الأشهاد، وتارة يقول له: إن جميع حسناتى التي كتبها الله لي أهديتها لك، وغير ذلك. واعلم أن ثنائى عليه بما ذكر من باب النصيحة ليس إلا، لا لدنيا أصبتها منه أو جاه، وإنما كنت في زمنه مضاعًا لا أملك شيئًا، ولا دابة أركب عليها، مع أنى قد كنت قبل قدومى عليه غنيًا ببلادى، وما ذاك إلا من خواصه؛ لأن نفوسهم فيها شيء من جهتنا، فلم يسمعوه فينا ما يوجب هدية أو تعظيمًا، ولا زالوا معاكسين له فيما يريده معنا من الكرامة، والذي يفعله معنا من هذا القبيل إنما كان يأتيه بحكم طبعه بغير رضى منهم، وذلك بسبب ما أوصله إليهم الحسدة، إلا أننا نشكره على حمايتنا منهم. وقد كتب فينا المناشير العديدة بالأوصاف الحميدة، إلا أن حالهم لا يقول إلا كما قال إخوانهم من قبل: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ آية الخ. وسيحكم الله بيننا وبينهم في يوم الجمع المشهود، وترد مظلمتنا منهم ومن كل حسود.

وما كان في عهد الخليفة عبد الله من أذيته لنا فهو غنى عن التفصيل، وما زال المهدى رحمه الله تعالى معنا على حالة الصفاء إلى أن توفى عند اشتداد ضحى يوم الاثنين، لثمان خلت من رمضان، عام اثنين من بعد الألف والثلاثمائة من الهجرة النبوية، وصلى عليه خليفته الخليفة عبد الله ظهر ذلك اليوم. ثم من بعد مواراته بالدفن قد بويع خليفته المذكور بالخلافة ولحسن ظن المهدى فيه قد أحبه الناس وبايعوه على السمع والطاعة، وانقادوا له كانقيادهم للمهدى.

● ومنهم العارف بالله (الشيخ على ولد العطا. كان ﷺ) من الذاكرين الله كثيرًا، وقد دخل مرة في حمرة للعبادة سبع سنين صائمًا قائمًا.

ومن كراماته أن رجلا يقال له أحمد المادح قد ذبح طائرًا ودخل به عليه، وقال له: يا سيدى إن مثل هذا كيف يحييه الأولياء! فأخذه منه ثم وضعه في كفه فصار حيًا.

ومن فيوضاته ما أخبرنى به عبد المحمود بن أحمد الشبلى القلنجاوى، قال: حدثنى ونيه شاعر الشيخ على ولد العطا وتلميذه. قال: طلب واحد من إخواننا تلامذة الشيخ منه أن يمده بسر من عنده، فأمره الشيخ أن يرضاد لذلك فأبى، وألح على الشيخ في ذلك، فصاح الشيخ رحمه الله صيحة قائلا: هو، ثم صاح بعده ذلك المريد قائلا: قيوم، فمات في تلك الساعة. قال الشيخ: فببركة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ وجاهه عند ربه، ما مات حتى دخل القطبانية. وله من التلامذة الشيخ موسى ولد على العقلى، وكان سرًا من أسرار الله، وقد شوهد منه إحياء الأموات. توفى الشيخ ولد العطا بميراو ودفن بها، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم العارف بالله (الشريف النور ولد الطاهر). كان ﷺ ممن جاهد في الله حق جهاده، وعلا قدره بين أهل الطريق لحسن استعداده، حدثنى الشيخ حمد النيل بن الشيخ أحمد الريح رحمهما الله تعالى قال: قد رأيته كثير الاجتهاد والعبادة، وما رأيت في زمنى أكثر منه في ذلك. وله معرفة وبالاسم الأعظم وتصريف عجيب وكشف، وكان إخوانه من تلامذة الشيخ ﷺ كثيرًا ما يزورونه في محله، كالشيخ محمد ولد على، والشيخ يعقوب الحفيظى وغيرهما، وكان الشريف بلد ولد رحمة الله إذا حصل به راء فإنه يأمره أن يرقى عليه.

ومن كراماته ﷺ أنه كان يومًا جالسًا قريبًا من البحر، فانشق ما تحته من الأرض ووقع بثوبه، فخرج منه ولم يبتل من ثوبه شيء. وقد انتفع به في الطريقة جماعة منهم ولده الكامل الفاضل الشريف محمد، والشيخ حبيب الله ولد أحمد الباسطابى وغيرهما.

توفى ﷺ بمحله من كركود، ودفن بأم سنط، وقبره بها يزار، قال مؤلفه وقد زرته.

• ومنهم (الشريف محمد ولد نورين خال الشريف النور ولد الظاهر) هذا، وكان عند مجيئه من بلده (الفجيجة) للطريقة مع ابن أخته هذا قد أدخله ﷺ الخلوة، فاجتمع فيها في أول ليلة بالخضر ﷺ، فسقاه كأسًا من أسرار الله تعالى، وكثر صياحه حتى ظن الناس أنه لا يعيش. ثم إن الشيخ أخرجه من الخلوة فأفاق على علم وكشف واطلاع غيب عجيب، ثم أجازه الشيخ ﷺ في الطريقة وتوجه إلى الصعيد، ثم إلى بلاد الحمران فسكن بها، وظهرت منه خوارق لا تحصى، ثم توفى ﷺ بها، ودفن بمحله منها، وقبره ظاهر يزار.

• ومنهم (الشيخ محمد بن الحاج النور البريابى)، كان رحمه الله من خواص تلامذة الشيخ ﷺ، وكان له معرفة بالاسم الأعظم، وله مع الله حال غريب.

حدثنى الشريف محمد ولد الشريف النور الله قال: كان بين والدى والشيخ محمد بن الحاج النور مؤاخاة واتحاد في عصر الشيخ ﷺ، وكثيرًا ما أراه في بعض الأحيان يبكى فأسأله عن ذلك فيقول لي: ذكرت أخى الشيخ محمد ولد الحاج النور وما كان عليه من الأسرار.

حدثنى شيخنا رحمه الله تعالى قال: جاءنا هنا بالحلاوين فرأيته ينام إلى أن يطلع الفجر، ثم إذا قام رأى كأن الشمس تطلع من جبينه.

ومن كراماته ما أخبرنى به الفقيه فضل السيد ولد حسين تلميذ الشيخ قال: قد أدخله سيدى الشيخ ﷺ الخلوة سبعة أيام، فلما تمت السبعة الأيام أمرنى أن أحدثه أن يخرج منها، ونهانى أن لا أمشى أمامه، فلما خرج تأخرت عنه ماشيًا خلفه، فرأيت ثوبه قد مس شجرة خضراء كانت من سَلَم، فإذا بمحل مسه صار نارًا فأحرقت الشجرة في الحال.

ومنها ما حدثنى به أخى الشيخ البشير بن سيدى الأستاذ نور الدائم قال: حدثتنى ستنا بنت الشيخ زوجة الشيخ محمد النور ولد الحاج المذكور، قالت: كان إذا حصل له توقف في آية من القرآن ليلا يطلب المصحف فيخرج من أصبعه نور كالسراج إلى أن يقرأ الآية ثم يعود لحالته.

ومن دعائه ﷺ: اللهم لا تجعل خوفى من نارك، ولا طمعى في جنتك، واجعلنى من عبادك المخلصين لوجهك، المتثلين لأمرك، الغائبين في حبك، والمتلذذين بنظرك، اللهم اجعل حبك في وحبى فيك، واجعل اشتغالى بك حتى ألاقيك، إنك على كل شيء قدير.

توفى ﷺ بالبر باب ودفن مع آبائه، وقبره من بينهم ظاهر يزار.

● ومنهم (البهارى ولد الشيخ الفاضل العامرى). وجدته لأمه هدية بنت الشيخ أحمد ولد الطريفى، أوصله الشيخ ﷺ إلى الله عند المبايعة، فبلغ من الكمالات قاصيها، وجنى من ثم العرفان دانيها، وكان بينه وبين جده الشيخ يوسف ﷺ مصادمة شهيرة يطول شرحها.

توفى رحمه الله بأبى دون من تقلى، وقبره به يزار.

● ومنهم الأستاذ الكبير والعلم الشهير مربى المريدين ومرشد السالكين (سيدى الشيخ بُشرى- بضم الباء الموحدة- ابن بشير)، وهو من الرحمان، كان رحمه الله شافعى المذهب، وله فيه مؤلفات شتى، أخذ الطريقة على الشيخ ﷺ بإشارة من النبي ﷺ، فأوصله إلى الله تعالى في ثالث يوم أخذه للطريقة، وأمره بعد أن كتب له الأجازة في الطريقة بالذهاب إلى بلده لإرشاد المريدين، وزار في حال ذهابه وتوجهه الشيخ أحمد البصير ﷺ، فأقام عنده أيامًا ثم توجه إلى بلاده، فلما دخلها أخبر أن من صلى خلفه لم تأكله النار، فهرع إليه من جميع جهاتهم، وكانوا إذا صلوا خلفه يحملون في ثيابهم البن واللحم، فإذا فرغوا من صلاتهم رجعوا إلى أوطانهم ووضعوا ذلك البن واللحم على النار اختبارًا، فلم تؤثر فيه بشيء. فلما علموا صدق مقالته وكرامته كثر انقيادهم إليه جدًا من جميع الجهات، وأخذوا عليه الطريقة، وأقبلوا عليه بكليتهم ظاهرًا وباطنًا. وقد خلف ﷺ في الطريقة السمانية اثنى عشر ألف خليفة ببلاده، وقد اجتمعت بكثير منهم وغيرهم من تلامذته، والكل على نور من ربه.

توفى ﷺ ببلده، ودفن بقتى منها، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الشريف عبد الوهاب بن عبد الرحمن الحسنى)، كان ﷺ كثير السياحة والاشتغال بمحبة الشيخ ﷺ وذكره، وقد عمر في الدنيا طويلا، ثم توفى رحمه الله تعالى.

● ومنهم (الفقيه على ولد قرشى الحلاوى)، كان رحمه الله من الصالحين، وقد أجازه الشيخ ﷺ بعد كمال التربية في غالب ما كان عليه وفى طريقته وكتب الإجازة بخطة الشريف، وكان رحمه الله وجيهًا مقبولا بين الناس وحكام زمانه لا ترد له كلمه، ولا تختال عليه همة، مواظبًا على الأذكار وتعليم القرآن إلى أن مات، ومسجده بالحلاوين معمور بالبركات والخيرات، وقد تقدم لك في هذا الكتاب ذكره، وإرشاد الشيخ له بالقرآن في سبعة أيام.

توفى ﷺ بالحلاوين ودفن بها، وقبره يزار.

● ومنهم (الشريف عبد الكريم) المدفون بالجبل المسمى ببيلة. كان رحمه الله زاهدًا، صائمًا، قائمًا، كثير الزهد، معروفًا بين أهل زمانه بالصدق والعفة، وكان أكثر أكله التمر

الهندى والنبق ونحوه، مما لا يقتاته الناس. وكان أخذه على الشيخ ﷺ للطريقة الخلوتية، كما أخبرنى بذلك بعض تلامذته.

● ومنهم (الشيخ يعقوب الحفيظى) كان ﷺ من رجال الغيب، وله في التصوف حكم عجيبة تشهد بفتحه وغزارة علمه وفضله. ومن كرامته ما حدثنى به الشريف محمد بن الشريف النور رحمه الله تعالى، قال: أخبرنى تلميذ له يقال له محمد ولد حسين الرفاعى قال: زرته بهجو مرة، فرأيته لما قام ليله وطلعت عليه الشمس تطور على شخصين. وكان له رحمه الله مع الشريف بله ولد رحمة الله مصادمات بالأحوال، وكل منهما تصرف في الآخر.

توفى رحمه الله بهجو ودفن بها، وكان سبب موته حر أنوار المشاهدة.

● ومنهم الفقيه الصالح، والولى الناصح، والطود الواضح، (المصرى ولد قنديل). كان ﷺ من الأولياء الكبار. والصوفية الأخيار، جميل الطلعة، رفيع الهمة، وكان الناس يشتاقون لرؤيته اشتياق الظمآن إلى الماء البارد، والحميم إلى الحميم الراشد، وكان أوحد أهل زمانه ورعًا وعفة، وزهادة وهمة، وذكرًا ومجدًا، وصيانة ورشدًا. وكان ظاهره في تعليم القرآن، وباطنه في مشاهدة الملك الديان.

وقد أرشد ﷺ في القرآن أممًا لا يحصون عددًا، منهم الفقيه أحمد ولد كنان، والشيخ إبراهيم الدسوقى ﷺ سيدى الأستاذ الشيخ أحمد الطيب قدس سره. وكان إذا حصل به الحال يجلس على نار القرآن حال لهبها ووقودها.

أخبرنى السعيد ولد الصديق أحد تلامذة الفقية سالم ولد رابح. قال: أرسل شيخنا الفقية سالم يومًا بعض تلامذته إلى تلميذه المصرى المذكور، ليعطيه شيئًا يستعين به على نفقة الطلاب والضيوف، فاعتذر إليه عندما أخبره بذلك، ثم رأى أن رد رسول شيخه بلا شيء صعب عليه، فأخذ طينة من الأرض، ووضعها في ثوب ذلك الرسول، وربطها بخيط وأمره أن لا يحله إلا بين يدي الشيخ، فلما وصل فعل ما أمره به، فإذا تلك الطينة صارت ذهبًا خالصًا، ووزنت فوجدت سبعين أوقية. وله غير ذلك من الكرامات ﷺ، وقد تقدم لك ذكره. والسبب الذي أوصله إلى سيدى الشيخ للأخذ عليه هو أخوه في الله تعالى الشيخ يعقوب بن على الدويحى.

توفى ﷺ بولد نفود ودفن به، وقبره عليه قبة ظاهر يزار.

● ومنهم (الشيخ يعقوب ولد على الدويحى)، كان ﷺ من أهل التصرف الكامل،

والقدم الفاضل، وقد انقادت له المملكة الفونجية انقيادًا ما سمع لغيره، وقد أحبه الناس حبًا شديدًا، وكان الرجل من أهل سنار وغيرها لا يحب أن يهدى له إلا أطيب أمواله. وكان القرشى الوزير الصاردى أهدى له حفيرة عظيمة وهى من علامات تصرفه، وهى باقية إلى اليوم. وقد شوهدت منه كرامات كثيرة. منها ما أخبرنى به الشيخ أحمد ولد السكوقلى رحمه الله تعالى، قال: حدثنى الفقيه أحمد ولد كنان رحمه الله قال: كنت في بدايتى إذا أشكل على شيء من مسائل الفقة أسافر من بلدى إلى مدينة سنار للفقيه أحمد ولد عيسى الأنصار لحلها لي، فذات ليلة قدمت من سار متوجهًا إلى بلدى، فإذا بنور لاح لعينى من خلوة الشيخ يعقوب الدويحى التي هو بها، فقصدتها وظننت أنه سراج. فلما استأذنت ودخلت على الشيخ فإذا هو نور يبدو من جبينه، وله غير ذلك من الكرامات.

توفى رحمه الله براشد ودفن بها، وقبره طاهر يزار.

● ومنهم (الشريف ولد الكابى الأبيضابى). كان رحمه الله من أهل الهيام والغرام، وله مع الله حال عجيب وكرامات ظاهرة بين أهل بلاده. منها أن أولاد البقر كانت تشكو إليه إذا حصل لها من أهلها ضياع؛ فيرسل للواحد منهم ويمنعه من ذلك.

توفى رحمه الله بالقلعة بعيس من العطيش ودفن بها.

● ومنهم الولى الكامل، والعارف الواصل، التقى النقى، الزاهد السخى، والفقيه (عبد الله ولد أبى الحسن العرمابى).

كان ﷺ زاهدًا عابدًا، ومشهودًا راشدًا، ذاكرًا حامدًا، راكعًا ساجدًا. مشهورًا بين أهل زمانة بكل خصلة جميلة وحالة جليلة.

وقد أمده الشيخ ﷺ بمدد لا ينكر، وبرشده الألسنة تشير وتشكر، وكان يحبه حبًا كثيرًا، وأرسل معه بعض أولاده ليعلمه القرآن. وكان له ﷺ إجابة أسرع من البرق، وخوارق وكرامات شهيرة بين أهل زمانه. منها أن زوجته فاطمة بنت الفقيه محمد الأغبش قد قتل الأسد لها بقرة. فضاق صدرها لذلك، وأوعدته أن لا تقيم معه إلا أن يحضر لها ذلك الأسد، فأرسل له بعض تلامذته فجاءوا به إليها، فلما رأت الكرامة طاب خاطرها، وأخذت عصًا وضربته بها فولى هاربًا، وكان ذلك مشهورًا. ومنها أن الحسانية كانوا إذا شنوا الغارة على بلده فإنهم يسمعون عند قربهم منه حركة الرجال والخيل فينهزمون لذلك، وهكذا كان دأبه معهم.

توفى رحمه الله بالقويز من البحر الأبيض، ودفن به، وقبره ظاهر يزار.

• ومنهم ولي الله المشهور، زاهد أهل زمانه في دار الغرور، الذي أسس بنيانه على تقوى من الله في أول يوم، واجتهد في الطريقة حتى لحق بأكابر القوم، الولي المشهور، والكنز المدخور، علم الهداية، المسربل بجلباب الولاية، الورع الزاهد، التقى العابد، الشبيه بالسلف الصالح قولا وفعلا، الراجح ميزانه على أهل زمانه إخلاصًا وعملا. شيخنا (الشيخ الأمين، الفقيه المبين، ابن محمد بن الأمين بن محمد فرح باسكيل الرباطى)، ووالدته تسمى أم حقين، وقد حصلت شهرته بها، وهى من ذرية الملك سامكيه أحد ملوك الجموعية، وهو عزيز النسبيتين أمًا وأبًا. وهو ممن أجمع الناس على جلالة قدره وصدق سيره، وسعة خيره وولايته واعتناء الحق به، وكان لا يعرف في عمره إلا مولاه. ولا يعول في جميع أموره على سواه، قد بلغ في الزهد النهاية، وفى التوكل الكفاية، ظاهره في تعليم القرآن، وباطنه في مشاهدة الملك الديان، ليس للدنيا عنده مكانة ولا لأهلها. وقد رآه الشيخ ﷺ عند دخوله الحلفاية مع خاله الفقيه سليمان ولد حماد وهو صبى؛ فقال له الشيخ: إذهب إلى اسلانج واسكن بها، فإنه سيكون لك فيها شأن عظيم. فارتحل إليها وأقام بها إلى أن كان له فيها ما كان، من شهرة الخير والإرشاد في القرآن، ورفعة قدره بين عوالم البلدان؛ ثم من بعد بلوغه قد ذهب إلى الشيخ وأخذ عليه الطريقة، ونظر إليه بعين الرضا فصار من رجال التحقيق.

حدثنى تلميذه الحاج ولد دفع الله البحيرابى قال: قد سمع مرة ثناء أحد عليه في شعر، فقال: والله كل مدح حرام، إلا ما كان لسيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ.

قال: وسمعته يقول لمن بالشرق من أهله وتلامذته؛ لا تدفنوا موتاكم هنا، ولكن اذهبوا بهم إلى الغرب، فإن ذلك الموضع ممن أكرم الله تعالى به سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، فلا يعذب مدفون فيه ولو استحق العذاب. وقد شاهدنا ذلك مرارًا وتكرارًا في تلامذتنا المقبورين فيه وغيرهم، قال: ومن ذلك أن عندى تلميذًا من أهل حلة (النوبة) رأيته لما مات في أحسن حال، وتعظيم وإجلال، فقلت له: بم نلت هذه الحالة؟! فقال: بدفنى في الموضع الذي أكرم الله به سيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره إكرامًا له. والموضع المذكور هو ما بين الشيخ ﷺ والشيخ عبد المحمود أبى شيبة العركى، وقيل من العقبة إلى كررى، وقيل إلى بلاد الجموعية، وقد تقدم ذلك في الروض النضير. وكان ﷺ صوامًا قوامًا، لا يلذ له في عمره إلا هما، قليل الأكل والشرب جدًا.

لقــد طلّــق الــدنيا وفــاز بقــصده   مــن القــرب لله العظــيم بــلا مــين

وليٌّ كسى من نور مولاه خلعة فأضحى بها للنفس يحلو وللعين
أمين على الأسرار بل هو معدن لتقوى الإله والفضائل والزين

وكان ﷺ خاليًا عن الإنكار، سليما من الدعوى ووهم الأفكار، وقد اعتقده الناس اعتقادًا زائدًا، ورأوا منه كرامات وخوارق وحالا راشدًا.

ومن كراماته رحمه الله ما أخبرنى به الشريف أحمد المشيشى رحمه الله قال: إنه قدّم إلينا ذات يوم طعامًا، فلما كمل أدامه أخذ بيده كوزًا وغرف به ماء وصبه على طعامه فصار عسلا خالصًا.

ومنها ما أخبر به الحاج حسن ولد بلول- تلميذ السيد أحمد بن إدريس القاطن بعقبة قرى- قال: كان الفقيه الأمين ﷺ كثير الذهاب إلى البيت الحرام بالليل، وكان يغشانى في ذهابه، فقلت له يومًا: أخبرنى ما الذي أقدرك على هذا، وبأى شيء تكون هذه السرعة العجيبة الشأن، في الذهاب إلى البيت الحرام والإتيان؟ فقال: فرغ بالك لترى ذلك عيانًا، فنزلت سحابة خفيفة في الحال مكتوب عليها ﴿ يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ آية فركب عليها وأخذته كالبرق الخاطف، فعلمت بذلك أمره.

ومنها كثرة بركة أبنائه، فكان ابنه الحسن حسنًا كاسمه، والصافى صافٍ كاسمه. والمصطفى مصطفى كاسمه وعبد الله عبدًا لله تعالى وتحقق بالعبودية، ومد بأسرار الربوبية، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ آية.

توفى الفقيه الأمين رحمه الله عام إحدى وسبعين من بعد المائتين والألف بالجزيرة أسلانج ودفن بالغرب، وبنيت على قبره قبة عظيمة، وقبره هناك ظاهر يزار.

● ومنهم (الفقيه سليمان ولد حماد الجموعى)، خال الفقيه الأمين المذكور كان رحمه الله على قدم الصدق، وله نية صالحة وكلمة نافذة، وهو السبب في اتصال ابن اخته المتقدم ذكره بالشيخ ﷺ.

توفى رحمه الله بالحلفاية ودفن بها، وقبره يزار.

● ومنهم صاحب الآيات الشهيرة، والخوارق الكثيرة، (الشيخ محمد أبو قرن الجامعى). كان ﷺ فريدًا بين أقرانه، رفيعًا في شأنه، وله كرامات لا تحصى.

منها أنه كثيرًا ما يرى وهو طائر في الهواء، ومنها ما حدثني به الفقيه عبد القادر ولد سعد قال: رأيته يتكلم عن الجنين في بطن أمه بالذكور أو الأنوثة، ويقع الأمر على قوله. ومنها ما حدثني به الفقيه يس ولد عبد الله الدويحى قال: سمعت الحاج حمد الغبشاوى يومًا يتكلم في كرامات الشيخ محمد أبى قرن، فذكر أنه كان يتكلم مرة في كرامات الأولياء، ومناقب الأصفياء، ثم قال: إن الولى الكامل لو أشار إلى هذه الأطيار- وكانت على شجرة بقرب مجلسه- فإنها تنزل بين يده من غير استيحاش، فما استتم كلامه إلا وقد نزلت بين يديه.

وقال: قد زرته يوم بعد موته، وقلت عند وقوفى عند قبره: السلام عليك يا شيخ محمد أبى قرن فلم يجبنى، فقلت له: خلف الوعد ليس من شيم الأولياء، وكان وعدنى في مدة حياته بأنه إذا مات وجئت إلى قبره وسلمت عليه فإنه يرد علىّ السلام، ثم قلت ثانيًا مثل ذلك، فقال: وعليكم السلام يا حاج حمد أخى.

توفى ﷺ بالهوبج ودفن به، وقبره يزار.

● ومنهم صاحب النور الباهر، والسر الطاهر، والفيض الواسع، والمدد الشائع، سيدى (الشيخ محمد ولد مكى).

كان ﷺ من ذرية العارف بالله تعالى سيدى الشيخ إدريس بن الأرباب، وكان نورانى الطلعة، حتى أنه كان يقال له النورانى لشدة أنواره. حدثنى الرجل الصالح الفقيه أحمد المصطفى ابن الفقيه الأمين ولد أم حقين قال: ما رأت عينى في عمرى رجلا مثله بهجة وأنوارًا. وقد حكى الشيخ محمد ولد بدر الشهير بالعبيد في حقه مثل ذلك. وقد وصل ﷺ في الولاية مقام جده الشيخ إدريس ولد الأرباب ﷺ، كما تقدم لك في هذا الكتاب. وقد ظهرت على يده ﷺ كرامات شتى، منها ما حكاه لي ولده الشيخ إدريس رحمه الله قال: كان رجل من الجموعية يقال له محمد ولد نايل، له في الشيخ اعتقاد كبير، وكان لا يتوقى شرب الخمر والدخان، فجاء ليلاً بهدية إلى الشيخ، وكان الفقراء في غاية الاحتياج، فانشرح صدر الشيخ لها، وقال له: يا محمد الآن ألبسناك خلعة فلان- يعنى رجلا من الصالحين الذين بقر به- وألبسناه خلعتك، فأصبح محمد ولد نايل مجذوبًا مفتوحًا عليه، والرجل المذكور مسلوبًا ممقوتًا، لا يلذ له إلا شرب الخمر والدخان.

ومنها ما أخبرنى به غير واحد ممن اجتمع به عن الحاج محمد ولد حسن القاطن

بقرى، تلميذ سيدى السيد أحمد بن إدريس رحمه الله، قال: سألت سيدى الشيخ محمدًا ولد مكى ﷺ أن يوضح لي ما حصل له من سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، قال: فقال لي: لا أقدر أن أحصى ما حصل لي منه ولكن أخبرك ببعضه، إننى في كل ليلة أجتمع بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام. من آدم إلى نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام.

حدثنى الفقيه الشفيع الصاردى تلميذ الفقيه الأمين ولد أم حقين قال: زرته مرة فوجدته به الحال، ثم إنه بصق على الجهة التي أنا بها، فوقع شيء يسير من بصاقه على ظاهر يدى، فلعقته بلسانى تبركًا فما أشعر إلا وأنا على الأرض مغشيًا علىّ غائبًا عن إحساس، ثم حصل لي الصحو بعد مدة.

وقد أرشد ﷺ في الطريقة رجالا كثيرين: منهم العارف بالله تعالى الشيخ إدريس بن الأمين المسلمابى المرشد المشهور- وقد أخبرنى بعض العارفين بالله أنه كان بواب الحضرة المحمدية، والشيخ عمر بن مصطفى الربطابى، والرجل الصالح الشيخ محمد بن عبد الرحمن الشهير بالمقابلى، والشيخ محمد ولد بركات المشهور بالعوج الدرب، والخليف بركات خليفة سيدى الشيخ إدريس ولد الأرباب، والفاضل الكامل الشيخ الصديق بن سيدى الأستاذ نور الدائم، والشريف جبارة، ومحمد ولد نايل، والفقيه رضوان ولد الماحى العرمانى، وغير ذلك.

توفى ﷺ بالسروراب ودفن بها، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم الولى الراقى على أوج الكمال العارف الذي شهدت بعرفانه أهل القدم من الرجال، سيدى (الشيخ المصطفى ابن الشيخ الإمام ابن الشيخ المجذوب ابن الشيخ قسم الله ابن الشيخ أبى عاقلة أبى سنة ابن الشيخ حمد ابن الشيخ دفع الله ولد أبى إدريس العركى) القطب المشهور، رضى الله عن الجميع وأمدنا ببركاتهم. كان ﷺ ممن قدم على الشيخ بإذن من النبي ﷺ، فأرشده الشيخ ﷺ في أيام قلائل، وأنزله ما هو أهله، واعتنى به اعتناء زايدًا، ووهب له مقام جده الشيخ دفع الله ﷺ، وعلمه أيضًا الاسم الأعظم.

ومن كراماته ﷺ ما أخبر به الشيخ أحمد الريح قال: إن العزل الذي صدر للشيخ محمد ولد عدلان ليس حقيقة صدوره منى، وإنما هو من الشيخ مصطفى قدس سره، وذلك أنه حدثنى أن النبي ﷺ صرّفه في ملك الفونج، يعزل ويولى من يشاء، وأنه قد صرّفنى بإشارة منه فيه. ومن كراماته ﷺ أنه إذا أراد الذهاب إلى الشرق أو الغرب ولم يجد السفينة فإنه

يمشي على البحر، أو يفرش فروته ويجلس عليها فتجرى كالسفينة إلى أن يصل إلى البر وله غير ذلك من الكرامات.

توفى ﷺ بأبى حراز عام اثنين وخمسين بعد المائتين والألف، ودفن أما قبة جده الشيخ دفع الله ﷺ مع آبائه، وقبره ظاهر يزار، قال مؤلفه: وقد زرته.

● ومنهم الشيخ (الغزالى القاطن بعقن)، كان ﷺ من المعمرين وأهل الجذب والأحوال، وربما أخبر عما كان في عهد الأنبياء مما لا يسطر في كتاب.

● ومنهم الحاج (سوار المجذوب). كان رحمه الله يقول لسيدى الشيخ ﷺ: قد أدخلت اليوم الجنة والنار في فمى فما ملأتاه، فيبتسم الشيخ ذلك ويقول له: كلامك من الحال.

● ومنهم (الشيخ محمد ولد الفقيه يعقوب العبطى)، كان أول أخذه على يد العارف بالله تعالى سيدى الشيخ يوسف ﷺ، ثم بعد وفاته حصل له الإذن بالتوجه إلى سيدى الشيخ ﷺ والأخذ عليه، فلما وصل قدم بين يديه من الهدية خمس أواق ذهبًا وناقة وعبدًا كان ملازمًا له، فرد الشيخ عليه العبد والناقة، وفرق تلك الأواقى على الحاضرين، ثم إنه بايعه وأمره بأحد أعداد الكلمة المشهورة في طريقه، وذلك في أول ليلة من أخذه للطريقة، فما طلع فجر تلك الليلة إلا وقد فتح عليه.

أخبرنى الحاج العباس ولد أحمد ولد نصير السرورابى– وكان ممن صحبه زمنًا– قال: كان ﷺ عارفًا بلغات الطيور والأشجار وغير ذلك، وربما بيّنها وشرحها للمريدين.

توفى ﷺ بالقلابات ودفن بها.

● ومنهم (الشيخ إدريس بن محمد المسلمابى)،

كان ﷺ يخبر بالأشياء قبل وقوعها كشفًا. تولى ﷺ ببك من بعض جبال الصعيد، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم شيخ المريدين، وبهجة العارفين، (الشيخ محمد بن موسى الكيتابى)، كان ﷺ رضاعه من سيدى الشيخ مطيع ﷺ، وفطامه على يد الأستاذ الشيخ أحمد الطيب قدس سره. وكان رحمه الله تعالى من أهل العلم الظاهرى والباطنى، وله تصريف وحال عجيب مع الله تعالى حدثنى تلميذه الشيخ مكين الحمرى قال: رأيته ﷺ إذا حصل به الحال فإنه يسرى إلى جميع التلامذة، قال وكانت بقعة ذكره في الإضاءة والأنوار ليلها كنهارها.

ومن كراماته ﷺ أنه لما توفى تبع نعشه جميع الطير الذي كان على الشجر الذي بقر به جهارًا، وما تفرق حتى دفن الشيخ ﷺ. وقد أرشد في الطريقة أمما وخلف فيها نحوًا من أربعمائة خليفة، منهم الشيخ ساقة أبو أم جيران، والشيخ مكين الحمرى، والشيخ عبد الرسول، والشيخ محمد ولد على كرار التعيشى.

توفى رحمه الله تعالى بالسوانى كرو من دارفور، ودفن بها، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الشيخ ابن أحمد الجميلابى)، كان من أهل المعرفة والصدق، والقيام والصيام. وله كرامات شهيرة ببلده، وقد أرشد جماعة في الطريقة، وانقاد له غالب أهل بلده وانتفعوا به. وقد تقدم في فصل الكرامات سبب أخذه على الشيخ وطلبه قبله للمشايخ المرشدين.

توفى رحمه الله تعالى ببلده من الصبح ودفن به، وقبره يزار.

● ومنهم (الحاج أبو عاقلة المسلمى). كان ﷺ موسوى القدم، وكان أميًا، فلما صحب الشيخ ﷺ صار يقرأ القرآن بالقراءات السبع.

أخبرنى شيخنا رحمه الله تعالى قال: كان أبو عاقلة كثير الإخبار بالغيب والمكاشفات، وكان الشيخ ينهاه عن ذلك، فاجتمع في بعض الأحيان بسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، فقال له ﷺ: كل ولى على قدم نبي وأنت على قدمي. فكما أن الكلام مع الله تعالى لم يضرنى فكذلك أنت. فقدم على الشيخ ليخبره بذلك، فقال له ﷺ مكاشفًا لما في ضميرة: قد فهمنا ما عندك، وأذناك في الكلام أكما أذنك فيه سيدنا موسى ﷺ. وله كرامات شهيرة شائعة بين هل بلده.

توفى رحمه الله بولد أبى فروع ودفن به.

● ومنهم صاحب الكرامات الواضحة، والهمة الراسخة، (الفقيه محمد ولد عبد العليم ابن الفقيه محمد ولد عبود)

كان رحمه الله محبوبًا عند الشيخ ﷺ، وكان ممن جمع بين الشريعة والحقيقة، وقد أمده الشيخ ﷺ بمدد عظيم وحال فخيم، وكان عند اجتماعه به قد وضع الشيخ فيه شيئًا من أكسير حقيقته على نحاس طبيعته فصيره ذهبًا خالصًا.

ومن كراماته ما أخبرنى به الرجل الصالح الشيخ شاع الدين بن محمد ولد شاع الدين

الخضر رحمه الله تعالى. قال: كان إذا أتاه طالب مثلا لقراءة القرآن فإنه يقبضه بحيث لا تميل نفسه إلى شهوة فساد حتى يرجع إلى أهله. وكان عطابًا للظلمة، وقد حصلت منه تأثيرًا شتى في جنود المملكة السنارية وحكامها، وهى شائعة بين أهل بلده. قتله رحمه الله عساكر محمد سعيد الكدخد المصحوبين بشمعدان أغا ومصطفى كاشف عند لحوقهم للأرباب دفع الله بعبود، ودفن بها مع آبائه. وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الشيخ الصالح الجرارى) هذه شهرته، كان رحمه الله في ابتداء أمره أميًا، فلما فتح عليه ألف تأليفًا حسنًا، ونظم نظمًا بديعًا في الحكمة، وقد شاهدت له منظومة بديعة في علم الحرف سماها (شمسية الأشراق في علم الحروف والأوفاق) وهى أحسن ما رأيته مؤلفًا في هذا الفن.

قتل رحمه الله شهيدًا ببلاد الغرب.

● ومنهم (الفقيه فضل السيد ولد حسين الكباشى)، كان رحمه الله من الصالحين والأصفياء الذاكرين، وحكى أنه كان من أهل الاختفاء والطى، وكان تاليًا لصلاة سيدى الشيخ المسماة بسر الأسرار، وأيضًا غيرها من صلواته على النبي ﷺ، وكان قليل المنام في ليله، كثير المحبة والهدايا لأولاد الشيخ، وكان الشريف محمد الأمين ولد الهندى كثير الخشية منه إذا نزل في خلاويه، ويذكر أنه شاهد فيه من الخوارق كذا وكذا، وقد رأيته في صغرى كثير الحال، واضح القدم في طريق الرجال.

توفى رحمه الله (بجيرة) من بلاد الكبابيش، ودفن بها وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الشريف إسماعيل بن الشريف تقاديم الجعفرى النقشبندى). كان مولده ببحر الغزال، ومنه سافر إلى (دراو) وسكن بها زمنًا.

كان رحمه الله من العلماء العاملين، والصوفية الراشدين، وكان في ابتداء أمره أخذ الطريقة النقشبندية على الشيخ ﷺ وغيرها من طرائقه. وقد رأيت له رسالة عظيمة ألفها في طرائق الشيخ الخمسة، المشار إليها بقوله (نقط جم) ونظم بديعًا يشهد برسوخ قدمه فيه.

عـــرج يــا ســـعد لأحبـــابي	في بـــان غزيــــر وابــــتهج
واشـــرب بالقلـــب مدامتــــه	واقتـــف آثـــارى بالــــسرج
حتـــى تـــدعوك هواتفــــه	ببـــشائر جـــذب منعـــرج

وارقــص في البيــد بــه طربًــا واصـــب لـــصباه وابـــتهج
رنم للعـــيس إذا ســـجعت وُرق البانـــات صـــوت شـــجي

وقد انقاد إليه كثير من أهل الصعيد، وأخذوا عليه الطريق. وكان أهل بلاده من الريف لا يبغون به بدلا، وقد شاهدوامنه كرامات وخوارق وتولية وعزلا في حكامهم. وقد جلس عند دخوله مصر على فراش محمد على باشا فتغير خاطره لذلك، وأحضر بعضًا من علماء الأزهر يمتحنونه فما استطاعوا. وكان كثير التطوير والعبادة وتلاوة القرآن، وكثيرًا ما كان يختمه بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، وكان لا يقبل من الهدايا إلا الأسلحة فقط، كالبنادق والسيوف وغيرها. وتوجه في آخر عمره إلى مكة، ثم جمع كثيرًا من الدراويش وغيرهم، وتوجه بهم لمحاربة الإنجليز باليمن، ففُقد عند ملاقاته لهم، ولم يقف أحد له على خبر إلى يومنا هذا.

● ومنهم الولى الصالح، العلامة الشهير الفقيه، (محمد ولد الفقيه سالم العودى)، الشهير بولد قطبى. كان رحمه الله من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وكان معمور السريرة بالتقوى والخوف من الله تعالى، كثير العبادة، كامل الزهادة، وكان ممن اعتنى به الشيخ ﷺ فأرشده وأثنى عليه. وحكى أنه يجتمع بالخضر عليه السلام.

توفى رحمه الله (بقوز العلم) ودفن مع آبائه، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الفقيه إبراهيم ولد الفقيه سالم)، صنو الفقيه محمد المتقدم ذكره. كان رحمه الله ممن شغلهم الله بحبه، وأدناهم لقربه. وقد بغلنا أن أخاه الفقيه محمدًا كان يتعجب من علو همته، وصدق سيره ونيته، وقد بالغ في الذكر والعبادة حتى حصل به الحال، وهجر النساء وجميع المشاهي والمستلذات، ومازال في ازدياد وفيض، وكما حال مع الله تعالى إلى أن توفى (بالقوز) ودفن مع أبائه، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الفقيه أمين ولد مكى المسلمى نزيل (الكنجر)، كان رحمه الله من ذوى الهمة والصدق والقرب من حضرة الشيخ ﷺ، وقد وازر الشيخ كثيرًا في الشدائد، وما زال مستغرقًا في محبته إلى أن توفى رحمه الله.

● ومنهم (الفقيه أحمدولد الشيخ عبد الدافع الحميدانى)، صنو الفقيه إبراهيم المفتى، كان رحمه الله تقيًا نقيًا، مباركًا مرضيًا، سليم الصدر، قوى العزم في الإقبال على الله تعالى

والسير، وكان شيخنا كثيرًا ما يذكره بمحبة الشيخ، وصدق النية في الله تعالى. وما زال حاله مباركا، وعمله مستمرًا إلى أن توفى رحمه الله بالحلفاية، ودفن مع آبائه، وقبره يزار.

● ومنهم جليل القدر، كامل الآثار (الحاج تت الفلاتى). كان رحمه الله جليلا في علم الأسرار. حدثنى الشيخ حامد ولد جلال الدين، رحمه الله تعالى عن نفسه[1] قال: كنت في ابتداء أمرى قد أخذت الطريقة على السيد محمد عثمان الميرغنى ﷺ، واجتهدت إلى أن خلفنى فيها؛ فلما اجتمعت بسيدى الشيخ ﷺ؛ ورأيت منه من الكمالات ما لم أره في غيره. أخذت عليه وانتسبت إليه وأفاض على بما لم يقدر قدره من الأسرار الربانية، والمعانى العرفانية، والحمد لله على ذلك.

ومن كراماته ما أخبر به عبد المحمود بن أحمد بن الشبلى القلنجاوى، عن أحمد ولد مدنى الجعلى قال: كنت ممن صحب الشيخ تت زمانًا، فرأيت منه كرامات شتى: منها أن امرأة من نسائه طلبت منه يومًا أن يشترى لها خادمًا تخدمها، وألحت عليه في ذلك، فأمرنى أن أحمل فأسًا وثوبًا وأن أمسى معه إلى شجر هناك، فوقفت تحت شجرة، وأمرنى أن أقطع منها عودًا على قدر قامة الإنسان، فلما فعلت ذلك أمرنى أن أضع الثوب المذكور على العود ساترًا له به، وأن أتنحى عنه قليلا بحيث أكون قريبًا منه، ثم أخذ سبحته وصار يذكر الله تعالى بهمة عالية والعود أمامه، ثم رفع صوته قائلا: بخيته- ثلاث مرات، فرأيت ذلك العود تحرك ثم صار أمة فأمرنى أن أمسكها بيدى، فأخذتها إلى أن أوصلتها لزوجته، فعاشت عندها زمنًا طويلا ثم توفيت.

فإن قيل: ما ذكر تموه من قلب العود أمة كرامة يخالف ما قاله الإمام القشيرى ونصه: «الكرامات تكون خارقة للعادة ولا تنتهى إلى حصول إنسان بلا أبزين أو قلب جماد ببهيمة أو نحو ذلك». قلت: ما قاله الإمام القشيرى ضعيف، فقد اعترضه الزركشى فى شرح جمع الجوامع بأنه ضعيف قائلا: والجمهور على خلافه، وقد أنكره عليه حتى ولده أبو نصر في كتابه المرشد، وإمام الحرمين في الإرشاد، والنووى في شرح مسلم، انظر شرح الكمال ابن أبى شريف[2] اهـ. إذا علمت هذا فلا مانع مما ذكرناه، فإن القدرة صالحة والقادر لا يعجزه شيء.

وقد أخذ عن الشيخ تت المذكور السر جماعة، منهم الكامل الفاضل الفقيه عبد الله ولد الفقيه محمد على العباسى وغيره.

١- لعله يريد: حدثنى عنه- أي عن الحاج تت الفلاتى.

٢- ويسمى: الدرر اللوامع شرح جمع الجوامع.

توفى رحمه الله بأم شراد من بلاد الحمده، قريبًا من بيضاء والسعيف، ودفن هناك، وقبره يزار.

● ومنهم (القاضى محمد ولد الحاج الضو السرورابى) كان له في الشيخ اعتقاد قوى، واهتمام بذكر أحواله وأخلاقه وكراماته، ولا زال على ذلك إلى أن توفى ببلده.

● ومنهم (هجو الصبحاوى). كان رحمه الله من الذاكرين الله كثيرًا، وكان شغله السياحة ودوام المراقبة، وقد أخبرنى أنه ترك الأكل منذ عشرين سنة، ما عدا اللبن وما شابهه في الخفة، وكان له كشف بليغ، ثم سأل الله تعالى فحجبه عنه، كان ليله ونهاره، وظعنه وقراره سواء عليه في حال الذكر إلى أن توفى رحمه الله.

● ومنهم (محمد ولد أبى شامة)، كان رحمه الله من ذرية الشيخ شرف الدين راجل (انقاوى)، وكان ذاكرًا صادقًا، وقد قبله الشيخ ﷺ قبولاً تامًا، حتى وأنه قد زوجه ببعض بناته، وما زال مقيما معه إلى أن توفى رحمه الله ودفن بأم مرح.

● ومنهم (العطا العقلى)، أخبرنى الحاج العباس ولد أحمد ولد نصير قال: اجتمعت معه بالصعيد فإذا وجهه كأنه القمر.

● ومنهم (أبو بكر ولد أبى القاسم الضوابى)، كان رحمه الله من المريدين الصادقين، وقد أخبر الشيخ ﷺ أنه قد أدخله القطبانية بعد موته، وأن من زاره سبع جُمع لم تأكله النار، وقد تقدم لك ذكره في هذا الكتاب.

توفى رحمه الله بالضوّاب ودفن بها، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الفقيه عبد القادر ولد سعد) رحمه الله، كان ممن يضرب به المثل في محبه الشيخ ﷺ. وقد بشره الشيخ في مدة حياته ببشائر، وكان كثير التستر بالمزح والضحك، معمور السريرة بالله تعالى، وكان له معرفة بسيرة الشيخ ومناقبه وأحواله. وكان لا يخرج ذكر الشيخ من فمه في رخاء ولا سده، ولا غضب ولا رضاء، وقد رأيته متى ذكر الشيخ أو ذكر عنده يبكى. وقد حكى عن الفقيه الريح ولد الحاج أحمد ولد سنهورى أنه رأى منه بعض كرامات. توفى رحمه الله بالجليلى ودفن به.

● ومنهم (الشيخ محمد ولد فضل الله الصبحاوى)، كان ممن أمده الشيخ ﷺ بعظيم الأمداد، وفتح له باب العلم اللدنى ودقائق علوم الإرشاد، وكان في ابتداء أمره أميًا، ثم صار

بصحبه الشيخ يقنى في الظاهر والباطن، وله معرفة بعلم السر قيل وبالاسم الأعظم. توفى رحمه الله بأتبرة ودفن بها، وقبره يزار.

● ومنهم (الفقيه بدوى ولد أبى صفية) العلامة المشهور، الزاهد المشكور، كان أخذه للطريقة على الشيخ ﷺ بسنار، في عهد قراءته عند الفقيه أحمد ولد عيسى الأنصارى، وكان الشيخ ﷺ يخاطبه بالكتابة فيما يرى فيه إرشاده، وكان رحمه الله تعالى قد أخذ طريقة الموافقة الإسمية في عام حجه على العارف السمان بجُدة، وقد وقفت على إجازته له في ذلك وكان رحمه الله زاهدًا عالمًا عاملا لا يداهن في الدين، ولا يرضى المخلوقين بسخط رب العالمين، أنوار صدقه على ظاهره تكاد أن تفضح ما يضمره في سرائره. وكان ناصحًا للظلمة قاهرًا لهم، وما وقع منه لأحمد باشا، وإعراض فرسه عن العليف المنسوب للظلمة، كفاية في صدق حاله مع الله تعالى.

توفى رحمه الله بمحله من الأبيض ودفن به، وقبره يزار.

● ومنهم الولى الصالح، العابد الزاهد، التقى الورع، الشاكر لربه الحامد، (الشيخ أحمد بن حامد الجميلابى). كان رحمه الله قد اجتهد في الطريقة في السر والنجوى. وبلغ من الكمالات الغاية القصوى، وكان محبوبًا عند الشيخ ﷺ، وقد أمده وأشهده العجائب الغيبية، وفتح عليه من خزائن الأسرار الملكوتية، وكان مشهورًا بالبركات والخيرات والكرامات بين أهل الجميلاب وغيرهم، ولا زال على الاستقامة إلى أن توفى، عليه رحمه الله وسائر أموات المسلمين.

● ومنهم (الفقيه مدنى ولد الغبشاوى)، صنو الفقيه الحاج حمد، كان رحمه الله عابدًا صائمًا صالحًا، له بركات كثيرة توفى رحمه الله (بقوزبرة) ودفن به، وقبره يزار.

● ومنهم (الشيخ أحمد ولد عيسى)، كان رحمه الله على نهج السلف الصالح في جميع أحواله. توفى بالصلوعاب، ودفن في مقبرة الدويحى، وقبره يزار.

● ومنهم الكامل الفاضل (الحاج أحمد ولد سنهورى) القاطن بالجميعاب، كان رحمه الله من عباد الله الصالحين، والصوفية المخلصين، وقد أقام بالجميعاب بإذن من النبي ﷺ، على لسان سيدى الشيخ ﷺ، وكان رحمه الله له همة صادقة، وأحوال خارقة، وإجابة سريعة، ونفس مطيعة، وكان كريمًا حليما، وجيهًا مقبولاً عند كافة الناس، سيما الجميعاب فإنهم لا يحلفون إلا ببركته، ولا ينقادون إلا لكلمته. وله معرفة وتصريف بالاسم اللطيف،

وكرامات ظاهرة بين أهل بلده. وقد خلف أولادًا مباركين صالحين، من أجلهم وارثه في جميع أحواله الظاهرية والباطنية ولده الشيخ الريح. وكان الحاج أحمد المذكور يحبه الشيخ ﷺ كثيرًا ويؤثره على غيره، ولا حجاب بينه وبينه في كل واقعة، وهو من رجال الخصوصية الباطنية.

توفى رحمه الله بالجميعاب سنة ١٢٢٠هـ ودفن بها، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (الفقيه أحمد صائم الدهر)، المدفون (بالهوبجى) في مدفنة الشيخ محمد أبى قرن. كان صالحًا قائمًا صائمًا، سمى بذلك لكثرة صومه. ومن كراماته حينما حضرته الوفاة، وكان الوقت صيفًا أنه لما رأى شدة الحر، ومضايقة الناس من العطش قال: قال لهم: إني لا أموت حتى تمطر السماء، ويشرب الناس بأيديهم من مائها، فما لبثوا قليلا إلا وقد نزل المطر، وشربوا بأيديهم كما قال.

ثم توفى ودفن بالمحل المذكور، وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم الرجل الصالح الزاهد، الورع العابد، (الفقيه محمد ولد أحمد أبى قرين الكاهلى الشتوى). كان رحمه الله على جانب عظيم من الكمال، وكان مشهورًا بتعليم القرآن. وقد أرشد فيه جماعة منهم الزبير رحمت باشا العباسى، والشيخ الإمام ولد قادولى المحسى، والشيخ تاى الله ولد الفقيه عبد الله النغيدى. وكان له في سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ الاستغراق العظيم، فأمده بالمدد الفخيم. وقد زوج بعض بناته لخليفة الأستاذ سيدى الشيخ أبى صالح، فولدت ولدين مباركين صالحين، وهما الشيخ زين العابدين، والشيخ قريب الله، ومعهما بنات.

توفى رحمه الله ببلده، ودفن بالمسحورة مع أجداده، وقبره يزار.

● ومنهم (محمد ولد الشيخ ولد الأمين ولد سنهورى). كان رحمه الله قد انفرد للعبادة، ومكث بجبل سيدى الشيخ ﷺ عامًا كاملا، وكان له كشف صادق وحال خارق فمن كشفه أن امرأة من نساء الأكابر من السعداب بشندى قد سرق لها سوميت، فالتجأت به في رده عليها، فوصفه لها أنه عند المرأة الفلانية، فأنكرت المرأة ذلك. فقال: أرجعى إليها وقولى لها: إنه في فرجك، فخافت المرأة وخجلت، ثم إنها أخرجته من فرجها كما قال. توفى رحمه الله ببلده، ودفن مع آبائه السناهير، وقبره يزار.

● ومنهم (الفقيه الأمين ولد موسى المسيكتابى)، كان رحمه الله من الصالحين، وله اجتماع بالخضر عليه السلام ولا يعرف بين أهل بلده إلا بجليس الخضر.

توفى رحمه الله بالمسيكتاب ودفن بها، وقبره يزار.

● ومنهم (الشيخ إبراهيم بن الفقيه الوديع الخالدى) رحمه الله تعالى، كان ممن أرشده الشيخ ﷺ بعد وفاته، وكان شابًا مباركا، جميل السير، كثير الخير، نير البصير، كامل السريرة، وانتفع به في الطريقة جماعة، وقد ألف تآليف تشهد بكماله منها: (شرحه على الحكم العطائية)، (وشرحه أيضًا على الحكم الطيبية، (وشرح نظم ابن بنت المليق، المسمى بشراب القوم) شرحًا مفيدًا، وله غير ذلك.

توفى رحمه الله سنة ألف وثلاثمائة وعشرة من الهجرة بالشبيراب من الخوالدة ودفن بها، وقبره يزار.

● ومنهم الرجل الصالح (حامد الحيمادى التعيشى). حدثنى الشيخ الطاهر ابن التلب الحيمادى التجانى، قال: كان هذا الرجل من أعمامنا، وله مع الله حال عجيب، وكشف بين الناس غريب، قال: وهو الذي أشاع ببلادنا وبلاد (برقو) ذكر سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ وطرائقه.

● ومنهم (الشيخ الأمين ولد عريفى)، خال الشيخ برير ولد الحسين، كان ممن كتب له الشيخ الإجازة في الطريقة بيده، وقد اجتمعت ببعض تلامذته فرأيتهم على نور من ربهم. توفى ﷺ بهجام من كردفان ودفن به، وقبربه يزار.

● ومنهم (الحاج عبد المحمود ولد الطيب ولد الشيخ)، كان رحمه الله كثير التلاوة لدلائل الخيرات، وله معرفة بسير الشيخ وأحواله، وله مع الفقيه الأمين ولد أم حقين أخوة واتحاد، وكثيرًا ما كان الفقيه الأمين يروى عنه بعض أحوال الشيخ وكراماته. توفى رحمه الله ببلده ودفن قريبًا من قبة سيدى الشيخ ﷺ.

● ومنهم الفاضل الفقيه محمد ولد الحاج الطيب المذكور، كان رحمه الله محبوبًا عند الشيخ وقد زوجه إحدى بناته، وبشره بأنه معه في الدنيا والآخرة، وقد شاهد منه الفقيه إبراهيم المفتى ولد عبد الدافع كرامة عند رجوعه من مصر وزيارته للشيخ ﷺ، وقد ذكرنا هذا في هذا الكتاب.

توفى رحمه الله تعالى سنة اثنتين وخمسين بعد المائتين والألف، ودفن مع سيدى الشيخ ﷺ في قبته، وقبره يزار.

● ومنهم (الفقيه محمد ولد عبد الدايم)، كان رحمه الله كثير الاجتماع بسيدى الشيخ ﷺ في حياته وبعد مماته. توفى رحمه الله تعالى بمحله من (كركود) ودفن به.

● ومنهم محمد ولد عبد الواحد، كان رحمه الله مقيما بأبى حراز من كردفان مرشودًا ممدودًا، وله معرفة بسير الشيخ وأحواله.

● ومنهم (محمد ولد ساتى على ولد عبد القادر ولد الحاج شريف)، الولى المشهور، كان رحمه الله على قدم الصدق والإخلاص، وله معرفة بالطب والحكمة، وقد شاهد من الشيخ ﷺ عجائب، ذكرنا البعض منها في هذا الكتاب.

توفى رحمه الله ببلده من دنقلة ودفن به، وقبره يزار.

● ومنهم (عبد الجبار الشايقى)، كان رحمه الله صادقًا مباركًا على نور من ربه. توفى رحمه الله بأبى دوم من دنقلة، وقبره هناك يزار.

● ومنهم (الحاج المهدى ولد الزاكى) من أهل وهيب، صنو الفقيه موسى ولد الزاكى، المشهور بالعلم، المدفون بدونتاى من بلاد الصعيد، كان على الهمة في الله تعالى، صالح النية، مستمرًا على الأعمال الصالحة إلى أن توفى رحمه الله.

● ومنهم (الشيخ النعيم ولد مضوى الترابى)، كان رحمه الله من ذرية العارف بالله تعالى الشيخ حمد النحلان. وكان ورده في الهيللة سبعين ألفًا في كل ليلة، وكان الغالب عليه التستر والاشتغال بتعليم القرآن.

توفى رحمه الله بولد الترابى، وقبره هنالك يزار.

● ومنهم (عبد الوهاب الجبرتى) المدفون بسنار، حدثنى الشريف محمد بن الشريف النور قال: لقد رأيته وعلى وجهه ضياء عظيم، وقد اندرس قبره بسنار، وعند مرور العارف بالله الشيخ محمد ولد مكى أظهره للناس.

● ومنهم (الشيخ حمد ولد المعانى اليمنى)، كان رحمه الله يجمع المريد بما يريد، ويدخله في الحضرة عند مبايعته له في الطريقة.

● ومنهم العالم العلامة، الورع الفهامة، التقى النقى، (الشيخ محمد الأزرق ابن أحمد بن الفقيه حمد ولد المجذوب)، كان رحمه الله إمامًا في العلم، وطودًا في الحلم، زاهدًا عابدًا؛ وكان على قدم السلف الصالح؛ وانعقد إجماع الفضلاء على علمه وفضله وصلاحه.

وقد شوهدت منه بركات وكرامات لا تحصى.

توفي رحمه الله بمحله من القضارف ودفن به، وقبره يزار.

• ومنهم (الفقيه إبراهيم الدويحى)، عم الشيخ إبراهيم الرشيد. كان رحمه الله على قدم الصدق والإخلاص، وكان مهابًا موقرًا مكرمًا بين الناس، معتقدًا محبوبًا عندهم، وهو من ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا . وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا .﴾ آية. وكان الجن يخدمونه جهارًا.

توفي رحمه الله بالبيدج من الصعيد ودفن به، وقبره يزار.

• ومنهم العارف بالله (الشيخ محمد الصليجابى). كان رحمه الله مرشدًا واصلا كاملا معتقدًا عند الناس، لا سيما رفاعة وأهل الجبال والأحامدة. وكان كثير الفناء في الله تعالى، فلا تجده إلا وهو معه في حركاته وسكناته. وقد أرشد في الطريقة رجالا كثيرين، وخلف فيها خلفاء. وله كرامات كثيرة: منها ما حدثني به بعض أصحابنا في الطريقة قال: كنت جالسًا بين يديه فسألته عن نظر الأولياء للكعبة المشرفة كيف يكون مع بعد المسافة؟ قال: يرونها من حيث البصيرة هكذا، قال: فوالله ما استتم كلامه حتى رأيت الكعبة أمامى وقريبًا منى. ومنها ما أخبرنى به نصر ولد عمر قال: كان الشيخ رحمه الله بالجبال، وكنت يومئذ بها. فلما أراد السفر توجهنا معه، وكان معى جماعة قاصدين بلدنا السافل، فحصل بنا في الطريق عطش كاد يهلكنا جميعًا، فوبخ بعض في تلك الحالة الشيخ ولامه في تقصيره في النجدة والإغاثة، قال: اصبروا ولا تخشوا، فما مرت علينا ربع ساعة إلا وقد حصل الرى للجميع من غير شرب ما ء بحيث لا يشك أحد منا في ذلك، فشكرنا الله ومشينا ليلنا ونهارنا حتى وردنا الماء. وكان رحمه الله يحبنى ويعظمنى كثيرًا، وربما قال لي في بعض الأحيان: أنت أبو بكر الصديق، ولا أدرى معنى إشارته هذه.

توفي رحمه الله يوم الأربعاء لثلاث خلت من شوال عام خمسة وسبعين بعد المائتين والألف بجوادة ودفن بها، وقبره ظاهر يزار.

• ومنهم (حبيب الله ولد الفرضى الشويحى)، المدفون بأبى عرائش من كرمفان، كان رحمه الله أميًا في ابتداء أمره، فحصل له الإذن بالتوجه إلى سيدى الشيخ ﷺ، للأخذ عليه والانتظام في سلكه، فأرشده ﷺ إرشادًا عظيمًا شهيرًا، وفتح عليه فتحًا كبيرًا، ثم أذن له بالرجوع إلى بلده لإرشاد المريدين ونفع المسلمين، فأقام هناك وانتفع به كثير من الناس. ومن

كراماته ما حدثني به الشيخ أحمد ولد إبراهيم رحمه الله، قال: حسده بعض الناس في زمانه، ورماه بالرمايا العظام عند المقدوم[1] (مسلم) وأرسل إليه جماعة، فلما بقى بينه وبين الأبيض محل قريب، ظهرت تجاه رأسه سحابة تظله من الحر، فلما رأى المقدوم مسلم ذلك، خشى منه وخضع وتأدب، وأهدى له الهدايا الكثيرة، واعتقده ولم يسأله عن شيء مما قاله الحسدة. قال: ولم يزل قدره ساميًا، وحاله ناميًا إلى أن توفى رحمه الله.

● ومنهم (الشيخ على موز الجبرتى)، كان رحمه الله على قدم الصدق والاجتهاد، وقد نال مراده في إقباله، وجنى ثمار الطريقة بأنامل الإخلاص وحسن أعماله.

توفى في بلاد الجبرتة، وقبره هناك يزار.

● ومنهم (المصرى ولد منوفلى). كان رحمه الله من أهل كردفان، وكان الفقراء وأهل القرآن يخشون منه إن مر بهم لغيرته، وكان عطابًا للظلمة وأهل الأهوية والعجب، وقد شوهدت منه كرامات شهيرة. توفى بكردفان رحمه الله.

● ومنهم (الفقيه الجيلى ولد فضل الله)، الذي سميت به القرية التي بالسافل المسماة بالجيلى. كان رحمه الله من المستعدين للموت، المستيقظين في حالتى النطق والسكوت، وكان يلهج بذكر الموت ليلا ونهارًا، حتى كانت العامة يسمونه الموت. وكان سيدى الشيخ ﷺ أسرار الحروف الهجائية، وله فيها تصريف عجيب، كما أخبرنى بذلك عنه الشيخ محمد ولد الإمام رحمه الله. ومن كراماته رحمه الله أنه رئى مبتسما بعد موته في حالة تغسيله. توفى رحمه الله بالجيلى ودفن به، وقبره يزار.

● ومنهم (الفقيه منير ابن الفقيه محمد نور الضوّابي)، ويلقب بالمجمّر. كان رحمه الله من أهل الخير والبركة، وكان مقبولا بين أهله مجاب الدعوة.

توفى رحمه الله بالضواب وقبره يزار.

● ومنهم (الفقيه خوجلى ولد حتيك)، والد قاضى قضاة الخرطوم. كان رحمه الله على قدم الصدق والمحبة، وقد رأيت له مؤلفًا جمع فيه بعض مناقب سيدى الشيخ ﷺ، وهو يشهد بمحبته وصدق نيته وذوقه لمقامات الطريق.

● ومنهم (القطب الرشيد، والأستاذ المفيد الشيخ عبد الرحمن الفادنى ﷺ). كان أوحد

١- المقدوم لقب يطلق على رئيس القبيلة في بعض المناطق.

تلامذة سيدى الشيخ فتحًا، وكان يتكلم مع الحق تعالى، وقد تقدم لك في هذا الكتاب بعض كلامه وكمالاته.

• ومنهم (الشيخ محمد ولد بشير السرورابى)، كان رحمه الله له كشف ظاهر وحال باهر. أخبرنى الحاج العباس ولد أحمد ولد نصير قال: قال لي: إني لا أدفن إلا بالبقيع، فكان الأمر كما قال.

• ومنهم (الحاج سارى الليل بن محمد السرورابى). كان قد قرأ القرآن على الحاج أحمد البقارى، وأخذ الطريقة على سيدى الشيخ ﷺ، وانتفع به انتفاعًا تامًا، وكان كثير المحبة في الجناب النبوى، وكان سبب موته أنه سمع رجلا يمدح النبي ﷺ فوقع مغشيًا عليه ثم أفاق، ومن يومه ذلك مرض إلى أن توفى رحمه الله بالسروراب، ودفن بها، وقبره يزار.

• ومنهم (الحاج عبد الوهاب بن محمد البحيرابى)، كان رحمه الله كاملا واصلا محبوبًا عند سيدى الشيخ، وكثيرًا ما يشير إليه بالكمال والبركة، ويأمر أهل بلده بمحبته والاعتقاد فيه. ومن كراماته ما حدثنى به ولده محمد أحمد رحمه الله قال: قد رأى كثير من الناس وأهل البلد عند وفاة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ والدنا حاضرًا مع الحاضرين، مع تقدمه في الوفاة على سيدى الشيخ بسنين.

توفى رحمه الله بالسروراب ودفن بها وقبره يزار.

• ومنهم (الفقيه محمد ولد الأزيرق الجبلابى)، كان رحمه الله على قدم الإخلاص وسير الخواص، صواما قوامًا، كثير الدخول في الخلاوى، وكان له معرفة بالأسماء وخواصها وتصرف الجن، ومن كراماته أن النور قد شوهد على قبره مرارًا.

توفى رحمه الله (بأم قحف) من العليفون، ودفن بها، وقبره يزار.

• ومنهم (الحاج محمد ولد نعيم الزملى)، كان رحمه الله من المحبوبين عند سيدى الشيخ ﷺ، ومن الذين يحملون رايته في السفر، وكان كثير السؤال له من الأمور التي لا يكاد يسأله عنها أحد غيره، من خصوصيات سيدى الشيخ قدس سره، وكان كثير الذكر والسهر.

توفى بالشرق، ودفن قريبًا من قبة العارف بالله الشيخ يوسف ولد الطريفى رحمهما الله تعالى.

● ومنهم (القاضى أحمد ولد الكامل الحلاوى)، كان رحمه الله من تلامذة سيدى الشيخ يوسف واد الطريفى، ثم انتقل إلى صحبه سيدى الشيخ ﷺ، وبعد أخذه للطريقة على الشيخ توجه إلى شندى لأمر له هناك، فرأى سيدنا عزرائيل في المنام، وهو يقول له: إن أجللك قد قرب، أنحب أن أقبض روحك هنا أو ببلدك؟ فقال له: ببلدى، فرجع من يومه إلى بلده، فلما وصل انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى.

● ومنهم (محمد خير ولد برقان الشايقى)، كان رحمه الله على أثر القوم والتخلق بأخلاقهم، وقد شوهدت منه بركات، توفى قتيلا بالخرطوم رحمه الله.

● ومنهم (الحاج محمد ولد قرشى الحلاوى)، كان رحمه الله تعالى على نور من ربه، وقد حكى لي فيه محمد ولد عمر الحلاوى بعض كرامات وبركات.

توفى رحمه الله بالحلاوين، ودفن بها.

● ومنهم (الطيب ولد رحمه الجعلى الكبوشابى)، كان رحمه الله على قدم الصدق، وقد عمر زمنًا طويلا، وكان ملازمًا للذكر وقراءة دلائل الخيرات والبردة والخصائص وغيرها نحوًا من سبعين سنة، كثير الورع والعفة، وله حال مع الله تعالى.

توفى رحمه الله (بدماس) من البحر الأبيض ودفن بها وقبره يزار.

● ومنهم (الشيخ سعيد المسلمى)، كان رحمه الله من الذاكرين الله كثيرًا، وقد خدم الشيخ ﷺ سنتين، وله معرفة بسيرته وأحواله ومناقبه، وقد أخبرنى رحمه الله أنه كان إذا أرسله سيدى الشيخ إلى موضع فإن الأرض تطوى له. قال: وكثيرًا ما كان يرسلنى إلى (جبرة) فأذهب إليها وأرجع قبل تمام نصف اليوم، والحال أن بينها وبين محل سيدى الشيخ بالسير المعتاد مسافة كبيرة.

توفى رحمه الله بالشرق ودفن به، وقبره يزار.

● ومنهم (الفقيه محمد ولد المحبوب النفيعابى)، كان رحمه الله تعالى ممن نفع الله به عباده، وقد أرشد في القرآن كثيرًا من الناس، وكان كثير الميل إلى التواضع والخمول وعدم الشهرة، وقد شوهدت منه بركات كثيرة.

توفى رحمه الله بالمتمة ودفن بها، وقبره يزار.

● ومنهم (الشيخ على أبو قرادريس) من أهل الجذب بالأرض البيضاء، حدثنى من

كان معه وشاهده من أهل الله قال: رأيته ﷺ لا يأكل طعامًا ولا يلذ له منام، إلا أنه في كل يوم جمعة يأتيه ثعبان عظيم فيأكله، فإذا أكله يخف عليه الحال والجذب، قال: وهكذا حاله.

● ومنهم الولى العارف، والكامل الغارف، (الشيخ يا قوت الصليحابى الأنصارى).

كان ﷺ يا قوتًا كاسمه، وكان في جميع أنفاسه وحركاته مع الله تعالى، وقد رقى في الولاية معظمها، وكان سبب موته رحمه الله من حر أنوار المشاهدة. وله كرامات لو كتبت لملأت مجلدًا ضخمًا.

توفى رحمه الله (بقدبى) من بلاد الحبشة، ودفن بها وقبره يزار.

● ومنهم (بخارى ولد بشير)، كان رحمه الله من الصالحين، وهو الذي ابتدأ عليه والدنا قراءة القرآن وغيه من اولاد سيدى الشيخ ﷺ، وكان كثير الأحوال، صادق الأقوال.

توفى رحمه الله بأم مرح ودفن بها.

● ومنهم (ديدى بكسر الدالين المهماتين بينهما ياء ساكنة). كان رحمه الله تعالى من أهل الآيات والخوارق، وقد سكن بإذن من سيدى الشيخ ﷺ ببلاد باقرمة، وانتفع به كثير من الخلائق، ثم توفى وخلف بعده ابنه الطيب، فكان طيبًا كاسمه، ولكل من الوالد والوالد كرامات شهيرة ببلدهما.

● ومنهم (الشريف إبراهيم العايدى)، كان رحمه الله على حالة الاستقامة والكرم والتواضع لله تعالى، وكان وجيهًا مقبولا مشهورًا عند الخلق بالفضل والكمال وإجابة الدعوة والكشف، وكانت إقامته بسنار، ثم انتقل إلى الخرطوم.

وتوفى رحمه الله به مقتولا.

● ومنهم (الشيخ حسن بن آدم المجذوب الكنجارى) القاطن بالخرطوم، بل وصاحب التصريف به. أخبرنى ابن أخيه ساقة قال: إن جدى آدم من تلامذة سيدى الشيخ ﷺ، وممن أرشده على يديه، فأخذ في بعض زياراته حسنًا المذكور، وتوجه به إلى الزيارة فلقنه الشيخ قدس سره الذكر بطلب من والده، فجذب من وقته، فذهب به والده إلى بلده، ثم حصل له الإذن الباطنى بسكنى الخرطوم، فأقام به مجذوبًا إلى أن توفى رحمه الله، وكان له التصريف النافذ في حكامه وغيرهم، وله كرامات مشهورة بين أهل الخرطوم.

● ومنهم (الفقيه صغيرون ولد محمد وأخوه الفقيه الزين)، كانا رحمهما الله على قدم الاستقامه والتوفيق والذكر، إلى أن توفيا ودفنا بأبى حلوق من الخرطوم.

● ومنهم الشريف أحمد بن موسى السواكنى، كان قد تبناه سيدى الشيخ ﷺ، وكان عنده بمنزلة أولاده، وقد زوجه بإحدى بناته، وكان غنيًا سخيًا، وله معرفة بعلم السر والكيمياء.

توفى رحمه الله بعد وفاة سيدى الشيخ، ودفن معه في قبته، وقبره يزار.

● ومنهم صاحب الفيوضات والعلوم اللدنيات، والكرامات والآيات، والتلامذة اللذين كانوا يعرفون ما للشجر والطير من اللغات، (العارف بالله تعالى الشيخ محمد ولد الأزرق الرفاعي). كان ﷺ وليًا مرشدًا، داعيًا إلى الله تعالى على بصيرة. وقد رأيت إجازته بخط الشيخ ﷺ، وذكر فيها أنه من عباد الله الصالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ومن كراماته ما أخبر به تلميذه الشيخ على ولد الكدك قال: أبَقَ لي عبد، فجلست في موضع وجعلت أسأل الله تعالى أن يرده إلى، فرأيت الشيخ محمد ولد طه قد جاءنى ووضع فمه في أذنى، وأخبرنى بمحله، وذلك يقظة، وكان بينى وبين محله مسافة يومين. ومن كراماته أيضًا ما أخبرنى به بعض تلامذته قال: رأيناه ﷺ يزيد بزيادة البحر بحيث لا يستطيع أن يحمله شيء ولو جملا. ومن كراماته ما حدثنى أيضًا به من أثق به من تلامذته قال: رأى الشيخ في بعض الأيام كلبًا راقدًا على سرير كان يجلس هو عليه، فانتهر الكلب ثم قال له: إن سيدى الشيخ أحمد الطيب يقول لك: مت، فمات الكلب من ساعته.

وكان ﷺ لا يماثل بأحد من أقرانه في التربية وإرشاد المريدين. وقد انتفع به في الطريقة خلائق لا يحصون عددًا، وخلف فيها خلفاء كثيرين، منهم الشيخ عبد القادر ابن الشيخ عبد الوهاب الأبيضاوى، والشيخ على ولد الكدك، والشيخ محمد ولد فلتوب، والشيخ الزمزى، والشيخ طه ولد الرضى، والعالم الصالح الشريف الأمين ولد أبى خف، وكان قد مدح الشيخ المذكور بأبيات لطيفة تشهد بصدق نيته وكماله فيه، مشيرًا فيها لابن عمه وصديقه الشيخ عبد القادر الأبيضاوى المذكور، وهى هذه:

شيخ الطريقة يا بشرى بما أخذت ... كفاى منه قبيل الوصف بالحلم

محمد نجل طه أكرم بسيرته ... من عارف قد رقى العلياء بالهمم

بحـر الحقـائق سـاقى الفـيض رائـده	مـن مـزن أسـراره الهطـال كالـديم
رقـاه مـولى المعـالى القطـب قـدوتنا	الطيـب المفـره الفيـاض بـالكرم
لمـا دنـوت إلى ميقـات حـضرته	ناديت من فرحتى ابن العم ذا الهمم
يا نجل أبـيض عبـد القـادر القطـن الـ	ـقوّام لله بالأذكـار في الظلـم
هيـا بنـا لمربـى الـروح مَـن ربحـت	منـه المريـدون مـن عـرب ومـن عجـم
لنجتلـى الكـأس صـفوًا قبـل كـدرتها	مـن كـف حـبر نفـيس مرشـد علـم
مـا كـل وقـت تـرى الأريـاح ناسمـة	وكـل دهـر تـرى كالـشيخ في الأمـم
فربمـا يحـرم الإمكـان طالبـه	وربمـا لا تجـود الـسحب في الـدهم

توفى الشيخ طه المذكور رحمه الله (بديركى) ودفن بها، وقبره يزار.

● ومنهم الكامل الصالح (الحاج أحمد الغبشاوى)، كان رحمه الله من خواص تلامذة الشيخ ﷺ، وكان من أهل الفتح والذوق والاجتهاد والشوق، كثير الاستغراق في محبة سيدى الشيخ، عارفًا بكراماته ومناقبه، وكان كثير التلاوة للقرآن، فلا تكاد تجده ليلا ولا نهارًا إلا وهو مشغول بذلك، وما زال على ذلك إلى أن توفى ولسانه رطب به، وقد شوهدت منه كرامات شهيرة وبركات عطيرة، ومع ذلك قال عند موته: إنيَ ذهبت إلى الآخرة صندوقًا مقفولا. توفى رحمه الله ودفن مع آبائه، وقبره يزار.

ولنخلف بهؤلاء الذين انتفعوا منه بالإرشاد في حياته الذين أرشدهم بعد وفاته لصدق محبتهم فيه، وكامل اعتقادهم، فمنحهم لطائف أسراره، وكساهم بخلعة أنواره.

● منهم الكامل المرشد العارف، (الشيخ محمد ولد بدر) رحمه الله تعالى. حدثنى بعد أن سألته عن شيخه عام أربع وثمانين بعد الألف والمائتين، فقال لي: هو الشيخ عوض الجيد، ومحبتى في الشيخ حسن ولد حسونه، وأما إرشادى فهو من جدك القطب الأعظم سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، سَرَدَ لي القصة بتمامها، ونصها قال: جاء سيدى إبراهيم الدسوقى ابن سيدى الشيخ أحمد الطيب مارًا ببلدنا، فرزناه وسألناه يحدثنا بحديث سمعه من سيدى الشيخ، وكان معى وقتئذ أخى الشيخ محمد المقابلى، فقال لنا: سمعته يقول: من زارنى بعد وفاتى إلى ثلاثين سنة فإنى أرشده بعد مماتى كإرشادى لغيره في حياتى، فمن

ذلك المجلس توجهنا إليه نحن الإثنان وزرناه وبتنا عنده، فلما جنّ الليل أمرت أخى الشيخ المقابلى أن يجلس عند رجلى سيدى الشيخ ﷺ، وجلست أنا في محراب سيدى الفقيه محمد ولد سرور، فلما أصبحنا وجد كل واحد منا مقصده من الإرشاد اهـ.

وكان الشيخ محمد ولد بدر ملازمًا بعض أوراد سيدى الشيخ ﷺ، للوصلة به ومزيد المدد إلى أن توفى، وذلك كصلاته «سر الأسرار»[1] والحسبلة أربعمائه وخمسين في كل يوم، وقد شهر هذه الصلاة بين جميع تلامذته، وأمرهم بالاشتغال بها، لما وجده من النفع فيها ومزيد الإرشاد، وهم عاكفون عليها إلى يومنا هذا، ومنهم من لم يشتغل بغيرها؛ لترغيب شيخه له فيها واستغراقه فيها وفى محبة الشيخ ﷺ، وذلك مما لا يخفى، فمن جالسه عرف ذلك منه رحمه الله تعالى.

● ومنهم الصالح الكامل (الفقيه المصطفى بن الفقيه الأمين ولد أم حقين). وسبب إمداده ما حدثنى به قال: كان بين زوجتى أم أولادى بنت الملك وبين حاج المهدى شراكة في بعض أشياء، فكتب إلى كتابًا بالغًا من الخشونة الغاية، فقرأته فالتهب صدرى غضبًا، فكظمت غيظى، وذكرت مكانة حاج المهدى المذكور من سيدى الشيخ أحمد الطيب، ووضعت ذلك الكتاب في صدرى، فغلبتنى عيناى، فرأيت سيدى الشيخ ﷺ يقول لي: هل رضيت بما قيل لك أم لا؟ فقلت له: رضيت يا سيدى، ففتح على في تلك الحالة ما عسر علينا فتحه قبل ذلك مع شدة المكابدة والاجتهاد، والحمد لله على ذلك.

● ومنهم (الشيخ إبراهيم ولد الوديع)، وقد تقدم ذكره.

● ومنهم (الشيخ عمر الرياطابى)، وسيرته مشهورة بين أهله.

● ومنهم الأستاذ الكبير، والولى الشهير الشهيد بداره، من صبغ المحبين بهديه وأسراره، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والمقامات السنية، والهمم العلية، (الشيخ عبد الله بن الفقيه محمد بن الشيخ عبد الله بن الفقيه على بن الشيخ عبد الله أبى قرين ابن الفقيه على بن الشيخ سليمان الصابونابى)، السمانى طريقة العامرى نسبًا. وكان ﷺ هو وسيدى الشيخ محمد توم ولدبان النقا أخوين في الطريق؛ لأنهما قد ذهبا إلى سيدى الشيخ أحمد الطيب وتلقنا منه الطريق، ولاتحاد روحيهما انتقلا إلى البرزخ في عام واحد، وما بين وفاتهما إلا يومان فقط، هذا توفى بالخميس وذاك بالأحد.

١- طبع مكتبة القاهرة.

ولد سيدى الشيخ عبد الله الصابونابى في سنة ١٢٠٣هـ وتوفى يوم الخميس الموافق ٢ من شهر القعدة سنة ١٢٦٨هـ، وله من العمر خمس وستون سنة. وله من الكرامات وخوارق العادات شيء كثير، وسنذكر منها ما رويناه عن بعض تلامذته أنه قال: ما رأيته مضجعًا على فراش قط. وقال آخر: رأيته يجلس جلسة واحدة لا يحرك رجله منها نحو العشرة أيام وقال غيره: قد أتاه عشرون شخصًا وكل منهم أضمر ما يشتهيه، فأمر لكل واحد منهم ما أراده، وهو جالس لم يتحرك عن مكانه. ومن كراماته ﷺ أنه قد أتى إليه الشيخ محمد الفاضل وهو محتاج إلى إعانة فأعطاه ثمانية قروش فصار يتصرف منها مدة حياته. ومن كراماته ﷺ أن مسجده كان بعيدًا من البحر مسيرة يوم، وقد أتى إليه ستة وسبعون شخصًا، وكانوا في أشد الحاجة إلى الماء فسقاهم من أبريق كان معه وأطعمهم حتى شبعوا. ومن كراماته أيضًا أنه أتاه رجل على بعير له كاد أن يهلك عطشًا وليس في هذا المكان ماء، فأمر بإحضار إناء ومسّ عليه بيده فامتلأ الإناء حتى فاض، فشرب الرجل وبعيره. ومن كراماته ﷺ أنه لما أتى إليه الدينكا- سكان الجنوب بجيشهم يريدون قتله رأوا المكان مرتفعًا بالهواء على بعد مسافة لم تدع لهم من الأمل شيئًا فرجعوا خائبين. وفى السنة الثانية حضروا على نية غدرهم بالشيخ، فوجدوا القرية وأهلها ومواشيها مرتفعة أيضًا كما كان في المرة الأولى، وبعد السنة الثالثة رأى أنه لا بد من نفاذ المقدور، فامتثل الشيخ أمر خالقه الذي لا مفر منه، وقتل هناك شهيدًا حميدًا ومعه تلامذته وأولاده بداره التي تقع جنوب سنار المدينة. وهذه الدار التي تأسست من عهد الجد الأكبر الشيخ سليمان الذي اشتهر به اسم الصابونابى، وكان ساكنًا بالخرطوم، واستقر بها من بعد حضوره من بلدة أجداده التي تسمى (دَرّاو)، وهى من أعمال مصر، وبها مشهد الأستاذين الجليلين السيد عامر والسيد عمران، وبعد ذلك فقد رأى الشيخ أن يسكن بجهة الصعيد بعد الاستخارة هو وأتباعه. وقام لمقابلة ملك سنار وذلك في عهد السلطنة الزرقاء، وطلب منه أرضًا يسكنها بمن معه، وكان لهذا الملك رجل مُلاكم قد اختاره من رجال دولته للمصارعة، فلما حضر الشيخ المذكور قال الملك له: ليس لي مانع من إعطائك بقعة تسكنها، ولكن بعد مصارعتك لهذا الملاكم. فإذا صرعته فلك ما شئت، وإلا فلا حاجة لك عندى، فاستعان الشيخ بالله تعالى، وتصارعا فصرعه الشيخ، وقام مرة أخرى فصرعه الشيخ أيضًا، فعند ذلك عظم في عين الملك وعلم أن صَرْعَه لذلك الرجل القوى كرامة له، وقد أنجز وعده مع الشيخ بإعطائه الأرض التي هي جنوب سنار المذكورة آنفًا، وهى التي وصل إليها سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى بن سيدى الشيخ الطيب لعزاء سيدى الشيخ المصطفى في والده الشيخ عبد الله الشهيد المترجم له، ولم

يكن قابله في ذاك الوقت وقد قابله مرة أخرى، وقد خرجت تلك الدار ولم تعمر حتى الآن، وذلك على لسان ابنه الخليفة بعده الشيخ مصطفى رحمه الله تعالى.

ومن كراماته ﷺ أن له من الأولاد ما ينوف عن العشرين، وقد ذهب بعد أن أنجب هؤلاء الأولاد إلى امرأة من القواعد، وأعلن خطبتها من أهلها، فأبوا أن يزوجوه بها، لعلمهم أن عندهم من هي أجمل منها وأصغر سنًا وهذه لا تليق به، فقال لهم. إن أعطيتمونيها ففيها رحمة لي ولكم، فلم يسعهم بعد مقالته تلك إلا تزويجهم لها منه، وقد رزق منها ولدان، وهما الشيخ المصطفى وأخوه المهدى.

وقد تحققت إشارة الشيخ بأن خلفاءه وورثة بركته هم المرجودون الآن، وأنهم من نسل تلك المرأة، ولم يكن من نسل العشرين المذكورين سابقًا غير واحد وهو الآن بكردفان، ولم تكن له ذرية والله وأعلم بما كان وما سيكون.

● ومنهم العبد الفقير جامع هذه المناقب قال: لما من الله تعالى على رأيت روحى قد دخلت في حجرة النبي ﷺ، ثم دخلت السّهوة فجلست عند قبره عليه الصلاة والسلام، وأنا أتلو لهذا البيت المنسوب لسيدى عبد الرحيم البرعى وهو هذا:

في روضة من رياض الجنة ابتهجت حسنًا وطاب بها للنازل النـزُل

فما لبثت قليلاً إلا وقد رأيت كأن الشمس قد طلعت في السهوة، يعم جميع الخلق إلا نحن. فقال: ادخل خلوة الأربعين، ترق مقام المخلصين أو كلامًا معناه هذا، فدخلتها بحمد الله تعالى، ثم ناولنى حروفًا وقال لي: بعدها لا يشكل عليك شيء من أمر دينك ولله الحمد على هذا، وجميع ما نحن فيه وعليه فهو من فيضه وبركاته، ليس لأحد سواه علينا منّة في الإرشاد وسبوغ الإمداد، ولا يتوهم متوهم أن رؤيتى هذه وما حصل من الإمدادات كان بعد أخذى للطريق، بل كان ذلك قبل أخذى له، وما أخذته من الأشياخ كتلقين الطريق الواقع بإذنه ﷺ لي به والإجازة منهم فيه. فإنى ما برحت عن نسبة ذلك إلى من أخذته عنه، وما زلت حافظًا للأدب، وناسبًا كل شيء إلى صاحبه:

لكن ذلك لم يظفر به أحد إلا امرؤ فارق الدنيا وما فيها

* * *

قال مؤلفه: هذا ما يسرّه الله لي من ذكر تلامذة سيدى الشيخ ﷺ المشهورين ببلاد

السودان خاصة دون غيرها، وأقول كما قال بعضهم:

لازال هـــذا الجمـــع جمـــع ســـلامة ... لا نقـــص يعـــروه ولا تغـــيير

والجمـــع مـــن أعدائـــه في قلـــة ... ونقـــيض تلـــك العلـــة التكـــسير

ولولا ما بنا من شغل القلب، وميلنا إلى الاختصار، لأظهرنا من هؤلاء التىمذة الذين ذكرناهم وغيرهم ما يطرب الأرواح، ويرقص الأشباح، من الآيات والمعارف والخوارق واللطائف، وفيما ذكرناه غنية لأولي الألباب، ومن اقتفى أثرهم من الأحباب، نفعنا الله بهم وبمددهم ولنا فيهم:

قـــوم لقـــد عطـــر الأقطـــار ذكـــرهم ... مـــذ عطـــروا بغـــوالي الفـــيض والكـــاس

رقـــوا بطيبنـــا الـــسامي علـــى زحـــل ... في الله رتبـــة أبـــدال وأكيـــاس

لله درهمـــو مـــن عـــارفين همـــو ... أحيـــوا كـــثيرًا مـــن الأمـــوات في النـــاس

مـــا كـــان شـــغلهم غـــير الهدايـــة في ... كـــل الأحـــايين أو ورد وآســـاس

يـــا مبتغـــي في الـــورى آثـــارهم شـــغفًا ... طهـــر فـــؤادك مـــن هـــم وأدنـــاس

عـــسى لقلبـــك يـــأتي الفـــيض منهمـــرًا ... مـــن حـــضرة المـــصطفى تعـــداد أنفـــاس

الفصل العاشر

(في بيان أولاده الذكور. وما لهم من المناقب والفضل المشهور)

فأقـــول:

● منهم القطب الرباني، والنور الرحماني، (سيدى الشيخ كمال الدين). كـان ﷺ مـن الأولياء المقربين، كما أخبر بذلك والـده ﷺ. قـرأ القـرآن علـى الـولى الـصالح الحـاج أحمـد البقارى، وسبب جذبه أنه كانت له بقرة فولدت، فذهب إلى الكلأ ليـأتى بـه إليهـا، فلقيـه والده على الطريق فسأله: من أنت؟ قال: كمال الدين، قال له: ألهذا خلقت؟! فجذب مـن ساعته، واستمر عليه الجذب إلى أن حجب عـن الأبـصار بالـسياحة في حيـاة والـده، وكـان يمكث في باطن البحر الأيام العديدة.

وقد ظهرت على يده كرامات شتى: منها ما أخبرني به شيخنا رحمه الله تعـالى قـال: وجد مرة رجلا به داء الطحال، فضربه بيده على بطنه، فخـرج جميـع مـا فيهـا مـن الأذى وشفى لوقته. ومنها أن ابن عمه منيرًا ولد البكرى كان في صباه مقعدًا، فـضربه بحجـر فقـام على قدميه من ساعته. ومنها أن جماعة من فزارى كانوا جيرانًا لوالده، ولهم إبـل فأصـابها الجرب، فصنعوا لها قطرانًا لأجل الطـلاء وجمعـوه في الأوانـى، فعثـر بـه فـشربه جميعـه، فأخبر المذكورون والده بذلك، فقال لهم: أين هـو الآن؟ قـالوا غطـس في البحـر! قـال لهـم: أوقفوا إبلكم على ساحل البحر في المحل الذي غطس فيه، فإذا خرج فاشكوا لـه مـا بـإبلكم من الجرب. فلما خرج من البحر شكوا إليه ما حل بإبلهم من الجرب، فنظـر إليهـا نظـرة، فزال جميع ما بها في الحال.

وكان ﷺ غياثًا للمستغيثين، وما اجتمع به بعد سياحته إلا أخوه سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى ﷺ، والرجل الصالح المجذوب أحمد الجعلى بن الحاج عبد الواحد، كما أخبرني بذلك عن نفسه. حدثني الشيخ سعيد المسلمى تلميذ سيدى الشيخ قال: سألت سيدى الـشيخ ﷺ عن ولده الشيخ كمال الدين المذكور، وقلت له: هل يجـيء أم لا؟ فقـال لـي: اليـوم هـو أكبر أهل الدوائر من الأولياء وأمره قد صار بيده، إن شاء أتـى وإلا فـلا. قلت: كنـت يومًـا جالسًا مع الفقيه عبد الله الـدرويش الركـابى، القـاطن بـأبى فـروع- وهـو مـن أهـل الآيـات الظاهرة، والبركات المتكاثرة- فسمعته يقول: أما يخشى الله الخضر! قد أتعبنا في هذا اليـوم

أنا وكمال الدين ابن سيدى الشيخ أحمد الطيب، وحملنا أثقالا عظيمة، فعلمت بهذا وجوده على قيد الحياة، وبلغنى أن محمدًا ولد الفقيه أحمد ولد عبد الدافع اليوم معه، وهو من أكبر رجال الماء ومسكنه تحت البحر، وكان ممن أثنى عليه والده الشيخ ﷺ، وقال في حقه: ما من منزل أحل فيه من منازل العارفين إلا وأجده فيه، وذلك لأن تربيته من الحق بغير واسطة، وهو من الطلقاء الذين لا يقيدون.

غــوث إن نــودى لكــشف ملمــة   واســود وجــه مــن صــروف زمانــه

وفي الروض النضير في مناقب سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير قدس سره للمؤلف المذكور:

لــسيدنا كمـــال الـــدين فخـــر   علـــى كـــل الرجـــال الواصـــلين

يغيـــث لكـــل مـــن يهـــواه فـــورًا   ويحيـــــى بـــالفيوض الطـــالبين

لـــه بـــين الرجـــال عظـــيم شـــأن   وســـلطنة حكاهـــا العـــارفون

وصفته ﷺ أنه كان أخضر اللون؛ صبيح الوجه، وعلى خديه فصود كبار، لاه بذكر الله في جميع أحيانه، وأغلب ذكره باسميه تعالى (الحق. والودود) وغاص في ظلمات البحر بوجود والده؛ على موافقة الحكم الإلهى فيما خص به ﷺ ونفعنا به.

● ومنهم الجامع بين علمى الباطن والظاهر، الراقى على ذروة المجد باستغراقه في مشاهدة الله القديم الأول الآخر، رب القدر الرفيع، والمدد الوسيع، العارف بالله تعالى (سيدى الشيخ مطيع). كان ﷺ قد قرأ القرآن وتبحر في العلم، ولازم خدمة والده عشر سنين وكان يقوم بكسوة نساء والده ونفقتهن وما يحتجن إليه، ويخدمهن خدمة التلامذة، وذلك بعد أخذه للطريق، ثم أجازه والده فيها وسقاه كأس التحقيق، وعلمه علم الحروف والكيمياء، وأمره بالسفر إلى مدينة سنار والاقامة بها، وكان ذلك بعد أن أرسل إلى سيدى الشيخ عبد الكريم ابن قطب الطريقة سيدى الشيخ محمد السمان ﷺ، يعرفه بأنه قد عزم على إرسال نجله المذكور إلى مدينة سنار وإقامته بها، فأذنه في ذلك وأرسل له بيرقين من عنده، وأيده والده تأييدًا لم يسمع لغيره.

وبعد وصوله إلى المدينة المذكورة انقاد إليه جميع الناس والعلماء والأجلاء، وأخذوا عنه الطريقة، وانتفعوا به انتفاعًا تامًا، ونالوا به فيضًا عامًا، ولو لم يكن من الآخذين عليه

والمنتفعين به إلا الشيخ محمد بن موسى الشكيتابى، والشيخ عبد الله الصابونابى العامرى لكفى شاهدًا على كماله ورفعة شأنه، وكان ﷺ طودًا في علم الأسرار وله التصريف العجيب، وكان كريمًا حليما وجيهًا عظيما، مقبولا عند الملوك وغيرهم، وكان الملوك والصالحون يقفون على بابه، وربما دخلوا عليه دخول التلامذة على أستاذهم أدبًا وتواضعًا، وكان سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ لا يفرش لأحد بين يديه فراشًا يجلس عليه إلا له أو للشيخ أحمد البصير، ويقول رأيت رسول الله ﷺ يفرش لهما، ولا يتوهم أحد أن فراش رسول الله ﷺ لهما كهذا الفراش المعلوم، إنما ذاك من قبيل أنوار معروفة بين أهل الديوان، وإنما هذا تمثيل لقرب الأفهام، وحفظ للحرمة، فافهم تغنم.

حدثنى شيخنا قال سمعت سيدى الشيخ مطيع ﷺ يقول: كنت إذا جئت إلى حضرة النبي ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام يفرش لي، والآن أراه يفرش لأخى إبراهيم الدسوقى، وأظن أن عمرى أقصر من عمره، وله الشأن من بعدى، فكان الأمر كما قال: ومن كراماته ﷺ أنه كان إذا أشار إلى أحد بإشارة خيرية أو شرية فإنها تحصل له في الحال.

توفى ﷺ بمدينة سنار في حياة أبيه عام خمس وثلاثين من بعد المائتين والألف. وقبره بها ظاهر يزار.

● ومنهم صاحب الكرامات الجليلة، والأنفاس القدسية (سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى)، كان ﷺ قرأ القرآن على الفقيه المصرى ولد قنديل، ومختصر الشيخ خليل بن إسحاق المالكى بالقوز، وهو ممن جمع بين علمى الظاهر والباطن. وكان شجاعًا مهابًا مطاعًا، وله تصرف عجيب في الظلَمة، فمن ذلك حكاية مشروم الشهيرة، وأيضًا فإنه تصرف في بعض الجن بالقتل، وكان عطابًا غيورًا سريع الإغاثة على الهمة، حدثنى الفقيه أحمد المصطفى بن الفقيه الأمين رحمه الله تعالى قال: رأيت مرة الشيخ إبراهيم الكباشى أراد الجلوس على نار قراءتنا بقصد إخمادها، فمن قبل أن يتمكن من الجلوس رأيت سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى ﷺ تقلق بأذياله، فطار الشيخ الكباشى حينئذ متوجهًا إلى جهة الشرق، والشيخ إبراهيم الدسوقى لا زال طائرًا خلفه قريبًا منه حتى يكاد أن يتناول رجله بيده، وهكذا إلى أن غابا عن بصرى اهـ قلت: إنى اجتمعت بالشيخ إبراهيم الكباشى في ثاني يوم هذه الحكاية، فحكى لي من غير أن أسأله أنه رأى منامًا سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، وبيده سلسلة وهي في عنق أسد عظيم، كلما أراد ذلك الأسد يثب عليّ جذبه إلى خلف وهو يبتسم، قال فاجتمعت بعد ذلك بالخضر ﷺ، وسألته عن ذلك، فقال لي:

جاورت الشيخ أحمد الطيب وأراك لم تسترح من جهته، قال لي رحمه الله: لقد جاورت وما وجدت راحة من ابنه الشيخ إبراهيم الدسوقي.

ومن كراماته ﷺ ما حدثني به الحاج العباسي ولد أحمد ولد نصير، قال: كنت قد أخذت الطريقة عليه من بعد أخذي للطريقة الختمية، فوقع لي من بعض أهل قرابته شيء، فامتنعت عن زيارته والاتصال به، فحصل بي مرض شديد، وأشرفت منه على الهلاك، فرأيته أخذ الشهادتين من قلبي، فبقيت متحيرا لا أستطيع النطق بهما، فلما اشتد عليّ الأمر، وكثر خوفي من سوء الخاتمة، رأيته ﷺ في النوم وهو بحال رباني، وطلبت منه السماح فسامحني، ففي تلك الساعة شفيت ورد عليّ ثوب إيماني. ومنها أن سليمان كاشف بن داود كان له فيه اعتقاد جميل، فلما نما البحر وقرب أن يهدم بيتًا له أرسل إليه وشكا له ذلك، فوقف ﷺ ليلا على ساحل البحر وهو يقول له: ارجع، فأصبح وقد نقص كذا كذا شبرًا. ومن مكاشفاته ﷺ ما حكاه لي شيخنا قال: جاءنا هنا بالحلاوين مرة فشيعه في سفره بعض الناس فلما رفع يده بالفاتحة ليوادعهم، خطر ببال بعضهم أنه لو استقبل القبلة عند الفاتحة لكان أولى- وكان الشيخ وقتئذ مستقبلا جهة الصعيد- فالتفت إلى ذلك الشخص وقال له: «أينما تولوا فثم وجه الله».

وممن أخذ عنه وانتفع به ﷺ أولاد الفقيه الأمين ولد أم حقين: الفقيه أحمد المصطفى وإخوانه، وابناطه؛ الشيخ محمد والفقيه النيل؛ وذلك بعد أخذهما وتربيتهما على الشيخ محمد ولد علي ﷺ. والحاج يوسف ولد دهاشة البطحاني المشهور بالورع والتقوى والزهد؛ والفقيه حسونة المسلمي المجذوب. والحاج العباس ولد أحمد ولد نصير. والفقيه مدني أخو الحاج حمد الغبشاوي. والشيخ مصطفى ابن الشيخ عبد الله الصابونابي، وسيدى الشيخ عبد الرحمن ابن سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، والفقيه إدريس المشهور بولد تمساح الجواد. والفقيه عبد المحمود ولد الطيب. والفقيه محمد حاج، والفقيه عثمان ولد الطالب. والفقيه محمد ولد الشيخ ولد عبد الصادق الهواري. والشيخ محمد ولد الشيخ ولد عبد الصادق الهواري. والشيخ محمد ولد حسن الحلاوي. وغير ذلك.

توفي ﷺ عام تسع وستين بعد المائتين والألف، وله من العمر ثلاث وثمانون سنة. ودفن قريبًا من قبة الشيخ وقبره ظاهر يزار.

- ومنهم العارف بالله (سيدى أحمد البدوي). كان ﷺ كاملا فاضلا، ومن كراماته ما أخبرني به شيخنا قال: حلف رجل منهم على قبره كاذبًا فقطعت يده لوقتها.

توفى ﷺ بالعطيش ودفن به.

● ومنهم الأستاذ المفيد، والشيخ الرشيد، الورع الزاهد، المراقب المشاهد، الذي ما اختلف في فضله وكماله اثنان، وما ذكر بين أهل القدم إلا برفيع الشان، سيدى وأستاذى وملاذى، والدى العارف بالله (الشيخ نور الدائم). كان ﷺ نورانيًا تقيًا ورعًا زكيًا، جميل الصورة، كثير المروءة. قرأ القرآن على الفقيه زين العابدين تلميذ الفقيه أحمد ولد مضوى الشنباني بالدبة، وقرأ من الفقه ما لا بد منه، وكان داودى الصوت في تلاوة القرآن، كثير الصمت بين الأقران، أنوار صدقه على ظاهره، تكاد أن تفضح ما يضمر في سرائره. وكان ﷺ أشبه أولاد سيدى الشيخ ﷺ به خلقًا وخلقًا وطريقة.

حدثني شيخنا رحمه الله قال: كنت إذا زرت سيدى الشيخ ﷺ يدعو لي ويقول في دعائه: أسأله تعالى أن يعينك على دينك، وإذا زرته هو يقول لي مثل ذلك ولا يزيد حرفًا واحدًا. وكان ﷺ محبوبًا عند الكافة وجيهًا مقبولا، برًا وصولا، بريئًا عن عيب العائبين، وقدح القادحين، صوامًا قوامًا.

أخبرني محمد ولد البشير الحلاوى قال: صحبته زمانًا فما رأيته إلا راكعًا أو ساجدًا أو تاليًا أو ذاكرًا، وكان لا ينام من الليل إلا القليل. أخبرني غير واحد أنه كان إذا نام فإنه لسانه لاهج بذكر الله تعالى. وكانت سبحته تتحرك بالذكر من غير يد تمسكها، وكان الأولياء الأموات يزورونه، سيما الولي العارف بالله تعالى الشيخ عيسى ولد أبى سكيكين كما أخبرني بذلك ﷺ. وقد رأيته في حال صغرى لا يفتر عن ذكر الله، وأكثر ما كنت أسمعه منه ذكر (الهوية) وهو شاهد مجاوزته للنفوس في الطريقة القادرية، ووصله إلى مقام النفس المطمئنة التي هي انتهاء النفوس فيها.

ومن كراماته ﷺ ما أخبر به ولده الشيخ الصديق رحمه الله قال: نزل عند والدى ضيوف، فأمرني أن أشترى كبشًا ليذبحه لهم، فما وجدت شيئًا، فأمرني أن أغلق باب الخلوة بحيث لا أدع أحدًا يدخل عليه، فلما فعلت ذلك جلست أمام الخلوة قليلا، ثم أمرني بفتحها، فإذا بكبش عظيم واقف وتحته مثلث أبى حامد الغزالي ﷺ، فأمرني بأخذه وذبحه.

ومنها ما حدثني به الشيخ محمد ولد الإمام قال: حدثني سيدى عبد الرحمن ابن سيدى الشيخ أحمد الطيب قدس سره قال: كنت مرة جالسًا مع أخي الشيخ نور الدائم ﷺ وذلك ليلا، فرأيت من جهة الشمال منه واليمين نورًا أضوأ من الفانوس.

ومنها ما أخبر به بعض أحبابه قال: زرته ﷺ في بعض الأحيان ليلا في محله الذي كان يبيت فيه فما وجدته فيه، فجلست ظانًا أنه ذهب إلى بعض بيوت نسائه، فما أشعر إلا وأنه قد نزل من الجو بحال تكاد أن تزهق منها الأرواح. ومنها أنه ما أظهر أحد عداوته أو أبطنها إلا وتبدد شمله، ولو كان أدنى الناس إليه قرابة. ومنها أنه حصل بى كرب عظيم فرأيته بين اليقظة والنوم، فأشار إليّ بإشارة فأصبحت وقد زال الكرب.

وكان ﷺ مشهورًا بين الناس بإجابة الدعاء، فما دعا الله تعالى إلا وقد أجيب لوقته. وكان ممن لا يتصرف فيه الأولياء مع تصرفه.

أخبرنى الشيخ إبراهيم الكباشى رحمه الله قال: اجتمعت مع والدكم (بود أبى حليمة) فتحركت منى النفس على مصادمته بحال أهل الله فما استطعت، قلت: وأخبرنى بكلامه هذا شيخنا فقال لي: ما حمله على هذا إلا الدروشة. وقد كتب إلى المذكور كتابًا وأرسله إليّ بالصعيد مع تلميذ له يقال له على ولد أبى دليق يقول فيه: إن بركة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ في والدكم، وبركة والدكم في أولاده، وأنت أخصهم، إن لم ترشد العباد لأشكونك على الله تعالى اهـ.

واعلم يا أخى أنى لا أعلم من نفسى ذلك، ولكن الولى لا يكذب؛ ولا يخفاك ما تقدم عن الشيخ أحمد البصير ﷺ عن النبي ﷺ في أمر خلافته، وهو أعظم كرامة للوالد قدس سره، وشاهد قوى على أنه الوارث لوالده. ومن المتفق عليه ولاية الشيخ أحمد البصير، وأنه من أهل حضرة الرسول ﷺ، ومن كان هذا حاله فلا ينطق عن هوى.

وقد انتفع بالوالد سيدى الشيخ نور الدائم ﷺ جماعة، منهم الشيخ محمد ولد فضل الله الصبحاوى لكن تربية لا طريقة. وقد تقدم لك أخذه للطريقة على يد الشيخ الأكبر ﷺ. وأما من انتفع به طريقة وتربية فكالشيخ أحمد ولد الشيخ محمود ولد مكى رحمه الله، والفقيه سليمان المجذوب القاطن بالسلمية، والشيخ محمد النور الجبرتى العالم المشهور؛ وبعض من أولاده، وأكثر إرشاده قدس سره في أولاده مباشرة، وهو شاهد كلام سيدى الشيخ ﷺ الذي تقدم في هذا الكتاب، وهو قوله: البركة فيه وفي ذريته من بعده.

توفى ﷺ بمحله من الشرق، ضحوة الأربعاء لتسع وعشرين من شوال عام ثمان وستين بعد المائتين والألف، وله من العمر خمس وخمسون سنة، وكان بين وفاته ووفاة سيدى الشيخ محمد التوم خمسة أيام، ودفن ﷺ بإشارة منه في حال حياته بمقبرة الولى الصالح

الشيخ عيسى ولد أبي سكيكين، ثم نقله أولاده إلى أبيه بأم مرح بعد سبعة أشهر، فوجد بعد خروجه من قبره كيوم دخوله فيه، بل وأعجب. وذلك لما اشتمل عليه من الروائح العطرية، والخوارق الغيبية، وذلك مما يشهد بمزيته وإكرام الحق تعالى له.

حدثني من أثق به من أولاده قال: لما أردنا إخراجه ﷺ من القبر، وضعت عند ذلك يدى في باطن رجله، فإذا هي أبرد من الثلج، حتى سرى بردها في جميع جسمي، ولما حمل ﷺ على النعش وتبعه الناس مروا بجنازته على أشجار كانت على الطريق، فأصابت بعض أصابع رجله شوكة فصار محلها يقطر دمًا.

أخبرني الفقيه محمد ولد بشير السرورابي قال: كنت ممن تلقى جنازته ﷺ بالثمانيات وحملتها، فإذا هي أثقل ما يكون. ودفن ﷺ في قبة والده، ملتصقًا قبره بقبره كأنهما قبر واحد، وعلى كل من الأنوار والبركات ما لا يوصف. اهـ

وقال بعض أصحابنا قصيدة في مدح الوالد قدس سره منها:

نجل الكرام ومعدن البركات من ... قد أشرقت غاياته وبدايته

شيخ ترقى في العلا وتقاعدت ... أنداده عنه وتلك أصالته

سرّ سرى من طيب القوم الذي ... فاقت جميع الأولياء كرامته

أحيا النفوس بنفحة قدسية ... صلح الوجود وكان منه سماحته

إن أنت وافيت الخليفة جالسًا ... قمرًا تراه عليه دارت هالته

ورث الولاية والكرامة وارتقى ... رتب الكمال وساعدته عنايته

فالذات منه تميزت بجلالة ... وبعلم ذوق أبرزته ولايته

قال مؤلف هذا الكتاب: ولنا فيه ﷺ هذه القصيدة:

برقت بروق الرقمتين لناظرى ... سحرًا فأشجت مهجتى وخواطرى

بوميضها قد ذكرتني فتية ... كانوا بذياك الحمى ومسامرى

يحكى الحيا طرفى إذا ما ذكرهم ... قد مر في زمن بساحة خاطرى

أواه ما حالى وشدة لوعتي وغرام شوقى قد سرى في سائرى
لا زلت أرعى الفرقدين تململا وأبيت بين قنيا الهوى وبواتر
فإذا تغنت في الغداة بلابل أوفى الأصائل فوق روض زاهر
أو ساجعات في شواطئ أنهر سحرًا حكت أشجانها بأشائر
أرسلت من فرط الغرام مدامعًا تجرى على خدى كسحب ماطر
والعقل منى بعد رشد بيّن بين العقول أراه مثل الحائر
ملك الهوى العذرى كلى مذحشى الـ أحشاء منى عَنوة وضمائرى
تَبا لأيام النوى كم أثخنت بيد الهوى والحب جرح خواطرى
قد بالغ العذال في عذلى إلى من كان فيه أن فندونى بعد بث معاذرى
ثلاثُ كيف يلومه أحد على فكر وقلب حاضر
خفقان قلب في الزمان، وآنة نيرانها ملكت فؤاد وظاهرى
ونحول جسم لم يزل ينمو إلى أن كاد يخفى عن عيون الناظر
آهًا لأيام مضت مع فتية ما خولطت بمشقة ومرائر
فكأنها وكأنها شبهًا تكاد بأن تكون ليالى أكمل ذاكر
مولاى نور الدائم الفرد الذي ورث المزايا كابرًا عن كابر
هو واحد الأيام قطب زمانه في أي حال كامل ومُفاخر
ذو همة في الحال وهى تزيل ما يُخشى سريعًا مثل لمحة ناظر
أخلاقه كنسيم روض فائح ألفاظه كنفيس عقد جواهر
نطقت حروف الاسم منه بأنه نور أضيف إلى العظيم القادر
لم تنكر الأبصار ما اشتملت عليـ ـه ذاته من أي وصف عاطر
إن لاح قلت: الشمس عند ظهورها أو بدر تم ذو ضياء باهر

فكأنه في الرشد مثل جنيدهم وكأنه في الفيض عبد القادر

وكأنه السمان في لحظاته والشبلي في إسكاره المتواتر

سل عن حقيقته الأكابر كلهم والأوليا من غائب من حاضر

فالكل منهم يشهدون بأنه خذن العلا والاهتداء لسائر

هو ترجمان الفضل والسر الذي مخزون في جوف النهى وسرائر

رب المناقب والكرامات التي جلت عن الإحصا وحصر دفاتر

من خير عنصر أكثرت في مدحه أهل الحجا من أول من آخر

فيه تعشقت النفوس وفيه قد صدقت مبالغة الأديب الماهر

نفع جميعه ليس فيه وحقه ضرر يقال ولا خلائق فاجر

قد غاب قلبه في شهود الله مع وفق الصواب بدون ترك أوامر

ملأ البواطن بالمعارف والتقى وبسر أسرار الجمال الزاهر

الله أكبر ما ألذ حديثه في أي قلب نير أو طاهر

بدر مضيء وهو ليس بغارب بحر ولكن خير بحر زاخر

بلغت به نفس المريد مرادها من بعد ما اختصت بفيض غامر

سلطان أهل العصر مَن آياته في الأرض أضحت كالذكاء الظاهر

المفرد العلم المنادى من حوى قصب الفخار وحاز كل مفاخر

فإذا ظفرت بلثم كفه مرة أغنتك عن ملأ بخير ظافر

قل ما تشا فيه فحاله قابل لبديع نظم أو ملائح ناشر

فافخر به أبدًا بدون تخوف وأدر كئوس سلافه للحاضر

حصن حصين من سهام أولى التقى أو بطش جبار عنيد ماكر

فيه استغث عند الكروب وشدة مسّتك أو كادت تمس لزائر

واقبل عليه تجد مرادك عنده ... والطول من بعد المقام القاصر
وهو الجدير بكل ما أملت فيـ ... ـه من القصد اللذيذ الثامر
وهو الحميّ لنا إذا ما مسنا الـ ... ـدهر الخنون بأيد ضر ضائر
مولاي لا تنسى نُجَيلك واسقه ... في الحان كاسات السلاف الطاهر
وعليه مُنّ بخلعة قدسية ... يزهو بها من بين جمع أكابر
مالي سواك إذا الخطوب تزاحمت ... والوقت سل لسيف همّ باتر
فتولني أنت الولي لمثلنا ... في أي أمر قل فيه مناصري
مني عليك تحية تغشاك في ... حدث منير بالهداية عاطر
وعلى الذي أومى لحضرة ذاتكم ... بخلافة من بين أهل حضائر
مني صلاة عَدّ من في حُبه ... أحيوا لياليهم بطرف ساهر
خير البرية أفضل الرسل الذي ... جاءوا بوحي في الزمان الغابر
وعلى جميع الآل والأصحاب من ... فازوا برضوان وخير بشائر
ما غردت قمرية سحرًا على ... فنن ففاضت أدمع بمحاجر
أو سار ركب أو تنسمت الصبا ... أو أطربت للصب نسمة حاجر
أو قال محمود لدى هيمانه ... برقت بروق الأبرقين لناظر

ولنا فيه ﷺ:

نسيم الصبا هبت عليّ فحيتِ ... ومابى لسعدى هيجته وولتِ
ومازلت مجروح الفؤاد بلوعة ... وما زال شوقي في ازدياد وشدة
فياليت أني لم أكن فيها ذا هوى ... وياليت أني لم أكن ذا صبابة
خليلي عوجا خبراها فإنني ... أموت بها أم كيف أحيا بنظرة

لقد طال صبرى واصطلائى بحبها	وما حيلتى في أن تفرج كربتى

سبت عقل من يهواها حقًا كما سبا	أبو الطيب الأستاذ شيخ الطريقة

إمام همام من نوى العزم في الدجا	على الذكر والطاعات ثم التلاوة

كريم من الغر الكرام وسيد	به اخضرت الدنيا لدينا وطلبت

فكالشّهد في قلب المحبين حبه	وللعين كالأقمار إذ ما تبدت

هو النور نور الدائم الوارث الذي	لساحته الأرواح بالشوق حنت

تلا فضله فوه الزمان وفضله	لدى كل ذي فضل كشمس الظهيرة

ولى من الأبدال كم شوهدت له	غرائب آيات وأسرار حكمة

تذكرنى أخلاقه نسمة الصبا	وأنفاسه ريح الرياض العطيرة

فلله ما أحلاه من عارف جلى	به الدهر وانجابت به كل ظلمة

تقى وقوام إذا الليل قد دجى	بعبرة محزون ونفس مطيعة

فذاك الذي أحيا الإله به النها	وشهره بالخير في كل بلدة

حوى الفضل طفلا والسيادة يا فعًا	وأوضح شابًا للعلوم الخفية

تزيد برؤياه النفوس هداية	وتهتز أشواقًا بصدق محبة

لقد سلك النهج القويم على تقى	وعطر أبناء الكرام بنفحة

عن البحر حدث إن تطلبت دره	وبالفضل فاحكي شأنه بصداقة

عفيف شريف قد رقى ذروة العلا	قديمًا وحاز الفخر من بعد نهضة

طهور شكور حامد ومهذب	صباح ومصباح وبدر دُجنة

جواد كريم كالسحائب كفه	ولىّ وصول ذو سنى وكرامة

له قد فشت بين الأنام عجائب	إذا تليت تحيى بغيث الهداية

فديتك من ذي هيبة متواضع	حتى الراح واجتاز المقام بسرعة

فمـا زال غوثـا في المهمـات ملجـأ كمـا شـاهدت نفسى بعـين البصيرة
مـن الله أرجـو أن أفـوز بحبـه ووالـده الأسـتاذ شـيخ الطريقـة
وأشـياخه لا سـيما واحـد الـورى محمـد الـسمان فـرد الجلالـة
علـيهم رضـا الـرحمن في كـل لحظـة رضـاء بـه تحيـا النفـوس بجذبـة

ولنا أيضًا فيه:

أخـا الأشـواق عـرج نحـو قطـب بنـور الـدائم الفيـاض يـدعى
إمـام زمانـه علمـا وحلمـا وآدابًـا وأخلاقًـا وورعـا
ولىّ مـن ولىّ مـن ولىّ زكـى بـين الـورى ألا وفرعـا
عظـيم ماجـد غـوث مغيـث لـساحته وفـود الخـير تـسعى
لقـد ورث العـلا وعـلا سمـوًا علـى أوج العـلا فرقًـا وجمعًـا
ولىّ كـم بـه كـشفت كـروب ونـال بـه الزمـان عـلا ونفعـا
ولى في محاسـنه فريـد وحيـد لم يـزل للـشرع يرعـى
تكامـل فيـه كـل الفـضل حتـى لقـد أثنـى عليـه الـدهر جمعـا
عفيـف سـيد بـرٌّ شـريف حنيفـى حـلا سـيرًا وطبعـا
أمـير مهابـة وخـبير سـير مـن القـوم الألى مـا كـان بـدعا
بقـوة عزمـه كـم ذل قـوم وكـم بدعائـه الأعـداء صـرعى
هزبـر عنـدما يـدنو إليـه وحـرز مـانع للـسوء منعـا
تبـارك مـن بـه أحيـا فـؤادى ومـن بـى فاقتـدى شـوقًا ودمعـا

● ومنهم (سيدى الحاج عبد الواحد). كان رحمه الله أشبه أولاد الشيخ بجده البشير ولد مالك، وكان قوامًا ذاكرًا مجاب الدعوة، كثير التلاوة لسورة يس، وكان ﷺ عطابًا. ومن كراماته أنى شممت رائحة المسك من قبره أيام الدفن.

توفى رحمه الله بالحلاوين في رجب عام ثلاث وثمانين بعد الألف والمائتين، ودفن في قبة الشيخ أحمد البصير وقبره يزار.

● ومنهم (سيدى عبد الجبار)، وكان ﷺ كريمًا سخيًا شجاعًا مطاعًا، عفيفًا فطنًا، قاهرًا لأعدائه، مرضيًا لأصدقائه، مليح الطلعة، كثير المروءة، سمعت شيخنا رحمه الله كثيرًا ما يثنى عليه بالخير، ويبالغ فيه بالذكر الحسن وعلو الهمة في الله. قال: حدثنى الشيخ إبراهيم الدسوقى رحمه الله وقال لي: اليوم جعلت بركة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ جميعها في ابنه عبد الجبار.

توفى رحمه الله عام ثلاث وخمسين بعد المائتين والألف، وله من العمر ثلاث أو أربع وثلاثون سنه، ودفن في قبة والده، وقبره يزار.

● ومنهم (سيدى أحمد العباس)، كان ﷺ وليًا عظيما، وكان والده كثيرًا ما يترجمه بالولاية والكمال. ومن كراماته أنه كان إذا حلق شعر رأسه يأخذه الناس ويتبخرون به فيزول ما بهم في الحال.

توفى ﷺ صبيًا، ودفن مع جداته بمقبرة الضواب، وقبره يزار.

● ومنهم (سيدى محمد)، كان ﷺ يوسفى زمانه حسنًا وجمالا، قرأ القرآن على الحاج البقارى رحمه الله، وكان كثير الميل إلى حالة الملوك من حسن الملبس والمركب وغير ذلك، فطنًا وجيهًا مقبولا عند الناس.

توفى ﷺ بعد ما تزوج وولد، ودفن مع شيخه البقارى رحمه الله، وقبره يزار.

● ومنهم (سيدى ياسين)، كان ﷺ حلو الشمائل، كثير الفضائل صبيحًا مليحًا، فلما أراد الله تعالى انتقاله إليه ذهب إلى البحر فغرق، وكان ذلك بحياة والده، فلما بكى الناس عليه أمرهم سيدى الشيخ ﷺ بترك البكاء، وقال للناس: لم يغرق كما تظنون، وإنما أخذه عبد الفتاح، وراح به إلى شرق المصباح، فلم يتيسر لأحد من الناس أن يسأله عن ذلك.

● ومنهم (سيدى الشيخ أحمد الرفاعي)، كان ﷺ كثير الصمت والتفويض إلى الله تعالى في أموره، فلا ينازع ولا ينازَع، وكان قوى العزم كثير الشجاعة، لا يتكلم فيما لا يعنيه، وهو ممن يخشى الله ويتقيه.

توفى ﷺ بمحله، ودفن في قبة أبيه، وقبره يزار.

● ومنهم (سيدى نور الله)، كان ﷺ من أكابر الأولياء وخواص الأصفياء، محبوبًا عند والده، وقد ترجمه ﷺ بالولاية والكمال، وشهد بأنه من فحول الرجال، إلا أنه أخبر بقصر عمره وكان كثير الاجتهاد والرياضة والكشف، ومن كشفه ﷺ ما أخبرتنى به زوجته آمنة ابنة فضل الله ولد المدنى قالت: كنت معه بكردفان، فأخبرنى يومًا بوفاة حامد ولد عمر الجميعابى زوج أخته رقية، وأنها كانت في هذا الوقت، وسيأتيكم الخبر بذلك عن قريب، قالت: فما أتت علينا أيام قلائل إلا وقد جاء الخبر بوفاته في اليوم الذي أخبر به.

توفى ﷺ بأم عرائش من كردفان، عام ثلاث أو أربع وأربعين بعد المائتين الألف من الهجرة.

● ومنهم (سيدى وهب الله)، كان ﷺ جميلا جليلا فصيحًا مليحًا، تاليًا لكتاب الله ﷻ، وقد رأيت له جماعة أخذوا الطريق عليه وانتفعوا به، وذلك كالفقيه رابح المجمر وغيره. ومن كراماته ﷺ أنه ذهب مرة إلى جهة ببلدة خالية من الماء لغرض له، فأصابه هناك عطش شديد حتى كاد أن يهلك بسببه، فلما علم من نفسه أنه لا يعيش بعد ذلك، رقد في ظل شجرة موقنًا بالموت، فجاءته وهو على تلك الحالة سيدتنا رابعة العدوية رضى الله عنها، وفي يدها قربة مملوءة ماء فسقته منها، ثم أعطتها إياه بما فيها من الماء، فلما خف عليه ألم العطش أخذ القربة وتوجه بها إلى أهله فرحًا مسرورًا بذلك، فلما رآه الناس على تلك الحالة، وكانوا قد يئسوا من حياته لبعد المدة رفعوا أصواتهم بالفرح، وكان ذلك يومًا مشهودًا، ثم إنه أخبرهم بخبره فأخذوا القربة وتبركوا بها، ثم أخذها البعض منهم للتبرك بها.

توفى ﷺ بمحله من الشرق، ودفن في قبه والده وقبره يزار.

● ومنهم الكامل الصالح (سيدى الشيخ أبو صالح). كان ﷺ من الأولياء الأبرار الصالحين الأخيار، وكان على قدم السلف الصالح من الفقه والصمت والزهد وصدق النية وحسن العمل، وكان ﷺ قوامًا صوامًا شاكرًا لله على السراء والضراء، قارئًا لكتاب الله تعالى وما لا بد منه من الفقه، وكان يقوم من الليل الثلث دائمًا، كثير الكرم والبشاشة والتواضع والانكسار، وربما خدم ضيفه وزائره بيده، ولو من أقاربه وأولاده وإخوانه، طاهر القلب واللسان من الفحش والذنوب، وقد صحب ﷺ في أول عمره في الطريقة سيدى الشيخ محمد التوم ولد بان النقا ﷺ، وتخلق بأخلاقه، وكان كثير الأحوال علىّ الهمة في الأذكار. ومن كراماته ﷺ ما شاهدته في نفسى، وهو أنى أخبرت بوفاة أخى عبد النور ببلاد العبيد

مقتولا، فشق على مصابه، واشتد البكاء إلى نحو جمعة، فرأيته ﷺ منامًا وهو يقول لي: ما وصلكم من الخبر بوفاة عبد النور كذب لا أصل له، فما أتت علينا أيام قلائل إلا وقد تحقق الخبر بحياته. وممن انتفع به ﷺ في طريق القوم الشيخ يوسف ولد الجزولى المشهور بتعليم القرآن ببلاد الصعيد، والشيخ أحمد بن الفقيه محمد ولد الأزيرق الجبلاوى وغير ذلك.

توفى ﷺ عام خمس وثمانين بعد المائتين والألف، ودفن بأم مرح خلف قبة والده وقبره ظاهر يزار.

● ومنهم (سيدى الشيخ عبد الرحمن)، كان ﷺ لائحًا عليه أثر الولاية، ظاهرًا عليه نور العناية، ونورانى الطلعة حسن الصورة، كثيف اللحية، ذاكرًا كاملا مؤيدًا فاضلا. وكان قد أخذ الطريقة على أخيه سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى ﷺ وغيره من رجال الطريقة السمانية، وكان له القبول التام بين الخاص والعام، معتقدًا عند الناس سيما أرباب الدولة، فإنهم كانوا لا يبغون به بديلا، مجاب الدعوة عليّ الهمة، وكان يقوم الليل كله، وكان من شدة أنوار وجهه يكاد الإنسان أن يغض بصره عند رؤيته. ومن كراماته ﷺ ما حكى عن عبد اللطيف ابن الشيخ إبراهيم الدسوقى أنه رآه قد طار من الغرب إلى الشرق عندما عدم السفينة، ومن مكاشفاته في حال صغره ما حكاه الشريف محمد بن الشريف النور، قال: حدثنى أبى قال: لما جئت من بلادى قاصدًا للطريقة عند سيدى الشيخ ﷺ، وجدت ابنه عبد الرحمن صبيًا يلعب مع الصبيان، فلما رآنى قال لي مكاشفًا: أنت النور بن الطاهر، ولم يعرفنى أحد من الناس فضلا عن اسم أبى.

توفى ﷺ بسواكن بعد رجوعه من الحج عام تسع وثمانين بعد المائتين والألف، ودفن بها رحمه الله تعالى وأموات المسلمين.

● ولسيدى الشيخ ﷺ أولاد سوى المذكورين إلا أنهم ماتوا صبيانًا، وهم عبد الله والبشير وعبد القادر، نفعنا الله بهم وبإخوانهم. ومدنا ببركة أبيهم.

وقد قلت نظمًا لجميعهم في هذه الأبيات:

فهاك ياذا الوجد والأشواق ... نظمًا رقيقًا كامل الأنواق

في عد أبناء الولى الطيب ... قطب الزمان الأوحد المقرب

إبدأ بنجله كمال الدين ... قدوة أهل الحال والتمكين

كـــذا مطيـــع المرتقـــى المعـــالى غيـــث الرشـــاد حـــسن الأحـــوال
دســـوقهم فيالـــه مـــن عـــارف مؤيـــد مبـــارك وغـــارف
كـــذاك نـــور الـــدائم النـــور العلـــى بـــدر سمـــا العرفـــان والمجـــد الجلـــى
محمـــد كـــذاك عبـــد الواحـــد والبـــدوى طيـــب المقاصـــد
كـــذلك العبـــاس نـــور الله ثـــم الرفـــاعى ثـــم وهـــب الله
يـــا ســـينهم وعابـــد الجبـــار كـــذا أبـــو صـــالح ذو الوقـــار
وعابـــد الـــرحمن عبـــد القـــادر كـــذا البـــشير صـــاحب المفـــاخر
واخـــتم بعبـــد الله هـــؤلاء أبنـــاء مـــولى الفـــيض والثنـــاء
علـــيهم رضـــاء رب النـــاس مـــا مـــال بالريـــاح غـــصن الآس

• • •

إعلم أن أبويه كانا صالحين عفيفين مكرمين. وقد بلغنا أن والدته رقية بنت رحمة ابن ولى الله تعالى الفقيه محمد ولد سرور ﷺ كانت يضرب بها المثل في الفضل، وطهارة الظاهر والباطن، والصمت والعفة، وكانت إذا لبس أحد أولادها ثوبها فإنها لا تلبسه حتى تغسله صيانة للطهارة، وكانت لا تشرب من ماء البحر ما كان بقرب شاطئه، ولا تأكل الطعام ولا تشرب الماء إلا إذا كان مستورًا مغطى، سليمة عن عيب العائبين، غير مدنسة للسانها بالغيبة وقذف الغافلين، وهي جديرة بأن يقال فيها:

حـــصان رزان مـــا تـــزن بريبـــة وتُـــصبح غرثـــى مـــن لحـــوم الغوافـــل

وأما أوصافها رضى الله عنها، فقد كان لونها كلون ولدها الأستاذ الأعظم، وهـو شـبيه بها دون أولادها في الحسن والوصف، ولم تزل على استقامة في دينها إلى أن توفيت بأم مـرح ودفنت بها.

وأما والده مولانا البشير بن مالـك، فقـد قـرأ القرآن هـو وأخـوه صـغيرون علـى الفقيـه مصطفى الأنصارى الفاضل الشهير نزيل (كترانج)[1]،كما أخبرنى بذلك العلامة الفقيـه أحمـد

١- كترانج: قرية قرب المسيد.

ولد الفقيه أحمد ولد عيسى عند اجتماعى به بسنار، عام تسعين بعد المائتين والألف، وكان ﷺ وجيهًا مقبولا، وكانت الدولة الفونجية كثيرة الاعتناء به.

وقد رأيت ورقة كتبها له ملك سنار متضمنة لمكانته عنده، وهدايا وجزائر شتى أهداها له، وعليها خاتم الملك المذكور، وقد شهد سيدى الشيخ ﷺ له بأنه كان من الأولياء الصديقين، ولا تخفاك مزية الصديقين من الأولياء على غيرهم من أهل الولاية.

ومن كراماته ﷺ أن الله أطلعه برؤية صالحة على مكانة ولده هذا وشرفه عند الله تعالى، كما تقدم بيان ذلك في أول الكتاب، وما زال رحمه الله تعالى جليلا مكرمًا إلى أن توفى بأم مرح ودفن بها، وقبره يزار.

وأما جده مالك، فقد كان عابدًا تاليًا لكتاب الله ﷻ كثير السهر به وقد قرأ علم الكلام على الفقيه محمد ابن الفقيه أرباب الخشن، وكان مقبولا عند ملوك سنار، وجيهًا بين الناس، وكان ملك سنار لا يسافر إلى حرب أو غيره إلا ويصحبه معه، تبركًا به واحتياجًا لتدبيره ورأيه، ومازال كذلك إلى أن قتل معه (بقوز رجب).

وأما الفقيه محمد وَلد سرور: والد مالك المذكور، فهو الولى المشهور، والبحر المسجور، رحمه الله لعباده، ونعمته بين عباده، رب الكرامات الجلية، والمقامات العلية، والمفاخر السنية، والأخلاق الرحمانية، والأنفاس الربانية، كان ﷺ أوحد أهل زمانه عبادة وزهادة، وغناء وسخاء، وهو وارث العارف بالله تعالى سيدى الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ، ومنه انتقلت البركة إلى ولده مالك وإلى البشير، ثم إلى القطب الأكبر أستاذى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، كما تقدم ما يدل على هذا في أول الكتاب.

وقد أحببت أن أذكر هنا سبب اتصال أجدادنا المذكورين بسيدى الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ.

روى عن سيدى الشيخ إبراهيم الدسوقى ابن سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، أنه كان جدنا سرور بن الحاج غناوة من الفضلاء، وكانت له ولاية على هذا البلد (أم مرح) وما والاها بإشارة من ملك سنار، فأخبره بعض الناس بجدتنا عائشة بنت مالك الشايقابية وجمالها وفضلها، وفطلبها من أهله وتزوج بها، وأقام معها مدة، وفما ولدت له ولدًا، فضاق صدره لذلك، فاستضافه يومًا رجل من تلامذة الشيخ حسن ولد حسونة ﷺ، وحدثه بولاية الشيخ وكماله وكرامته، وأنه لا يقصد لشيء إلا ويكون. فحكى للتلميذ عدم الذرية واهتمامه بها،

فأمره بالتوجه بأهله من وقته إلى الشيخ، وأن يحمل معه أوقية من ذهب يهديها للشيخ، فسافر سرور بأهله من وقته إلى الشيخ حسن، وأخذ معه حصانًا وغلامًا وسيفًا وأربع أواق ذهبًا، فلما حضر بين يدى الشيخ ﷺ، حكى له أمره، فقال له الشيخ: أين أوقيتى؟ وكان مشهورًا بذلك عند من يطلب منه الذرية، فقال له: قد جئتك يا سيدى بأربع أواق ذهبًا بدلا من الأوقية الواحدة، وحصان وسيف وغلام، فقال: ائتنى بها، فأتاه بها، فدعا له بالبركة والذرية الصالحة، ثم استأذن الشيخ في الذهاب إلى بلده، فأذن له وودعه، فسافر هو ومن معه، وكانت عائشة بنت مالك يومئذ بها محيض، فطهرت في أثناء السفر، اغتسلت ببعض حفائر الشيخ، وأتاها زوجها فعلقت منه بمحمد ولد سرور، ولما ولدت أرسل سرور إلى سيدى الشيخ حسن ﷺ يخبره بذلك، فأمره أن يسميه محمدًا وظهرت لأهله من جهته كرامات وخوارق، فلما ترعرع أرسل إليه سيدى الشيخ حسن ﷺ، وأقامه عنده إلى أن حفظ القرآن، وأرشده في طريقة، ثم توجه به إلى أم مرح وأمره بالسكنى بها، وبنى له المسجد القائم بها إلى يومنا هذا بيده الشريفة، وقال مبشرًا له: أسست لك هذا المسجد دنيا على دين لا ينقطع أثره إلى يوم الدين.

ولم يزل سيدى الفقيه محمد يزور سيدى الشيخ حسن ﷺ وعنا به. وقد بلغنا أنه لما حضرته الوفاة، أحضر بين يديه الفقيه محمد ولد سرور، وابن أخيه بلل الشيب بن عبد الفتاح ولد حسونة، فجعل بلل الشيب خليفة من بعده، وأودع الفقيه محمدًا ولد سرور أسراره، وكتب بينهما كتابًا على أن الهدايا الشرقية والنذر لبلل الشيب، والغربية للفقيه محمد ولد سرور، وجعل تلك الورقة أمانة عند ابن خاله وتلميذه الفقية طه ولد لقانى اهـ.

واعلم أن ما ذكرته لك هنا في هذه القصة هو الصحيح، فعض عليه بالنواجذ، واترك ما سواه، فإنه خزعبلات العمة وأباطيلهم التي لا يطابقها نقل، ولا يعضدها عقل، فرب البيت أدرى بما فيه، كما أن العلم لا يؤخذ إلا من أهله.

وقد تعين أن أذكر لك هنا ترجمة العالم العلامة، المؤرخ الفقيه محمد نور ولد ضيف الله في طبقاته لسيدى الفقيه محمد ولد سرور، ليتضح لك ما في هذا المقام، فإنه جدير بأن يقال فيه:

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

ونص الطبقات المذكورة في حرف الميم منها: «محمد ولد سرور بن الحاج غناوة، تبناه

الشيخ حسن ولد حسونة، وقرأ القرآن في مسجده وأرشده، وخط له مسجده الذي (بأم مرح) بيده، وكان صائم النهار، قائم الليل، وكانت عنده دنيا عريضة، وأولاد ذكور وإناث كثيرن طيبون، مباركون صالحون» اهـ.

فافهم تغنم وترشد وتسلم. وكانت لسيدى الفقيه محمد ولد سرور ﷺ كرامات كثيرة شهيرة منها: أنه كان ﷺ لا يستوحش منه الطير إذا مر، وكان يحمل الطعام من أم مرح فيوصله إلى الشيخ حسن ﷺ في (الكربة) قبل أن يبرد من حره، والمسافة تقريبًا ثلاثة أيام. وكانت عنده دنيا عريضة كدنيا شيخه الشيخ حسن، ومع هذا فلم يكن ملتفتًا إليها في وقت ما. وقد عاش من العمر نحوًا من مائة وعشرين سنة، مجاهدًا لنفسه مستغرقًا في ربه. وله من الأولاد الذكور: مالك- وهو الذي ورثه- وحمد، وقد حكى سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ أنه رآه في ديوان الحضرة النبوية. وحسن، وهو المشهور بإبراء القروح إلى يومنا هذا، وعبد القادر، وإبراهيم- وكانا كاملين صالحين- وأبكر، وهو الذي سماه على شيخ أستاذه الشيخ حسن ولد حسونة، ومدنى، وعثمان. والعجمى، وكان سماه على الولى الصالح العجمى أخى الشيخ حسن ﷺ. ورحمة، وغير ذلك من الأولاد.

توفى ﷺ بأم مرح ودفن بها، وقبره عليه هيبة وجلالة وهو ظاهر يزار.

• • •

وليكن هذا آخر الكتاب، جعلنا الله وإخواننا ببركة الأولياء من المحبين فيهم، السالكين لأثرهم، ومن المتمسكين بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، والمداومين على عمل آخرتهم، مع مراقبته تعالى في جميع الأحوال. ونسأله تعالى أن لا يفضحنا في الدنيا بظنوننا ودعوانا، ولا في الآخرة بهتك أستارنا وما انطوت عليه ظواهرنا وبواطننا، وأن يجعلنا مستسلمين لقضائه، راضين بحكمه شاكرين لنعمائه، صابرين على بلائه، وخائفين من مكره، مستغرقة أوقاتنا في حمده وشكره، راجين منه أن يمنحنا عند مماتنا الختم (بلا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)، مع التحقق بها، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة دائمة مستمرة بدوام ملك الله العظيم، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين اهـ.

﴿تذييـــــل﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله يقول الحق وهو يهدى السبيل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنزل عليه القرآن فحل مشكله، وأوضح غامضه، وفصّل مجمله، فكان نعم الداعى على بصيرة، وعلى آله وأصحابه الذين أخرجهم الله من الظلمات إلى النور، وجعل لهم نورًا يمشون به في الناس، فكانوا بذلك نجوم الاهتداء، وحملة المشاعل المقدسة، ومن تبعهم بإحسان من ورثة المصطفى ﷺ، الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين اتقوا الله حقّ تقاته، فجعل الله لهم فرقانا كانوا به الأمناء على الرسالة، والأوصياء على الدلالة، والتابعين لسيد الأولين والآخرين على بصيرة، صلوات الله وسلامه عليه.

وبعد، فقد رأينا مما يناسب المقام، في ختام هذا السفر النفيس المبارك، عن مناقب سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ، أن نتناول بتعليق خاطف، قصة رجل يدعى أحمد الطيب، ويلقب بالسنارى، يغلب على ظننا أنه كان ممن يطلبون العلم في الأزهر الشريف، وكانت له صلة بأهل الله فيما يبدو، خاصة –ومن غير شك– بسيدى السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنهما، في مناقب سيدى السيد أحمد بن إدريس التي كتباها، وقامت بنشرها مكتبة مضوى بوادى مدنى. والقصة –كما وردت في هذه المناقب المباركة العظيمة– صحيحة من غير شك، فإن أي كلام صحت نسبته إلى سيدى السيد محمد عثمان ونجله رضى الله عنهما لا يمكن أن يتطرق، ولا يصح أن يتطرق إليه الشك بحال؛ فإنهما من أهل الله الصادقين، بل من سادات أهل الله الصادقين، باتفاق جميع أهل البصائر وكمّل العارفين بالله ﷻ، نفعنا الله بهم أجمعين.

إلا أن الأخ كامل الأحمدى– عليه الرحمة– علق– فيما علق على هذه المناقب– علق في هامش (ص٤٩) أن أحمد الطيب السنارى، المشار إليه في هذه القصة إنما هو سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير، ناشر الطريقة السمانية المعروف. وقد أخذ كامل الأحمدى بما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة واعتمد عليه، وليس غريبًا أن يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ما

ذكره الأخ كامل، فإن شهرة سيدى أحمد الطيب بن البشير التي طبقت الآفاق، أخفت كل أحد ورد في مثل هذه المناسبه وكان اسمه كاسمه ﷺ؛ حتى لكأن هذا الإسم «أحمد الطيب» لم يَتسمّ به أحد قبله أو بعده، وكأنه وقف عليه وحده دون غيره من ألوف الناس الذين حملوا وما زالوا يحملون، وسيظلون يحملون هذا الإسم المبارك الحبيب.

ولكن ما كل ما يتبادر إلى الذهن صحيح، فهل ما ذهب إليه الأخ كامل صحيح؟ هل كان أحمد الطيب السنارى المشار إليه في القصة المذكورة هو سيدى أحمد الطيب بن البشير ﷺ؟ لترجع إلى نص القصة في المناقب المذكورة في (صفحة ٤٩) فما بعدها.

«ولما حج الشيخ أحمد الطيب السنارى تلميذ الشيخ الأمير، وكان معه شرح الشيخ محمد مرتضى على القاموس أيضًا قد جمع له مسائل لغوية وأغلوطات خفية، فأوضح سيدى أحمد (يعنى سيدى أحمد بن إدريس ﷺ) مشكلها، وحل له مقفلها، وسأله عن مسألة واحدة، وقال له: أمهلناك إلى ثلاثة أيام، فلما مضت الأيام، حضر بين يدى الأستاذ وعجز عن رد الجواب، فقال له سيدى أحمد: هذه المسألة في كتابك شرح الشيخ مرتضى على القاموس في ورقة كذا في سطر كذا، وأفاده عن سطرها التي هي فيه، فلما فتح كتابه وجدها كما قال، فزال عن عين قلبه جميع الرين والإشكال، وصحح عليه علومه».

هذه هي القصة بنصها وفصها كما جاءت في المناقب المذكورة، وهي -كما ذكرنا آنفا- صحيحة عندنا كل الصحة، ولا ينبغى أن يتطرق إليها أدنى شك... ولم يبق إلا تعليق الأخ كامل عليه الرحمة عليها، وتعيينه لأحمد الطيب السنارى هذا بأنه سيدى أحمد الطيب بن البشير، الغنى عن التعريف ﷺ، وعنابه:

أولا: لم يُعرف عن سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ بأنه لقب بالصنارى في جميع ما كتب عنه؛ وما دار على الألسنة حوله من الروايات. وعلى فرض إمكان تلقيبه أو الإشارة إليه بكلمة «سنارى» فإنه ليس السنارى الوحيد الذي يحمل هذا الإسم «أحمد الطيب». فصرف هذا الاسم إليه وحده من أجل هذه الكلمة وحدها ترجيح من غير مُرجح على أقل تقدير....

ثانيًا: وكانت لسيدى أحمد الطيب ﷺ بالشيخ محمد الأمير عليه الرحمة صلة، ولكن اعتبار هذه الصلة صلة تتلمذ أمر يتنافى والواقع والمنطق والتاريخ.

وتنحصر هذه الصلة في أن سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ حينما ذهب إلى مصر زار

الجامع الأزهر الشريف. وكان من علماء الأزهر «العلامة الأمير» رحمه الله، ووقف ﷺ – حال زيارته للأزهر– عند كل حلقة من حلقات الدروس واستمع وهو واقف إلى كل عالم يلقى درسه ولكنه ﷺ وهو يطوف بهذه الحلقات، حلقة بعد أخرى وعلى هؤلاء العلماء يدرسون في هذه الحلقات عالما بعد عالم، انتهى به الأمر إلى حلقة العلامة بشير الشيخ محمد الأمير عليه الرحمة، فلم يشأ أن يستمع إليه وهو واقف، كحاله في الحلقات السابقة، وإنما لمعرفته القدر للشيخ الأمير ولمعرفته لصلة الشيخ الأمير بالله، جلس في حلقته ولم يقف، تقديرًا لحال الشيخ الأمير مع الله، وتعظيمًا لصلته بالله...

قال سيدى الشيخ عبد المحمود ﷺ في كتابه هذا «أزاهير الرياض»: فلما فرغ من الدرس، وقف العلامة الأمير على قدميه معانقًا للشيخ رضى الله، وأكرمه إكرامًا ما رؤى منه لغيره، فيمن ورد عليه من العلماء والصالحين، وقال لمن سأله عن حقيقة الشيخ من العلماء حينما رأى منه ذلك الإكرام وعزيز الاحترام: «ما بين مقامكم ومقامه كما بين السماء والأرض»... ثم استطرد سيدى الشيخ عبد المحمود وقال: «قال الشيخ محفوظ المغربى، وكان من أجل تلاميذة الشيخ الأمير: فما رأينا مع صحتنا له أنه سلك مع أحد أدبًا كما سلكه مع الأستاذ سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير ﷺ، ثم إن الشيخ بعد أن ودع العلامة الأمير رحمه الله تعالى، رجع إلى موضع إقامته بمصر....» راجع الفصل الثانى من الباب الثالث بعنوان (في سفره إلى مصر المحروسة) من هذا الكتاب «أزاهير الرياض».

يتضح من ذلك أن صلة سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ بالعلامة الشيخ محمد الأمير عليه الرحمة– إذا استثنينا التقدير المتبادل بينهما– لا تعدو أن تكون كصلته بأي عالم من العلماء في الأزهر، بل لا تعدو أن تكون كصلة أي أحد من الناس زار الأزهر في يوم من الأيام، ووقف عند كل حلقة، ثم انصرف «إلى موضع إقامته بمصر».

والعقل ينفى أن تكون مثل هذه الصلة صلة تتلمذ، كما ينفى أن يكون أي «سنارى» اسمه «أحمد الطيب» لا بد أن يكون سيدى أحمد الطيب بن البشير ليس إلا!

ثالثًا: إذا كانت القصة تنص نصًا قاطعًا– صحيحًا من غير شك– على أن أحمد الطيب السنارى هذا التقى بسيدى أحمد بن إدريس ﷺ في الحج وتنص على أن هذه الواقعة إنما حدثت، لما حج أحمد الطيب السنارى، فإن التاريخ– إذا تركنا العقل والمنطق جانبًا– يؤكد أن «السنارى»، هذا –رحمه الله– ليس سيدى أحمد الطيب بن البشير ﷺ، كما قد يتبادر إلى الأذهان، وكما علق على ذلك كامل الأحمدى، أسكنه الله فسيح جناته.

لقد حج سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ حجتين، ولم يلتق في واحدة من حجتيه هاتين بسيدى السيد أحمد بن إدريس ﷺ... حج أول مرة سنة ١١٧١هـ؛ ولم يؤثر عن سيدى أحمد بن إدريس أنه قد حج في هذا العام، فقد كان سنه ﷺ إذ ذاك دون العاشرة.

ثم حج سيدى الشيخ أحمد الطيب ﷺ حجته الأخيرة «بعد سنتين قليلة» من حجته الأولى، كما جاء في المناقب الصغرى (ص١٤) طبعة سنة ١٩٧١م تأليف حفيده ووارث مقامه،درة الزمان وشمس العرفان، سيدى الشيخ عبد المحمود ﷺ، وعنا به... إلا أنه ﷺ لم يحدد هذه السنين «القليلة»، كما أنه لم يحدد- في أزاهير الرياض- العام الذي حج فيه سيدى أحمد الطيب ﷺ حجته هذه... وإن كان تحديده «بسنين قليلة» بعد حجته الأولى يكفى كل الكفاية فيما نحن بصدده.

ما هي حدود «السنين القليلة» فيما اصطلح عليه الناس من الكلام؟ خمس سنوات؟ يجوز، عشر سنوات؟ أشك، لكن فليكن! عشرون سنة...؟ أظن أن عشرين سنة تعتبر كثيرة، ومع ذلك فلنقل- جدلا- إن السنين القليلة التي أشار إليها سيدى الشيخ عبد المحمود رضى الله عنه هي ثلاثون.. نعم ثلاثون! فتكون حجة سيدى الشيخ أحمد الطيب الثانية تمت سنة ١٢٠١هـ. وسيدى أحمد بن إدريس ﷺ إنما حج عام ١٢١٤هـ، كما جاء في مناقبه المباركة، بقلم تلميذه المرشد الكامل، سيدى الشيخ إبراهيم الرشيد ﷺ أي بعد ثلاثة عشرة سنة من حجة سيدى أحمد الطيب الأخيرة، على التسليم جدلا بأن السنين القليلة إنما هي ثلاثون! ومعنى ذلك أننا لو جاوزنا حدود ما اصطلح عليه الناس في التفاهم، واتممنا الثلاثين بعشر أخرى فصارت «السنين القليلة» أربعين سنة، لما جاز، ولا صحّ، ولا استسيغ أن يكون هذا «السنارى» الذي التقى بسيدى أحمد بن إدريس في حجه عام ١٢١٤هـ، هو سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير.. فكيف إذا رجعنا إلى العقل والمنطق والتاريخ... ولا يحتاج القارىء بعد هذه إلى مزيد...

وبعد، فالحمد لله الذي أتاح لنا هذه الفرصة المباركة الثمينة، في تدارس بعض من سير سادات أهل الله الكرام، وأحبابه المقربين المكرمين العظام، الذين بذكرهم تتنزل الرحمات، وتتوارد النفحات، وتتوافد الهبات، وتعطر المجالس والقلوب والأرواح، ﷺ وعنا بهم أجمعين.

المتطفل على موائد الكرام

خويدم أعتاب السادة السمانية

محمد على يوسف

فهرس

تم بحمد الله